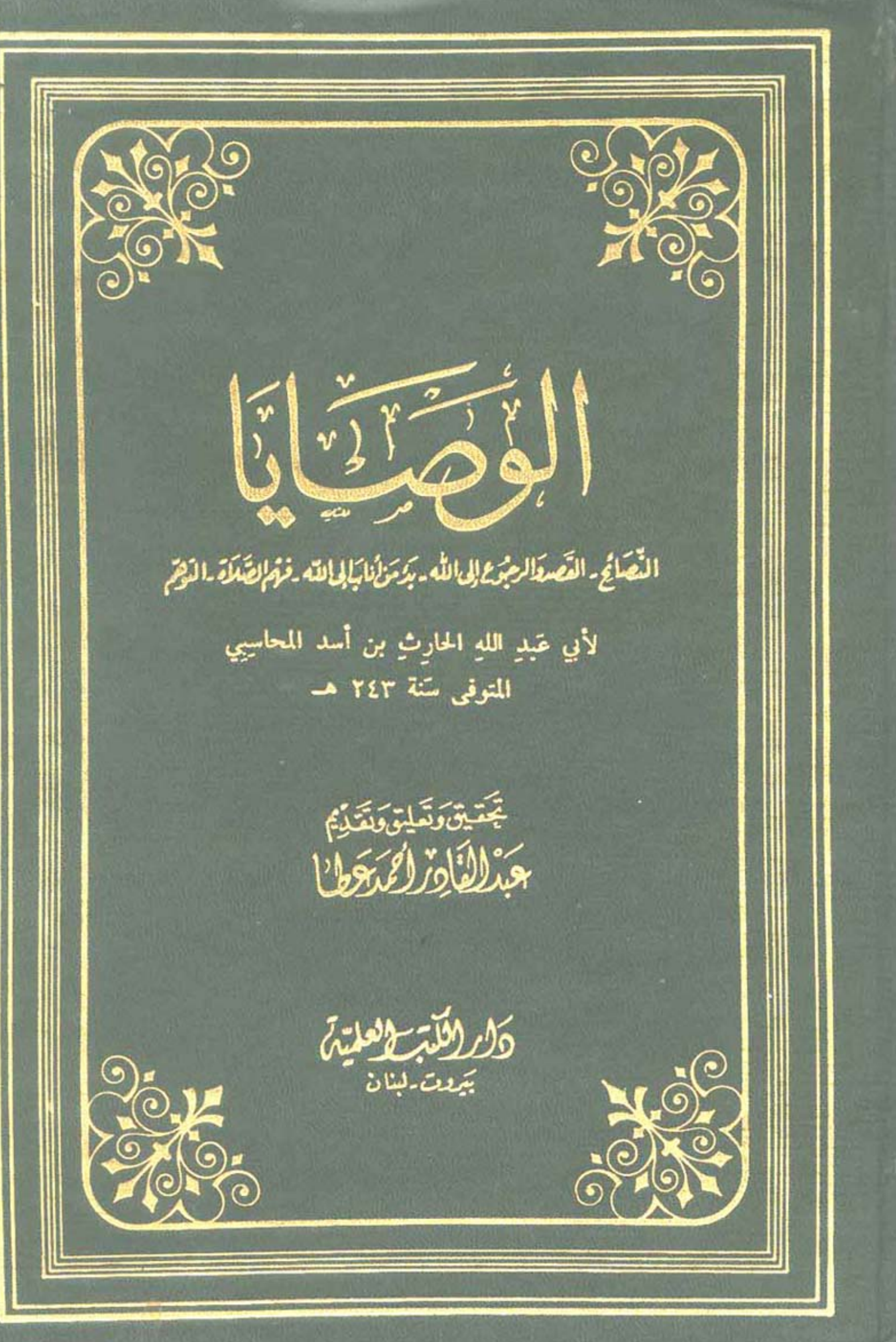
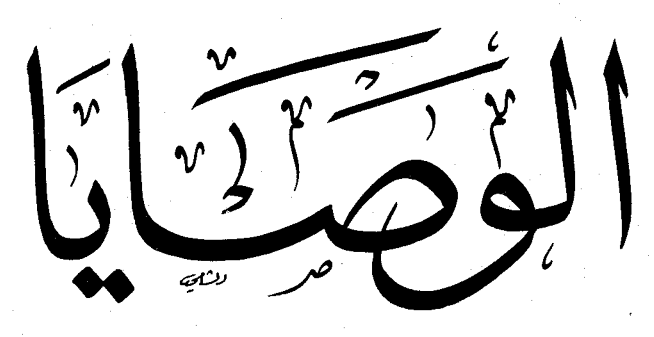


الوصايا
النصائح - القصد والرجوع إلى الله - بدء من أناب إلى الله - فهم الصلاة - التوهم
لأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي
المتوفى سنة ٢٤٣ هـ
تحقيق وتعليق وتقديم
عبد القادر أحمد عطا
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

المحاسبي
الوصايا
دار
الكتب
العلمية

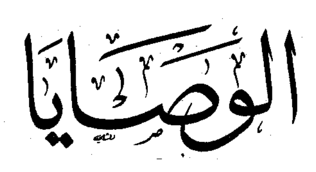


النصائح - القصد والرجوع إلى الله - بدء من أناب إلى الله - فهم الصلاة - التوهم

لأبي عبدِ اللهِ الحارثِ بن أسد المحاسِبِي
المتوفى سنة ٢٤٣ هـ

تحقيق وتعليق وتقديم
عبد القادر أحمد عطا

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان


الوصايا

الطبعة الاولى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

بيروت - لبنان

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

هاتف: ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢

ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Le 41245 Nasher

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . . . . وبعد :

لما كان عصرنا هذا يموج بالانغماس في مباهج الدنيا ولذاتها وشهواتها ، كنا نحتاج إلى من يكشف لنا أصل الداء وجذوره حتى يصل إلى معرفة الدواء لعلاج هذه المشكلات التي استشرت في عصرنا هذا .

فإن المال والشهوات ، والعز الدنيوي قد أزاح من القلب صفة المراقبة ، وغطى عين البصيرة، وأقام فيه واستمكن منه ، وإن الجوارح قد كسلت تبعاً لذلك إلا فيما يريد الإنسان من شهواته وآماله ، على العكس من الإنسان في العهد النبوي ، وعهد الخلفاء الراشدين .

من أجل هذا كان المحاسبي خبيراً في كشف بؤرة المرض النفسي وما يحتويه من خداع وبهرجة للقول أو للفعل ، فاتجه في بحوثه النفسية إلى طرق ثلاثة : الطريق الأول : الموازنة بين أهل عصره وبين الصحابة من الوجهة النفسية ، ثم كشف خداع النفس في دعوى التشبه بالصحابة ، الطريق الثاني : الكشف عن ظواهر التحول النفسي بين جمهور الشعب . الطريق الثالث : مزج الدراسات النفسية بالفقه الإسلامي ، وذلك في اتجاهين : إعادة كتابة الفقه الإسلامي الذي كتبه السابقون عليه على طريقته التي تجمع بين الأحكام ومدى تفاعلها مع النفس

والقلب . وتـدوين فقـه مـا أهمله الفقـه من أعمـال الجـوارح ، أو من أعمـال القلوب .

وبطبيعة الحال كان عمـل المحاسبي عـلى أساس هـذا المنهج بـداية ولم يكن نهاية ، أي أنه لم يستوعب الفقه الإسلامي كله بطريقتـه المبتكرة ، بـل أنه وضـع الأساس .

ولقد كانت طريقة المحـاسبي هذه هي تـدوين الفقه الإسـلامي هي الضوء الـذي أنار الـطريق أمام حجـة الإسلام أبي حـامد الغـزالي في كتابـه إحيـاء علوم الدين ، وأمام الكثيرين من العلماء الذين عنوا بالدراسات النفسية الإسلامية .

ولقد عني المرحوم عبد القادر أحمد عطا بتراث المحاسبي منذ نعومة أظافره ، وذلك يظهر لنا من كتبه التي بين أيدينا . فنجده دائماً مستـرشداً بـآراءه ، وناصـراً لمنهجه القائم على وجوب التطهير قبل العمل . حتى أننا نجده يقول عن المحاسبي في أحد كتبه : « هذا هو الإمام المحاسبي ، الإمـام الفذ ، والمثـل الأعلى للعمـل الإسلامي الخالص لله وحـده ، والباحث عن كـل ما فيـه صلاح لأمـة الإسلام ، والكـاشف للناس عـما يخفى عليهم من الموبقـات المهلكات ، والخبـير الأول بـين علماء الإسلام في علل النفوس وأدوائهـا ، والسابق الأول في العـالم كله بالتحليـل النفسي الدقيق ، والفهم الواعي لطبيعة الإنسان » .

ولقد أعان الله المرحوم عبد القادر عـطا على إخـراج معظم كتب المحـاسبي إلى النور ، فهو لم يكن يتعلق بالهزيل من الكتب ، ويظهر هذا لنا مما خلفه لنا من كتب محققة ومؤلفة .

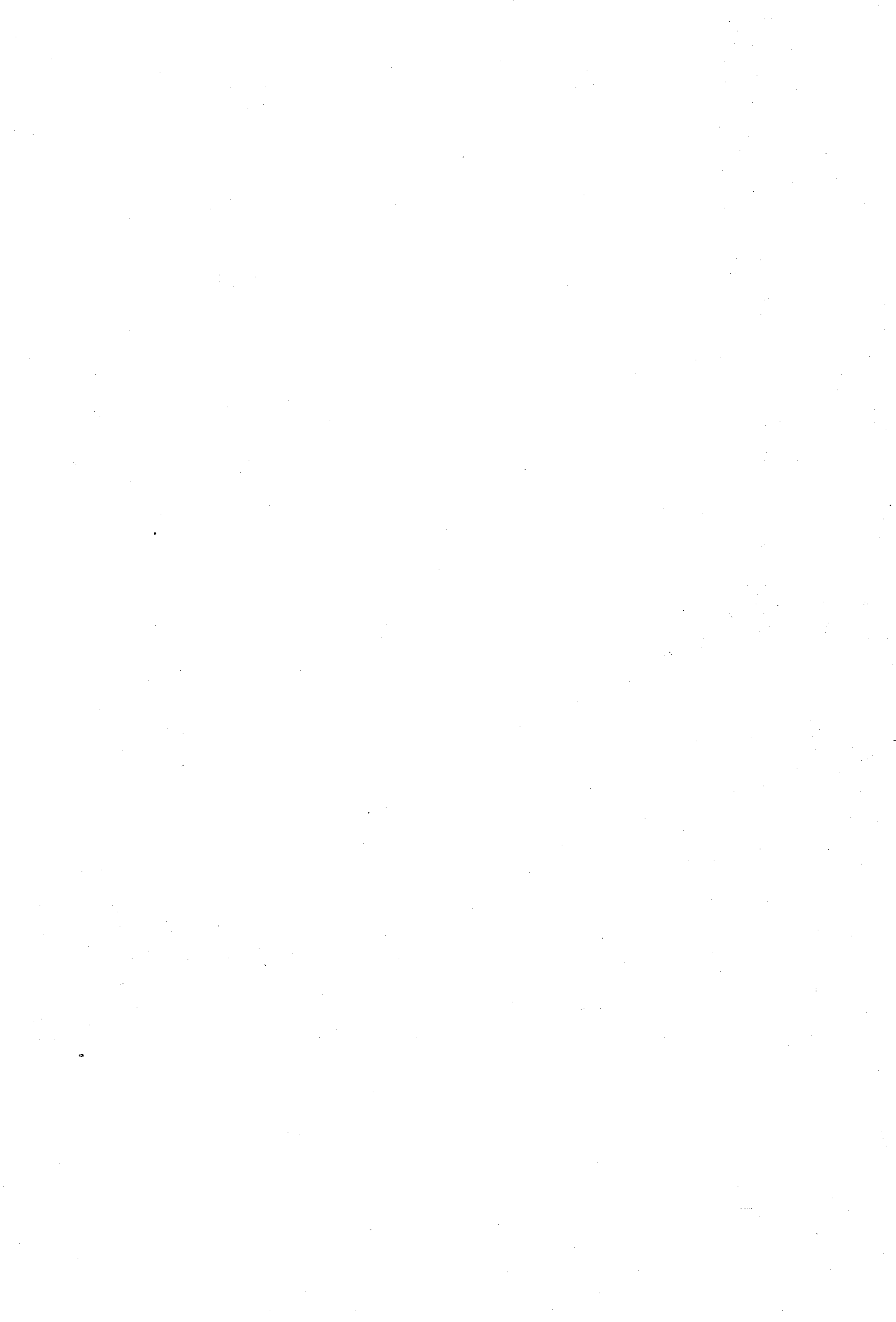
وقد إختار المرحوم عبـد القادر عـطا بما له من خبرة واسعـة في عالم التـراث وثقافة الإسلام أن يجمع كتب المحاسبي التي تشكـل في مضمونها وصـايا لـلأمة الإسلامية ، ولكن القدر لم يمهله لرؤية هذا العمل الجليل وهـو يظهـر إلى النور ، وقد إختار له اسم الوصايا .

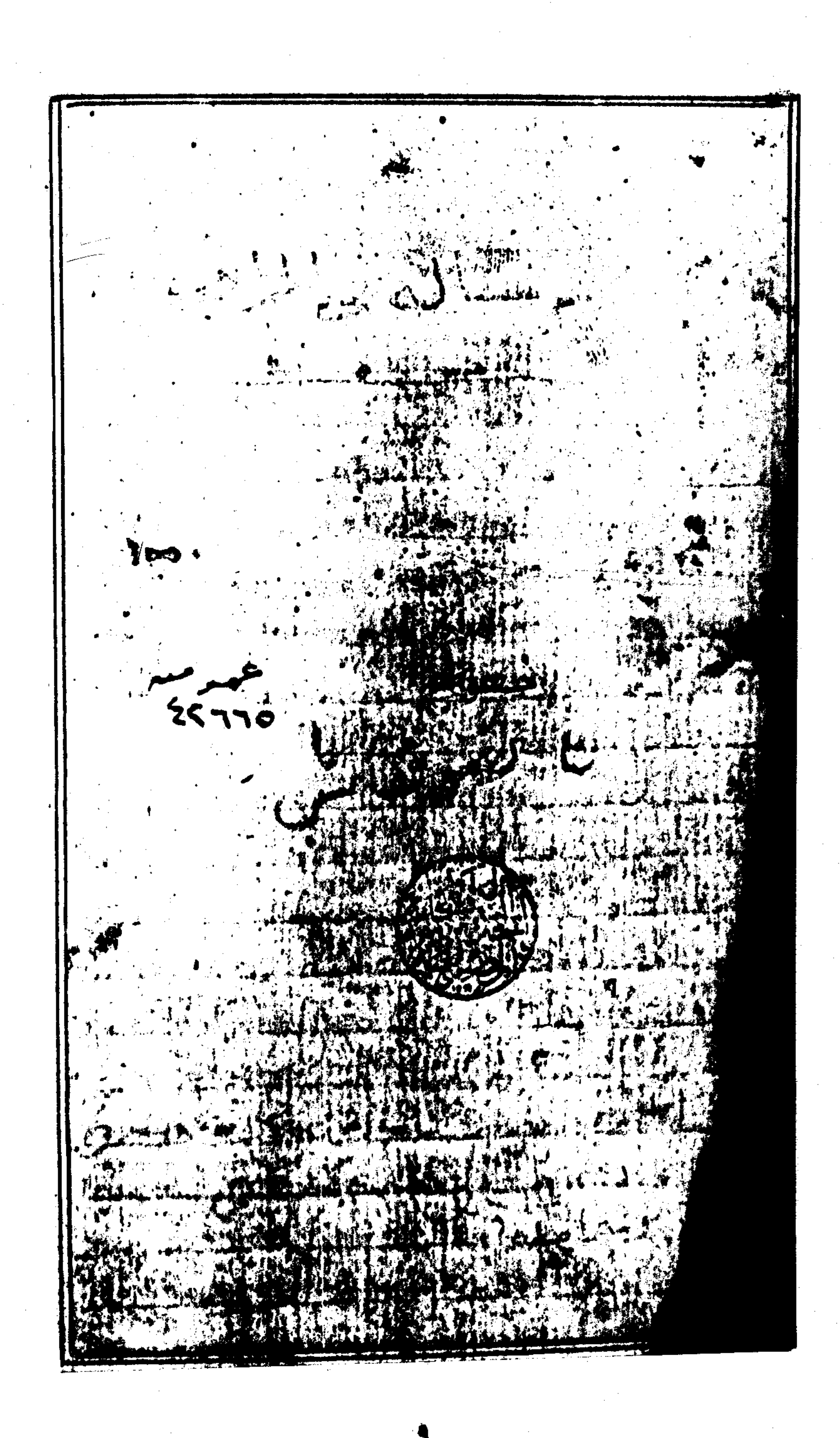
وقد استعانت دار الكتب العلمية الله على إصدار جميع مؤلفات المرحوم عبد

القادر عطا ، وذلك إلى جانب الكتب التي قام بتحقيقها إيماناً منها بمنهجه الخالص لله وحده .

رحم الله الأستاذ عبد القادر وأستاذه المحاسبي ، وأسكنهما فسيح جناتـه . وآخر دعوانا أن الحمد لله .

الناشر





بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد

قال الشيخ الفقيه الإمام العلامة الولي الصالح العارف بالله تعالى أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به آمين



اعلم رحمك الله وإيانا أن العبادة لا يصلح لها إلا أحد من الله تعالى إلا بالمراقبة له والمراقبة هي بدء المعرفة بالله تعالى وهي فرض من الله تعالى على العباد وبها يحظى العبد عند الله تعالى وهي أصل الطاعة كلها وفرعها وأولها وآخرها والمؤمنون مأمورون بها كلهم ذكورهم وإناثهم لا يخلو أحد منهم ولو أن عبدا عبد الله ألف سنة ثم لم يعمل بها لم يزدد من الله تعالى بعمله إلا بعدا ولم يزدد قلبه إلا قساوة ولا دينه إلا انتقاصا **قال المحاسبي** رحمه الله تعالى لا يبلغ العبد درجة الطاهرين المخلصين الصديقين حتى يسلك طريق الأبرار ولا يكون مخلطا ولا خائفا حتى يعلم المراقبة من الله تعالى واسمع رحمك الله فإني نصحتك غاية النصيحة واستعن بالله عز وجل

الحصر في الحالتين كلتيهما وتعلم أن المراقبة تنقسم على أربعة
أقسام معرفة الله تبارك وتعالى والثاني في معرفة إبليس
لعنه الله والثالث في معرفة نفسك والرابع في معرفة العمل لله
عز وجل فهذه أقسام المراقبة فلو أن عمرا عاش دهره كله
مجتهدا في العبادة ولم يعرفها لما صار إلى الله عز وجل على الجهل
فلا ينفع بشيء من ذلك لأن بعض الجليل جل جلاله

باب معرفة الله تعالى

وهي أن تعلم أولا من المراقبة فأما معرفة الله تعالى فهي أن
تعرف بعقلك أنك بين يديه وتعلم بيقين أن الله تعالى أقرب
إليك من حبل الوريد كما ذكر الله سبحانه في كتابه
العزيز تعالى في قوله عز وجل ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما
توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد وتعلم
أنه مطلع عليك وقدرته محيطة بك وعلمه بك وأنه رقيب
عليك وأنه واحد لا شريك له في ملكه وأنه صادق
في وعده ليس له شبيه ولا مثيل وأنه كل يوم هو في شأن فيلزم
قلبك كل عضو منك وكل جارحة وكل عصب وكل عرق
وعصب وشعر ويكون عندك اليقين أن الله تعالى قائم على
ملكه وعالم به محيط بجميعه وخلقنا فأحسن خلقنا
وصورنا فأحسن صورنا فإذا أيقنا ذلك في قلبنا وصح
به عزمنا فقد وصلت إلينا المعرفة وقامت علينا الحجة
وكنا من الله في مقام ثم يبقى بعد ذلك الخوف في ذلك كله

يا أيها النبيء حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين قالوا يا
رسول الله بلغنا أن عيسى كان يمشي على الماء قال لو ازداد يقينا
لمشى على الهواء ولا يكون الخوف إلا بعد اليقين وهل رأيت
هاربا مما لم يستيقنه والخوف في ثلاثة أشياء خوف زوال الإيمان
وعلامته مفارقة المعاصي والذنوب وهو خوف المريدين
وخوف السلب وعلامته الخشية والإشفاق والورع وهو
خوف العلماء بالله تعالى وخوف الفوت وعلامته بذل المجهود
في طلب مرضات الله بوجود المحبة ولقاء الله عز وجل وهو
خوف الصديقين ومقام رابع في الخوف فرضه الله على
الملائكة والأنبياء عليهم السلام وهو خوف الإعظام لأنهم
آمنون في أنفسهم بأمان الله لهم فخوفهم تعبدهم لله إجلالا
وإعظاما والمحبة في ثلاثة أشياء أدنى المحبة محبة الله لأنها
محبة المؤمنين في الله عز وجل وعلامة ذلك كف الأذى عنهم
ووصول المنفعة إليهم ومحبة الرسول عليه السلام لله عز وجل
وعلامة ذلك اتباع سنته قال الله تعالى قل إن كنتم تحبون الله
فاتبعوني يحببكم الله ومحبته في إيثار الطاعة عن المعصية
ويقال ذكر الله نور المحبة وقال رجل لطاوس أوصني فقال له
أحب الله حبا حتى لا يكون شيء أحب إليك منه وخف
الله خوفا حتى لا يكون شيء أخوف إليك منه وارج الله رجاء
يحول بينك وبين ذلك الخوف وارض للناس ما ترضاه لنفسك
ثم قم فقد جمعت لك التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وقال الحكماء
بمنزلة الرأس من الجسد النية عند [illegible] عن صاحبها إذا استعمل

العبد من بدء خلقه وأطول العمل المراقبة لله تعالى والمراقبة لله تعالى
في ثلاثة أشياء مراقبة الله تعالى في طاعته بالعمل ومراقبة الله
في معصيته بالترك ومراقبة الله تعالى في الهم والخواطر لقول رسول
الله صلى الله عليه وسلم اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه
فإنه يراك ومراقبة القلب لله تعالى أشد تعبا على البدن من
مكابدة قيام الليل وصيام النهار وإنفاق المال في سبيل الله وذكر
علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال إن لله تعالى في أرضه آنية
وآنيته فيها القلوب فلا يقبل منها إلا ما صفا ورق وصلب
ومعنى صفاء القلب أن يكون القلب صافيا لله تعالى باتباع أمره
واجتناب نهيه ويكون صافيا للرسول عليه السلام بقبول ما
أتى به قولا وعملا ونية ويكون صافيا للمؤمنين بكف الأذى عنهم
وبتوصيل المنافع إليهم وأما قوله وصلب فمعناه أن يكون القلب
قويا في إقامة الحدود لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
وقوله ورق أي رق على وجهين فتكون الرقة بالبكاء وتكون
بالرأفة والرحمة وإن لم يكن بكاء وهذا من أقوال أهل المشاهدة
وبالله التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
تم كتاب المسترشد يتلوه كتاب النصائح تأليف الحارث بن أسد
المحاسبي رحمه الله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله
على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما
قال أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله
الحمد لله قبل كل شيء والخالق لكل شيء والحمد لله الآخر بعد كل شيء
والوارث له والحمد لله اللطيف الخبير بكل شيء والوكيل عليه

في الصدر وغلبة الهم ونزل البلاء بساحة المدينة وكانت جنود هذا
عشرة وهم اللهو واللعب والزور والكذب والغش والخديعة
والتعريج في الشهوة والغل والنميمة وحب الدنيا ونزل ابليس الملعون
من وراء المدينة وكانت جنوده عشرة وهم الرياء والعناد والتعدي
والتعمد والإصرار وحب الناس وبغض الخمول وحب الرياسة وحب المال
ومعصيته في الجلال فلما انظر الملك الى هذه العساكر كاد قلبه
ان ينفطر بها كدما انصرف وتلوع وتحير ثم انشد

من بلغ الهم لمستهله ... وحل في بلية ما ترى له
من ييسر في سير سواه ... يبكي اشتكوا لمن سواه

فلما رأى انه احاطت به اسباب الهلاك رجع الى الكريم المولى بالتضرع
والشكوى وانشد وانه بلية بان دع مومن بيتي ما لي سلطان العظيم بلا في

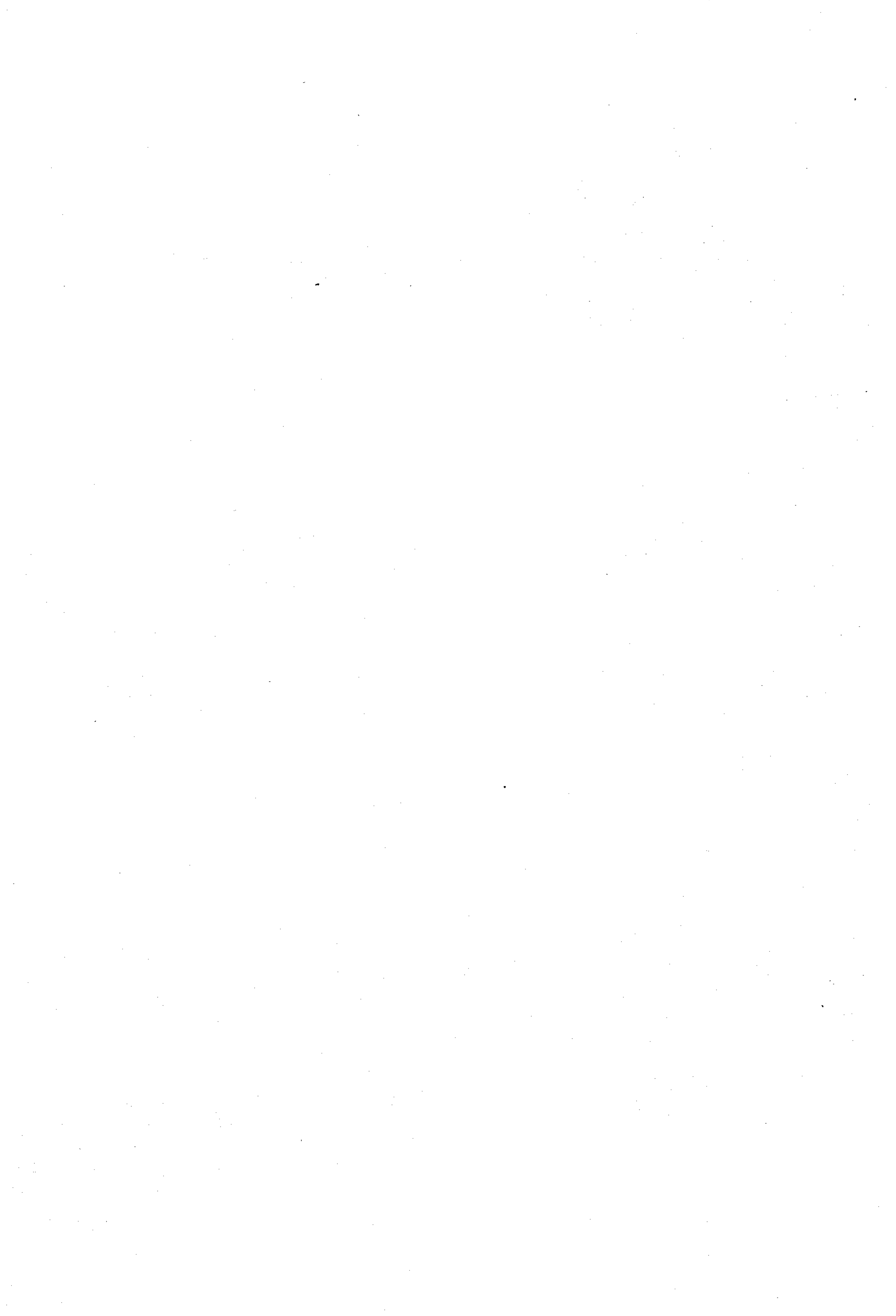
ابليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاص وكلهم اعدائي
ابليس يسلك بي طريق مهالكي ... والنفس تامرني بكل بلاء
وزخارف الدنيا تقول اما ترى ... فخري وحسن ملابسي وبهائي
وجنود حاصروا لمومن بيتي ... فلا عزية في شرف ورخاء

قال فبعث الله تعالى اركانه وشرائعه وجنده فالتفت الى وزيره
وهو العقل فقال له قد سلمت بيت مومن بيتي اليك واعتمدت بعدها عليك
فقال له الوزير انا اريد ان يكون في اعوان على العدو والشيطان فبعث
اليه من جنوده عشرة وهم من طاعته وهم الاخلاص والخضوع
والخشوع والعفو والزهد والهداية والورع والحياء والتسليم
والرضى ثم التفت الى حاجبه وهو العلم فقال له كن انت في مقابلة النفس
وضم اليه من جنوده عشرة وهم من طاعته وهم الصبر والحلم و...

العفو عن كل أحد والقناعة والشكر والتعفف والصبر في أحزان
الدنيا والطاعة لله ثم التفت إلى مشيه وهو التوحيد فقال له كن
أنت في مقابلة الدنيا وضم إليه من جنوده عشرة وأمرهم بطاعته
وهم طلب الحلال والاقتصاد والتستر والإيثار واتهام النفس وأدب خلال
والصيام والقيام ومداومة الذكر وتحمل الأضرار فقال أعطى الملك
الجبار ثم التفت إلى حزبه وهو التكبر فقال له كن أنت في مقابلة
التعبد للبشر وضم إليه من جنوده عشرة وأمرهم بطاعته وهم النوكل
والوقاحة والبذاءة واستحسان الغلظة على الجار والتكثر والإيثار والتعمق
والتعمق ورفض منزل الدار فإن صحبة الجهل تدني من ينتسب
واستعن بحول الله وقوته فلما استشعر العدو من أهله وتلاه وتماديه في
حربه انصبوا على مدن المدينة منجنيقات إليهما من زرعات الصغائر
وقابلها المرابط منجنيقات التوحيد من زرعات التمجيد ثم أنشأ يقول شعر
يا عزمة في شريعة على الزمان . إن لم ندكن في عز أنا بيني
رجع القوم للقتال وبهن تلك الأبطال . حتى إذا رأيتها دبابهم
دعاة العقل إلى الجنان . فخشي الجهل أن يثبت العزة العظمة فأمر
ابن أبيها مساعير الحكمة وأمد عليهما جنود التوبة وأعوان الرحمة
بل نزلوا على أسوارها مجرمين . فهلل لله تعلم ... شعر
تتجافى جنوبهم عن لذيذ المضاجع منزلهم ... مستنجم ركامع
والحمد لله رب العالمين تم كتاب النصائح
للمحاسبي رحمه الله تعالى وصلى الله على سيدنا محمد وآله
وصحبه وسلم تسليما على يد كاتبه عبد ربه أحمد بن محمد بن موسى
... غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين ... عام ١١٧٣

لعله دليله

منجنيقات



مقدمة المحقق :

بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام المحاسبي ومدرسته

نشأته وعصره :

أما العصر الذي عاش فيه المحاسبي فهو إبان الدولة العباسية العربية اسماً ، والفارسية أو التركية فعلاً ، وأما المكان فهو ما بين البصرة وبغداد ، وأما خليفة المسلمين فكان الأمين ثم المأمون ، ثم المتوكل فالواثق . وأما مولده فكان بالبصرة في النصف الثامن من القرن الأول الهجري .

وكانت البصرة والكوفة ـ كما هو معلوم ـ مركزين متنافسين في العلم وشتى مجالات الفكر الأخرى ، ولكل منهما مذهب تدافع عنه ، وتشتهر به ، حتى في مسائل الزهد والورع كما أثبته المحاسبي في كتابه « المكاسب » .

وكانت حضارة الإسلام في خلافة بني العباس قد تطورت إلى « مدنية » تعنى بالمظاهر الشكلية للتقدم وأسلوب الحياة المترف ، ويسير فيها الانحلال الأخلاقي جنباً إلى جنب مع النهضة الثقافية ، وحركة الترجمة ، ومدارس العلم ، وجهود المؤلفين الجبارة ، وإن كان الالتزام العملي بالعلم قد أصبح قاصراً على فئة قليلة من العلماء والتلاميذ ، حيث اجترفت المدنية الساحرة جمهور الباقين منهم ، ممن أطلق عليهم المحاسبي اسم « علماء السوء » .

لقد بلغ الانحلال الخلقي ، والاستهانة بالكرامة الإنسانية مداه المتسفل في هذا العصر ، حتى لقد اتخذت أم جعفر البرمكي للأمين بن الرشيد الجواري الحسان ، وألبستهن ملابس الغلمان ، وبعثت بهن إليه ، فأبرزهن للناس من

الخاصة والعامة ، وأطلق عليهن اسم « الغلاميات » كما يقول المسعودي في كتابه « مروج الذهب » .

ويقول الشابشتي في كتابه « الديارات » : إن « عريبا » المغنية كانت وصيفة للأمين ، وكانت تلبس ملابس الغلمان ، وتقف على رأسه ، وتسقيه الخمر .

وكان الفسق يتطور تطوراً خطيراً حتى انتهى الأمر بالمحتسب في اللاذقية ، وهو والي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن يجمع القحاب والغرباء من الفساق في حلقة كما يقول القفطي في أخبار الحكماء ، وينادي على كل واحدة منهن ، ويتزايد الفسقة فيهن لليلة الواحدة ثم يؤخذن إلى الفنادق التي يسكنها الغرباء ، بعد أن تأخذ كل منهن خاتماً يسمى « خاتم المطران » ليكون حجة بيدها من تعقب الوالي لها ، وإذا وجد خاطىء مع خاطئة دون « خاتم المطران » عوقب .

ويذكر الجاحظ في كتاب « المعلمين » أن الأمويين كانوا يسمحون بخروج النساء مع الجند ، ولكن الخراسانيين وعلى رأسهم أبو مسلم منع هذه العادة ، وخرج الأجناد مع الغلمان ، فتولدت عادة اللواط بين العرب لا سيما في الجيوش .

ولقد بلغت الأحوال السياسية مبلغاً مؤسفاً في ذلك العهد ، إذ أن الخليفة العربي ـ على الرغم من مظاهر الأبهة والجلال المحيطة به ـ كان في حقيقة أمره أداة في يد الفرس الذين جاءوا بالعباسيين بعد انقلاب قام به أبو مسلم الخراساني . وعلى الرغم من المذبحة التي وجهها الرشيد نحو أعيان الفرس المتسلطين فقد بقي نفوذهم قوياً ، وإن كان قد اتخذ طريقاً آخر ضد عقيدة الإسلام ذاتها ، حيث تسلطت فلسفاتهم الإلحادية ، وأرغموا المأمون على استفتاء العلماء على القول بخلق القرآن ، ولكنه كان استفتاء قهرياً يراد به تقرير القول بخلق القرآن ومن ثم ينطلق المخطط نحو هدم قدسية القرآن ، وإخضاعه للمشيئة الإنسانية شأنه شأن كل شيء خلق من أجل الإنسان .

لقد اشتدت هجمة الفرس على عقيدة الإسلام بقيادة قاضي القضاة أحمد

ابن أبي دؤاد ، وأرغموا الخليفة المتوكل بعد المأمون على ضرب المعارضين من العلماء للقول بخلق القرآن ، وكان ضرب الإمام أحمد بن حنبل في الحقيقة انتصاراً معجزاً للإسلام الشامخ العتيد من جهتين :

أولهما : أن السلاح الفكري الذي احتج به الفرس لخلق القرآن كان واهياً لا يثبت أمام النقاش والفحص ، ولذلك كان الضرب في مجال الفكر دون الحجة والبرهان إفلاساً واضحاً وهزيمة فكرية ظاهرة .

ثانيهما : أن صمود الإمام أحمد أمام المحنة لم يكن صمود أحمد بن حنبل ، بل كان صمود الإسلام الذي تغلغل في كيان أحمد بن حنبل فتكلم بلسانه ، أو منحه من القوة ما يصمد به أمام الجلد والتعذيب فكان صمود الإسلام باسم أحمد بن حنبل وهزيمته لجبابرة السلطان موازياً في المسيرة لصمود الإسلام وهزيمته لمعاول الهدم الساحرة التي تعمل في ضراوة لإسقاط أصلب عقيدة عرفها التاريخ الديني والسياسي جميعاً ، ولكن الهزيمة الثانية كانت لقوى الإلحاد في العالم كله وعلى المستوى الشعبي لدولة بني العباس بصفة خاصة ، بقيادة كبار العلماء وأطهرهم سجية وسريرة .

وكان الهجوم على المستوى الشعبي ممثلاً كما يروي حنبل بن إسحاق في كتابه المخطوط « محنة أبي عبد الله بن حنبل » في أن أحمد بن أبي دؤاد بعد هزيمته أمام العلماء لجأ إلى وسيلة شيطانية يؤسس بها عقيدة خلق القرآن من جيل آخر من المسلمين ، فأصدر منشوراً يلزم معلمي القرآن في « الكتاتيب » أن يقرروا على الصبيان حفظ عقيدة القول بخلق القرآن إلى جانب حفظ آيات القرآن .

ولكن صف أهل السنة كان قوياً لا تقوى عليه هذه الأوهام الوافدة على صورة ثقافات ومذاهب ومترجمات وبدع وأهواء تلقن مشافهة ، أو تملى على طامع من القراصنة المحترفين .

وزاد من قوة أهل السنّة انحياز المدرسة الجديدة التي تمزج بين نص السنة وروحه في أعمق مراتبها وهم العلماء الزهاد الأوائل الأبرياء من كل دخيل من النظريات أو الأقوال الموهمة المتشابهة . وكان رأس هذه المدرسة الحقيقي هو

الحارث بن أسد المحاسبي الذي سبق الغزالي بمزج الفقه الإسلامي مع عنصره الروحاني والنفسي ، فجاء أستاذاً فريداً في بابه ، سابقاً في منهجه لم نعرف له نظيراً سبق عليه ، ولا لحق به في مضماره كمنهج عميق من التحليل النفسي لأول مرة في التاريخ ، واستخدام هذا التحليل النفسي في خدمة شريعة الإسلام لأول مرة في الفكر الديني على الإطلاق .

نشأ الحارث في بيت علم وثراء . فأبوه كان واسع الثراء ، وكان معنياً بالفكر الديني ، إلّا أنه كان قدري المذهب ، ولم يكن سنياً مستقيم الطريقة . ولكن الحارث على أي حال فتح عينيه على الحياة فرأى أباه من رجال الفكر ، مما كان له بالتأكيد أثره على اتجاه الحارث نحو الفكر هو الآخر ، ولكن لا على وجه التقليد الأعمى ، وإنما كان اتجاهه يكشف عن شخصية مستقلة ، وعقل يأبى إلّا العمل والدوران في أفلاكه حتى يرسم معالم طريقه بنفسه ، ولا يرسمه له الآباء ولا العشائر .

وانتقل الأب بأسرته وفيهم الحارث إلى بغداد ، وبين مدارسها ، ولفظها الجدلي ، ودار حكمتها ، وحركتها الثقافية التي لا تهدأ ، والتي كانت مداً قوياً لفتوة الإسلام في الحقيقة ، وفجأة تبدأ أول البوادر الفريدة في شخصية الحارث المحاسبي الفريد هو الآخر . فلقد اختار الولد طريق السنة معارضاً قوياً لأبيه ، وظهرت تلك المعارضة علانية عند « باب الطاق » في بغداد ، إذ أمسك الحارث بأبيه هناك ، وجمع حوله الناس ، وقال له على مسمع منهم : طلق أمي ، فإنك على دين وهي على دين غيره . وذلك أن الرجل كان قدرياً ، وأن ابنه كان يؤكد كفر القدرية .

لم تمنعه حشمة الأبوة عن إعلان رأيه ، وإنذار أبيه ، ما دام الأمر يتصل بالإسلام الذي بدأ يسري في أوصال الحارث ، ليجعل منه هو الآخر صورة متحركة مجاهدة قويمة قوية الحركة والكلمة ، صادق صدق الإسلام ، ونقية نَقاءه ، ومنصورة بنصر الله القاهر .

ملامح شخصيته :

حينما حدد الحارث الفتى اتجاهه السني الإسلامي ، كان يمكن أن يكون سنياً تقليدياً كغيره من أهل السنة من العلماء : يعني بالرواية والدراية في الحديث ، وينسلك في إطار مذهب من المذاهب الأربعة ، وغاية ما يصل إليه أن تكون له اجتهادات مقيدة بمذهبه ، أي اجتهادات في الترجيح ، وليست مطلقة لا تتقيد بأفكار إمام بعينه . وكان يمكن أن يلجأ إلى حلقات بغداد فيحدد الفرع الذي يتخصص في دراسته بتوسع من بين فروع العلم السني المعروف ، من الحديث أو التفسير أو الأصول أو غيرها ، ثم لا شيء وراء ذلك .

ولكن الفتى الذي لم يقلد أباه ، والفتى الذي أعلن كفر أبيه كما يرى دون أن يتقيد بخلاف العلماء في كفر القدرية فيلتمس لأبيه وجهاً من وجوه الإسلام على أساسه ، هذا الفتى ليس هو الذي يندفع مع صف الطلاب حتى يختار مكانه من الصف دون بحث ولا فحص ولا تدقيق .

لقد خلا المحاسبي إلى نفسه زماناً طويلاً يفكر ، ويقلب أمره على وجوهه ، ويحاول أن يجد مكانه في صف أهل السنة بشروط محدودة وهي :

١ ـ أن يكون متفقاً تمام الاتفاق مع أفاعيل الصحابة ومسالكهم .

٢ ـ أن يكون بعيداً عن الخلاف ، لأن الأمة في حاجة إلى اتفاق ، وليست في حاجة إلى الخلاف .

٣ ـ أن ترتبط تعاليمه ودراساته وسلوكه بعالم الآخرة ، فلا تنفصل البداية عن النهاية .

وبحث طويلاً ، وانتهى به البحث إلى أن حلقات الحديث يسيطر على أهلها الإعجاب وحب الشهرة . وأن علماء الفقه يعيشون بين دوامة الخلاف ، وحب الانتصار للرأي ، وأن علماء الآخرة من أهل السلوك ليسوا كما يريد : من الأخفياء الأتقياء الذين يرجحون الآخرة على الأولى .

هو إذن يريد بيئة علمية ملتزمة بسلوك الصحابة ، بعيداً عن الخلاف ، تؤثر

التواضع والخفاء ، ولا تميل إلى الشهرة ، وتعنى بالجوانب الروحية عنايتها بالجوانب الشرعية . وكان مطلباً عزيز المنال . طال به الزمان في البحث عنه ، حتى أصيب بما يشبه أن يكون أزمة « اكتئاب نفسي » حددها في مقدمة كتابه « الوصايا » حيث ردد قوله : « فعظم همي وغمي لفقد الأدلاء ، وانطويت على نفسي » .

وبعد بحث طويل اهتدى إلى من يريده مرشداً له في طريق الآخرة ممن يؤثر الخفاء ، والدار الآخرة على الدار الأولى . ولكنه لم يحدد لنا باسمه ، كما لم يحدد شيوخه في علوم الشريعة الأخرى ، اللهم إلّا شيوخه في الحديث حيث ذكرهم لنا في إسناد ، لما رواه من الأحاديث .

ويبدو أنه درس كل العلوم التي لا تحتاج إلى السند بنفسه ، دون أن ينتسب إلى شيخ معين ، ولم يلجأ إلى الشيخ إلّا في طريق الآخرة . وهنا تتحدد شخصيته المستقلة في :

١ ـ أنه كما يقول أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود طيب الله ثراه : كان مجتهداً مطلقاً في الشريعة ، لأن الوضوء كما حدد ، في كتابه « فهم الصلاة » لا يتفق مع الوضوء كما حدده مذهب من المذاهب الأربعة ، بل إنه تتبع أسلوب الوضوء عند الرسول ﷺ وعند أصحابه ، وسجل من مجموع ذلك صورة متكاملة لا شأن لها بالصور التي حددها الأئمة الأربعة المجتهدون .

٢ ـ أنه عنى بتدوين (فقه ما لم يدونه الفقهاء) في أبواب من كتبه ، مثل : من أم قوماً فألزم قلبه الحذر في القراءة ، وباب الشهرة ، والاحتساب في سرور المسلم ، ومذاهب السلف عند غلبة الحرام على المطاعم ، ومذاهب الورع . وأغاليط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إلى غير ذلك من الأبواب التي أغفلها الفقهاء ، ولا يدونها إلّا مجتهد مطلق مستقل بعلمه ومذهبه .

٣ ـ أنه نقد بشدة نفس المدرسة التي آثرها وهي المدرسة الروحية في كثير من آرائهم ، ورماهم بالغلظة والجهل بالأخبار فيما يتصل بالمكاسب وبالورع ، وسجل ذلك كله في كتاب المكاسب ، مما يؤكد أنه كان مستقلاً ، لم تفن

شخصيته في شخصية المدرسة التي انتسب إليها كما هو شأن الغالبية العظمى من العلماء .

٤ ـ أنه لا يعتمد على عموميات مشهورة في إصدار أحكامه ، وإنما يعتمد على المشاهدة الشخصية ، ومن أجل هذا عني المحاسبي بدراسة أحوال مجتمعه بنفسه ، كما يبدو ذلك واضحاً من حديثه عن الغزاة والتجار والقراء والصوفية في كتابه هذا الذي نقدمه للقراء ، إذ أنه لم يصدر حكماً إلّا بعد مشاهدة وسماع شخصي ، وهو سبق لم نعهده في الفقهاء ولا في علماء السلوك إلّا نادراً من بعده .

٥ ـ أن ذاته الداخلية كانت من القوة والمتانة بحيث لم يحتج إلى أن يضفي على ظاهره ما يقوي شخصيته ، فلم يحفل بالشهرة لا هو ولا مدرسته بين علماء بغداد ومدارسها ، وذلك على الرغم من أن اجتماع تلاميذه به في حلقة درسه كان على صورة لم تعهدها مدارس العلم ، إذ كان الوقت المختار له ولهم هو : ما بعد العشاء الآخرة حتى صلاة الفجر . وهذا عمل كان يمكن استغلاله في الدعاية والشهرة ، ولكنه لم يفعل لغناء ذاته الداخلية عن كل شيء إلّا الإيمان والحب والنصح وغيرها من مقومات الشخصية السوية المستقيمة .

٦ ـ لم يكنْ كغيره من العلماء يحاول الانتصار لنفسه بما يشبه الحق من البراهين الملتوية ، لا سيما إذا ورد عليه النقد ممن هو أنزل منه علماً أو قدراً .

قال الحارث : عملت كتاباً في المعرفة ، فأعجبني ، فدخل علي شاب عليه ثياب رثة ، وأنا أنظر في الكتاب مستحسناً إياه ، فقال لي : يا أبا عبد الله المعرفة حق للخلق على الحق ، أو حق للحق على الخلق ؟ قلت : حق للخالق على الحق . قال : هو أولى أن يبذلها لمستحقيها . قلت : بل حق للحق على الخلق . قال : هو أعدل من أن يظلمهم . فأخذت الكتاب وخرقته ، وقلت : لا أعود أتكلم في المعرفة أبداً .

فلو أن عالماً من المحدثين حدث له ذلك لملأ الدنيا صراخاً وعويلاً لينتصر

لنفسه بالباطل فضلاً عن الحق ، في الوقت الذي كان فيه للحارث وجه للدفاع عن نفسه وعن كتابه ، لأنه يتحدث عن المعرفة من حيث التربية والشريعة والأمر والنهي ، أما الشاب فيقصد المعرفة من حيث القسمة الإلهية الأزلية ، وهي الحقيقة ، فاختلف الوجهان ، وكلاهما مصيب ، ولكن الحارث كما قلنا قوي في ذاته الداخلية ، وليس في حاجة إلى لجاجة ولا جدال ليثبت هذه القوة ، أو ليضفي على نفسه قوة زائفة من الغرور والإعجاب .

٧ ـ لم يكن عالماً متخصصاً يغلق فكره على فرع معين من فروع المعرفة ، وإنما كان رجلاً متعدد المواهب ، مجيداً في كل ما اقتحمه من ميادين المعرفة . فهو فقيه ، محدث ، أصولي ، متكلم ، عالم بالتحليل النفسي ، خبير بالمجتمع وتحركاته الظاهرة والخفية ، متطلع إلى مذاهب غيره من الفقهاء والمفكرين في أرجاء الإسلام ، ناقد بصير لا سيما في قضايا الصوفية التي بدأت تختلط في عصره ، ويسود أهلها في بعض أحوالهم جهل بالحديث والأخبار ، وغلظة في إصدار الأحكام .

٨ ـ كان ملتزماً بكل ما يقول أو يكتب . . . فلم يكتب حرفاً إلّا التزم به سلوكاً ، ومن هنا آثر الورع يوم مات أبوه ، وهو في حاجة إلى دانق كما يقول الجنيد البغدادي ، فرفض ميراثه من أبيه ، لأنه كان يرى كفر القدرية ، وليس بين أهل ملتين توارث . ورغم الخلاف في كفر القدرية ، ورغم عدم مسؤوليته عما شاب مال أبيه من الحرام ، فإنه آثر الورع ، وفضَّل الجوع على أن يقبل ما لا فيه شبهة .

* * *

والغريب في أمر المحاسبي ، والذي لم أستطع له تفسيراً يقوم على سند مكتوب ومأثور هو أنه نجا من محنة القول بخلق القرآن ، وكان معاصراً لها ، وكان رأساً من رؤوس العلم ، وصاحب مدرسة كبرى يمكن أن يفيد منها القاضي أحمد بن أبي دؤاد في نحلته التي انبرى لنصرتها .

كان المحاسبي يهاجم المعتزلة وغيرها من الفرق ، وكان هجومه على المعتزلة

وغيرهم من أسباب الخلاف بينه وبين الإمام أحمد بن حنبل ، حيث كان يرى أحمد إهمال هؤلاء المارقين ، ويرى الإمام المحاسبي الهجوم عليهم ، وتفنيد أفكارهم ، وتعريتها أمام الجمهور .

ونحلة القول بخلق القرآن كانت نحلة اعتزالية في أصلها وفرعها ، وهذا عدو من أعدائها ، فلماذا لم يحمل مع من حمل للمحنة ، ولماذا لم يتعرض للتعذيب كما تعرض غيره من العلماء .

ولكي نجيب على هذا التساؤل يجب أن ندرك أن غير المحاسبي من ذوي الشأن في ذلك العصر لم يتعرضوا هم الآخرون لأذى السلطان في شأن خلق القرآن ، من أمثال : بشر بن الحارث الحافي ، والسري السقطي وغيرهما من أصحاب مدارس التصوف . ولكن الفرق ثابت بين هؤلاء وبين المحاسبي ، فلا السري ولا الحافي ولا غيرهما من رجال التصوف كانوا يهاجمون المعتزلة ويكتبون في تجريحهم الكتب ، ويعقدون حلقات العلم . بل كان نشاطهم مقصوراً على السلوك ، وعلى بعض روايات السنّة ، . . . فالقول بأن المحاسبي كغيره من هؤلاء لم يكونوا موضع اهتمام السلطان في شأن المحنة قول غير مستقيم ، من جهة أن المحاسبي إمام مجتهد محدث متكلم له باع طويل في تسفيه المعتزلة أفزع الإمام أحمد نفسه .

والذي نستطيع أن نقرره الآن : أنه ربما اعتمدت السلطة على النزاع الذي كان قد ثار بين أحمد وبين المحاسبي فظنت أنه لا خطر من المحاسبي . . . أو أنهم عرفوه بما اشتهر عنه من الصلاح ، وحب الخفاء والنفور من اجتماع الناس حوله ، فلم يروا في رأيه مغنماً لهم ، ولا تأثيراً في الناس ، ما دام الناس لا يشكلون اهتماماً للمحاسبي في حياته وهو الذي يقول : « والله لو أن نصف الخلق قد بعدوا عني ما استوحشت لبعدهم ، ولو أن النصف الآخر اقترب مني ما أنست بقربهم » .

كان المحاسبي معنياً بإصلاح البواطن ، وكان أحمد بن حنبل معنياً بظاهر الشريعة ، ومن هنا كانت فتنة خلق القرآن ألصق بظاهر العلم منها بباطنه

وخفاياه ، فكان أحمد مقصوداً بها ، وكان المحاسبي بعيداً عنها هو وأمثاله رغم أنه رجل حديث وفقه وكلام وهجوم على كل من انحرف عن خط أهل السنة . ولكن جمهور الرواية والدراسات الفقهية جمهور عريض لا يتهيأ مثله في اتساع قاعدته للدراسات السلوكية والنفسية بأي حال من الأحوال .

محاولات لتشويه المحاسبي :

إنه داء قديم في البشر ، هو أن يستظهر الإنسان برأي كبير من العلماء ليهدم عالماً آخر . . . ولكن الله تعالى إذا أراد إبطال حجة هذا الهادم المخرب أجرى على لسانه وقلمه دليل خطئه .

ففي الجزء الثالث عشر من تاريخ الإسلام للإمام الذهبي (مخطوط رقم ١٣ تاريخ بدار الكتب المصرية ورقة ٤٥ وما بعدها) قال :

« قال الحسين بن عبدالله الخرقي : سأل المروذي عما أنكر أبو عبدالله على المحاسبي فقال : قلت لأبي عبدالله : قد خرج المحاسبي إلى الكوفة وكتب الحديث فقال أنا أتوب مما أنكر علي أبو عبدالله . فقال : ليس لحارث توبة ، يشهدون عليه بالشيء ويجحد ، إنما التوبة لمن اعترف ، ثم قال : احذروا عن حارث .

« وقال أبو بكر بن حماد : إن الحارث مر به ومعه أبو حفص الخصاف . قال : فقلت له : يا أبا عبدالله تقول : إن كلام الله بصوت ؟ فقال لأبي حفص : أجبه . قال أبو حفص : متى قلت : بصوت ، احتجت أن تقول : بكذا ، وكذا . فقال للحارث . فماذا تقول أنت ؟ قال : قد أجابك أبو حفص . قال أبو عبدالله بن حنبل : أنا من ذلك اليوم أحذر عن حارث » .

والعجب هنا من أمور منها :

١ ـ أن المروزي نفسه هو الذي روى في مسائله عن الإمام أحمد أنه كان يتوقف طويلاً بحكم ما ركب فيه من سليقة الورع في تجريح راوٍ من الرواة العام

والعامين احتياطاً لدينه . فكيف يتوقف في تجريح راوٍ من الرواة ثم يسارع إلى إغلاق باب التوبة على مسلم قبل أن يغرغر مخالفاً بذلك رسول الله ﷺ وإجماع الأمة على أن التوبة صحيحة من أي مسلم ما دامت روحه لم تبلغ حلقومه . . . هذا مستحيل تماماً في حق الإمام أحمد ونكاد نقطع بأن هذا الخبر مكذوب عليه ، لأنه يخالف ما تواتر عنه من الدين والورع والخوف والتوقف والعلم والدراية بالسنة من جميع وجوهها .

٢ ـ قول الرواية عن الإمام : إن التوبة لمن اعترف قول غريب عن مسلكه وعن علمه وعن إحاطته بأحكام الشريعة والعقيدة . فالتوبة أمر بين العبد وبين ربه ، ولم يشترط أحد أن تكون التوبة بعد اعتراف علني للناس بالدين ، فتلك هي الفضيحة التي نهى عنها الإسلام أشد النهي ، ولا نعلم شيئاً اسمه الاعتراف إلا في المسيحية المتأخرة . بل هو في الإسلام اعتراف العبد لربه بالذات سراً فيما بينه وبينه ثم التوبة . ومن هنا فإن هذه الرواية هي الأخرى تلحق بأختها في البطلان والتزييف على الإمام أحمد .

* * *

والعجيب أن الذهبي نفسه شك في رواية أوردها هو في تذكرته وأوردها الخطيب في تاريخ بغداد ، خلاصتها أن الإمام استمع إلى المحاسبي من حيث لا يراه في بيت إسماعيل السراج أحد تلاميذه ، ثم قال : ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء القوم ، ولا سمعت في علم الحقائق مثل هذا الرجل ، ومع ما وصفت لك فلا أرى لك صحبتهم . . . وعلق عليها الذهبي بقوله : وهذه القصة صحيحة السند لا تقع على قلبي .

وإنما نفر قلبه مما فيها من تناقض لا يليق بعقل كبير مثل عقل الإمام أحمد . . . ومن ثم فإن قصة الاعتراف ، وقصة إغلاق باب التوبة أدخل في نطاق إنكار الذهبي نفسه من هذه القصة . . . فإذا تناقضت الروايات على هذه الصورة تساقطت وبقي جوهرها ، وهو : أن المحاسبي وأحمد بن حنبل أخوان على طريق السنّة ، لا سيما وأن المحاسبي كان شديد الإنكار على أوهام الصوفية ودعاواهم

أن بعضهم يصلي في أماكن متعددة ، أو يخاطب الملائكة وأرواح الصالحين ، إلى غير ذلك من الأوهام التي بدأت تطل برأسها في عصرهما .

مقامه في العلم والمعرفة :

وصفه أبو نعيم الأصفهاني في الحلية فقال : المشاهد المراقبي ، والمساعد المصاحبي ، أبو عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي ، كان لألوان الحقائق شاهداً ومراقباً ، ولآثار الرسول ﷺ مساعداً ومصاحباً ، وتصانيفه مدونة مسطورة ، وأقواله مبوبة مشهورة ، وأحواله مصححة مشهورة ، كان في عالم الأصول راسخاً وراجحاً ، ومن الخوض في الفصول جافياً وجانحاً ، وللمخالفين الزائفين قامعاً وناطحاً ، والمنيبين قابلاً وناصحاً .

« وقد كان متكلماً فقيهاً محدثاً ، حدث عن يزيد بن هارون وطبقته ، وروى عنه أبو العباس بن مسرور والطوسي وطبقته » .

وقال عنه الخطيب البغدادي : « أدرى من اجتمع له الزهد والمعرفة بعلم الظاهر والباطن ، وله كتب كثيرة في الزهد ، وفي أصول الديانات ، والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة وغيرهم . وكتابه في الدماء هو الذي عول عليه من بعده في شأن الدماء التي جرت بين الصحابة » .

ومنزله المحاسبي لا تقتصر على أنه كان جماعاً للعلم حافظاً له ، عاملاً به فحسب ، ولكنه في الحقيقة كان صاحب مدرسة متميزة يمكن وصفها بأنها مدرسة الكشف عن الدقيق عن علة الأمة الإسلامية التي كانت قد أصابتها ففرقت كلمتها ، ودفعت بها بعيداً عن فطرة الإسلام التي جاد بها رسول الله ﷺ .

كان الإمام أحمد بن حنبل يجاهد في ميدان السنة وتنقيتها من الدخيل والموضوع ولا من التدليس والكذب الذي انبنى عليه بعض الأحكام المغرضة . . . كانت هناك أكداس . . . من الأحاديث الموضوعة التي وضعت تأييداً لمذاهب سياسية أو عدائية للإسلام . ويقول ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة ٢ ـ ١٣٤ : « أصل الكذب في أحاديث الفضائل جاء من جهة الشيعة » .

ويقرر شريك القاضي أن الرافضة كانوا يضعون الحديث ويتخذونه ديناً (منهاج السنّة ١ / ١٣) . ووضعوا الأحاديث في ذم معاوية ، ووضع أتباع معاوية الأحاديث في مدحه ، ومن وراء أولئك الزنادقة يضعون الحديث تأصيلاً لزندقتهم ، فيروون أن الله ينزل عشية عرفة يصافح الركبان ، ويعانق المشاة ، وأقر عبد الكريم بن أبي العوجاء بأنه وضع أربعة آلاف حديث يحل فيها الحرام ويحرم الحلال . إلى غير ذلك مما لا يسعه مقامنا هذا .

كان الإمام أحمد زعيم المدرسة السنية التي تكفلت بوضع الضوابط وفحص الأسانيد والمتون لتنقية السنة من هذا الركام المكذوب والخطير على شريعة الإسلام .

وكان المحاسبي زعيم المدرسة التي تكشف العلة التي أصابت النفس المسلمة فحولتها إلى نفسى أمارة لا مكان فيها للوم ولا للرضا والطمأنينة وإن كان ظاهرها مطمئناً وراضياً . . . كان الورع في عصره نادراً ، وكانت المعرفة بالأصول الإسلامية عزيزة ، وكان الجهل بعلل النفوس فاشياً ، وقد كشف المحاسبي عن كل ذلك في مقدمة كتابه « الوصايا » فقال :

« قد انتهى البيان إلى أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين فرقة ، منها فرقة ناجية ، والله أعلم بسائرها . فلم أزل برهة من عمري أنظر اختلاف الأمة ، وألتمس المنهاج الواضح ، والسبيل القادر وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء ، وعقلت كثيراً من كلام الله عز وجل بتأويل الفقهاء . . . ورأيت اختلافهم بحراً عميقاً غرق فيه ناس ، وسلم منه عصابة قليلة . . . ورأيت كل صنف يزعم أن النجاة لمن تبعهم ، وأن المهالك لمن خالفهم .

« ثم رأيت الناس أصنافاً ، فمنهم العالم بأمر الآخرة ، لقاؤه عسير ، ووجوده عزيز ، ومنهم الجاهل ، فالبعد منه غنيمة ، ومنهم المتشبه بالعلماء ، مشغوف بدنياه ، مؤثر لها ، ومنهم حامل علم ، منسوب إلى الدين ، ملتمس بعلمه التعظيم والعلو ، ينال بالدين من عرض الدنيا ، ومنهم حامل علم لا يعلم تأويل ما حمل ، ومنهم متشبه بالنساك ، متحرٍّ للخير ، لا غناء عنده ، ولا نفاذ

لعلمه ، ولا معتمد على رأيه ، ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء ، مفقود الورع والتقى ، ومنهم متوادون ، على الهواء واقفون ، وللدنيا يذلون ، ورياستها يطلبون ، ومنهم شياطين الإنس عن الآخرة يصدون وعلى الدنيا يتكالبون ، وإلى جمعها يهرعون ، وفي الاستكثار منها يرغبون ، فهم في الدنيا أحياء ، وفي العرف موتى ، بل العرف عندهم منكر ، والاستواء بين الحي والميت معروف .

« فتفقدت في الأصناف نفسي ، وضقت بذلك ذرعاً ، فقصدت إلى هدى المهتدين بطلب السداد والهدى ، واسترشدت العلم ، وأعملت الفكر ، وأطلت النظر ، فتبين لي من كتاب الله ، وسنة نبيه وإجماع الأمة : أن اتباع الهوى يعمي عن الرشد ، ويضل عن الحق ، ويطيل المكث في العمى ، فبدأت بإسقاط الهوى عن قلبي ، ووقفت عند اختلاف الأمة ، مرتاداً لطلب الفرقة الناجية ، حذراً من الأهواء المردية ؛ متحرزاً من الاقتحام قبل البيان ، والتمس سبيل النجاة لمهجة نفسي .

« ثم وجدت أن سبيل النجاة في التمسك بتقوى الله ، وأداء فرائضه ، والورع في حلاله وحرامه ، وجميع حدوده ، والإخلاص لله تعالى بطاعته ، والتأسي برسول الله ﷺ .

« فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء بالآثار ، فرأيت اجتماعاً واختلافاً ، ووجدت جميعهم متفقين على أن علم الفرائض والسنن عند العلماء بالله وأمره ، الفقهاء عن الله ، العاملين برضوانه ، الورعين عن محارمه ، المتأسين برسوله ﷺ ، والمؤثرين الآخرة على الدنيا ، فالتمست من بين هذه الأمة الصنف المجتمع عليهم ، واقتبست من علمهم ، فرأيتهم أقل من القليل ، ورأيت علمهم مندرساً كما قال ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً ، كما بدأ ، فطوبى للغرباء » . وهم المتفردون بدينهم .

« فعظمت مصيبتي لفقد الأتقياء ، وخشيت بغتة الموت أن يفجأني على اضطراب من عمري ، لاختلاف الأمة ، وانكمشت في طلب عالم لم أجد لي من معرفته بداً ، ولم أقصر في الاحتياط ، ولا في النصح ، فقيض لي الرءوف الرحيم

بعباده قوماً وجدت فيهم دلائل التقوى ، وأعلام الورع ، وإيثار الآخرة على الأولى .

« ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى ، مجتمعين على نصح الأمة ، لا يرجون أبداً في معصية ، ولا يقنطون من رحمة ، يرضون أبداً بالصبر على البأساء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، يحببون الله تعالى إلى العبيد بذكر أياديه وإحسانه ، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى علماً بعظمة الله تعالى ، علماء بعظيم قدرته ، وعلماء بكتابه وسنته ، فقهاء في دينه ، علماء بما يحب ويكره ، ورعين عن البدع والأهواء تاركين للتعمق والإغلاء ، مبغضين للجدال والمراء ، متورعين عن الاغتياب والظلم ، مخالفين لأهوائهم ، محاسبين لأنفسهم ، مالكين لجوارحهم ، ورعين في مطاعمهم وملابسهم وجميع أحوالهم ، متقللين من المباح ، زاهدين في الحلال ، مشفقين من الحساب ، وجلين من المداد ، مزرين على أنفسهم من دون غيرهم : لكل امرىء منهم شأن يغنيه ، علماء بأمر الآخرة ، وأقاويل القيامة ، وجزيل الثواب ، وأليم العقاب ، وذلك أورثهم الحزن الدائم ، والهم المقيم ، فشغلوا عن نعيم الدنيا ونديمها .

« ولقد وصفوا من آداب الدين صفات ، وحدّدوا للورع حدوداً ضاق لها صدري ، وعلمت أن آداب الدين ، وصدق الورع بحر لا ينجو من الغرق فيه شبهي ، ولا يقوم بحدود مثلى ، فتبين إلي فضلهم ، واتضح لي نصحهم ، وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة ، والمتأسون بالمرسلين . فأصبحت راغباً في مذهبهم ، مقتبساً من فوائدهم ، محباً لطاعتهم . لا أعدل بهم سبباً ، ولا أوثر عليهم أحداً » .

* * *

في هذه الوثيقة الخطيرة يؤرخ المحاسبي للحركة الدينية في عصره على غير ما أرخ لها المؤرخون التقليديون الذين يمكن أن نسميهم بمؤرخي الحكومات . أولئك المؤرخون الذين يثبتون في سجلات التاريخ ما يشرح صدور الحكام وإن كان يشيع القتام في سماء الإسلام .

فعلى الرغم من أن التاريخ التقليدي يشيد بالنهضة العلمية في عصر المحاسبي فإن المحاسبي يتتبع أصناف علماء الإسلام بالفحص والنقد ، حتى يصل إلى أن العلماء الذين يصلون الحياة الدنيا بالدار الآخرة ، ويوقنون بكل غيب غير مدرك بالحواس يقيناً يضع ذلك الغيب موضع المشاهدة المنظور القريب ، ويحول القلوب إلى نبض من الخوف والرجاء والالتزام بالقلوب والجوارح لا التزاماً حرفياً خالياً من روح الحياة التي يبثها القلب في الحركات والأعمال وهذا النوع من العلماء كان أقل من القليل في عصر المحاسبي ، فما بالنا وفيما بعد عصره .

كان العلماء يتزاحمون على أبواب السلاطين ، ولكن القليل منهم هم الذين كانوا ينأون عنهم ، ويحذرون من مجالسهم . . . فالإمام أحمد أغلق باباً كان بينه وبين ابنه صالح ، لأنه قبل عطاءً من السلطان ، وعلى فراش الموت لا يجد ما يكمل به كفارة يمين فيتقاضاها من أجر قليل لعقار كان يعيش منه . والمحاسبي يصيبه الضر من الجوع ويرفض ميراثه من أبيه ورعاً لأنه كان قدري المذهب . . . ولكن أمثالها لم يكونوا كثرة تتوازن مع أعداد العلماء في ذلك العصر ، بل كانوا قلة بحث عنها المحاسبي جهده ، ووصفهم بوصف يأباه الكثير من العلماء وهو أنهم كانوا من أهل خمول الذكر ، وأهل الخفاء . أي من الذين يكرهون الشهرة والأضواء ، ويعشقون العمل في خفاء وكتمان .

كانت الرؤوس قد فسدت ففسد الشعب ، وكان على العلماء أن يشخصوا المرض ويصفوا العلاج وكان تشخيص المرض يحتاج إلى خبرة نفسية هائلة ، لأن الناس كانوا قد أصيبوا بحالة من « الأرق الفكري » . أي ان هناك السمت الإسلامي ، والعمل غير الإسلامي . وهناك اللسان اللهج المجادل المناقش في قضايا الإسلام ، والخواطر الشيطانية المعارضة لنقاء الإسلام . . . وكان المحاسبي فيما يبدو لنا هاوياً للتحليل النفسي ، والكشف عن العقد وحلها على ضوء الإسلام النقي القائم على الكتاب والسنّة وسير الخلفاء الراشدين .

يروي الجنيد البغدادي أن المحاسبي كان يخرجه من بيته إلى الصحراء ثم يقول له : سلني عما لقيت من نفسك ، فيسأله والحارث يجيب ، ثم يمضي الحارث إلى بيته فيسجل تلك المناقشات ، ويصنع منها كتباً .

فهو يكشف عن حاجات النفوس من واقع مطالبها ، ولا يفرض على المجتمع رأياً ولا فكراً بعيداً عن حاجاته . . . والذي صنعه مع الجنيد البغدادي صنعه مع غيره ، بل إن المصادر تروي أنه كان يجتمع بتلاميذه ليلاً بعد صلاة العشاء ، فلا يبدأهم بحديث حتى يسألوه فيرد على أسئلتهم إلى صلاة الفجر . . . ومن هنا فقد وفى المحاسبي بحاجات عصره ، على العكس من كتابنا ومفكرينا اليوم الذين ملأوا الدنيا كتباً وما زال الشباب حائراً لا يدري من طريقه درباً من حفرة ، وما ذاك إلّا لأنه فكر مفروض ، لم يتحر فيه كاتبوه أن يكون صورة واقعية لمصادر الحيرة في عقول الناس .

والمحاسبي يعود إلى الإسلام الأول الذي كان عليه الصحابة ، ذلك السلوك الذي كان نابعاً من ربط الحياة الدنيا بالآخرة ربطاً وثيقاً ، باعتبار الآخرة حافزاً أساسياً على الالتزام قلباً وقالباً بأخلاق الإسلام . أما أن تنفصل الآخرة عن الدنيا فهذا هو أصل الداء الذي عانى منه مجتمع الإسلام منذ عصر المحاسبي ، حيث كانت الدنيا وحدها هي الحافز على غيرها لدى السواد الأعظم من الناس الذين لا يجدون مرشداً ولا راعياً أميناً يردهم عن الشتات إلى مجتمع الجسد الواحد .

كان هذا الداء قد أعضل حتى لم تُجد في علاجه حلقات الفقه ولا مجالس الحديث ومصطلحاته : لأن هذا الداء في الحقيقة كان قد انتشر على صورة وبائية لا تفرق بين عالم وجاهل ، ولكن إصابة العلماء به كانت خطراً ما بعده من خطر . ولنستمع إلى المحاسبي يقرر الواقع في مجتمعه فيقول عن العلماء :

« . . . فإن علا في الناس أمرهم ، واضطرب الصوت بهم ، وحمد بعض شأنهم ، ووصلت النفوس إلى أمنيتها من اضطراب الصوت ، وعلو الذكر ، وكادت النفوس تستصغر من ليس من شأنهم ، وتستجهل من جهل علمهم ، وتزدري بمثل من لم يكن في أحوالهم ، فقد دُهُوا وما يشعرون .

« وبعد ، فإن قديم الحيل تستقبل لهم ما قد دهاهم به ، فيجد لهم مكائد موبقات ، وعساه يأتي الكبير منهم كهيئة الناصح له ، فيخطر بقلبه : أنك قد

أوتيت حظاً من العلم ، فما لك والشهرة ، والتعرض للفتنة ، شأنك والعمل بما قد علمت . ويحه ، لقد دهاه وعرضه للهلاك وما يشعر .

« فعند ذلك ينفرد بعصابة من أكابرهم اتبعوه من أصاغرهم ، واعتزل إعجاباً بما وصل إليه من العلم والعبادة ، وما يشعر بإعجابه ، ولا يشك أن الصواب في اعتزاله[1] في قوله وفعله ، ولا يعلم ما قد دهي به ، فحينئذ يخالف الشيطان بين أهوائهم ، ويفرق شملهم ، ويشتت جمعهم ويجعلهم أحزاباً ، ويزين عند كل صنف منهم شأنه ، ويعيب عندهم أحوال من يخالفهم ، فأغوى بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عثرات بعض ، ولقن بعضهم حججاً على بعض كهيئة الناصح لهم ، فيكيد جميعهم بمكائده وما يشعرون .

« وعسى القوم يبدون ما في النفوس ، ويطلبون العثرات ، ويظهرون العيوب ، ويتفكهون بالغيبة ، ويقولون الزور ، ويترامون بالبهتان ، ويشد بعضهم على بعض بالعظائم ، وينسبه إلى الكفر والضلال ، أعاذنا الله وإياكم مما حل بهم » .

وأفاض المحاسبي طويلاً في أسرار هذا الصدع الذي أصاب مجتمع الإسلام في شخص علمائه ، معرضاً بالمعتزلة الذين ينطبق نقده عليهم تمام الانطباق . فهم الذين انشقوا إعجاباً بأنفسهم ، وهم الذين كفر بعضهم بعضاً ، حتى ألف : المرداد ، والجبائي ، وجعفر بن حرب ، من رؤساء الاعتزال كتاباً من تكفير أبي الهذيل العلاف ، وكشف فضائحه التي تعتبر بحق ثلماً في حصن الإسلام المنيع .

ومن أعجب العجيب أن دعاة التحرر الفكري المشبوه من رجال العلم الرسميين في العصر الحاضر ما زالوا يشيدون بفضل المعتزلة على الفكر الإسلامي - بزعمهم - ويحثون الطلّاب على توجيه بحوثهم الجامعية نحو تلك الفرقة الضالة ، وكأنهم لم يقرءوا لا نقول كتاباً مخطوطاً بعيداً عن متناول الأيدي ، بل لم يقرءوا كتاب الفرق بين الفرق للبغدادي ، الذي سرد من فضائحهم ما كان

---

(١) لعله يعرض بما فعله واصل بن عطاء زعيم المعتزلة . فقد كان المؤلف شديد الانكار عليهم .

يجب أن يكون إنذاراً لهؤلاء الذين يدعون إلى الحرية الفكرية بمعناها الأوروبي والشيوعي الذي لا ينطلق إلا على درب التخريب ولا يلوي على شيء .

لا أدري ماذا يقول المشرفون على الرسائل الجامعية عن أبي إسحاق النظام ـ وهو الذي كتبت فيه الرسائل المتعددة ـ وهم يطالعون فضائحه إن كانوا طالعوها ، وهو من رؤوس الاعتزال . كان هذا الخبيث يقول : إن أبا هريرة أكذب الناس ، وإن عمر شك في دينه يوم الحديبية ، وضرب فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وابتدع صلاة التراويح ، وسفه علي بن أبي طالب لأنه قال في مسألة برأيه ، وعاب ابن مسعود ، وكذبه في حديث انشقاق القمر ، ورؤية الجن ليلة الجن ، إلى آخر تلك الفضائح الموبقات التي ألمح إليها المحاسبي في إيجاز وورع كان يقتضيه عصره .

ونعود إلى شيخنا المحاسبي فنقول : إنه كشف أصل الداء ، ووصل إلى أن الهوى هو نبعه ومصدره ، وأن الهوى قد استحكم حتى أصبح أصلاً للكثير من أمراض النفس كالرياء والعجب ، والوقوف عند الدنيا ، وفصل شطر الحياة وهو الدار الآخرة عن أولها وهو الدنيا ، وفساد النوايا ، والجهل بالسنن ، وهي المواضيع التي لم يُعن بها لا رجال الحديث ولا رجال الفقه ولا رجال التفسير والأخبار ، لسبب نعتقد أنه الصواب إن شاء الله ، وهو : أن المخلصين منهم كانوا ينوءون تحت حمل ثقيل من فحص أسانيد الحديث ، ووضع قواعد مصطلحة ، وجمع رواياته ، ووضع أصول الفقه ، وتسجيل مسائله ، وهي تبعات لا تدع وقتاً لبحث المسائل النفسية التي جدت في المجتمع . أما غير المخلصين منهم فهم في عداد العامة المحتاجين إلى العلاج ، الهائمين بما يموج في العصر من الفتن وطرق الإنحلال .

كان المحاسبي بداية الإرشاد القائم على التحليل النفسي الدقيق ، والوصول إلى العقدة وكشفها ، وهو قصارى ما وصل إليه الطب النفسي الحديث ، مما يجعلنا نقرر بحق أن المحاسبي هو رائد علم النفس الإسلامي الذي يغني عن علم النفس المستورد عند من له أدنى قدر من صحة تركيب العقل .

كان المحاسبي ميزاناً دقيقاً كل الدقة لقلب المؤمن ، فلا يقصر به حتى يصل

الهوى إلى سويدائه ، ولا ينطلق به انطلاق الصوفية النظريين نحو الأوهام وتأليه الفرد ، فهذا وذاك تطرف ليس من الوسط قامت عليه أمة الإسلام .

ولعل هذا الموقف المتزن هو الذي دعا الصوفية إلى هجران تراث المحاسبي في الوقت الذي كان يجب عليهم فيه أن يلتفوا حوله في صدق وإخلاص ، حتى يعودوا إلى الوسط إن كانوا صادقين حقاً في أنهم من دعاة الإسلام . . . ولكن المحاسبي حين عنف بشدة من يدعون أنهم يكونون في مكان ويصلون في غيره ، وأنهم يخاطبون الأرواح ، ويرون الملائكة ، ويدعون إلى الانقطاع عن الحياة في الخلوات ، حين فعل ذلك لم تتجه إليه أهواء رجال التصوف المتأخرين ولم يعنَ به رجال الطب النفسي المحدثين ، وآثروا عليه « سيجمون فرويد » اليهودي المخرب الذي يعلي من شأن الغريزة فيجعلها أساساً لكل تفوق إنساني على الإطلاق .

المحاسبي بين البداية والنهاية :

والمحاسبي تختلف بدايته عن نهايته . ففي مطلع شبابه كتب « الوصايا » وكان فيه متشدداً غاية الشدة ، حتى كاد يكره حيازة المال على أي صورة من الصور . . . واحتج احتجاجات طويلة ضد من يبيحون حيازة الأموال ، وفرق بينهم وبين الصحابة ممن كانوا يملكون الأموال بحقها . وأفاض في هذا القول حتى كاد أن يكون صورة مطابقة لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه . ولعل الظروف المتشابهة في بيئة المحاسبي وبيئة أبي ذر هي التي دفعته إلى سلوك هذا المنهج .

ولكنه بعد أن استقر به الحال عاد يقول : إن الزهد ليس في إهدار الملكية الفردية ، ولكنه عمل قلبي تصدقه اليد . فكم من فقير حريص ، وكم من غني زاهد .

وفي باب المدح والذم وقبول الإنسان للمدح ، ونفرته من الذم نجده في الوصايا يشقق القول حتى لا يرى إنسان أنه ناج من الخلل ، ولكنه في نهاياته وضع الضوابط الدقيقة ، وفرق بين قلب يأنس بالمدح وينفر من الذم ، وبين قلب يستوي عنده هذا أو ذاك .

وهكـذا في جميع فـروع السلوك التي تعـرض لهـا المحـاسبي نجـد انـدفـاع الشبـاب في البدايـة ، واتزان الشيـوخ في النهايـة ، فجزاه الله عن الإسـلام خـير الجزاء .

مؤلفـــات المحاســـبيْ

أولاً ـ المخطوطات

١ ـ **آداب النفوس** . وهو في مكتبـة جار الله بـالأستانـة برقم ١١٠١ ، ومن هـذه النسخـة نسخـة مصـورة بـدار الكتب المصـريـة بـرقم ٤٠٦٤ تصـوف . وفي كوبريللي بالأستانة برقم ٧٢٥ . وفي جامعة القاهرة بـرقم ٢٦٠٤٨ عن نسخة ولي الدين . وهو تحت الطبع من تحقيقنا بدار الجيل بيروت . لبنان .

٢ ـ **أحكام التوبة** . في دار الكتب المصرية ٣١٩ تصوف عن مكتبة لندن .

٣ ـ **رسالة التصوف** . بلدية الإسكندرية رقم ١٣٢١ ـ ١ ج .

٣ ـ **التنبية على أعمال القلوب والجوارح** . دار الكتب المصرية ٤٠٦٤ عن نسخـة جار الله بالأستانة .

٤ ـ **الخصال العشرة التي جربها أهل المحاسبـة** . دار الكتب المصريـة رقم ٤١٨٤ تصوف عن نسخة مكتبة برلين .

٥ ـ **الرد على بعض العلماء من الأغنيـاء حيث احتجوا بـأغنياء الصحـابة** . لالـلي بالأستانة رقم ٣٦٠٦ ـ ٢٠ .

٦ ـ **شـرح المعرفـة وبذل النصيحـة** . كوبـريللي بالأستـانـة رقم ١٦٠١ . شهيـد عـلى رقـم ١٣٤٥ والأزهـريـة بمصر رقـم ٤١٣٠٩ ، ١٢٠٨ تصـوف . ودار الكتب المصرية ٤٠٨٤ تصوف عن برلين .

٧ ـ **فصل من كتاب العظمة** . دار الكتب المصرية ٤٠٦٤ تصوف عن جار الله بالأستانة .

٨ ـ **القصد والرجوع إلى الله** . جار الله بالأستانة ١٧٢٨ ، شهيد على ٣٣١٩ .

٩ ـ **محاسبة النفوس** . برلين ٢٨١٤ ، المتحف البريطاني بلندن ١٢٤٤ .

١٠ ـ **مختصر المعاني** . البنغال ١١٦٧ .

١١ ـ **المراقبة والمحاسبة** . مكتبة سوهاج ١٣٦ تصوف .

١٢ ـ **معاتبة النفوس** . الأزهرية بمصر ١٠٣٩ مجاميع تصوف . وهو تحت الطبع ، بتحقيق محمد عبد القادر عطا ، دار الاعتصام ، القاهرة .

١٣ ـ **النصيحة للطالبين** . شهيد على ٣٣١٩ .

١٤ ـ **فهم الصلاة** . دار الكتب المصرية ٤٠٦٤ عن جار الله .

ثانياً ـ المخطوطات المفقودة :

١ ـ **رسالة في الأخلاق** .

٢ ـ **أخلاق الحكيم** . ذكره في أعمال القلوب والجوارح ص ١٥٧ .

٣ ـ **التفكر والاعتبار** . ذكره ابن النديم في الفهرست ص ٢٦١ .

٤ ـ **كتاب الدماء** . ذكره ابن حجر في التهذيب ٢ ـ ١٣٥ .

٥ ـ **كتاب الغيبة** . في فهرست ابن خير ص ٢٧٢ .

٦ ـ **فهم السنن** . ذكره الزركشي في البرهان ١ ـ ٢٣٧ .

ثالثاً ـ المطبوعات :

١ ـ **بدء من أناب إلى الله** . نشره المستشرق ريتر سنة ١٩٣٥ م .

٢ ـ **التوهم** . نشره المستشرق آربري بالقاهرة في لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ .

٣ ـ **الرعاية لحقوق الله** . نشرته المستشرقة مرجريت سميث في لندن سنة ١٩٤٠ . وأعيد طبعه بالقاهرة عام ١٩٦٦ ثم طبع ثالثاً بتحقيق عبد القادر أحمد عطا

بالقاهرة عام ١٩٧٠ .

٤ ـ **الخلوة والتنقل في العبادة ودرجات العابدين** . نشره الأب أغناطيوس عبده خليفة بمجلة المشرق عام ١٩٥٤ ، ١٩٥٥ .

٥ ـ **رسالة المسترشدين** . حققه عبد الفتاح أبو غدة ، ونشرته مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب سنة ١٩٦٤ .

٦ ـ **الوصايا** . نشر القاهرة عام ١٩٦٥ بتحقيق عبد القادر أحمد عطا .

٧ ـ **المسائل في أعمال القلوب والجوارح** . وهو مكون من : المسائل في أعمال القلوب والجوارح ، والمسائل في الزهد وغيره ، وكتاب المكاسب ، وكتاب العقل . حققه عبد القادر أحمد عطا ونشره عام ١٩٦٩ .

٨ ـ **فهم القرآن** . حققه حسن القوتلي ونشره عام ١٩٦٨ م .

٩ ـ **كتاب العلم** . حققه محمد العابد مزالي ونشر في تونس عام ١٩٧٥ م .

كتاب الوصـــــايـا

هو كتاب « النصـائح الـدينية والنفحـات القدسيـة » للإمـام الزاهـد الورع « الحـارث بن أسـد بن معقـل الهمـداني أبـو الأسـد المصـري » المعـروف « بالمحاسبي » .

وقد أخترنا له اسم « الوصايا » تمشياً مع روح العصر ، وإبرازاً لـه ، وتمييزاً عن كتب الأسجاع المنبرية القديمة والنصائح الجافة التي ملها العباد ، ونفرت منهـا البلاد .

فالكتاب ـ بحق ـ ليس من كتب النصائح ، ولا من كلام المنابـر القديمـة ، ولا من إنتاج حلقات الوعظ التي يلقى الواعظ فيها مواعظه بلسانه فلا تجاوز آذان السامعين .

هـذا الكتاب يعتبـر ـ مع كتب المحـاسبي كلها ـ من كتب التحليـل النفسي الأصيلة في الفن ، العميقـة في البحث، الدقيقـة في تتبع خبـايـا النفس التي تخفى على صاحبها ، كما تخفى على كثير من أهل الفراسة من علماء العصر الحديث .

هـذا الكتـاب ـ مـع كتب المحـاسبي ـ فتـح جـديـد في آفـاق علم النفس الإسلامي لدى زهاد القرن الثـالث الهجري ، وكـان أستاذ هـذا الفتح بحق هـو الأستاذ المحاسبي ، زهرة العلماء ، وفخر الزهاد ، وإمام طريق أهـل الله ، الذي جـرد شعائـر الطريق من كـل ما جـر عليها الـوبـال بعـد هـذا العصر . ولم يكن الـوعي العلمي في القرن المـاضي مستعداً لأن يقـرر للتراث الإسـلامي السبق في

ميادين العلم الحديث ، حتى نبهنا إلى ذلك الفضل العظيم كثير من المستشرقين ، ومن بينهم « نولدكه » الذي شهد لأستاذنا المحاسبي بأنه إمام التحليل النفسي بين علماء الإسلام وغيرهم .

والذوق الأدبي الذي يشع من بين ثنايا هذا الكتاب نابع من طبيعة المحاسبي وفطرته فقد عاش في صغره حياة أبناء الموسرين من العرب بكل ما فيها من المباهج والذوق الجميل ،والإحساس الرفيع بين أترابه ومعارفه .

وإذا اجتمع للزاهد خبرة عميقة بخفايا النفوس ، وذوق أدبي رفيع، ومعرفة بما يجتذب إليه الأسماع مع القلوب من وسائل ، وصدق في السلوك ، ورجاحة في العقل ، وغزارة في العلم وصفاء في الروح ، كان واحد عصره ، وفرد زمانه ، بلا نزاع . وكانت كتبه جديرة بالبحث والدرس والتفهم . وهذه الأمور كلها تبلورت في شخصية المحاسبي الفذة بين شخصيات الزهاد العلماء في الإسلام .

روى أبو نعيم . عن طريق جعفر الخواص . أن الجنيد قال : كان المحاسبي يخرجني من عزلتي إلى الطريق حتى ينتهي إلى مكان كان يجلس فيه بحيث لا يرانا أحد ثم يقول : سلني . فأقول ما عندي سؤال ، فيقول : سلني عما يقع في نفسك . فتنثال عليَّ السؤالات فأسأله عنها ، فيجيبني عليها للوقت . ثم يمضي إلى منزله فيعلمها كتباً .

وتلك سمة من سمات الرجل العظيم في مواهبه الفذة في علم النفس التجريبي ، فهو يضع النماذج البشرية أمامه ، ويستنزف ما يدور بأخلادها من سؤالات هي في حاجة إلى جواب ، وصاحب هذا المنهج لا يكتفي بالإجابة عما يوجه إليه من مسائل ، وإنما يسهب ويختصر ، ويلين ويقسو ، ويبالغ في تحريك مواطن الاحساس أو لا يبالغ ، كما يبالغ في الدقة والعمق والاستقصاء أو لا يبالغ . كل ذلك تبعاً لحركات النفوس في توجيه السؤالات ، أو تشبثها بمشكوك في صحته من مسائل العلم فهو . عارف بالنفس لأنه عارف بالله .

وليس معنى هذا أن كتبه كانت خلاصة تجارب أجراها الإمام المحاسبي على الإمام الجنيد فحسب ، ولا أن كتابنا هذا هو خلاصة تجاربه مع الجنيد وحده بل

إن المحاسبي قد بالغ في استقصاء النفس الإنسانية في عصره ، ودرس ميولها وخباياها ودسائسها من طبقة المريدين إلى طبقة كبار العارفين ، وبث كل تلك التجارب في كتبه . وكتابنا هذا شاهد من شواهد صحة تلك الدعوى .

١ ـ حينما يتحدث عن التكاثر في الأموال ، فإنه يصف النفوس الصغيرة التي تستعين بنعم الله على مكاره الله ، ويصف النفوس الكبيرة التي تستكثر من المال لأعمال البر والتعفف ، ويصف نفوس العلماء الذين يكثرون الجدل حول جواز اقتناء المال الحلال ، وعدم كراهيته ، ثم يبحث في أثناء ذلك مدى استجابة النفوس للورع في الحلال ، ومدى عدم استجابتها . وهو يرى المدى البعيد الذي أصاب النفوس من التشبث بالتكاثر في الأموال ، ومدى تفاعل المال مع النفس البشرية . فيهوله الأمر ويستعمل عبارات التخويف والترهيب من أمثال : ويحك . . . أيها المفتون . . . أيها المغرور . . . ولا يغفل المحاسبي عنصر المشاركة ، الذي يخفف من وقع الترهيب والنقد على النفوس ، فيقول : إخواني . . . هذا أمر لا يستطيعه مثلي . . . وهو منهج مقرر في النقد الأدبي يرجح أديباً على أديب ، ويزيد من فاعلية واعظ على واعظ .

٢ ـ وحينما يتحدث عن العلم وآفاته ، ينقد النفوس الصغيرة والكبيرة ، من طلاب العلم إلى المتصدرين للإرشاد ، لا يجامل ولا يداري ، ولا يداهن علماء عصره . وكيف يداهن هذا الرجل العظيم غيره ؟ . لقد علم الرجل علماً ، وعمل به خاصة في نفسه ، ثم بعد ذلك طالب به غيره .

علم أن الدنيا تجانب لخمسة أشياء . أنها منتنة ومشغلة للقلوب ، وأنها تنقص غدا من درجات من ركن إليها ، فلا يكون له من الدرجات كمن زهد فيها ، وأن تركها قربة وعلواً عند الله ، ولطول الحبس يوم القيامة بها ، وطول الوقوف والسؤال عن شكر النعيم فيها .

وأخيراً . وهو منهج العارفين من كبار العلماء . أن أعظم ما ترفض الدنيا من أجله هو موافقة الرب في محبته ، فيصغر الإنسان ما صغر الله ،

ويقلل ما قلل الله ، ويرفض ما أحب الله رفضه حتى تصح أحكامه ، وتصدق نظرته في مسائل العلم .

هذا علم الرجل في مسألة المال . فهل عمل به في خاصة نفسه ؟ تروي المراجع أن أباه كان ذا مال كثير ، وأنه مات والحارث يومئذ محتاج إلى دانق ، ولكنه أبى أن يأخذ من مال أبيه شيئاً وقال : ليس في اختلاف الملة توارث . وكان أبوه واقفياً ولذلك كانت وصاياه حقاً من قلب آمن بالحق وعمل به ، لا سيما في أمور المال التي زلت فيها أقدام كثير من كبار العلماء .

٣ ـ كان الرجل عالماً ، وكان يعلم سطوة العلم ومداها على العلماء ، وكانت مواهبه تؤهله للتصدر والتعظيم والتبجيل ، وكان خبيراً بأخلاق العلماء حينما يتعرضون لنقد النقاد ، أو حينما يخرج عن رأيهم صحابتهم . وقد أوضح ذلك في حديثه عن آفات العلم في هذا الكتاب ، فهل جنح المحاسبي عما رسمه للناس من طريق ؟

روى ابن حجر العسقلاني عن أبي القاسم النصر اباذي . أن المحاسبي تكلم في شيء من الكلام فهجره الإمام أحمد بن حنبل . فاختفى ، فلما مات لم يصل عليه إلا أربعة نفر .

وفي هذا الحادث دلالة على طول مدة اختفائه ، فلو مات وهو حديث عهد بالاختفاء لاجتمع إليه أصحابه ومريدوه ، أما أن يموت المحاسبي ولا يصلي عليه إلا أربعة نفر . فلا شك حينئذ في طول مدة اختفائه وإبعاده للناس من حوله ، ليجنب نفسه آفة من آفات العلم ، حين يختلف كبيران في الرأي ، فيلجأ المعترض عليه إلى جمع عصابة من حوله تسفه رأي مخالفه ، وتنفر الناس عنه . ولم يرو عنه في كتبه أنه رد على ابن حنبل أو انتقص من قدره ، ولكنه عرض كثيراً بحب العلماء لاجتماع الناس حولهم وتعديل مذهبهم ، وحبهم للثناء ، وربما كان ذلك هو السبب في كراهية أبي زرعة وغيره لهذا الرجل العظيم حيث قال عن كتبه : إنها كتب ضلالات وبدع . وليس فيها من البدع والضلالات شيء . ولكنا دائماً نضفي على آراء السلف

لوناً من التسليم كالتسليم للصحابة ، بل هم بشر ، وهم رجال ونحن رجال .

٤ ـ ولقد كانت له فلسفته الخاصة في خلوته واختفائه عن الخلق ، لأن الخلوة نفسها قد تكون من آفات النفوس الخطرة ، كما يكون التواضع كبراً والزهد طلباً للتكاثر ، والتوكل سبباً . فالرجل يخلو ليقال إنه من أهل الخلوة ، ويتواضع ليتواضع له الناس ، ويزهد لتساق إليه الأموال ليضعها في مستحقيها .

ولكنها خلوة المحاسبي : لأنها سبيل الأنس بالله ، ولا علامة للأنس بالله غير التوحش من الخلق ، ولا علامة للتوحش من الخلق غير الفرار إلى الخلوات ، والتفرد بعذوبة الذكر ، وعلى قدر ما يدخل القلب من الأنس بالله يخرج التوحش .

والأنس بالله إذا استشرف عليه إنسان ، فليس له في الخلق مأرب ، ولا أمل له في ثنائهم ، ولا نفرة منه في ذمهم . إنه يعيش في واديه المقدس لا يزعجه من الدنيا شيء ، راعياً للحيارى وإماماً للمتقين ، ووارثاً فرداً في زمانه كله .

لم يجرحه الإمام ابن حنبل صراحة ، بل شهد له بالعلم في الحقائق ، وأفرده عن علماء زمانه في براعته في هذا الباب من العلم ، ولكنه نصح أصحابه بعدم صحبته . ومهما كان تأويل رأي الإمام ابن حنبل ، وأنه نصح أصحابه بعدم صحبته لقصورهم عن سلوك طريقه وفهم مراميه ، فإننا نقف طويلاً عند تلك القصة التي أوردها الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » .

روى إسماعيل بن إسحاق السراج قال : قال أحمد بن حنبل يوماً : يبلغني أن الحارث المحاسبي يكثر الكون عندك ، فلو أحضرته منزلك ، وأجلستني من حيث لا يراني ، فأسمع كلامه . فقلت : السمع والطاعة يا أبا عبدالله . وسرني هذا الابتداء . فقصدت الحارث . وسألته أن يحضرنا تلك الليلة . فقلت : وتسأل أصحابك أن يحضروا معك . فقال : يا إسماعيل ،

فيهم كثرة فلا تزدهم على الكسب والتمر . وأكثر منها ما استطعت . ففعلت ما أمرني به ، وانصرفت إلى أبي عبدالله (ابن حنبل) فـأخبرتـه . فحضر بعد المغـرب ، وصعـد غـرفـة في الـدار ، فـاجتهـد في ورده إلى أن فرغ ، وحضر الحارث وأصحابه ، فأكلوا . ثم قـاموا الصـلاة العتمة ، ولم يصلوا بعـدها . وقعـدوا بين يـديه وهم سكـوت ، لا ينطق واحـد منهم إلى قريب من نصف الليل يستمعون إلى كلامه .

فصعدت الغرفـة لأتعرف حـال أبي عبدالله ، فـوجدتـه قد بكى إلى أن غشي عليه . فانصرفت إليهم ، ولم تزل تلك حـالهم حتى أصبحوا وتفـرقوا . فقلت : كيف رأيت هؤلاء يـا أبـا عبـدالله ؟ قـال : مـا أعلم أني رأيت مثـل هؤلاء القوم ، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجـل ، وعلى مـا وصفت (لك) من أحوالهم فإني لا أرى لك صحبتهم .

فابن حنبل على جلالـة قدره وإمـامته لأهـل عصره ، يبكي حتى يغشى عليه ، ويشهد بأنه لم يسمع في علم الحقائق مثـل كلام المحـاسبي ، ولم يعلم أنـه رآى مثل أصحـابه معـه ، ثم لا يـرى لإسمـاعيـل السـراج صحبتـه ولا صحبتهم ، والمحاسبي بلا شك يعلم أنه لا ينطق بما يخرج عن نطاق الشريعة السمحة ، ثم يعلم تنفير الإمام ابن حنبل للناس من حولـه ، كل ذلـك كان جديراً بأن يحفظ المحاسبي على ابن حنبل وأبي زرعة وأمثالهـا ـ ولكن الرجـل العميق الايمان ، العارف بـربه ، لا تهـزه أمثال تلك البسـائط مما يحـدث من حوله ، ويعبر عن ذلك المذهب في حديثه مع الجنيد . حين قـال له الجنيد : عـزلتي أنسي . وتخرجني إلى وحشـة رؤيـة النـاس في الـطرقـات ؟ فيقـول لـه المحاسبي : كم تقول لي أنسي في عزلتي ؟ لو أن نصف الخلق تقربوا مني ، ما وجدت بهم أنسا ، ولو أن النصف الآخر نأى عني ما استوحشت لبعدهم .

٥ ـ حينما يتحدث عن النوافل ، فإنه يدق ، ويدق ، في تصحيـح نيتها وتخليصهـا من الشوائب ، فالناس يقومـون بالنـوافل طلبـاً لزيـادة الأجر ، ولـطلب محبة الرب ، ولكنه يرى أن نية النـافلة يجب أن تكون لجبـر النقص في الفرائض ،

أو لمحو السيئات ، وتصحيح الفرائض عنده أولى من الاستكثار من النوافل ، وهو منهج حميد يعنى باتباع الأولى في كل شيء .

٦ - والمدح والذم يراهما المحاسبي أساس الاضطراب النفسي والاجتماعي بين الناس عامة ، ولدى العلماء خاصة . فهو يعمق في بحث تلك المشكلة بما لم يسبق إليه ، ولم يُلْحَق به على الإطلاق ، وبما يقيمه وحده بين علماء السلف مبتكراً للتحليل النفسي دون منازع .

وصف المخطوطة

يوجد في هذا الكتاب ثلاث نسخ في دار الكتب المصرية . إحداها تحت رقم ٣٠ م تصوف وهي ناقصة من آخرها . وبها خرم من الباب الثالث حتى العشرين . وخطها رديء جداً ولذلك لم نعتمد عليها إلا للمساعدة في القراءة في مواضع قليلة جداً .

والثانية تحت رقم ٣ ش . وهي بخط مغربي وهي من مخلفات العلامة الشنقيطي والثالث تحت رقم ١٤١٦ تصوف . وهي أجود النسخ وأصحها وأجملها خطاً وتنظيماً كتبت بخط نسخي جميل . وهي قليلة الخطأ والتحريف ولذلك اعتمدنا عليها اعتماداً كلياً وأضفنا بعض الكلمات التي توضح المعنى أو تقوم الأسلوب وجعلناها بين علامتين هكذا (   ) وقد بوب المؤلف كتابه على واحد وأربعين باباً ولم يذكر ترجمة لأبوابه فوضعنا لكل باب ترجمة توضح موضوعه .

منهج الكتاب :

ينزع المؤلف في كتابه إلى بناء إنسان متكامل بريء من العلل النفسية ، فهو حريص على أن يجنب الإنسان عوامل الانحراف النفسي التي تغلب أن تكون إما لصوقاً بالعلويات دون استعداد لمواجهتها أو لصوقاً بالسفليات وتمرغ في أوحالها .

هذان الطرفان هما علة العلل التي تسبب الاضطراب النفسي وخلخلة

الشخصيـة ، ومن ثم فهـما علة الاضـطراب الفكـري والشغب الاجتمـاعي بـين الناس جميعاً .

ومـا دام الإنسان واسـطة العقد الكـوني متوسـطاً بين العلو والسفـل ، بين البهيمة والملك ، بين المادة والروح ، كـانت الشرائـع السماويـة تهيب به دائـماً أن يكـون على خط الـوسط في كل الأمـور ، على اختـلاف بينها في التـدرج ، وكـان الوسط هو التكامل النفسي والسكينة اللذان هما صمام الأمان من الانحراف .

وقد اختلفت مـنازع المصلحـين في جذب الإنسـان إلى الوسط حتى طـالعنا علم النفس الحديث بمصطلحاته ومناهجه ، فضلل البصـير وأعيا السـالك . مـرة بحجة المنهج ، ومـرة بالمصـطلحات التي زخـرت بها كتب الإصـلاح النفسي وإلى جانبها تراجمها بلغـات الغرب ، حتى عـدت هي الأخرى بهـذه الطريقـة لونـاً من الانحراف النفسي في حاجـة إلى العلاج . كـما كان المنهـج الذي يـربط الفكر إلى خط لا يحيد عنه كذلك لوناً من الانحراف في حاجة إلى علاج .

والمحـاسبي كغيره من الصـوفية العلماء يـرفع شعـاره المقدس ويحـوم حـول تقريره بكل الوسائل وهذا الشعور هو « أن الإنسان يجب أن يكون ابن وقته أولاً » وليس معنى هذا أنه يـدعو إلى أن يكـون الإنسان فـرداً من أفراد السـوائم التي لا تعنى بشيء مما حولها ، ولكنه يهيب به ألا يأسى على الماضي ولا يقلق من المستقبل ولا يبالغ في الفرح بما في يده .

فالأسى والقلق والفرح الشـديد ألـد أعداء الصـوفي الحق ، والتخلص منها كسب لا يدانيه كسب في سبيل خلق اتزان نفسي واتـزان بشري عـام . فإن ظفـر الصوفي بتلك الأمنية العذبة حق له أن يعمل كـما يعمل النـاس وفي الوقت نفسـه لا كما يعمل الناس .

إنه يعمل على هذه الجادة ولا هدف له غير ترقية النوع الإنساني ، والسلوك بـه مسلك الإنسان الـذي يستحق بحق تكريم الله ، لا مسلك الإنسـان البغيض إلى ربه والذي استحق بحق أن يكون مسخاً من القردة والخنازير والأنعام بـل هو أضل سبيلا .

وكل ما ينحرف بالإنسان إلى تلك الهوة السحيقة إنما هو الهوى . ولا شيء غير الهوى . لأن الهوى إذا استحكم في إنسان استعبده وسخره إما لخدمة نزعاته السافلة ، وتأويل الشرائع وتطويعها لخدمة هذه النزعات ، وإما للخوض في العلويات دون استعداد لها ، ولا توازن بينها وبينه فيقع في آفات أخرى من الكبر والعلو في الأرض والكفر بالقيم العليا ثم بالله سبحانه .

فالهوى عنده ينحرف بالإنسان عن الشعار الصوفي المجيد « كن ابن الوقت » فهل يكتفي الباحث المحقق بالنهي عن الهوى ؟!! إن مثل المحاسبي لا بد أن يأخذ مريض النفس من جوانب مختلفة ومن زوايا متباينة ، ويتتبع أساس الداء وجذوره ، ولا يكتفي بالأصباغ العامة والعلاجات السطحية التي لا تمس أصل الداء .

إن المال هو أصل الرزايا في الكون كله . فمن أجله تطاحن الناس فرادى وتصادموا جماعات تتسلح بالمهلكات من النظريات والمتفجرات ، فلا عجب أن يسهب المحاسبي في مسألة المال إسهاباً يدعو إلى التساؤل الذي هو عين الجواب في الوقت نفسه عند كل محقق بصير .

فإذا تخلص الإنسان من سلطان المال فلا بد له من تصحيح النية وإتقان العمل ، وليكن تدريبه على إتقان عمله في عمارة الحياة هو محاولة إتقان مسائل العبادة وتجريدها من كل ما يمس الكسب المادي من قريب أو بعيد . فإذا نوى الناس بنوافلهم تحصيل ثواب أكثر . فالصوفي ينوي بنوافله جبر ما نقص من فرائضه وليس بعد ذلك السلوك تدريب على إتقان العمل دون انتظار ثواب في كل الميادين .

وإذا صحح الإنسان نواياه على هذا النهج في كل شيء صح لأن يكون عالماً ، وهنا تواجهه سطوة هائلة لا تقل عن سطوة المال . فالعلم والمال يولدان داء شديد الخطورة على الحضارة الفكرية هو حب المحمدة والنفور من المذمة . وما يتبع ذلك من أدواء فرعية لا تقل خطراً عن أصل الداء في هدم البناء الفكري الحضاري السليم .

وإذا تم لـلإنسـان تخلص من سلطان المـال ، وتصحيح للنيـة في أمـور العبادة ، ورغبة في العمل من أجل الله ، وعلم نافع يـدفع إلى الأمـام ، وتخلص من سلطان العلم على النفوس . صح له حينئذ أن يكون إنسـاناً يتمتـع بالتكـامل النفسي والـطمأنينـة . إنسانـاً بريئـاً من العلل صافي النفس هـادىء الروح يصلح للخـوض في المسائـل العلويـة من المعـرفـة دون خـوف ولا خـطر ولا انحـراف ، ويصلح للعمـل والقيـادة في الميـدان الأرضي دون غش ولا خـداع ولا كبـر ولا نفاق .

هذا هو منهج المحاسبي في اختصار أملته الضـرورة في هذه العجـالة وعـلى ضوئه يمكن تفهم المحاسبي العالم والطبيب والخبير بالداء وأصوله وعلاجه في ذروته ونقاهته والحفاظ على التكامل الإنساني في قوته .

فإن هلع بعض الدارسين من أمثال تلك الكتب فإنما هو هلع المسعور الذي اشتد به القرم إلى نهش العروق والعظام ، وإن تناثرت اللعنات من بعض الأفـواه على تلك المسالك فإنما هي لعنات السكارى الذين حيل بينهم وبين مـا يشتهون ، وإذا احتلت هذه الكتب مكانها في المجتمع فإن ذلك بشير البناء القوي لأمة كانت خير أمة أخرجت للناس تعلم لله ، وتعمل لله . وتتقن عملها دون نـظر إلى ثواب ولا خوفاً من عقاب بل على ضوء الحق والضمير فحسب .

كتاب القصد والرجوع إلى الله

يعتبر الحارث المحاسبي رائداً في الدعوة الى تأليف الكتب ، وجمع العلم في كتاب . فهو يقول في كتابه « العقل » :

(فجميع الحق في فنون الطاعات ، وتحذير الباطل في مذاهبه إذا جمع وألف كان أنشط لحفظه وتفهمه لمن كان لا ينشط لأن يطلب علمه حتى يجمعه) .

(. . . وليس من تفرد بكتاب يقرؤه وحده متثبتاً فيه، لا يشغله عنه سبب يقطعه ، كمن نازع غيره ، لأنه يعترض في المناظرة آفات كبيرة من العجب بالرأي . فلما كثرت آفات المناظرة ، وكان التفرد بقراءة الكتاب المجموع فيه والمؤلف فيه حدود الحق أسلم ، رأيت أن أصنف فيه مبينا ، واستشهد عليه من الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، أو استنباطاً بينا ، أو قياساً إذا عدم البيان بالنص فيما يجوز فيه القياس) .

تلك هي أصول مذهب المحاسبي في تأليف الكتب خروجاً من آفات المناظرة ، ويمكن تلخيصها في :

١ ـ أن يكون الهدف : بيان الحق ، وإبطال الباطل .

٢ ـ أن ينحصر الاستدلال في :

(أ) الكتاب والسنة .

(ب) الإجماع .

(جـ) الاستنباط البيِّن .

(د) القياس إذا عدم البيان بالنص فيما يجوز فيه القياس .

وهو يضيف سبباً مباشراً لتأليف كتابه هذا « القصد والرجوع إلى الله » . بقوله في مقدمته : (روي عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله ﷺ (إذا أتى علي يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله عز وجل فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم) . وبلغني عن الضحاك بن مزاحم قال : (أول باب من العلم الصمت ، والثاني استماعه ، والثالث العمل به ، والرابع نشره) .

فهو يكتب الكتب ومنها كتابه هذا تمكينا للمسلمين من أسباب العلم ، ودفعهم إلى متابعة الرسول ﷺ في ألا يخلو المسلم في يومه عن علم جديد يستفيده ، وهو في الوقت نفسه ينشر من علمه ما تعلمه وعمل به ، وبقي عليه واجب نشره .

وهذا الكتاب يجري على نسق أغلب كتبه : إجابات عن أسئلة سأله عنها أصحابه ، ولكنه في هذا الكتاب يقول انه السائل ، ومحمد بن موسى « أبو جعفر » يجيب .

وذكره في كتابه « أعمال القلوب والجوارح » باسم أبي جعفر فقط دون محمد بن موسى .

والكتاب من مخطوطات مكتبة « شهيد علي » بتركيا ، ومنه صورة « ميكرو فيلم » بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة .

والكتاب خلاصة للقول في العودة إلى الله بداية من التوبة ، وانتهاء بالخوف من الله ، ومروراً بالصدق والمعرفة والحكمة ، والزهد والورع واليقين والرضا ، وغير ذلك من المراحل التي لا بد من المرور بها للمسلم وهو في طريقه إلى الله .

والكتاب لا تغني عنه كتبه الأخرى ففيه ما ليس في « الرعاية لحقوق الله » كالحديث عن المعرفة والحكمة وغيرهما ، وهو يعنى بتتبع الحق ونفي كل ما يعكر صفو الحق من خدع النفوس ومكائد الشيطان ، فوق أنه سبق إلى القول بحركة المعرفة والحكمة والقلوب .

وقد نسخنا الكتاب من مخطوطته واتبعنا في تحقيقه الخطوات التالية :

١ ـ تحقيق النص على نسخته الوحيدة .

٢ ـ تخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

٣ ـ مقارنة كلام المحاسبي بكلامه في كتبه الأخرى .

٤ ـ الإشارة إلى ما عند غيره من العلماء من بعض أقواله .

بدء من أناب إلى الله

هذا الكتاب ضمن مخطوطة تحمل عنوان المسائل ، تبطن آداب النفوس ، « وبدء من أناب إلى الله » ، و « العقل » ، والمكاسب . وكان من العسير العثور على هذا الكتاب ما دام العنوان لا يشير إليها .

والمصورة من مكتبة جامعة القاهرة ، عن مكتبة أحمد الجزار بعكا ، وهي مودعة بالمكتبة الأزهرية تحت رقم ١٣٦٧ تصوف .

والمصورة عصية الوضوح في بعض مواضعها ، نسخت في أوائل القرن السادس الهجري ، وقد إعتاد ناسخها تذكير المؤنث وتأنيث المذكر ، والتقديم والتأخير ، أما التصحيف والتحريف فشأنه في ذلك شأن ناسخي التراث .

ولم يضع المحاسبي عناوين للكتاب ، بل ساقها نسقاً واحداً من أوله إلى آخره ، ولذلك فصلنا بين كل موضوع وموضوع بعنوان وضعناه يتناسب مع المعروض تحته من الأفكار ، وصححنا الأخطاء ، وأعدنا المقدم والمؤخر إلى مكانه ، ولم ننبه عليه في التحقيق إختصاراً ما دام خالياً من الخطأ ، كما إضطررنا إلى إضافة بعض الكلمات لتوضيح المعنى ، ووضعناها بين علامتين هكذا (   ) ، ولم تلجأ إلى هذه الإضافة إلا عند صعوبة الفهم بدونها .

وقد علقنا على بعض مواضيع من الكتاب بما يزيد القاريء فهماً للموضوع أو بما يوضح مراد المؤلف من كلامه .

فهم الصلاة

من مخطوطات دار الكتب المصرية ، وهي عن نسخة جار الله ، ومنها مصورة في مكتبة جامعة القاهرة .

والكتاب على صغر حجمه إلا أنه تعتبر جامع لأحكام الصلاة . فهو يتناول الوضوء والصلاة من بدايتها إلى نهايتها معرضاً شروطها وأركانها .

وهو ككتاب بدء من أناب إلى الله من حيث أنه جاء نسقاً واحداً وقد اتبعنا نفس المنهج السابق لتحقيقه .

التوهم

سبق طبع هذا الكتاب مراراً ، وهو عبارة عن رحلة إلى الجنة والنار في عالم الوهم حتى يقربهما إلى المشاهدة .

وللكتاب مخطوطتان ، الأولى بإسم التوهم وهي مودعة بودليانا تحت رقم ٦١١ . أما الثاني بإسم « التوهم بكشف الأحوال ، وشرح الأخلاق » وهي مودعة بمتجانا تحت رقم ٣/٧٧٤ .

وقد جاءت هذه المخطوطات نسقاً واحداً ، وهكذا جاءت بقية الطبعات . لذلك رأينا أن نضع عناوين لكتاب ، تتناسب مع المعروض تحته من أفكار ، وقمنا بتصحيح الأخطاء الواردة في الطبعات السابقة .

هذا ولقد وفقنا الله بمنه وكرمه إلى إخراج تراث المحاسبي الذي وقعنا عليه من ظلمات الخزائن إلى نور العمل ، فاللهم تقبل منا ، وأصلح سرائرنا ، وحقق إرادتنا ، وانفعنا بالفضل ياذا الجلال والإكرام ، ونسألك أن تخلص عملنا هذا لوجهك ، وأن ترزقنا حسن النية ، وصدق الإرادة ، وأن تنفع به الناس جميعاً .

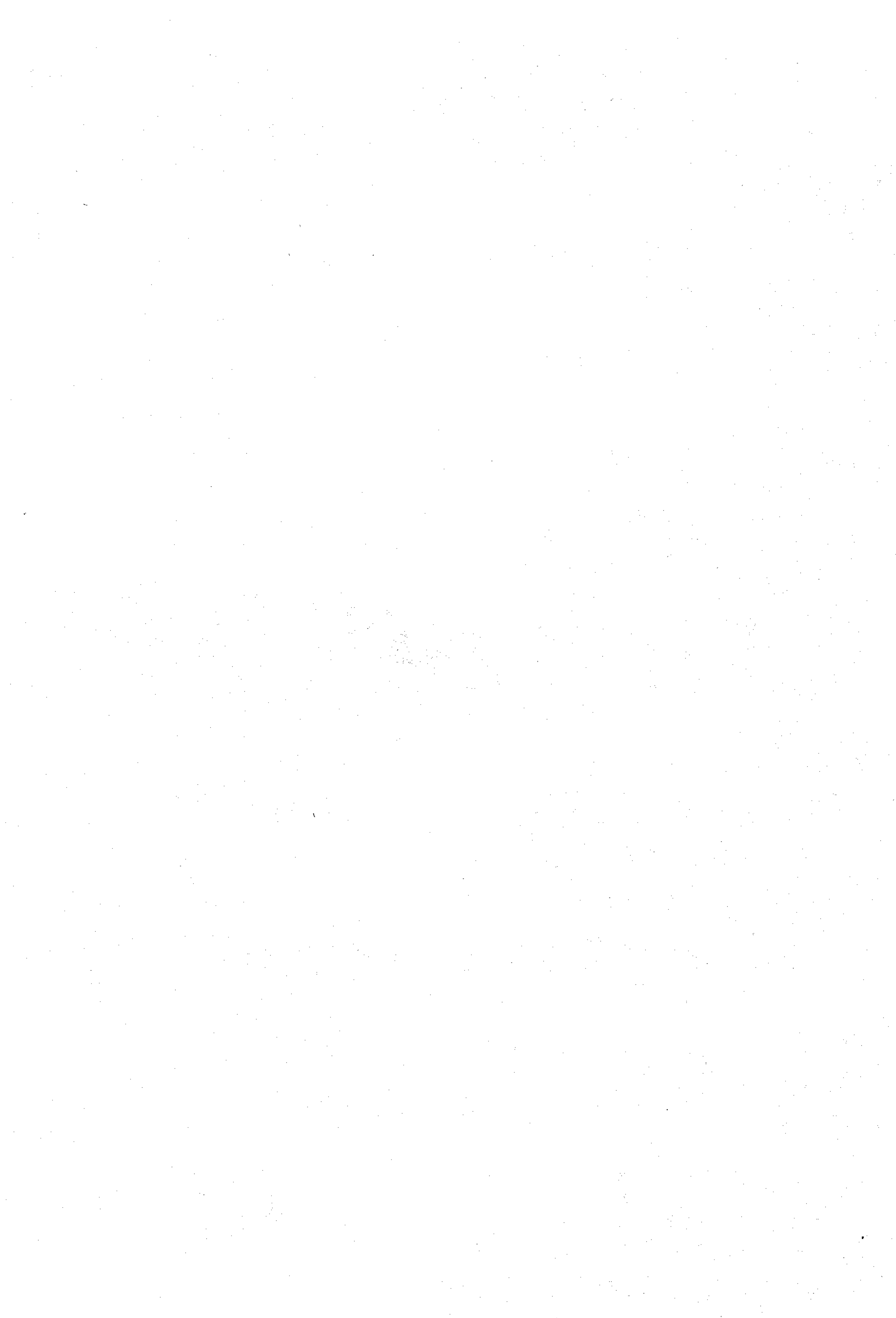
عبد القادر أحمد عطا

القاهرة في ذي العقدة ١٤٠٢ هـ

سبتمبر ١٩٨٢ م




النّصَائح



مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

الحمد لله الأول قبل كل شيء والخالق له ، والحمد لله الآخر بعد كل شيء والوارث له ، الظاهر على كل شيء والوكيل عليه . والحمد لله الباطن دون كل شيء والمحيط به من ورائه . وصلى الله على المصطفى خاتم النبيين وعلى آله .

قال الشيخ الإمام العالم الزاهد الورع ، الحارث بن أسد المحاسبي ، رضي الله عنه نصحاً لإخوانه المؤمنين ، وتأديباً لجامعة المريدين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، أما بعد .

فقد إنتهى البيان إلى أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين فرقة ، منها فرقة ناجية[1] ، والله أعلم بسائرها[2] . فلم أزل برهة من عمري أنظر إختلاف

(١) هذه إشارة إلى حديث : « إن هذه الأمة تفترق على ثلاث وسبعين فرقة . . . » أخرجه بألفاظ متقاربة : الدارمي في مسنده ، الباب ٧٥ من كتاب السير ، وأبو داود في سننه ، الباب الأول من كتاب السنة . والترمذي في سننه ، الباب ١٨ من كتاب الايمان . وإبن ماجه في سننه ، الباب ١٧ من كتاب الفتن . والامام أحمد بن حنبل ٣٣٢/٢ ، ١٢٠/٣ ، ١٤٥ . أنظر الحديث أيضاً في : كشف الخفا ١٠٠١ ، والمقاصد الحسنة ، للسخاوي ٣٤١ ، والتذكرة في الأحاديث المشتهرة ، للزركشي ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، الباب الثامن ، حديث ٣ ، جامع الأصول ٤٠٧/١٠ ، الفتح الرباني .
والحديث أورده السيوطي في الجامع الكبير بلفظ : « سيأتي على أمتي ما أتى على بني إسرائيل مثلاً بمثل ، حذو النعل بالنعل حتى لو كان فيهم من نكح أمة علانية كان في أمتي مثله . أن بني إسرائيل تفرقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار غير واحدة ، قيل : وما تلك الواحدة ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي » عزاه لابن عساكر ، عن ابن عمرو . جمع الجوامع للسيوطي ٥٤٩/١) .

(٢) هذا هو مذهب السلف رضوان الله عليهم ، لا يجزمون بتكفير المسلم ، خلافاً لما جد بعد عصر =

الأمـة ، وألتمس المنهاج الـواضـح ، والسبيـل القـاصـد ، وأطلب من العلم والعمل ، وأستدل على طريق الآخرة بارشاد العلماء ، وعقلت كثيراً من كـلام الله عـز وجـل بتـأويـل الفقهـاء ، وتـدبـرت أحـوال الأمـة ، ونـظرت في مـذاهبهـا وأقاويلها[1] ، فعلقت من ذلك ما قـدر لي ، ورأيت إختلافهم بحـراً عميقاً غـرق فيه ناس كثير ، وسلم منه عصابة قليلة .

ورأيت كل صنف منهم يزعم أن النجاة لمن[2] تبعهم ، وأن المهالـك لمن[3] خالفهم .

ثم رأيت الناس أصنافاً . فمنهم : العالم بـأمر الآخـرة[4] ، لقاؤه عسـير ، ووجـوده عزيـز . ومنهم الجاهـل ، فالبعـد منه غنيمـة . ومنهم المتشبه بـالعلماء ، مشغوف بدنياه ، مؤثر لها . ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين ، ملتمس بعلمه التعظيم والعلو ، ينال بالدين من عرض الدنيا . ومنهم حامل علم لا يعلم تأويل مـا حمل . ومنهم متشبـه بالنسـاك[5] ، متحر للخـير ، لا غنـاء عنـده ، ولا نفـاذ لعلمه[6] ، ولا متعمد على رأيه[7] . ومنهم منسـوب إلى العقل والـدهاء ، مفقـود الورع والتقي . ومنهم متوادون ، على الهواء واقفون ، وللدنيا يـذلون ، ورئاستها

= المؤلف ، حيث رمى المسلمون بعضهم بعضاً بالكفر رمياً صريحاً .

(١) وهذا منهج آخر من مناهج علماء السلف رضي الله عنهم ، لا يقرورن من العلم إلا ما عرضوه على الشـريعة السمحـة ، ولا يأنفـون من طلب العلم على غيـرهم من العلماء والفقهاء ، ولا يقـدمون للنـاس من مسائـل الوعظ إلا مـا كان بعـد فحص عن مواطن الـداء ، وعنايـة بما يحسم أمـراض القلوب والنفوس .

(٢ ، ٣) في الأصل :« من »والإضافة لتوضيح المعنى .

(٤) العالم بأمر الأخرة هو : من يعد نفسه في الدنيـا لثواب الآخـرة ، ومنهم من رقي بعلمه ، فلم يعـد نفسه به لثواب الأخرة ، بل للقرب من مولاه ، والحظوة بالحياة الهانئة في ظلال المعرفة الالهية .

(٥) النساك : العابد

(٦) أي : لا ينفذ علمه إلى قلوب السامعين .

(٧) قد يكون هذا النوع خطيراً في مسألة العقيدة إذا تصدر لـلارشاد الصـوفي ، لأن قيادة الـروح عمل بالغ الدقة ، وقد ينحرف بها غير العارف بسلوكها ، فيوقع صـاحبها في بحـر من الخزعبـلات ، أو يهوي بها في حضيض التشبيه أو التعطيل أو الإلحاد .

يطلبون . ومنهم شياطين الإنس ، عن الآخرة يصدون ، وعلى الدنيا يتكالبون ، وإلى جمعها يهرعون ، وفي الاستكثار منها يرغبون ، فهم في الدنيا أحياء ، وفي العُرف موتى ، بل العرف عندهم منكر . والاستواء [بين الحي والميت][1] معروف .

فتفقدت في الأصناف نفسي ، وضقت بذلك ذرعاً ، فقصدت إلى هدى المهتدين بطلب السداد والهدى ، وإسترشدت العلم ، وأعملت الفكر ، وأطلت النظر ، فتبين لي من كتاب الله وسنة نبيه ، وإجماع الأمة ، أن اتباع الهوى يعمي عن الرشد ، ويضل عن الحق ، ويطيل المكث في العمى .

فبدأت بإسقاط الهوي عن قلبي[2] ، ووقفت عند اختلاف الأمة مرتاداً لطلب الفرقة الناجية ، حذاراً من الأهواء المردية ، والفرقة الهالكة ، متحرزاً من الأقتحام قبل البيان ، وألتمس سبيل النجاة لمهجة نفسي .

ثم وجدت باجتماع الأمة في كتاب الله المنزل أن سبيل النجاة في التمسك بتقوى الله ، وأداء فرائضه والورع في حلاله وحرامه وجميع حدوده[3] ،

---

(١) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول ، وأضفتها لتوضيح المعنى .

(٢) الهوي : ميل النفس اللوامة والأمارة في حال ارتفاع الصفة عنها عند العزم على اقتراف إثم محبب للنفس . والهوى يعمي عن الرشد حقاً ، قال الله تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾ الآيات .

والضابط الذي يعرف به عمل الهوى من عمل العقل ، هو أن يعرض الإنسان العمل على نفسه . فإن وجد نفسه مشتاقة إليه ، راغبة فيه فهو باطل من عمل الهوى ، وإن وجد نفسه نافرة منه مستثقلة له ، فهو حق من عمل العقل ، ومرغوب الحق .

(٣) الورع في الحلال : هو تحري الحلال الخالص من شائبة الحرمة والكراهة بنوعيها ، التنزيهية والتحريمية ، وترك ما يريب إلى ما لا يريب .

والورع في الحرام : تركه وإقتلاع جذور الميل إليه من القلب . والأصل الجامع لتلك الأصول هو : التخلي والتحلي . والمراد إحلال عادة حسنة مكان العادة السيئة التي يراد اقتلاعها . وقد بعثرت تلك الوسائل التربوية السلوكية في كتب السلوك ، ومن أهمها : ترتيب النوافل ، والأوراد ، وقيام الليل وحضور الجماعات ، والاجتماع لذكر الله ، والاشتغال بأمور الأخوان . كل ذلك في نظام رتيب وأوقات معلومة لا يتخلف المريد عنها إلا لضرورة . وتلك وسيلة تربوية حديثة أقرها علم النفس الحديث ، وسار على هداها ، وإعترف بنتائجها وأثرها في تقويم الإنسان .

والاخلاص لله تعالى بطاعته ، والتأسي برسوله ﷺ .

فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء في الآثار ، فرأيت إجتماعاً وإختلافاً ، ووجدت جميعهم مجتمعين على أن علم الفرائض والسنن عند العلماء بالله وأمره ، الفقهاء عن الله ، العاملين برضوانه ، الورعين عن محارمه ، المتأسين برسوله عليه الصلاة والسلام ، والمؤثرين الآخرة على الدنيا ، أولئك المتمسكون بأمر الله وسنن المرسلين .

فالتمست من بين الأمة هذا الصنف المجتمع عليهم ، والموصوفين بآثارهم[1] . وإقتبست من علمهم ، فرأيتهم أقل من القليل ، ورأيت علمهم مندرساً كما قال رسول الله ﷺ: « بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبي للغرباء »[2] . وهم المتفردون بدينهم .

فعظمت مصيبتي لفقد الأولياء الاتقياء ، وخشيت بغتة الموت أن يفجأني على إضطراب من عمري ـ لاختلاف الأمة ـ فإنكمشت في طلب عالم لم أجد لي من معرفته بداً ، ولم أقصر في الاحتياط ، ولا في النصح ، فقيض لي الرؤوف بعباده قوماً وجدت فيهم دلائل التقوى ، وأعلام الورع وإيثار الآخرة على الدنيا .

ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى ، [ووجدتهم][3] مجتمعين على نصح الأمة ، لا يرجون أبداً في معصيته ، ولا يقنطون أبداً من رحمته، يرضون أبداً بالصبر على البأساء والضراء ، والرضا

---

(١) في الأصول : آثارهم . وما أوردناه لاستقامة المعنى .

(٢) حديث « بدأ الاسلام غريباً » : أخرجه : مسلم في صحيحه ، الحديث ٢٣٢ من كتاب الإيمان . والترمذي في سننه ، الباب ١٣ من كتاب الايمان . وإبن ماجه في سننه ، الباب ١٥ من كتاب الفتن . والدارمي في مسنده ، الباب ٤٢ من كتاب الرقاق . وأحمد بن حنبل في مسنده ١٨٤/١ ، ٣٩٨ ، ١٧٧/٢ ، ٢٢٢ ، ٣٨٩ ، ٧٣/٤ . أنظر الحديث أيضاً في : الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، دار الاعتصام ، ١٤٩ . وتاريخ بغداد ١٦٥/١١ . وحلية الأولياء ١٧٢/٨ .

(٣) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

بالقضاء ، والشكر على النعماء ، يحببون الله تعالى إلى العبيد بذكرهم إياديه وإحسانه ، ويحثون على الإنابة إلى الله تعالى ، علماء بعظمة الله ، علماء بعظيم قدرته ، وعلماء بكتابه وسنته ، فقهاء في دينه ، علماء بما يحب ويكره ، ورعين عن البدع والأهواء ، تاركين للتعمق والاغلاء ، مبغضين للجدال والمراء ، متورعين عن الاغتياب والظلم ، مخالفين لأهوائهم ، محاسبين لأنفسهم ، مالكين لجوارحهم ، ورعين في مطاعمهم وملابسهم وجميع أحوالهم ، مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، مجتزئين بالبلغة من الأقوات ، متقللين من المباح ، زاهدين في الحلال ، مشفقين من الحساب ، وجلين من المعاد ، مشغولين بينهم ، مزرين على أنفسهم من دون غيرهم ، لكل امرىء منهم شأن يغنيه ، علماء بأمر الآخرة وأقاويل القيامة ، وجزيل الثواب وأليم العقاب ، وذلك أورثهم الحزن الدائم والهم المقيم ، فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها .

ولقد وصفوا من آداب الدين صفات ، وحدوا الورع حدوداً ضاق لها صدري ، وعلمت أن آداب الدين وصدق الورع بحر لا ينجو من الغرق فيه شبهي ، ولا يقوم بحدوده مثلي ، فتبين لي فضلهم ، وإتضح لي نصحهم ، وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة ، والمتأسون بالمرسلين ، والمصابيح لمن إستضاء بهم ، والهادون لمن إسترشد .

فأصبحت راغباً في مذهبهم ، مقتبساً من فوائدهم ، قابلاً لآوابهم ، محباً لطاعتهم ، لا أعدل بهم سبباً[1] ولا أوثر عليهم أحداً ، ففتح الله لي علماً اتضح لي برهانه ، وأنار لي فضله ، ورجوت النجاة لمن اقتربه أو انتحله ، وأيقنت بالغوث لمن عمل به .

ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه . ورأيت الرين[2] متراكماً على قلب من

---

(١) في نسخة أخرى : لا أعدل بهم شيئاً .

(٢) الرين : ما يتراكم على القلوب من لذات الحرام والشبهات ، حتى يتحجر القلب ويقسو ، فلا يلين لموعظة ، ولا يرق لمعرفة ، ولا ينهض لمشاهدة ، فإذا قوي الرين صار ختماً . قال تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ .

جهله وجحده . ورأيت الحجة العظمى لمن فهمه . ورأيت انتحاله والعمل بحدوده واجباً عليَّ ، فاعتقدته في سريرتي ، وانطويت عليه بضميري ، وجعلته أساس ديني ، وبنيت عليه أعمالي ، وتقلبت فيه بأحوالي .

وسألت الله عز وجل أن يوزعني شكر ما أنعم به عليَّ ، وأن يقويني على القيام بحدود ما ما عرفني به ، مع معرفتي بتقصيري في ذلك ، وأني لا أدرك شكره أبداً .

* * *

الباب الأول

في دلائل التقوى ، وفساد الدين

إخـواني : إن الذين نعتُّهم بـالفضل والتقى أصبحـوا بين أطبـاق الثري ، وقليـل من أخلافهم في الأرض أخفيـاء لا يعرفـون ، وإني مـورد إليكم بعض مـا أفادني الله تعالى من العلم .

إني وجدت النصحاء ـ رحمـة الله عليهم ورضوانـه ـ متفقين عـلى أن سعادة العبد في الدنيا والآخرة : التمسك بتقوى الله .

ألا وأن دلالـة التقـوى : هي الـورع عن محـارم الله ، والقيـام بحـدوده ، وتصفية القلوب من مكارهه .

ووجدتهم متفقين على أن فساد الدين في الجراءة على الله تعالى .

ألا وإن دلالة الجراءة على الله عز وجل : ترك الورع ، والتعدي لحدود الله تعالى ، والإصرار على معصيته . عصمنا الله وإياكم من ذلك .

* * *

الباب الثاني

في وجوب إحراز ما يمكن من الخير

تغير معالم الدين وغلبة الهوي :

إخواني : إني تدبرت أحوالنا في دهرنا هذا ، فأطلت فيه التفكر . . فرأيت زماناً مستعصباً قد تبدلت فيه شرائع الايمان ، وانتقضت فيه عرى الاسلام ، وتغيرت فيه معالم الدين ، واندرست الحدود ، وذهب الحق وباد أهله ، وعلا الباطل وكثر أتباعه .

ورأيت فتناً متراكمة يحار فيها اللبيب .

ورأيت هوى غالباً ، وعدواً مستكلباً ، وأنفساً والهة ، وعن التفكير محجوبة . قد جللها الرياء[1] فعميت عن الآخرة .

فالضمائر والأحوال في دهرنا بخلاف أحوال السلف وضمائرهم .

ولقد بلغنا أن بعض الصحابة قال : لو أن رجلاً من السلف الصالح أنشر من قبره ، ثم نظر إلى قرائكم ما كلمهم . ولقال لسائر الناس : ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب .

---

(١) الرياء : ملاحظة الغير في العمل سواء أكان منفصلاً عن النفس ـ كملاحظة الناس ـ أم متصلاً بالنفس ـ كملاحظة الخواطر والإعجاب بها . وعلامة البراءة من الرياء : أن يستوي عند العبد العمل في الخلوة والملأ ، ويستوي عنده الثواب والعقاب ، والقبض والبسط وغير ذلك من الأحوال .

فإلى الله أشكو الذي حل بنا من التبديل والتغيير ، ومخالفة الأخيار . وبلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« يأتي على الناس زمان المستمسك يومئذ بدينه كالقابض على الحجر »[1] .

وقوله الحق ﷺ :

« المستمسك بسنتي عند فساد الناس له أجر مائة شهيد »[2] .

فلما رأيت البلاء محدقاً بحدود الدين ، والفتن بنا محيطة ، والهوى فينا مطاعاً متبعاً ، خشيت الانسلاخ من الأمر كله . فإنه بلغنا والله أعلم : أن الرجل ليسلب إيمانه وما يشعر . وأن الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه ، فيرجع وما معه من دينه شيء[3] .

فأشفقت من ذلك ونظرت على الضرورة إلى أمر هو بين أمرين ، إذا لم نكن ممن يقوم بكل ما أمر به ، فلا ينبغي لنا أن نضيع كل ما أمر الله به فنهلك هلاك الأبد .

لا عذر لأحد في تضييع شيء من أمر الله :

ألا : فراقبوا الله عز وجل إخواني . ولا تخرجوا أنفسكم من الخير كله ، ولا تقتحموا بمجهودكم في الشر كله ، ولا تميلوا بأهوائكم عن الحق كله ، ولا

---

(١) حديث « يأتي على الناس زمان » أخرجه بعدة ألفاظ : الترمذي في سننه ، الباب ٧٣ من كتاب الفتن ، وسورة ٥ من كتاب التفسير . وأبو داود في سننه ، الباب ١٧ من كتاب الملاحم . وابن ماجه في سننه ، الباب ١٧ من كتاب الفتن . والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٢ / ٣٩٠ ، ٣٩١ .

(٢) حديث « المستمسك بسنتي » : أخرجه الامام أحمد بن حنبل في مسنده ١ / ٨٤ ، ٤ / ٧٣ .

(٣) من يسلب إيمانه ولا يشعر ، كمن يحل مشاكله محتكماً إلى غير الله ورسوله ، أو يجد الضيق في صدره من قضاء الله ، أو يعمل بعقله فيما ضمنه الله وأكده . ﴿ فلا قضيت ، ويسلموا تسليماً ﴾. أما من يخرج بدينه ويعود وما معه منه شيء ، فهو كالباعة الذين يشترون بعهد الله ، وإيمان الزور كسباً قليلاً .

تستهينوا بأمر الله كله ، ولا تبارزوه بالخلاف في أحوالكم ، وتمسكوا بالقليل من كثير يجب عليكم ، وإن كان لا عذر لأحد في تضييع شيء من أمر الله ، ولكن سداد من عوز[1] ، وبعض الشر أهون من بعض ، والقليل يتمسك به خير من ذهاب الجميع . فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه :

« سيأتي بعدكم قوم إن تمسكوا بعشر ما أنتم عليه نجوا »[2] .

ألا : فتدبروا ما أقول لكم ، فقد إقتصرت على ما لا عذر دون القيام به ، وأخشى الهلاك في تضييعه أو يعفو الكريم بفضله .

* * *

---

(١) أي : كفاية من فقر وقلة .

(٢) حديث « سيأتي بعدكم » : أخرجه : البخاري في صحيحه ، الباب السادس من كتاب الشركة . وأحمد بن حنبل ٤/٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ . والترمذي في سننه ، الباب ١٢ من كتاب الفتن ، والباب ٧٩ أيضاً . وفي لفظ للترمذي : « من عمل منكم بعشر ما أمر به نجا » . وقال العراقي في تخريج الاحياء ٣/٣٣٩ : « أخرجه أحمد من رواية رجل عن أبي ذر » .

الباب الثالث

في أن المال أصل عظيم من أصول الفساد

الأخطار الناجمة عن حب المال :

إخواني : إني وجدت الأصل الذي [هـو][1] ضد الآخـرة . وأبلغ مكايـد الشيطان في فساد الأمة ، وتضييع حدود الدين .

وجدته : حب الدنيا ، والتعظيم والعلو في الدنيا . وهو أصل البلايا ورأس الخطايا ، ولذلك فرط العباد في كثير من حقوق الله تعالى ، وضيعوا من حدود الله الصلاة والصيام وسائر الفرائض .

وبحب المال والتعظيم تقلبوا في فنون الحـرام والآثام ، واستهـانوا بكثـير من أمر الله ونهيه ، ولذلك بارزوا الله بالعـظائم ، وأصروا عـلى الكبائـر ، وأتوا عـلى أنفسهم وما يشعرون . وقد حذرهم رسول الله ﷺ فتنة الدنيا .

بلغنا عنه عليه السلام أنه قال :

« لتأتينكم من بعدي دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب »[2] .

وقال عليه السلام :

---

(١) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول وأضفتها لتوضيح المعنى .

(٢) حديث « لتأتينكم من بعدي » : أورده الغزالي في الإحيـاء ، وقال العـراقي : « لم أجد له أصلاً » . أنظر : (إحياء علوم الدين ٣/١٩٤) .

« ما شيء أبغض إلى الله بعد الشرك بالله من حب الدنيا »[1] .

وقال عليه السلام :

« ما زال ربي معرضاً عن الدنيا وعمن غرته واطمأن اليها منذ خلقها إلى يوم القيامة » .

وقال ﷺ :

« هلك المتكبرون إلا من قال هكذا وهكذا عن يمينه وعن يساره وقليل ما هم »[2] .

وبلغنا أن الله تعالى أوصى إلى موسى عليه السلام : أن يا موسى لا تركن إلى حب الدنيا ، فلن تأتيني بكبيرة هي أشد عليك من حب الدنيا .

المسيح يحذر من الدنيا :

وبلغنا أن عيسى عليه السلام ، قال : « يا معشر الحواريين : الغني مسرة في الدنيا ، مضرة في الآخرة . من أقبل وأدبر بحق أقول لكم . لا يدخل الاغنياء ملكوت السموات . . . . » .

وبلغنا أن بعض السلف قال : « لان أخر من فوق قصر فأتحطم ، أحب إلي من مجالسة غني » . وقال : « إن الغني في الدنيا الرفعة ، وفي الآخرة الذل . الغني يميل شدقه ، ويسيل لعابه » . وبلغنا أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ :

---

(١) حديث : « ما شيء أبغض إلى الله . . . » : سيأتي تخريجه .

(٢) حديث « هلك المتكبرون » : أخرجه إبن ماجه في سننه ، الباب ٨ من كتاب الزهد . وأورده الغزالي في الاحياء ، وقال العراقي : « أخرجه الطبراني من حديث عبد الرحمن بن أبزي ، ابلفظ: « المكثرون » ولم يقل « في عباد الله » . ورواه أحمد من حديث أبي سعيد ، باسظ : « المكثرون » وهو متفق عليه من حديث أبي ذر ، بلفظ : « هم الأخسرون ، فقال أبو ذر : من هم ؟ فقال : هم الأكثرون أمولاً : إلا من قال هكذا » الحديث . أنظر : (إحياء علوم الدين ٢٢٦/٣) .

« أي أمتك شر ؟ قال : الأغنياء »[1]

حوار بين موسى وربه في شأن الدنيا :

ويح المحب للدنيا . . . أما إنتهى إليه أن موسى عليه السلام مر برجل وهو يبكي ، ورجع وهو يبكي . فقال موسى عليه السلام : يا رب . عبدك يبكي من مخافتك ، فقال : يا بن عمران ، لو ترك دماغه مع دموعه . ورفع يديه حتى تسقطا ، لم أغفر له وهو يحب الدنيا . أما يسمع الله عز وجل يقول :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ . أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[2] .

فهذا حال المحبين للدنيا ، أعاذنا الله واياكم من حبها .

صلاح الأمة وفسادها بصلاح العلماء وفسادهم :

إخواني : اعلموا أن صلاح الأمة وفسادها بصلاح العلماء وفسادهم ، وإن من العلماء رحمة على الناس ، يسعد من إقتدى بهم ، وإن من العلماء فتنة على الأمة ، يهلك من تأسى بهم .

علامات الصالحين من العلماء :

فالعالم إذا كان عاملاً برضوان الله ، مؤثراً للآخرة على الدنيا ، فأولئك

---

(١) حديث : « أي أمتك شر ؟ » : أورده الغزالي في الإحياء ٢١٨/٣ ، وقال العراقي ، لم أجده بهذا اللفظ ، وللطبراني في الأوسط ، والبيهقي في الشعب من حديث عبد الله بن حوشب ، ضعيف . ورواه هناد بن السري في الزهد له ، من رواية عروة بن رويم مرسلاً ، وللبزار من حديث أبي هريرة بسند ضعيف ، بلفظ : « إن من شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم وبنت عليه أجسامهم . . . » . ولفظ البيهقي : « شرار أمتي الذين ولدوا في النعيم وغذوا به ، يأكلون من الطعام ألواناً »

(٢) سورة : هود ، آية : ١٥ ، ١٦

خلفاء الرسل عليهم السلام ، والنصحاء للعباد ، والدعاة إلى الله تعالى ، وأولئك رفقاء الأنبياء على منابر النور ، في الحلي والحلل يكرمون ويحبرون . وفي الأقارب والأباعد يشفعون. إذ الخلائق ببعثهم مشغولون ، أولئك رحمة الله على الأمة ، وبركته عليهم ، يدعون إلى سبيل النجاة . فسعد من أجابهم وفاز من إقتدي بهم ، ولهم مثل أجر المتأسين بهم. وقد جاءت الآثار بنعتهم .

بلغنا أن بعض أهل العلم تلى هذه الآية :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى ٱللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[1] . قال : هذا حبيب الله ، هذا ولي الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله في دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته ، وعمل صالحاً في إجابته ، وقال إنني من المسلمين . إن هذا خليفة الله .

يا قوم : فبمثل هذا العالم إقتدوا ، وبه تأسوا وتعوذوا تسعدوا .

فتنة المنافقين من العلماء :

ألا : إن صنفاً من العلماء رضوا بالدنيا عوضاً عن الآخرة ، فآثروها على جوار الله تعالى ، ورغبوا في الإستكثار منها ، وأحبوا العلو فيها ، فتأسى بهم عالم من الناس ، وإفتتن بهم خلق كثير . أولئك أسوأ فتنة على الأمة .

تركوا النصح للناس كيلا يفتضحوا عندهم . ويحبهم الدنيا كيف ينالون [الخير][2] بوعيد الله إياهم ، وشروا بالعلم ثمناً قليلاً . لقد خسروا وبئس ما اتجروا ، واحتملوا أوزارهم مع أوزار المتأسين بهم ، فهلكوا وأهلكوا . أولئك خلفاء الشيطان ، ودعاة إبليس ، أقل الله في البرية مثلهم .

---

(١) سورة : فصلت ، آية : ٣٣ .

(٢) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول وأضيفت لتمام المعنى .

وقـد حذر رسـول الله ﷺ فتنة العـالم المؤثـر للدنيـا . بلغنـا أن رسـول الله ﷺقال :

« الفقهاء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الـدنيا . فـإذا فعلوا ذلك فـإتهموهم على دينهم »[١] .

وقال عليه السلام :

« لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وفي كنفه ما لم يجل قراؤهم أمراءهـم ، وما لم يزكِ[٢] خيارها شرارها ، وما لم يميز صلحاؤها فجارها ، فـإذا فعلوا ذلك رفـع الله عنهم يده ، وسلط عليهم الجبابرة فيسومونهم سوء العذاب »[٣] .

وقال عليه السلام :

« لا تقوم الساعة حتى يكون أمناء خونة ، وقراء فسقة ، ليست لهم هيبة[٤]

---

(١) حـديث : « الفقهاء أمنـاء الرسـل » . أخرجـه : العسكري عن علي مرفـوعـاً ، بسنـد ضعيف ، وأخـرجه العقيـلي ، عن أنس ، بلفظ : « العلماء أمناء الـرسل مـا لم يخالـطوا السلطان ، ويدخلوا الدنيا ، فإذا خالطوا السلطان ودخلوا الدنيا فقد خـانوا الـرسل فـإحذروهم » وقـال : حديثـه غير محفوظ . وأخرجـه القضاعي في الشهـاب ، وإبن عساكـر بلفظ : « العلماء أمناء الله في خلقـه » . وأخـرجه الـديلمي في الفردوس ، عن عثمـان ، بلفظ : « العلماء أمناء أمتي . . . » وأخـرجه ابن عبـد البـر عن معـاذ ، بلفظ : « العـالم أمـين الله تعـالى في أرضـه » أنـظر : (المقـاصـد الحسنـة للسخاوي ، ٧٤٦ . وكشف الخفا ١٨٣٨ . وإحياء علوم الدين ٢/١٤١) .

(٢) يزكِ : يصلح . وأصل الزكاة في اللغة ، الطهارة والنماء والبركة والمدح . قال تعـالى : ﴿ ولكن الله يزكي من يشاء﴾ . أي : يصلح . (لسان العرب ١٨٤٩)

(٣) حـديث « لا تزال هـذه الأمة » . أورده الغـزالي في الإحياء ٢/١٤٩ ، بلفظ : « . . . مـا لم يمـالي قراؤها إمراءها » وعزاه العراقي لأبي عمر الداني في كتاب الفتن من رواية الحسن مرسلاً . وأخرجه الديلمي في الفردوس من حديث علي وإبن عمر ، بلفظ : « . . . ما لم يعـظم أبرارهـا فجارهـا ، ويداهن خيارها شرارها » ، وإسنادهما ضعيف .

(٤) في الأصل : جاءت هـذه الكلمة هكـذا : « دعه » . والتصحيح لنا ، والبـاب في النسخة الثـانية ناقص .

وتغشاهم . فتنة وظلمة يتهوكون[1] كما يتهوك اليهود في الظلمة »[2] .

وبلغنا أنه قيل : يا رسول الله ، أي الناس أشر ؟ فقال :

« اللهم غفرا ـ شرار أمتي شرار العلماء »[3] .

وبلغنا أن بعض الصحابة قال : يأتي على الناس زمان مساجدهم عامرة ، خربة من الهدى . وذلك أن علماءهم شر من تظله السماء » .

وبلغنا أن الله عز وجل أوحى إلى داود عليه السلام : « لا تستشر في أمرك عالماً أسكره حب الدنيا ، فيسقطك بسكره عن طريق محبتي ، أولئك قطاع الطريق على عبادي المريدين » .

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : « من إزداد بالله علماً ، فإزداد للدنيا حباً ، إزداد من الله بعداً » .

وبلغنا أنه ذكر بعض أهل العلم مجالسة العلماء ، فقال : « إن شئت ففي مجالسة بعضهم لفتنة ، إذا كان العالم مفتوناً بالدنيا ، راغباً فيها ، حريصاً عليها ، فإن مجالسته لفتنة تزيد الجاهل جهلاً . وبفتن العالم يزيد الفاجر فجوراً . ويفسد قلب المؤمن » . وقال : « إن علماء السوء جلسوا على طريق الآخرة ، فقطعوا العباد عن الله » . ثم بكي .

وبلغنا عن عيسى عليه السلام أنه قال : « علماء السوء يصومون ويصلون ويتصدقون ولا يفعلون ما يؤمرون ، ويدرسون ولا يعلمون ، فَسَاءَ ما يحكمون ،

---

(١) يتهوكون : يتحيرون ، وفي الحديث : « أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى ؟ » . قال الحسن : « معناه متحيرون » . (مختار الصحاح ٧٠٢)

(٢) حديث « لا تقوم الساعة » : لم أجده بهذا اللفظ ، وللحاكم في مستدركه ، عن إبن مسعود قال : « يكون عليكم امراء يتركون من السنة مثل هذا ـ وأشار إلى أصل إصبعه ـ وإن تركتموهم جاءوا بالطامة الكبرى ، . . . . » . وقال الحاكم : « هذا صحيح على شرط الشيخان » ولم يخرجاه » . (المستدرك ٤/٥١٩)

(٣) حديث « اللهم غفرا » : أخرج معناه الدارمي من حديث الأحوص ، عن أبيه مرسلاً . أنظر : (إحياء علوم الدين ١/٧٥ ، وكشف الخفا ١٥٣٥) .

يتوبون بالقول والأماني ، ويعملون بالهوى ، وما يفي عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة »[1] .

بحق أقول لكم : لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ، وتبقى فيه النخالة ، كذلك أنتم . تخرجون الحكمة من أفواهكم ، ويبقى الغل في صدوركم .

يا عبيد الدنيا : كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ؟ ولا تنقطع منها رغبته ؟ بحق أقول لكم : إن قلوبكم تبلى من أعمالكم . جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم ، والعلم تحت أقدامكم . بحق أقول لكم : أقوالكم أفسدت آخرتكم ، وصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة . فأي الناس أخسر منكم لو تعلمون !!

ويلكم ، متى تصفون الطريق للمدلجين[2] ؟ وتقيمون في محلة المتحبرين[3] ؟ كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم[4] . مهلاً . مهلاً . ويلكم . ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه موحش مظلم . كذلك لا يغني عنكم أن يكون العلم بأفواهكم وأجوافكم منه موحشة مظلمة معطلة .

يا عبيد الدنيا : فلا كعلماء يعملون ، ولا كعبيد أتقياء ، ولا كأحرار كرام ، يوشك للدنيا أن تقلعكم . فتقلبكم على وجوهكم ، ثم تكبكم على مناخركم ، ثم تأخذ بنواصيكم ، ثم يدفعكم العلم إلى خلفكم[5] ، ثم

---

(١) في الأصل : جاءت هذه الكلمة هكذا : (دعه) والتصحيح لنا . والباب في النسخة الثانية ناقص .

(٢) المدلج : المسافر ليلاً . والمراد : السائرون إلى الله .

(٣) يعني : المتشبهين بالأحبار . وليس المراد التشبه في جنس العلم ، أو السلوك . بل المراد : الانقطاع للعلم وسلوك طريقه .

(٤) أي : تدعون أهل الدنيا لترك الدنيا لتصفو لكم . وهكذا طائفة من العلماء يعظون الناس ، وينفردون بفعل ما نهوا عنه الناس .

(٥) قد يدفع العلم إلى الوراء ، إذا حاول العلماء الإحتجاج لأعمال السوء التي يعملونها بالتأويل .

يسلمكم إلى الملك الديان عراة فرادى ، فيوقفكم على سوآتكم ، ثم يجزيكم بسوء أعمالكم .

إخواني : فهؤلاء علماء السوء ، شياطين الإنس ، وفتنة على الناس ، رغبوا في عرض الدنيا ورفقتها ، وآثروها على الآخرة ، وأذلوا الدين للدنيا فهم في العاجل عاروشين ، وفي الآخرة هم الخاسرون ، أو يعفو الكريم بفضله .

وبعد ، فاني رأيت الهالك الخاسر المؤثر للدنيا سروره ممزوج بالتنغيص ، تنفجر منه أنواع الهموم ، وفنون المعاص ، وإلى التلف والبوار مصيره ، فعاد فرح الهالك ترحاً[1] ، لم تبق له الدنيا ، ولم يسلم له دينه ، بل خسر الدنيا والآخرة بحبه للعاجل ، ولم يعلم[2] الهالك ما قدر له . ألا ذلك هو الخسران المبين .

الإحتجاج بجمع المال إتهام لله ورسوله ﷺ :

فيا لها من مصيبة ما أفظعها ! ورزية ما أجلها[3] ! ألا : فراقبوا الله إخواني ، ولا يغرنكم الشيطان وأولياءه من الانس بالحجج الداحضة عند الله عز وجل ، فإنهم يتكالبون على الدنيا ، ثم يطلبون لأنفسهم المعاذير والحجج ، ويزعمون أن أصحاب رسول الله ﷺكانت لهم الأموال ، فتزين المضرورون بذكر الصحابة ، ليعذرهم الناس على جمع الأموال ، ولقد دهاهم الشيطان وما يشعرون .

فساد الإحتجاج بمال عبد الرحمن بن عوف وغيره من الصحابة :

ويحك أيها المفتون !! إن إحتجاجك بمال عبد الرحمن بن عوف مكيدة من الشيطان ، ينطق بها لسانك لتهلك ، لأنك متى زعمت : أن خيار الصحابة

---

(١) الترح : ضد الفرح . وبابه طرب (مختار الصحاح ٧٦)
(٢) في الأصل : ولم يقد .
(٣) في الأصل : ما أجملها . تحريف .

أرادوا المال للتكاثر والشرف والزينة ، لقد اغتبت السادة ونسبتهم إلى أمر عظيم .

ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه . فقد إزدريت بمحمد ﷺ والمرسلين ونسبتهم إلى قلة الرغبة والزهد في هذا الخير الذي رغبت فيه أنت وأصحابك من جمع المال ، ونسبتهم إلى الجهل ، إذا لم يجمعوا المال كما تجمع المال .

ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه ، فقد زعمت : أن رسول الله ﷺ لم ينصح الأمة ؛ إذ نهاهم عن جمع المال ، وقد علم أن جمع المال خير للأمة ، فقد غشهم بزعمك ، حين نهاهم عن جمع المال .

كذبت ورب السماء على رسول الله ﷺ، لقد كان للأمة ناصحاً ، وعليهم مشفقاً ، وبهم رؤوفاً .

نعم ، ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه ، فقد زعمت أن الله عز وجل لم ينظر لعباده حين نهاهم عن جمع المال ، وقد علم أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه ، فقد زعمت أن الله عز وجل لم يعلم أن الفضل والخير في جمع المال ، فلذلك نهاهم عنه ، وأنت أعلم بما في المال من الفضل والخير في جمع المال من ربك ، تعالى عن جهلك .

أيها المفتون : تدبر ما دهاك به الشيطان ، حين زين لك الإحتجاج بمال الصحابة .

ويحك !! وما ينفعك الاحتجاج بمال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، فقد ود عبد الرحمن بن عوف في القيامة أنه لم يؤت من الدنيا أكثر من قوت يومه . وبلغنا عن رسول الله ﷺ قال :

« ما من أحد من الناس يوم القيامة غني ولا فقير إلا ود أنه لم يؤت من الدنيا إلا قوتاً »[1] .

---

(١) حديث « ما من أحد من الناس » : أخرجه ابن ماجه من رواية نفيع بن الحارث ، عن أنس ، قال العراقي : « ونفيع ضعيف » . (إحياء علوم الدين ٣/٥٣٢) .

بين كعب وأبي ذر :

ولقد بلغني أنه لما توفي عبد الرحمن بن عوف ، قال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ : إنما نخاف على عبد الرحمن بن عوف فيما ترك فقال كعب[1] : سبحان الله وما تخافون على عبد الرحمن بن عوف ؟ كسب طيباً ، وأنفق طيباً . فبلغ أبا ذر[2]، فخرج مغضباً يريد كعباً ، فمر بلحي عظم بعير ، فأخذه بيده ثم إنطلق يطلب كعباً ، فقيل لكعب ، إن أبا ذر يطلبك ، فخرج هارباً حتى دخل على عثمان بن عفان رضي الله عنه يستغيث به ، وأخبره ، فأقبل أبو ذر يقتصي الأثر في طلب كعب ، حتى إنتهى إلى دار عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فلما دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هارباً من أبي ذر ، فقال له أبا ذر : هيه يا بن اليهودية ، أتزعم ألا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ؟ لقد خرج رسول الله ﷺ يوماً يمشي في المدينة نحو أحد وأنا معه ، فقال :

« يا أبا ذر . قلت : لبيك يا رسول الله . فقال : الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة . إلا من قال بالمال هكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ، وقدامه وخلفه ، قليل ما هم . ثم قال : يا أبا ذر . قلت : نعم يا رسول الله . بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، قال ما يسرني أن لي مثل أحد ذهباً ، أنفقه في سبيل الله ، أموت يوم القيامة يوم القيامة وأترك منه قيراطين . ثم قال : يا أبا ذر ، وأنت تريد الأكثر وأنا أريد الأقل »[3] .

فرسول الله ﷺ يريد هذا ، وأنت تقول - يا بن اليهودية - لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ؟ كذبت وكذب من قال مثل هذا . فلم يرد عليه حرفاً حتى خرج .

---

(١) هو كعب الأحبار ، أحد اليهود الذين أسلموا ، ويروى عنه كثير من الاسرائيليات في كتب العلم ، وكان مجتهداً في العبادة .

(٢) هو أبو ذر الغفاري ، كان له مذهب خاص في الأموال ، مجمله : أنه لا يجوز إقتناء المال ، بل يجب أن يتخلص كل إنسان من ماله للفقراء والمساكين ، ومصارف الأموال الشرعية ، ويرى البعض أنه تاثر بدعوة لإبن سبأ ، وفيه نظر .

(٣) سبق تخريجه في حديث : « الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة . إلا من قال بالمال هكذا » .

وبلغنا أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قدمت عليه عير[1] من اليمن فضجت المدينة ضجة واحدة ، فقالت عائشة رضي الله عنها : ما هذا ؟ فقيل : عير قدمت المدينة لعبد الرحمن بن عوف ، فقالت : صدق رسول الله . فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف ، فسألها فقالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إني رأيت الجنة ، فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلونها سعياً ، ولم أر أحداً من الأغنياء يدخلها معهم حبواً »[2] .

فقال عبد الرحمن : أشهد الله تعالى أن العير وما عليها في سبيل الله ، وإن أرقاءها أحرار ، لعلي أدخل معهم سعياً .

وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن بن عوف :

« أما أنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي ، وما كدت أن تدخلها إلا حبواً »[3] .

ويحك أيها المفتون في احتجاجك بالمال !! وهذا عبد الرحمن بن عوف في فضله وتقواه وصنائعه المعروف ، وبذله المال في سبيل الله مع صحبته لرسول الله ﷺ ، وبشراه له بالجنة ، يوقف في عرصة القيامة وأهوالها بسبب ما كسبه من حلال ، للتعفف ولصنائع المعروف ، وأنفق منه قصداً ، وأعطى في سبيل الله سخاء ، منع من السعي إلى الجنة مع فقراء المهاجرين ، وصار يحبو في آثارهم ، فما ظنك بأمثالنا الغرقى في فتن الدنيا ؟ !!

---

(١) العير : قافلة تحمل تجارة .

(٢) حديث « إني رأيت » لم أجده بهذا اللفظ ، ولأحمد بن حنبل في مسنده ٢/١٦٨ ، بلفظ : « أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء والمهاجرون » . وأخرجه رواية أخرى ٣/٢٢٤ ، بلفظ : « يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء . وسيأتي حديث بمعناه .

(٣) حديث « أما أنك أول من يدخل الجنة : أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، ٦/١١٥ . وقال العراقي في تخريج الإحياء ٣/٢٦٠ : « رواه البزار من حديث أنس ، بسند ضعيف ، والحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف ، وقال : « صحيح الإسناد » . قلت : بل ضعيف ، فيه خالد بن مالك ، ضعفه الجمهور » .

وبعد : فالعجب كل العجب لكل مفتون تمرغ في تخاليط الشبهات والسحت ، وتكالب على أوساخ الناس ، وتغمض في المكاسب ، من حيث ما ظفر بها تناولها !!

نعم . وتتقلب في الشبهات والزينة والمباهاة ، وتتقلب في فتن الدنيا ، ثم تحتج بعبد الرحمن بن عوف ، وتزعم : أنك جمعت المال فقد جمعته الصحابة ، كأنك أشبهت السلف وفعلهم !!

ويحك !! إن هذا من قياس إبليس ، ومن فتياه لأوليائه ، وسأصف لك أحوالك وأحوال السلف ،فتعرف فضائحك ، وفضل الصحابة بأموال أرادوها للتعفف والبذل في سبيل الله ، فكسبوا حلالاً ، وأكلوا طيباً . وأنفقوا قصداً ، وقدموا فضلاً ، ولم يمنعوا منها حقاً ، ولم يبخلوا بها ، لكنهم جادوا والله بأكثرها ، وجاد بعضهم بجميعها ، وفي الشدة آثروا على أنفسهم كثيراً ، فبالله أكذلك أنت ؟ والله إنك لبعيد الشبه بالقوم .

تفصيل حال الصحابة في جمع المال :

وبعد: فإن خيار الصحابة كانو للمسكنة محبين، ومن خوف الفقر آمنين، وبالله عز وجل مسرورين وفي البلاء راضين ، وفي الرضا شاكرين ، وفي الضراء صابرين ، وفي السراء حامدين ، وكانوا لله متواضعين ، وعن حب العلو والتكاثر ورعين ، لم ينالوا من الدنيا إلا المباح لهم ، ورضوا بالبلغة منها ولا رجو الدنيا ، وقد أقرضوها قرضاً[١] وقطعوا أمورها قطعاً ، وصبروا على مكارهها ، وتجرعوا مرارتها ، وزهدوا في نعيمها وزهرتها ، فبالله أكذلك أنت ؟ والله إنك لبعيد الشبه بالقوم .

ولقد بلغنا أنهم كانوا إذا أقبلت الدنيا عليهم حزنوا[٢] ، وقالوا : ذنب عجلت عقوبته ، وإذا رأوا الفقر مقبلاً قالوا : مرحباً بشعار الصالحين .

---

(١) في الأصل : وقد رضوها . تحريف .

(٢) في الأصل : يحزنوا .

وبلغنا أن بعضهم كان إذا أصبح يوماً وعند عياله شيء ، أصبح كئيباً حزيناً . وإذا لم يكن عندهم شيء ، أصبح فرحاً مسروراً . فقيل له : الناس بالعكس . إذا لم يكن عندهم شيء حزنوا ، وإذا كان عندهم شيء فرحوا ، وأنت لست كذلك[1] . قال : إني إذا أصبحت وليس عند عيالي شيء فرحت ، إذا كان لي بمحمد ﷺ أسوة ، وإذا كان عند عيالي شيء إغتممت ، إذ لم يكن لي يومئذ بآل محمد ﷺ أسوة .

وبلغنا : أنهم كانوا إذا سلك بهم سبيل الرخاء حزنوا ، وأشفقوا ، وقالوا : ما لنا ولهذا ؟ وما يراد بنا ؟ فكأنهم على جناح خوف ، وإذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا وإستبشروا ، وقالوا : الآن تعاهدنا ربنا . وكان بعضهم يقول : إن أسر أيامي عليّ يوم أرجع إلى أهلي فيشكون إلى الحاجة .

وبلغنا أن بعض الصحابة قال : إن أسر أيامي إلى أن يقال : ليس في البيت شيء ولا دينار ولا درهم ولا طعام . لأن الله إذا أحب عبداً إبتلاه .

فهذه أحوال السلف ونعتهم ، وفيهم من الفضل أكثر مما وصفنا . فبالله أكذا أنت ؟ و الله إنك لبعيد الشبه بالقوم .

تفصيل حال المفتونين بالمال من أهل الدنيا :

وسأصف لك أحوالك أيها المفتون ضداً لأحوالهم . ذلك بأنك تطغى عند الغنى ، وتبطر في الرخاء ، وتفرح عند السراء ، وتغفل عن شكر النعماء ، وتقنط عند الضراء ، وتسخط عند البلاء ، ولا ترضى بالقضاء .

نعم . وتبغض الفقر ، وتأف من المسكنة ، وذلك فخر المسلمين وأنت تنفر[2] من فخرهم . وتدخر المال تجمعه خوفاً من الفقر ، وذلك من سوء الظن بالله ، وقلة اليقين بضمانه ، وكفى بهذا إثماً .

---

(١) في الأصل : ليس كذلك . تصحيف .

(٢) في الأصل : تفخر . تحريف .

وعساك تجمع المال لنعيم الدنيا وزهراتها وشهواتها ، وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

« شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم وبليت عليه أجسامهم »[1] .

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : « ليجيئن يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم ، فيقال لهم : أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ، وإستمتعتم بها . وأنت في غفلة ، قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدنيا ، فيا لها حسرة ومصيبة .

نعم . وعساك تجمع المال للتكاثر والعلوم والفخر والزينة في الدنيا . وقد بلغنا أن من طلب الدنيا ليكاثر بها ، أو يفاخر بها ، لقي الله وهو عليه غضبان . وأنت غير مكترث لما حل بك من غضب الله حين أردت التكاثر والعلو .

نعم . وعسى المكث في الدنيا أحب إليك من النقلة إلى جوار الله عز وجل . فأنت تكره لقاء الله ، والله أكره للقائك ، وأنت في غفلة ، وعساك تأسف على ما فاتك من عرض الدنيا .

---

(١) حديث : « شرار أمتي » : أخرجه البزار من حديث أبي هريرة ، بسند ضعيف . وأورده العجلوني في كشف الخفا وقال : « أخرجه إبن أبي الدنيا في ذم الغيبة ، والبيهقي ، عن فاطمة الزهراء ، بسند ضعيف . وأورده السيوطي في الجامع الكبير بألفاظ مختلفة نسوقها هنا :

الأول : بلفظ « شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم ، الذين يأكلون الطعام ، ويلبسون ألوان الثياب ، ويتشدقون في الكلام » . وعزاه السيوطي لإبن أبي الدنيا في ذم الدنيا . وإبن عدي في كامله ، والبيهقي في شعب الايمان ، وابن عساكر عن عبد الله بن الحسن ، عن أمه ، عن فاطمة الزهراء .

الثاني : « شرار أمتي الذين ولدوا في النعيم وغذوا به ، يأكلون من الطعام ألواناً ، ويلبسون من الثياب ألواناً ، ويركبون من الدواب ألواناً ، يتشدقون في الكلام » . وعزاه للحاكم في المستدرك وقال السيوطي : وتعقب عن عبد الله بن جعفر » .

الثالث : « شرار أمتي الذين غذوا في النعيم ، وأن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاص ، بل الإمام الظالم هو العاصي ، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » . وعزاه للديلمي في الفردوس عن إبن عباس . أنظر : (الجامع الكبير ١/٥٥٤ ، وكشف الخفا ١٥٣٧) .

وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

« من أسف على الدنيا فأتته ، إقترب من النار مسيرة سنة »[1] .

وأنت تأسف على ما فاتك غير مكترث بقربك من عذاب الله تعالى .

نعم . ولعلك تخرج من دينك أحياناً لتوفير دنياك ، وتفرح بإقبال الدنيا عليك ، ويرتاح له قلبك سروراً ، وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

« من أحب الدنيا وسرته ذهب خوف الآخرة من قلبه »[2] .

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : « إنك لمحاسب على ما فاتك من الدنيا ، ومحاسب بفرحك بالدنيا إذا قدرت عليها . من أحب الدنيا وسرته نزع خوف الآخرة من قلبه ، وأنت تفرح بدنياك وقد سلبت الخوف من الله تعالى .

نعم . وعساك تعني بأمر دنياك أضعاف عنايتك بأمور آخرتك ، وعسى مصيبتك في إنتقاص دنياك . نعم وخوفك من ذهاب مالك أضعاف خوفك من الذنوب . وعساك تبذل ما جمعت من الأوساخ كلها للعلو والرفعة في الدنيا ، وعساك ترضي المخلوقين بمساخط الرب ، كيما تبر وتكرم وتعظم .

ويحك !! فكأن إحتقار الله لك يوم القيامة أهون عليك من إحتقار الناس إياك ، وعساك تخفي من المخلوقين مساويك ، ولا تكترث لاطلاع الله عليك فيها ، وكأن الفضيحة عند الله أهون عليك من الفضيحة في الناس ، وكأن العبيد عندك أعلى قدراً من الله عز وجل . تعالى الله عن جهلك .

ويحك . بل ويلك !! هل بقي من الأسواء شيء لم تحتو عليه نفسك ؟ فكيف أنت عند ذوي الألباب وهذه المسائل الفاضحة فيك . وأنت تتلوث في الأقذار . وتحتج بمال الأبرار ؟

---

(١) حديث « من أسف على الدنيا » : أخرجه إبن أبي الدنيا في ذم الدنيا .

(٢) حديث « من أحب الدنيا » : أورده الغزالي في الإحياء ، وقال العراقي : « لم أجده إلا بلاغاً للحارث بن أسد المحاسبي كما ذكره المصنف عنه » . (إحياء علوم الديم ٣/٢٦٢) .

هيهات : ما أبعدك من السلف ! ووالله لقد بلغني أنهم كانوا فيـما أحل الله لهم أزهـد منكم فيما حـرم عليكم . إن الذي لا بـأس بـه عنـدكم من المـوبقـات عندهم . وكانوا[1] للزلة الصغيرة أشد إستعظاماً منكم للكبائر والمعاصي .

وليت أطيب مـالـك وأحله عندك كـان مثـل شبهـات أمـوالهم . وليتـك أشفقت من سيئاتك كما أشفقوا من حسناتهم ألا تقبل منهم . وليت صـومك عـلى مثل إفطارهم ، وليت إجتهادك في العبادة على مثل فتورهم ونومهم . وليت جميـع حسناتك على مثل واحدة من حسناتهم .

ولقـد بلغني أن بعض الصحابـة قال : « غنيمـة الصـديقـين مـا فـاتهم من الدنيا ، ونهمتهم ما زوي عنهم منها ، فمن لم يكن كذلك فليس معهم في الدنيا ، ولا معهم في الآخرة » . فسبحان الله !! كم بين الفريقين من التفاوت ، فريق مع خيـار الصحابـة في العلو عنـد الله ، وفـريق مـع أمثـالهم في الأسفلين ، أو يعفـو الكريم بفضله .

قلة الحلال في أيامنا :

وبعد . فإن زعمت بأنك متأس بالصحابة ، تجمع المال للتعفف والبـذل في سبيل الله ، فتدبر أمرك .

ويحك !! هل تجـد في دهرك من الحـلال كما وجـدوا في دهرهم ؟ أو تحسب أنك تحتاط في طلب الحلال كما إحتاطوا ؟ . لقد بلغني أن بعض الصحابـة قال : « كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحـرام ، أفتطمـع من نفسك في مثل هذا الاحتياط ؟ . لا ورب الكعبة . ما أحسبك كذلك .

ويحـك !! كن على يقـين أن جمع المـال لأعمـال البـر مكـر من الشيـطان ، يوقعك بسبب البر في إكتساب الشبهات الممزوجـة بالسحت والحـرام . وقد بلغنـا أن رسول الله ﷺ قال :

---

(١) في الأصل : وكان .

« من إجترأ على الشبهات أوشك أن يقع في الحرام »[1] .

أيها المغرور : أما علمت أن خوفك من الاقتحام في الشبهات أعلى وأعظم لقدرك عند الله من إكتساب الشبهات وبذلها في سبيل الله وسبيل البر ؟ بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم . قال : « لأن تدع درهماً واحداً مخافة ألا يكون حلالاً ، خير من أن تتصدق بألف دينار من شبهة لا تدري تحل لك أم لا » .

وبعد . فإن زعمت أنك أتقى وأورع من أن تتلبس بالشبهات ، وإنما تجمع المال من الحلال بزعمك للبذل في سبيل الله .

ويحك !! إن كنت كما زعمت بالغاً في الورع فلا تتعرض[2] . فإن خيار الصحابة خافوا المساءلة . وبلغنا أن بعض الصحابة قال : ما يسرني أني أكتسب كل يوم ألف دينار من حلال وأنفقه في طاعة الله ، ولم يشغلني الكسب عن صلاة الجماعة . قالوا : ولم ذلك يرحمك الله ؟ قال : لأني غني عن مقام يوم القيامة . فيقول الله تعالى : عبدي من أين اكتسبت ؟ وفي أي شيء أنفقت ؟ فهؤلاء المتقون كانوا في جدة الاسلام والحلال موجود لديهم . تركوا المال وجلاً من الحساب مخافة ألا يقوم خير المال بشره . وأنت من نفاية الأمة ، والحلال في دهرك مفقود تتكالب على الأوساخ ، ثم تزعم أنك تجمع المال الحلال .

ويحك !! وأين الحلال فتجمعه ؟

مسؤوليات المال أمام الله :

وبعد . فلو كان الحلال موجوداً لديك ، أما تخاف أن يتغير عند الغني قلبك ؟فقد بلغنا أن بعض الصحابة كان يرث المال الحلال فيتركه مخافة أن يفسد

---

(١) حديث « من اجترأ على الشبهات » : أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ٤/٢٦٧ ، ٢٧١ . والبخاري في صحيحه ، الباب ٣٩ من كتاب الإيمان . ومسلم في صحيحه ، حديث ١٠٧ من كتاب المساقاة . وسنن أبي داود ، الباب ٣ من كتاب البيوع . وابن ماجه في سننه ، الباب ١٤ من كتاب الفتن . والدارمي في مسنده ، الباب الأول من كتاب البيوع .

(٢) أي : فلا تتعرض للابتلاء ، ولا تخدع نفسك ، بل دع ما يريبك إلى ما لا يريبك

قلبه . أفتطمع أن يكون قلبك أنقى من قلوب الصحابة ؟ فلا تزول عن شيء من الحق في أمرك وأحوالك ؟ لئن ظننت ذلك لقد أحسنت الظن بنفسك الامارة بالسوء .

ويحك : إني لك ناصح . أرى لك أن تقنع بالبلغة ولا تجمع المال لأعمال البر ، ولا تتعرض للحساب ، فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

« من نوقش الحساب عذب »(١)

وقال ﷺ :

« يؤتى بالرجل يوم القيامة ، وقد جمع مالاً من حرام ، فانفقه في حرام ، فيقال : إذهبوا به إلى النار . ويؤتى بالرجل قد جمع مالاً من الحلال ، فأنفقه في حرام ، فيقال : إذهبوا به إلى النار . ويؤتى بالرجل قد جمع مالاً من حلال ، وأنفقه في حلال ، فيقال له : قف . لعلك اضررت في طلب المال بشيء مما فرض عليك من صلاة لم تصلها في وقتها ، أو فرطت في شيء من ركوعها وسجودها ووضوئها . فيقول : لا يا رب . لقد كسبت طيباً من حلال ، وأنفقته في حلال ، ولم أضيّع شيئاً مما فرضت عليّ . فيقال : فلعلك اختلت في شيء من مركب أو ملبس ، أو شيء باهيت به . فيقول : لا يا رب . كسبت طيباً من حلال ، وأنفقت في حلال ، ولم أضيّع شيئاً مما فرضت عليّ ، ولم أباه في شيء . فيقال : لعلك منعت حق أحد أمرتك أن تعطيه ، من ذي القربى ، واليتامى والمساكين ، وإبن السبيل . فيقول : لا يا رب كسبت من حلال وأنفقت في حلال ، ولم أضيّع شيئاً مما فرضت عليّ ، ولم أختل ولم أباه ، ولم أمنع حق أحد أمرتني أن أعطيه ، فيجيء أولئك فيخاصمونه فيقولون : يا رب أعطيته وأغنيته وجعلته بين أظهرنا ،

---

(١) حديث « من نوقش الحساب عذب » : أخرجه البخاري في صحيحه ، الباب ٣٥ من كتاب العلم ، الباب ٤٩ من كتاب الرقاق . ومسلم في صحيحه ، حديث ٧٩ ، ٨٠ من كتاب الجنة . وأبو داود في سننه ، الباب ٨ من كتاب الجنائز . والترمذي في سننه ، الباب ٥ من كتاب القيامة . وأحمد بن حنبل في مسنده ٤٧/٦ ، ٤٨ ، ٩١ ، ١٠٨ ، ١٢٧ ، ١٨٥ ، ٢٠٦ .

وأمرته أن يعطينا . فإن كان أعطاهم ولم يضيع شيئاً من الفرائض ، ولم يختل في شيء ، قيل له : قف . الآن هات شكر نعمة واحدة أنعمتها عليك ، من أكلة أو شربة أو لقمة أو لذة . فلم يزل يسأل »[1] .

ويحك !! فمن الذي يتعرض لمثل هذه المساءلة . إلا كل مستدرج مغرور مثلك ؟

ويحك !! إن هذه المساءلة كانت لهذا الرجل الذي تقلب في الحلال ، وقام بالحقوق كلها ، فأدى الفرائض بحدودها ، وحوسب هذه المحاسبة . فكيف تراه من يكون في حال أمثالنا الغرقي في فتن الدنيا وتخاليطها وشبهاتها وزينتها ؟

ترك المال أفضل من جمعه :

ويحك !! من أجل هذه المساءلة خاف المتقون أن يلتبسوا بالدنيا ، ورضوا بالكفاف منها ، وعملوا بأنواع البر غير سبب المال . فلك ـ ويحك ـ بهؤلاء الأخيار أسوة ، فإن أبيت ذلك ، وزعمت أنك بالغ في الورع والتقوى ، ولم تجمع المال من حلال بزعمك للتعفف والبذل في سبيل الله تعالى ، ولم تنفق شيئاً من الحلال إلا بحق ، ولم يتغير بسبب المال قلبك في شيء مما يحب الله تعالى ، ولم تسخط الله عز وجل في شيء من سرائرك وعلانيتك فتخاف .

فإن كنت كذلك ـ ولست كذلك ـ فقد ينبغي لك أن ترضى بالبلغة ، وتعتزل ذوي الأموال إذا وقفوا للسؤال ، تستبق مع الزمرة الأولى في زمرة المصطفى محمد ﷺ . لا حبس عليك للمساءلة ، فإما سلامة وإما عطب . فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

---

(١) حديث « يؤتي بالرجل يوم القيامة وقد جمع » : أورده الغزالي في الإحياء ، وقال العراقي : لم أقف له على أصل » . (إحياء علوم الدين ٢٦٣/٣) .

« يدخل صعاليك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسمائة عام »[1] .

وقال عليه أفضل الصلاة والسلام :

« وأما أصحاب الأموال فإنهم يلقون من الحبس والعطش ما شاء الله » .

وقال ﷺ :

« يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيتمتعون ويأكلون ، والآخرون حباة على ركبهم ، فيقول الله عز وجل : أنتم حكام الناس وملوكهم ، فأروني ماذا صنعتم فيما أعطيتم ؟ »[2] .

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : « ما يسرني أن لي حمر النعم ، ولا أكون في الرعيل الأول مع محمد ﷺ وحزبه » .

يا قوم : فإستغنموا السباق مع المخفين في زمرة المسلمين ، وكونوا وجلين من التخلف والانقطاع عن رسول الله ﷺ، كما وجل المتقون .

وقد بلغنا أن بعض الصحابة عطش فإستسقى ، فأتي بشربة من ماء وعسل ، فلما أخذها فذاقها خنقته العبرة ثم بكى وأبكى ، ثم مسح الدموع عن وجهه وذهب ليتكلم ، فعاد في البكاء ، فلما أكثر البكاء قيل له : كل هذا البكاء من أجل هذه الشربة ؟ قال : نعم . بينما أنا يوماً عند رسول الله ﷺجالس وما معه في البيت غيري ، فجعل يدفع عن نفسه ويقول :

« إليك عني » . فقلت له : فداك أبي وأمي ما أرى بين يديك أحداً . فلمن تخاطب؟ قال : « هذه الدنيا تطاولت إليّ بصفتها وزينتها . فقالت لي : يا

---

(١) حديث « يدخل صعاليك المهاجرين » : أخرجه الترمذي وحسنه ، وابن ماجه من حديث أبي سعيد ، بلفظ : « فقراء » بدل صعاليك ، وأخرجه الترمذي وابن ماجه والنسائي من حديث أبي هريرة ، بلفظ : « يدخل الفقراء الجنة . . . » . وأخرجه مسلم أيضاً من حديث عبد الله بن عمر ، بلفظ : « إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء إلى الجنة بأربعين خريفاً » .

(٢) حديث « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم » : أورده الغزالي في الإحياء، وقال العراقي : « لم أجد له أصلاً » . (الإحياء ٣/٦٠ ، ٢٦٤ ، ٤/١٩٤) .

محمد خذني ، فقلت : إليك عني . فقالت : إن تنج مني يا محمد فإنه لا ينجو من بعدك »[1] .

فأخاف أن تكون هذه الدنيا لحقتني فقطعتني عن رسول الله ﷺ[2] .

يا قوم : فهؤلاء الأطباء بكوا وجلاً أن تقطعهم الدنيا عن رسول الله ﷺ بشربة ماء من حلال .

ويحك !! وأنت في أنواع النعيم والشهوات من مكاسب السحت والشبهات ، لا تخشى الانقطاع . أف لك . ما أعظم جهلك !! .

ويحك !! لئن تخلفت في القيامة عن المصطفى ﷺ لتنظرن إلى أهوال جزعت منها الملائكة والأنبياء . ولئن قصرت عن السباق ، فليطولن عليك اللحاق . ولئن أردت الكثير لتصيرن إلى وقوف طويل . وصراخ وعويل ، ولئن رضيت بأحوال المتخلفين ، لتنقطعن عن أصحاب اليمين ، وعن رسول رب

---

(١) حديث « هذه الدنيا تطاولت » : أخرجه البيهقي وابن أبي الدنيا ، والبزار بسند ضعيف ، وأخرجه الحاكم أيضاً في المستدرك وقال : « صحيح الاسناد » ـ قال العراقي : بل ضعيف . (إحياء علوم الدين ١٩٨/٣ ، ٢٦٤) .

(٢) وقد كانت عناية السلف بالتحذير من الدنيا عظيمة ، قال عبد الرحمن بن عمر : « صاحب الدنيا ببدنك وفارقها بقلبك » . وكان أبو مسلم الخولاني يترك الأكل ويقول : « الخيل إنما تجري وهي ضمر . وكان الحسن البصري يحلف أنه ما أعز أحد الدرهم إلا أذله الله .

وقال الباقر رضي الله عنه : « إذا أقبلت الدنيا على عبد أعطته محاسن غيره ، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه » .

وقد يدعي الناس أنهم زاهدون في الدنيا ، ويمكن معرفة صدقهم أو كذبهم للحذر والتعليم . فإن رأيت مدعي الزهد محباً للطعام فهو كاذب ، وإن رأيته غبياً قليل الفطنة فهو كاذب ، وإن رأيته منقاداً لشهوة الفرج فهو كاذب .

ويرى الفضيل بن عياض للزهد علامات هي أخفى من سابقتها ، فعنده أن من أحب أن يسمع كلامه إذا تكلم فهو كاذب في دعوى الزهد . وإذا وصف الزهاد بالجهل عند الأمراء ففرحوا ورضوا فهم صادقون في دعوى الزهد . فإذا أكثر الانسان من ذم الدنيا عند أهل الدنيا ، فليس بزاهد ، بل هو أرغب الناس فيها ؛ لأن ذمها حينئذ حرفة قبيحة ، فهو يزهدهم فيها ، ثم يأخذها منهم . فدعواه الزهد في المجلس أخرجته من الزهد في الحال .

العالمين ، ولتبطئن على نعيم المتنعمين ، ولئن خالفت أحوال المتقين . لتكونن من المحبوسين في أهوال يوم الدين .

ويحك !! تدبر ما سمعت . وبعد : فإن زعمت أنك في مثل خيار السلف قنع بالقوت ، زاهد في الحلال ، بذول لمالك ، مؤثر على نفسك ، لا تخشى الفقر ، ولا تدخر لغد ، مبغض للتكاثر والغني ، راض بالفقر والبلاء ، فَرِح بالقلة والمسكنة ، مسرور بالذل والضعة ، كاره للعلو والرفعة ، قوي في أمورك ، لا يتغير عن الرشد قلبك ، قد حاسبت نفسك في الدنيا ، وأحسمت أمورك كلها على ما وافق رضوان الله عز وجل . ولن توقف للمساءلة ، ولا يحاسب مثلك من المتقين ، وإنما تجمع المال الحلال للبذل في سبيل الله .

ويحك أيها المغرور : فتدبر الأمور . وأحس النظر . أما علمت أن ترك الاشتغال بالمال وفراغ القلب للذكر والتذكر والتذكار ، والفكر والاعتبار ، أسلم للدين ؟ وأيسر للحساب ؟ وأخف للمساءلة ؟ وآمن من روعات القيامة ؟ وأجزل للثواب ؟ وأعلا لقدرك عند الله سبحانه وتعالى أضعافاً ؟ بلغنا ذلك عن بعض الصحابة أنه قال : « لو أن رجلاً في حجره الدنانير يعطيها ، والآخر يذكر الله ، لكان ذاكر الله تعالى أفضل » .

وبلغنا أنه سئل بعض أهل العلم في الرجل يجمع المال لأعمال البر فقال : « تركه أبر به » . وبلغنا أن بعض خيار التابعين ، سئل عن رجلين أحدهما طلب الدنيا حلالاً فأصابها فوصل بها رحمه وقدم لنفسه ، والآخر جانبها فلم يطلبها ولا تناولها ، فأيهما أفضل ؟ فقال : « بعيد والله ما بينهما . الذي جانبها أفضل كما بين مشارق الأرض ومغاربها » .

ويحك !! فهذا الفضل لك بترك الدنيا على من طلبها في الأجل ، ولك في العاجل أن ترك الاشتغال بالمال أروح لبدنك ، وأقل لتعبك ، وأنعم لعيشك ، وأرضى لبالك ، وأقل لهمومك وغمومك ، فما عذرك في جمع المال وأنت بترك المال أفضل من طلب المال لأعمال البر ؟

نعم : وشغلك بذكر الله أفضل من بذل المال في سبيل الله . فإجتمع لك

راحة العاجل ، مع السلامة والفضل في الآجل .

وبعد : فلو كان جمع المال لأعمال البر أفضل من تركه ، إذن والله لسبقكم النبي محمد ﷺ إلى هذا الفضل والخير الذي تزعمون في جمع المال ، ولكن رسول الله ﷺ علم أن رضوان الله تعالى في مجانبة الدنيا فجانبها .

وبلغنا عنه عليه السلام أنه قال :

« أتاني جبريل ﷺ بمفاتيح خزائن الأرض ، فوالذي نفس محمد بيده ، ما بسطت إليها يدي » . فقال بعض الصحابة لو يعلم فيها خيراً لبسط اليها يده ، ﷺ[1] .

وبعد . فلو كان في جمع المال فضل عظيم ، لقد يجب عليك في مكارم الأخلاق أن تتأسى بنبيك عليه السلام ، إذ به هداك الله ، وترضى بما اختار لنفسه من مجانبة الدنيا . وبلغنا عنه عليه السلام أنه قال :

« ما لي وللدنيا . وما أنا والدنيا إلا كراكب سائر ، استظل بشجرة ثم رحل عنها »[2] .

وقال عليه السلام :

« اللهم أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، وأحشرني في زمرة المساكين ولا تحشرني في زمرة الأغنياء »[3] .

---

(١) حديث « أتاني جبريل بمفاتيح خزائن الأرض » : أخرجه إبن أبي الدنيا ، مرسلاً عن الحسن البصري ، وأخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ، والطبراني في معجمه متصلاً من حديث أبي مويهبة في أثناء حديث فيه : « إني قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد ثم الجنة . . . » . وسنده صحيح .
وأخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة ، بلفظ : « عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً . . . » .

(٢) حديث « ما لي وللدنيا » : أخرجه الترمذي ، وإبن ماجه والحاكم من حديث إبن مسعود ، وأحمد والحاكم وصححه من حديث إبن عباس . وأخرجه القضاعي في الشهاب عن إبن مسعود .

(٣) حديث « اللهم أحييني مسكيناً » : أخرجه الترمذي من حديث أنس ، وإبن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي سعيد الخدري .

وقال عليه أفضل الصلاة والسلام :

« اللهم إجعل رزق آل محمد كفافاً » .[1]

ويحكم !! أفتحسبون أن محمداً ﷺ جهل الاختيار لنفسه ؟ لا والذي أكرمه بالرسالة ما إختار لنفسه إلا أفضل الأمور وأعلاها .

ويحك !! فإرض لنفسك ما رضيه نبيك محمد ﷺ، وكن مع نبيك بالتأسي به ، وسر مع لواء المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام سابقاً إلى جنة المأوى .

أخي : تدبر ما سمعت وكن على يقين أن السعادة والفوز في مجانبة الدنيا ، فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

« سادات المؤمنين في الجنة من إذا تغذى لم يجد عشاءه ، وإذا استقرض لم يجد قرضاً ، وليس له فضل كسوة إلا ما يواري به بدنه ، ولم يقدر على أن يكسب ما يغنيه ، يمسي مع ذلك ويصبح راضياً عن ربه ، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً »[2] .

أخي : تدبر ما سمعت . وكن على يقين أن الشر مجموع في الاستكثار من عرض الدنيا . بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال لبلال :

« إن استطعت أن تلقي الله فقيراً ولا تلقاه غنياً فافعل . قال : كيف لي بذلك يا رسول الله ؟ قال : ما رزقت فلا تخبأه ، وما إبتليت به فلا تمنع[3] . قال وكيف لي بذلك يا رسول الله ؟ قال : أو النار » .

---

(١) حديث « اللهم إجعل رزق محمد » : أخرجه مسلم في صحيحه ؛ حديث ١٩ من كتاب الزهد ، والبخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث « سادات المؤمنين في الجنة » قال العراقي : « عزاه صاحب مسند الفردوس للطبراني من رواية أبي حازم عن أبي هريرة مختصراً ، بلفظ « سادة الفقراء في الجنة . . . » . ولم أره في معاجم الطبراني .

(٣) أي لا تدخر ما رزقت من مال أو متاع ، وما ابتليت به من عرض الدنيا ، فلا تمنعه عن طالب الرزق المحتاج إليه ، وهو مذهب أبي ذر الغفاري .

ويحك !! إن عقلت ما سمعت . فمالك في جمع المال حجة تحتج بها أكثر من طلب البلغة من الله وبالله فليكن الاشتغال . إلى متى جمعت هذا المال بعد هذا البيان ؟ فإنك مبطل فيما ادعيت أنك للبذل والفضل تجمعه . لا ولكنك خوفاً من الفقر تجمعه . وللتنعم والزينة والتكاثر والتفاخر ، والعلو والرياء والسمعة والتعظيم والتكرمة تجمعه ، ثم تزعم أنك لأعمال البر تجمع المال .

ويحك !! راقب الله ، وإستحي من دعواك أيها المغرور .

ويحك !! إن كنت مفتوناً بحب الدنيا ، فكن مقراً أن الفضل والخير والرضى بالبلغة بمجانبة الفضول .

نعم : وكن عند جمع المال مزرياً على نفسك ، معترفاً بإساءتك ، وجلاً من الحساب ، فذاك أنجى لك وأقرب إلى العفو من طلب الحجج لجمع المال .

أخي : تدبر ما سمعت . وانظر لنفسك بعقلك ، فالحظ لك في مجانبة الدنيا ، والله عنك غني ، وأنت فقير .

إخواني : إعلموا أن دهر الصحابة رضي الله عنهم ، كان الحلال فيه موجوداً ، وكانوا مع ذلك أورع الناس وأزهدهم في المباح ، ونحن في دهر الحلال فيه مفقود ، فكيف لنا من الحلال بمبلغ القوت وستر العورة ، فأما جمع المال في دهرنا ، فأعاذنا الله وإياكم من ذلك .

وبعد : فأين لنا بمثل تقوى الصحابة وورعهم . ومثل زهدهم واحتياطهم ؟ وأين لنا مثل ضمائرهم ، وحسن نياتهم ؟ دهينا ورب السماء بأذى النفوس وأهوائها ، وعن قريب يكون الورود .

فيا لسعادة المخفين إذا سبقوا . ويا لغموم المثقلين إذا وقفوا . ويا لسرور المتقين يوم النشور .

وحزن طويل لأهل التكاثر والتخاليط ، وقد نصحت لكم إن قبلتم ، والقابلون لهذا قليل . وفقنا الله وإياكم لكل خير .

* * *

الباب الرابع

في القناعة والتواضع

إخواني : ثم إلتمست باباً عظيم الشأن ، يغلق عن فتن الدنيا وشرورها ، ويفتح عن الآخرة وبركاتها ، فوجدته في القناعة والتواضع . وهما ضد المكاثرة والكبر . وذلك أن العبد إذا رضي بالتواضع في الدنيا ، فقد تعجل نفي الكبر عن قلبه . فلم يأسف على الرفعة والعلو ، فسلم من فتن الدنيا ، وعظيم آثامها ، وهو بتواضعه مغتبط في العاجل ، وجيه عند الله . وكذلك إذا قنع العبد بالبلغة لم يتكالب على التكاثر مطالبة الكلاب على الجيفة ، فهو راضى البال في دنياه ، قليل الآثام في دينه . راضي باليسير من الرزق ، ورضي الله عنه باليسير من العمل ، فتعجل بالقناعة راحة العاجل ، وسعد برحمة الله في الآجل .

وجوب القناعة وترك الفضول :

إخواننا : ألا فراقبوا الله عز وجل إخواني ، وأقنعوا بما أجزأ وكفى ودعوا الفضول في الذي لا فقر بكم إليه . فإنه بلغنا أن فضول الدنيا عند الله تعالى رجس . ويؤتى بالدنيا يوم القيامة فيقال : ميزوا منها ما كان لله واقذفوا بسائرها في النار . وبلغنا أن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى[1] ، وما أدى إلى

(١) حديث « الدنيا ملعونة » : أخرجه الترمذي في سننه ، الباب ١٤ من كتاب الزهد . وإبن ماجه في سننه ، الباب ٣ من كتاب الزهد . والدارمي في مسنده ، الباب ٢ من المقدمة . وقال الترمذي : « حسن صحيح » . أنظر أيضاً : (الإحياء ١/١١) .

ذكر الله . وبلغنا عنه عليه أفضل الصلاة والسلام أنه قال :

« الدنيا لأهلها ، فإن من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وما يشعر »[1] .

وبلغنا أن بعض الصحابة قال : « شرار الناس من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه » .

أقوال النبي ﷺ في وجوب القناعة :

يا قوم : فمن لم يقنع بما يكفيه يأمن أن يكون من أهل هذا الحديث ؟ ! فإنه بلغنا أنه عليه الصلاة والسلام قال :

« لو أن لابن آدم واديين من ذهب لابتغى لهما ثالثُ ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . ويتوب الله على من تاب »[2] .

ألا ومن لم يقنع بما يكفيه كيف يأمن أن يكون من أهل هذا الحديث ؟ ! فإنه بلغنا أن بعض الصحابة قال : ويل لكل جماع فاعز فاه[3] كأنه مجنون . يرى ما عند الناس ولا يرى ما عنده . وويل له من عذاب يوم طويل . لو إستطاع لوصل الليل بالنهار » . ألا من يقنع بما يكفيه ، كيف يأمن أن يكون من أهل هذا الحديث ؟ !!

فإنه بلغنا أن ابن مسعود رضي الله عنه وجماعة معه شكوا الجوع إلى رسول

---

(١) حديث « الدنيا لأهلها » : أخرجه البزار من حديث أنس ، وفيه هانىء بن المتوكل ، ضعفه إبن حبان . (الإحياء ٣/٢٢٧) .

(٢) حديث « لو أن لابن آدم » : أخرجه مسلم في صحيحه ، الحديث ١١٧ من كتاب الزكاة . والبخاري في صحيحه ، الباب ١٠ ، ٤٩ من كتاب الرقاق . والترمذي في سننه ، الباب ٢٧ من كتاب الزهد . وأخرجه القضاعي في الشهاب عن أنس وإبن عباس. أنظر أيضاً : (مجمع الزوائد ١٠/٢٤٤ ، ولقط اللالىء المتناثرة في الأحاديث المتواترة ، للزبيدي ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت . حديث ٤٤ .

(٣) على هامش الأصل : « فاتح فاه » من نسخة ثانية .

الله ﷺ ، فقال لهم رسول الله ﷺ :

« أصبروا وأبشروا ، فإن الأمر وشيك ، أو كان قد تم »[1] .

وقال عليه أفضل الصلاة والسلام :

« سيأتي بعدي قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها ، وينكحون أجمل النساء وألوانها ، ويلبسون ألين الثياب وألوانها ، ويركبون أفره الدواب وألوانها ، لهم بطون من القليل لا تشبع ، وأنفس بالكثير لا تقنع ، عاكفون على الدنيا ، يغدون ويروحون إليها ، اتخذوها آلهة دون إلههم ، ورباً دون ربهم ، إلى أمرها ينتهون ، وأهواءهم يتبعون »[2] .

فعزيمة من محمد بن عبد الله ﷺ لمن أدرك ذلك الزمان من عقب عقبكم ، وخلف خلفكم ، ألا يسلم عليهم ، ولا يعود مرضاهم ، ولا يتبع جنائزهم ، ولا يوقر كبيرهم ، فإن فعل ذلك فقد أعان على هدم الاسلام .

---

(١) أي : النهاية التي توقفكم على فضل صبركم وجهادكم لأنفسكم ، وهذا هو مقام الفقر الحق . الذي أسس الصوفية قواعده وأهابوا بالمسلمين أن يستمسكوا بعروته ، وليس الفقر كما يفهم الدارسون السطحيون ، ولكنه مقام بالغ الدقة والخفاء .

الفقر هو تجرد القلب عن المظاهر الكونية ، وإستقلاله بالله تعالى وحده ، وتخلي القلب عن الأملاك لأنها شواغل وقواطع لكل عبد يسكن إليها بقلبه ويتعلق بها ويفكر فيها كل وقته أو أكثره . وعلامة صحة التجرد عن الأملاك إلا بتغيير حال الفقير بوجود الأسباب وعدمها ، لا في القوة ولا في الضعف ، ولا في السكون ، ولا في الانزعاج ، ولا تؤثر فيه المهالك ، لا يهزه وجودها ، ولا يستفزه عدمها ، فإن ملك فكأن لم يملك ، وإن لم يملك فكأن قد ملك ، لا يرى لنفسه في الدنيا ولا في الآخرة مقاماً ولا قدراً ، وكما لا يرى لا يطلب ، وكما لا يطلب لا يتمنى ، فهو مشتغل بربه ، واقف بلا طمع ، لا يسقط عن نفسه بالرد ، ولا ينهض على الجادة بالقبول ، ولا يعتقد أن طريقه أفضل من طريق غيره .

وقد بالغوا في توضيح خفايا الفقر لدقته وغموضه على أغلب الأذهان حتى أذهان الدارسين المحدثين ، فقالوا : لا بد أن يخرج عن فقره ، بإنتفاء شهود فقره ، فإعتقاده في نفسه أنه فقير يخرجه عن شرف الفقر ، والفقير ليس وحشي الطباع ، فلا بد أن يصفو قلبه لكل إنسان ويسلم صدره من كل دنس ، وتسمح نفسه بالبذل والإيثار .

(٢) حديث « سيأتي على الناس زمان » : سيأتي تخريجه .

ألا من لم يقنع بما يكفيه ، كيف يأمن أن يكون ممن قال الله فيه :

﴿ أَلْهَاكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ . حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[1] ؟

وكيف يؤمن من لا يقنع أن يحل به هذا الوعيد من الله تعالى فيهلك ؟ أعاذنا الله وإياكم من حب الشيطان ، وأنعم علينا وعليكم بالقناعة والتواضع .

يا قوم : إن الغنيمة والله في الرضى بالبلغة لا في التكاثر ، والغنيمة والله في خمول الذكر لا في الرفعة والرياسة ، والغنيمة والله في ذل النفس لا في التجبر[2] . وقد نصحت لكم إن قبلتم ، والقابلون لهذا قليل ، وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته .

---

(١) سورة : التكاثر ، آية : ١ .

(٢) لم يذكر المؤلف رحمه الله علاجاً لهذه الأدواء الخطيرة ، واكتفى بالتنبيه عليها . ويحسن هنا أن نشير إلى موطن العلة ثم علاجها كما قرر الصوفية في دراساتهم النفسية التي تستحق النظر والانتباه من الدارسين جميعاً . لا زلت أؤكد كما ذكرت في تعليقاتي على « علم القلوب لأبي طالب المكي » أن دراسة السلوك الصوفي أجدى بكثير من شغل الوقت بدراسات نفسية وضع أصولها اليهود ، من أمثال « سيجموند فرويد » وغيره لتحطيم القيم وقتل العبقريات .

وإذا تدبرنا علاج النفس المريضة عند الصوفية ، لمسنا الدقة والفطنة والفحولة العلمية والدراسة التجريبية ـ فالإمام أبو السعود أبو العشائر المتوفى عام ٦٤٤ . يقول في علاج النفس :

يجب على السالك إذا رأى من نفسه خلقاً سيئاً من كبر أو شرك أو بخل وسوء ظن أن يدخل نفسه في ضد ما دعت إليه ، ثم يقبل على ذكر الله تعالى بالكلية ويستنجد بحوله وقوته ومجاهداته ، فتضعف أخلاق نفسه ، ويكثر نور قلبه ، وينزل الله تعالى في القلب ذرة من محبته ، فيترك الانسان الرذائل بدون مكابدة .

ويرى : أن التفرغ لمقاومة النفس أخطر من مرضها .

فيجب على السالك ألا يشتغل بمقاومة نفسه بالكلية ، فإن من اشتغل بمقاومتها أوقفته ، كما أن من أهملها ركبته . بل يخدعها بأن يعطيها راحة دون راحة ، ثم ينتقل إلى أقل من ذلك ، ومن قاومها وصار خصماً لها شغلته ، ومن أخذها بالخدعة ولم يتبع هواها تبعته .

وقد تخدعك النفس فتلبس عليك الحال . وهنا يجب وزنها بالميزان الصوفي الذي لا ينخرم ، وهو تصوير ذمها بعد مدحها ، وردها بعد قبولها ، وإذلالها بعد عزها ، فإن وجد عليها التغيير فقد بقي عليه في نفسه شيء ، فيجب مجاهدتها .

الباب الخامس

في الحـــلال

إخواني : فمتى أنعم الله عليكم بالقناعة ، فاشكروه كثيـراً . وراقبوا الله في هذا القوت الذي قنعتم به ، فالتمسوه من أحـل وأطيب ما تجـدون إليه سبيـلاً ، ليكـون أيسر لحسـابكم ، وليتم لكم خـير الآخـرة بـطيب المكسب كـما تعجلتم بالقناعة التي هي راحة للقلب في الدنيا .

ندرة الحلال وكثرة الشبهات :

واعلموا : أن الحلال الذي لا شك فيه عزيز منذ زمان ، وإنا لفي شبهات ممزوجات بـالحرام والسحت ، فيـا لها شبهـات مستورة ، لكنهـا من التخاليط التي تعلمون . فمتى يكون لأمثالنا ورع ، أو متى يصفو لنا عمل ؟

ونحن نمتلىء من الشهوات ، ونلبس الزينة من الشبهات . وبلغنا أن بعض أهـل العلم قال : يبعث يـوم القيامـة أقوامـاً من قبـورهم أنتن من الجيف : وهم الذين يتلذذون بفضول أموالهم من الشبهات ، وقال : والله وأنا منهم .

وجوب الورع في إكتساب القوت :

إخـواني : فهذا العـالم الخائف كـان هذا حـاله عنـد نفسه ، وإشفـاقـه من عواقب الشبهات ، أفتري كيف يكون حال أمثالنا في هذه الدنيا وشبهـاتها وأقـذر من الشبهات ؟

ألا فراقبوا الله وتورعوا في إكتساب القوت . فإن قوام الدين بالورع ، وقد بلغني أن العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال . وروي أن طالب القوت من حله كالغازي في سبيل الله تعالى.

العبادة مع خبث القوت لا تفيد :

وبعد : فإن كثير العبادة مع خبث القوت لا يؤمن أن يعود هباء . وبلغنا عن بعض الصحابة أنه قال : إذا طاب المكسب زكي العمل ، وسترد فتعلم . وحكي عن بعض أهل العلم أن الشيطان يقول : خصلة أريدها من إبن آدم ثم أخلي بينه وبين ما يريد من العبادة . أجعل كسبه من غير حل ، إن تزوج تزوج من حرام ، وإن أفطر أفطر على حرام ، وإن حج حج من حرام .

إخواني : فإحذروا في طلب القوت ، وراقبوا الله في الحرام ، ألا : فتحروا من الشبهات أحلها وأسترها . وأقلها دنساً ، وأخلقها بالسلامة ، فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

« الحلال بين والحرام بين وبينهما شبهات ، لا يدري كثير من الناس أمن الحلال هي أم من الحرام »[1] .

وقال عليه أفضل الصلاة والسلام :

« من إجترأ على الشبهات يوشك أن يقع في الحرام »[2] .

إخواني : فتنقلوا في إكتساب القوت من حالة إلى حالة ، ومن حرفة إلى

---

(١) هذه إشارة إلى حديث أخرجه الديلمي في الفردوس ، بلفظ : « العبادة عشرة أجزاء ، تسعة منها في الصمت ، والعاشرة . كسب اليد الحلال » . وقال العراقي في تخريج الإحياء : وهو منكر . أنظر (إحياء علوم الدين ٢/٩١) .

(٢) إشارة إلى حديث أخرجه الطبراني في الأوسط ، والديلمي في الفردوس ، بلفظ : « من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد في سبيل الله ، ومن طلب الدنيا في عفاف كان في درجة الشهداء » وإسنادهما ضعيف .

حرفة ما هو أسلم منها، ومن كسب إلى كسب ما هو أصلح منه ، لتكونوا بالتقوى عاملين وللحلال طالبين .

وجوب التحرز من فنون الربا :

وبعد : فتحرزوا في مكاسبكم من فنون الربا فإنه بضع وسبعون باباً ، وإتقوا الخيانة ، والنجس ، والتطفيف ، والكذب ، والحلف ، والمدح ، والذم عند المبايعة ، وأشباه ذلك . فتورعوا فيها وإحتاطوا لأنفسكم ، فإن دلالة التقوى في الورع ، وبالورع يعرف المتقون ، وقد بلغنا عنه أفضل الصلاة والسلام أنه قال :

« ويل لتاجر أمتي من لا والله ، ويل لصانع أمتي من اليوم وغد ، ويل للذين يستحلون الحرام والشبهات بالسهو »[1] .

إخواني : فراقبوا الله فإن الرضا بالقليل مع الفوز العظيم أفضل من كثرة المال .

* * *

---

(١) حديث « الحلال بين والحرام بين » : سبق تخريجه .

(٢) حديث « من اجترأ على الشبهات » جزء من الحديث السابق .

(٣) حديث « ويل لتاجر أمتي » : أورده العجلوني في كشف الخفا ٢٩٢٠ ، بلفظ : « ويل للتاجر من لا والله ، ويل للصانع من غد وبعد غد » وقال : قال العراقي : لم أقف له على أصل ، وذكر نحوه صاحب مسند الفردوس عن أنس بلا إسناد .

الباب السادس

في الاقتصاد

إخواني : أوصيكم بالاقتصاد فيما رزقتم ، فإنه من صلاح الدين . وأحذركم الاسراف في وقت الغنى فإن الله تعالى يكره السرف في كل شيء ، وقد ذم الله تعالى المسرفين ، ومدح الذين لم يسرفوا ولم يقتروا .

وبلغنا : عن بعض التابعين أنه قال : « كفى بهذا إسرافاً أن يأكل العبد ما يشتهي ويلبس ما يشتهي » .

وبلغنا : عن بعض أهل العلم أنه قال : « يجيء يوم القيامة قوم يطلبون صفات لهم عملوها ، فيقال لهم : أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » . ألا فكونوا مقتصدين في أحوالكم من غير إقتار ولا إسراف[١] .

* * *

(١) لا معارضة بين طلب الإقتصاد ، ودعوة المؤلف إلى ترك الدنيا ، فهو لا يقول بتحريم جمع المال الحلال لانفاقه في الحلال، بل يقول بكراهة الحرص على جمع المال ، اقتداء بالرسول ﷺ. فإن رزق الانسان مالا بعد ذلك فعليه بالإقتصاد .

الباب السابع

في البخـــل

وأحذركم البخل على الله عز وجل . فإنـه يحرم خـير الدنيـا والآخرة ، ولا يجـاور الله في داره بخيل . وقـد بلغنا أن البخيـل بعيد من رسـوله عليـه الصـلاة والسلام .

وبلغنـا أن رسول الله ﷺ كـان يطوف بـالبيت ، فإذا بـرجل معلق بـأستار الكعبة وهو يقول : بحرمة هذا البيت ألا غفـرت لي . فقال رسـول الله ﷺ : وما ذنبك ؟ صفه لي . قال : هو أعظم أن أصفه لك . فقال : ويحك . ذنبك أعظم أم رضـوى[1] ؟ قال : بـل ذنبي أعظم يـا رسـول الله ، قـال : ذنبـك أعـظم أم البحـار ؟ قال : بـل ذنبي أعظم ، قـال : ذنبك أعـظم أم الله ؟ قـال : بـل الله أعظم وأجل . قال : ويحك فصفه لي ، قال : يا رسول الله إني رجل ذو ثروة من المـال وإن السائـل ليأتيني فكـأنما يستقبلني من نـار ، فقال رسـول الله ﷺ : إليك عني . لا تحـرقني بنارك ، والـذي بعثني بالهـدى والكرامـة لو قمت بـين الـركنـين والمقـام ، ثم صليت ألف ألف عـام حتى تجـري من دمـوعـك الأنهار وتسقي بدموعك الأشجار ، ثم مت وأنت لئيم لكبك الله في النار[2] .

---

(١) في الأصل : رضوى وهو جبل بمكة .

(٢) حـديث « كان رسـول الله ﷺ يطوف بـالبيت . . . قال : مـا ذنبك صفـه لي » . أورده الغـزالي في الإحياء ٣/٢٤٩ ، وقال العراقي : « الحديث بطوله باطل ولا أصل له » .

ويحك !! أما علمت أن البخل كفر ؟ وأن الكافر في النار ؟

ويحك !! أما علمت أن الله تعالى يقول :

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [١] .

ألا ومن أعظم جرماً[٢] ممن وهبه الله الكثير ويستقرض منه القليل فيبخل عليه ؟ أعاذنا الله وإياكم من البخل .

---

(١) سورة : الحشر ، آية ٩

(٢) في الأصل : أجرا . تحريف .

الباب الثامن

في العـــزلة

إخواني : وأحذركم مخالطة الناس ، فإن جميع التعدي والاوزار مجموع في مخالطتهم ومعاشرتهم وما تشعرون ، وإنما يعلم ذلك أهل الورع والمحاسبة ، ولسنا مما نسلم بديننا إذا اجتمع شياطين الانس والجن ونحن كبعضهم - يوحي بعضنا إلى بعض زخرف القول عزوراً . ألا فعاشروا من الناس رجلين . أحدهما : يعين على البر والتقوى . والآخر : يعين على أحوالك من الدنيا . فإن جمع الله المعونة على الدين والدنيا في رجل واحد فتمسك[1] به وجانب من سواه ، فان جميعهم ضرر في الدين إلا المعين على البر .

ألا وان فضل السلامة في مجانبة الناس ، و[هي][2] أجزل ثواباً ، وأعظم مما تخشون . وكذلك بلغنا أن العبادة عشرة أجزاء . واحد منها في الصمت . وتسعة في مجانبة الناس .

وقد نصحت لكم إن قبلتم ، والقابلون لهذا قليل ، والصبر على الوحدة شديد ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته . ألا فزايلوا الناس بالقلوب ، وواصلوهم بالسلام [و][3] بما يجب من حقوق المسلمين .

* * *

---

(١) في الأصل : تمسك .

(٢) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول وأضفتها لاستقامة المعنى .

(٣) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

الباب التاسع

في الســـرور بمصائب الدنيـــا

إخواني : وبعد . فما أتاكم عن الله عز وجل ، والرسول عليه السلام من رخص فخذوه . فإنه بلغنا أن الله عـز وجل يحب أن يؤخـذ برخصـه كما يجب أن يؤخذ بعزائمه .

فارغبوا فيما أبيح لكم من كل سهل يسير ، فقد بلغنا أن رسول الله ﷺ كان يرغب كثيراً في السهل اليسير من الأمور ، فلا تعدلوا عن العافية في الأمور كلها . ولا تتعرضوا للبلوى فلسنا من أهلها .

المكاره نظر من الله إلى العباد :

وبعـد : فإن ابتليتم بشيء من المكـاره والمصائب ، فعنـد ذلك [يجب أن] تجاهدوا أنفسكم على الصبر في الضراء . فإن ذلك من نظر الله لعبده[١] .

---

(١) أي : أن البلاء نظر من الله للعبد ، لأنه دفع إلى العلو والرفعة عند الله إذا أحسن الانسـان الأدب في البـلاء . وأهم تلك الآداب وأساسهـا : ألا يشكو العبـد ما ابتـلى بـه للخلق . ففي الشكـوى للخلق السخط وعدم الرضـا والشك في صحـة العلم الإلهي ، والنقض للحكمة الـربانيـة ، وغير ذلك من أمهات المهلكات .

ومن آداب البلاء : السكون وسلب الإرادة بـالله ، أي : الاستعانـة بالله عـلى ألا يكون لـك إرادة مطلقاً ، والتوجه الكامل الى الله ، وذكر أسماء الجمال . ويرى سيدي أحمد العربي الدرقـاوي شيخ الدرقوية : أن أصح وسيلة لسلب الإرادة بالله هي النوم . « راجع شور الهـدية للدرقـاوي . ط . المغرب » .

فاتقوا الشكوى على الصبر في الضراء فإن من ذلك نظراً من الله لعبده . فاتقوا الشكوى وقلة الرضا بالفضاء . فإنه بلغنا أن الله جل ثناؤه يقول :

من لم يرض بقضائي ، ويصبر على بلائي ، فليتخذ رباً سواي .

وبلغنا أن الله جل ثناؤه يقول :

من رضى بقضائي وحكمي وقدري ، فله الرضا . وإذا لقيني أرضيته ، ومن سخط بقضائي وحكمي وقدري . فله السخط ، وإذا لقيني أسخطته .

البلاء محو للخطايا :

ألا وكفى بهذا مصيبة حلت بعبد ساء نظر الله ، فلا تحزنوا لنظر الله لكم إخواني ، واعلموا أن السرور في مصائب الدنيا ، وذلك ذخر للصابرين ، ومحو للخطايا .

وقد بلغنا عن بعض أهل العلم أنه قال : « إن الذي لا يفرح بالمصيبة ، لما يرجو من كفارة الخطايا[1] تقول الملائكة : داويناه فلم يبرأ » .

إختيار الله أفضل من اختيار العبد :

ويحكم !! فمن أولى بالسرور من مصائب الدنيا ممن أيقن باختيار الله له ، وإحتملها قليلاً وسعد بها طويلاً ، ومن أولى بالسرور من المكاره ممن نظر الله له . فكفر بالمصيبة مساويه ، وأثابه الله عليها ثواباً بغير حساب وأسعده بها أبد الآبد . أسعدنا الله وإياكم برضاه عنا . آمين يا رب العالمين .

---

(١) وفي البلايا والمصائب علوم الصوفية أو غالبها . فالفيض في حال الجلال أكثر وأعلى في حال الجمال . ففي البلايا أسرار الحكمة ،وخفايا اللطف ، وسطوة القهر وغير ذلك من المشاهدة .

الباب العاشر

في مكائد الشيطان في الطاعات

إخواني : إعلموا أن الشيطان يحزن طويلاً عند الطاعات ، وله مكائد . [فهو][1] لا يقصر في إبطال الطاعات[2] ويوسوس في النفوس حسب الثناء ، والاعجاب ، والتجبر ، ودعوى علو الدرجات ، وإتباع الهوى ، فمتى أنعم الله عليكم بأعمال البر فتحرزوا من الشيطان .

وراقبوا الله أن تلتمسوا بالدين عرضاً من الدنيا ، وتلتمسوا الثناء والتعظيم بأسباب الدين ، فما أخلق ذلك أن يمحق أعمال العباد .

وبعد : فمتى ابتليتم بالمدحة والتزكية فلا تعجبوا بذلك فإنه ضرار بالدين . وإذا سبق السرور بالمدحة إلى القلب فلا تصروا على ذلك . وردوا السرور بالعلم بضرر التزكية في الدين ، وردوا بالكراهية المدحة ، واستعيذوا بالله من شر التزكية ، فما يؤمن أن تكونوا من الذين لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم .

وبعد : فإنه بلغنا أن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة وما يشعر ، من رأى الناس . وإن فيه خيراً ولا خير فيه ، وعسى المسرور بالمدحة أن يكون من أشد الناس عذاباً يوم القيامة وما يشعر .

---

(١) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول

(٢) في الأصول : طاعتهم .

فراقبوا الله سبحانه وجاهدوا أنفسكم على نفي السرور إذا ابتليتم بـالمدحـة حتى تـوافوا يـوم القيامـة وتعاينـوا الذي لكم عنـد الله . فإمـا سـرور دائم في دار الكرامة ، وإما حزن طويل في العذاب الأليم . أعاذنا الله تعالى وإيـاكم من ذلك برحمته .

الباب الحادي عشر

في العجب بالأعمال

إخـواني : إتقوا الإعجـاب [وحافـظو][1] عـلى أعمـالكم أن تستكثـروهـا لـربكم عز وجـل ، فيمقتكم الله عز وجـل على ذلـك . وإعلموا أن أعمـالكم لا تقوم بشكر نعمة واحدة من نعم الله تعالى عليكم ، بل النعمة الواحـدة تستوجب جميع أعمالكم كلها . وسائر النعم وافرة وسيطالبكم[2] بشكرها ، فما ظنكم ؟

وبعـد : فـإن أعمـالكم بـالبـر نعم من الله عليكم مجـددة ، فمتى تـأتـون بشكـرها . ولئن شكـرتم فإن شكـركم لنعم مجددة عليكم ، ولـولا إلهامـه إيـاكم الشكر لما شكرتم ، ولا توجهتم له أبداً .

وبعـد : فلو عرفتم عـظمة الله وكبـرياءه وجـلالـه ، والـذي هـو لـه أهـل لاستحيتم من ذكر أعمالكم ، ولو علمتم قدر أيادي الله ونعمه عليكم بشكرها . فكيف تستكثرون أعمالكم المشـوبة بـالآفات ؟ وكيف يعجب بـأعمالـه من كانت الأعمال مننا من الله عليه ، وعليه من المنن في الـدين والدنيـا أكثر من أن يحـد أو يحصي ؟ ومن يعلم إلا الممن بها ؟

فيا للمقصر في الشكر !! ما أزين به الاستحيـاء ، وما أولى بـه الوجـل من ذكر أعماله .

ويـل للمفرط في حقـوق الله عز وجـل !! مـا أولى الـوجـل بـه والاشفـاق لتضييعه كثيراً من أمور ربه عز وجل .

وبعد : فإن الطبيب العالم بـالتقصير في [غمـوم][1] وشغل عن الاعجـاب بأعماله . ألا واستعينوا على نفي الإعجاب باحتقار أعمـالكم . وتذكـر أيادي الله لديكم ، وبالعلم بتقصيركم فيما يجب لله عليكم ، وبالوجـل من زوال النعم عند تضييع الشكر .

* * *

(١) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

الباب الثاني عشر
في علاج الكبر

إخـواني : وأحذركم الكبـر ، فراقبـوا الله تعـالى أن تـزدروا عـلى أحـد من الأمـة ، أو تجحـدوا الحق إذا قيـل لكم . وأن الله يسخط لـذلـك ويصـغـر المتكبرين[١] .

وبعـد : فكيف تزدرون عـلى مسلم لا تدرون بمـا يختم له ولكم و[لا][٢] تدرون إلى أي الدارين مصيركم .

فـإن نصحت نفسك فـأنت بالازدراء عليـك أولى ، وليت قـد أطلعت من أسواء نفسك ، وخبث سريرتك على مـا لم تطلع عـلى مثله من سريـرة غيرك ، أو على مثل الذي أطلعت عليه من سريرتك بالازدراء على نفسك وتزكيتها[٣] .

وبعد : فإنك منهي من تفضيل نفسك وتزكيتها ، محرم عليك ، وعساك في القيامة تحت أقدام الذين ازدريت عليهم في الدنيا .

---

(١) الكبر : مدافعة لله تعالى في سلطانه وعزه وليس أشـد من عبد حقـير يدافـع مولاه ويـزاحمه عـلى ما إختص به نفسه . فالكبرياء والعظمة من خواص الله تعالى ، ومن نازعه فيهما أو في أحدهما قصمـه أو أهلكه . ثم أن الكبر يجـر إلى الكفر لأنـه مدعـاة الاستقلال بـالأعمال وعـدم النظر إلى منن الله تعالى .﴿ قال إنما أوتيته على علم عندي ﴾لم يقل ذلك قارون إلا بعد أن أفقده الكبر عقله .

(٢) ما بين العقوفتين : سقطت من الاصول .

(٣) أي : وتزكية سريرة غيرك ، بل عكست الأمر فإزدريت سريرة غيرك وزكيت سريرتك .

فتـدبر مـا سمعت ، واستعن بالله عـلى نفي الكبر من قلبـك . أعاذنـا الله وإياكم من ذلك .

* * *

الباب الثالث عشر

في تفقد السرائر

إخواني : وتفقدوا سرائر الأنفس ، وخفايا الصدور ، وطهروها من الغل والحسد ، والحقد والشماتة ، وسوء الظن والعداوة والبغضاء ، فإنه بلغنا : أن الغل والحسد يأكلان الحسنات[1] . وبلغنا : أن من لم يحب ويكره للمسلمين ما يحب ويكره لنفسه فليس منهم .

ألا فتفقدوا السرائر في كل حين . عسى [أن يكون][2] منكم مصرّ على بعض المعاصي وما يشعر . وإنظروا هل تجدون في القلوب حب الدنيا والسرور باقبالها والتقلب في شهواتها ؟ وهل تجدون حلاوة المدحة والتعظيم أحياناً ؟ وهل تأنفون من المذمة وتمتعضون منها ؟ وهل تكرهون شيئاً يخالف أحوالكم وترضون بما وافق الهوى ؟ وهل تلهون بالنظر إلى الخلق من غير اعتبار ؟ وهل تلهون بفضول الكلام ؟ وهل تصمتون أحياناً مفكرين في الميعاد ؟ وهل تعلمون من الأعمال شيئاً الله راض به[3] . وأنتم تأنفون من عمالها وهل تعلمون لباساً الله راض به[4] وأنتم تأنفون من لباسه ؟ وهل تجدون خوف الفقر أحياناً ؟ وهل

---

(١) حديث « إن الغل والحسد » : أخرجه القضاعي في الشهاب عن ابن عمر ، وابن ماجه في سننه ، الباب ٢٢ : ٢٤ من كتاب الزهد . وأبو داود في سننه ، الباب ٤٤ من كتاب الأدب .

(٢) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٣) ، (٤) في الأصل : راض بها .

تكرهون شيئاً قضاة الله فيكم ؟ فهذا ونحوه من ذنوب القلوب . وأنتم غافلون . قد أحسب قراءكم مصرين عليها وما تشعرون .

ألا فجاهدوا أنفسكم على الانتقال من الأخلاق المذمومة ، ولا تستصغروها[1] . فإنه بلغنا : أن من إستصغر ذنباً فقد استصغر بوعيد الله جل وعز[2] .

إخواني : فراقبوا من يعلم السر وأخفي ؛ أن تصروا على شيء من مكاره الله عز وجل فليس مع الاصرار صغيرة ، وقد بلغنا أن بعض الصحابة قال : « الاصرار على الذنوب كفر ومعصية »[3] . وما أصر عليه العبد فهو من الكبائر .

وبعد : فإن صاحب الكبائر مع الانابة أقرب إليه العفو من المصر على الصغائر . وقد بلغنا أن الله عز وجل يقول : لا أقبل عشرة المصرين في الدنيا والآخرة ، لا شيء أعظم عندي من الإصرار ، ألا وإنما اشتد الغضب على المصرين لقلة اكتراثهم بتراكم الأوزار عليهم ، واستهانتهم بسخط الجبار ، أعاذنا الله وإياكم من الإصرار ، فإنه أمر عظيم . وسلك بنا وبكم سبيل المصطفين الأخيار .

* * *

---

(١) في الأصل : تستصغرونها .

(٢) حديث « من إستصغر ذنباً » : أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة ، والبيهقي في الشعب ، وسنده ضعيف . أنظر : (الاحياء : ٤/٤٧)

(٣) لأنه إستحلال ضمني لها ، إلا إن صاحبها ندم وسخط على النفس .

الباب الرابع عشر

في فرائض العقول والجوارح

إخـواني : إن فنون العلم والعبـادة ، وجميـع مـا يتقـرب بـه الى الله تعـالى الحسن . غير أني أعهد إليكم في معرفة الفرائض المؤكدة عـلى القلوب والجوارح . ومعـرفة الـورع في المكاسب ، وفي الأحـوال الظاهـرة والباطنـة ، والعمل بحسن النية ، والإخلاص لله بالأعمال ، فلا تقصـروا في شيء من ذلك . فـإنه بلغنـا أن الله عز وجل يقول :

« لا ينجو مني عبد إلا بأداء ما إفترضت عليه » .[1]

ألا فـإنكمشـوا في الفـرائض التي يسخط الله من يضيعهـا ، ويفـوز العبـاد بأدائها .

التحذير من النظر في إختلاف الأمة :

وبعد : فأحذركم النظر والبحث في إختلاف الأمة وقـد انتهى إليكم الذي حل بهم من أجل الاختلاف [والنظر في أهل][2] الفرق وما ابتلوا به من الأهـواء

---

(١) حديث « لا ينجو مني عبـد » : أخرجـه البخاري من حـديث أبي هريـرة ، بلفظ : « ما تقـرب إليّ عبدي . . . » وأورده الإحياء ، بلفظ : « مـا تقرب المتقـربون إلى مثـل أداء ما افتـرضت عليهم » (الإحياء ٣٩١/٣)

(٢) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

المضلة ، وإرتكاب العظائم من مذاهب القدرية والمرجئة والرافضة والجهمية والحرورية . فقد حاربوا[1] وتعادوا وتباغضوا ، وشهد بعضهم على بعض بالكفر والضلال ، واستحلوا دماء المخالفين لأهوائهم . وقد كانوا من قبل ذلك إخواناً على أمر الله تعالى متفقين ، فلما بلوا بالبحث والتعمق صاروا أصنافاً ، وإحتج كل قوم بمتشابه القرآن ، وبالآثار التي توافق أهواءهم ، فضلوا وأضلوا بذلك كثيراً[2] .

الرسول ﷺ يحذر من الخلاف :

وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ وضع يده على لحية عمر رضي الله عنه ثم قال : يا عمر ، إنا لله وإنا إليه راجعون . فقال عمر : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، إنا لله وإنا إليه راجعون .. فيماذا ؟ قال : إن جبريل عليه السلام أتاني آنفاً فقال : يا محمد ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، إن إمتك مفتونون بعدك بقليل غير كثير . قلت : يا جبريل فتنة ضلال أم فتنة كفر ؟ قال : كل ذلك سيكون ، قلت : وكيف يضلون أو يكفرون وأنا مخلف بين أظهرهم كتاب الله عز وجل ؟ قال : بكتاب الله يضلون ، يتأوله كل قوم على ما يشتهون ، وبه يضلون .

وجوب الاشتغال بما أجمع عليه الأئمة :

ألا فراقبوا الله ، وذروا التعمق والبحث عما اختلفوا فيه ناس كثير ، يتفرع من الكلام فنون تدق حتى يحتار فيها اللبيب العالم . فما ظنكم بأمثالنا المنقوصين عقلاً وعلماً .

---

(١) في الأصل : فحاربوا .

(٢) وأساس ذلك كله التأويل . والتأويل إن كان لظاهر اللفظ مع إقامة المعنى فلا حرج فيه . أما التأويل بإسقاط ظاهر اللفظ وباطن المعنى فذلك زندقة وكفر كتأويل الصلاة بالتوجه إلى الله وإسقاط الحركات، وتأويل الصوم بعدم إلقاء العلم لمن لم يستعدله ، وتأويل الجنة بإباحة الزنا وغير ذلك من فظائع الباطنية .

ألا فتمسكوا بكل مجمع عليه ، ولم تختلف الأمة فيه من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وحدوده وفرائضه وشرائع دينه ، وجميع ما أجمع عليه السلف . ففيه الرشد والحق . فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

« لا يجمع الله أمتي على ضلال »[1] .

وهو قوله الحق ، وما إجتمعوا عليه فهو الصواب لا شك فيه ، وإنما دهاهم الشيطان بالاختلاف .

ألا فاتقوا التعمق فيما اختلفوا فيه ، فإن لكم فيما اجتمعوا عليه من حدود الدين شغلاً شاغلاً فيما لم تنالوا علمه أبداً . وقد بلغني أن وهب بن منبه قال : « كان في المسجد الحرام قوم يتكلمون بالجبر والقدرية ، فقلت : إني قرأت إثنين وسبعين كتاباً أنزلت من السماء ، وشاركت الناس في علومهم ، وعلمت كثيراً مما لم يعلم الناس ، فوجدت أنطق الناس بهذا الأمر أجهلهم به ، ووجدت أسكتهم عنه أعلمهم به ، ووجدت الناظر فيه كالناظر في شعاع الشمس، كلما ازداد فيه نظراً ازداد فيه تحيراً » . وبلغنا أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : « إياكم والخصومات في الدين فإنها تشغل القلب ، وتزرع النفاق في القلب » .

وبلغنا أن بعض أهل العلم عهد إلى أخوانه فقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فاعلموا أن هذه الأهواء قد تركت في الناس ، والمخرج من ذلك أن تلزموا ما اجتمعوا عليه ، وأن تقفوا عند ما اختلفوا فيه ، فإن البر والفاجر كلهم مجمعون بالله على أن الله[2] حق ، والرسول عليه السلام حق ، والقرآن والرسل حق ، والكتاب والملائكة حق ، والبعث والجنة والنار حق ، ليس بينهم إختلاف ، وأن الصلوات الخمس بوضوئها والغسل من الجنابة ، وصوم شهر رمضان ، والزكاة والحج ، وبر الوالدين ، وأداء

---

(١) والمراد : إجماع أهل العلم الذين يخشون الله لا إجماع سواد الأمة من الجهال .
والحديث أخرجه : الدارمي في مسنده ، الباب ٨ من المقدمة .

(٢) في الأصل : بالله .

الأمانة ، وكف الأذى ، وإنصاف الناس من نفسك واجب على كل مسلم ، وأن ما قال الله حق :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ ﴾[1] إلى آخر الآية . نكاحهن حرام ، والخمر حرام ، والسرقة والزنا والتطفيف والغش والخيانة والكذب وأشباهه حرام ، ليس بين البر والفاجر في هذا خلاف . وأهل السنة وأهل البدع في هذا سواء ليس بينهم إختلاف .

الدخول في الخلاف فتنة :

فمن عمل بهذا وعمل بما فيه لم يضره ما جهل مما وراء ذلك إن شاء الله تعالى . فالتزموا هذا ولا تجاوزوه ، وإن سئلتم عن شيء من هذا ، فقولوا : آمنا بالقرآن وما فيه . كل من عند ربنا . واصمتوا . ولا تجيبوا ولا تخوضوا . فيه . فإن قلتم : فإنا نحب أن تعرف الصواب من الخطأ فيما قد اختلفوا فيه ، ثم خضتم فيه وبحثتم عنه ، وتعمقتم . لم تسلموا من الفتنة إلا ما شاء الله .

فاقبلوا النصيحة ولا تجاوزوه ولا تخوضوا فيه ، ولكل فريضة من هذا شرائع وحدود وسنن فاستعملوها وتعلموها . لتتم لكم صلاتكم ، وتطيب لكم مكاسبكم ، ولا تقعوا في الرياء ، وإشتغلوا في تعلم فرائض دينكم ، وإشتغلوا في تعلم حدود الدين فهو خير لكم ، فإنكم إذا تبحرتم في هذا العلم لم يخف عليكم إن شاء الله تعالى خطأ من خالف العلم الذي في أيديكم . وأبصرتم الأمر ثم الأمر من غير الأدب وما أمرتم به ، فإذا تعمدتم النظر في الاختلاف دون التبحر في العلوم ، ومجالسة العلماء ومذاكرتهم ، لم يؤمن عليكم أن تبتلوا بشيء يسبق الى قلوبكم من الفتنة ، ويقال : « ما من ضلالة إلا وعليها زينة » . ولعلكم تتركون الحق بعد ذلك . وتأبى قلوبكم من قبول الحق من بعده . وعلامة البصير بالسنة تحذيره من الخوض في البدع لبصره بدقة الكلم وخفيه ، وتبحره فيه .

فأزجر الناس عن المراء أعظمهم علماً ، وأشدهم عقلاً ، وأكثرهم فقهاً . وأجرأ الناس على الدخول في المراء أقلهم علماً ، وأضعفهم رأياً وأدناهم نظراً .

---

(١) سورة النساء ، آية : ٢٣ .

فالحذر ثم الحذر . . . حذرتم . وقيل لكم : « عليكم بدين العجائز ، ودين الأعرابي ، ودين الغلام » في الكتاب[1] .

وأقبلوا النصيحة ولا تكونوا ممن قيل لكم ولهم : ﴿ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّاصِحِينَ ﴾[2] .

ألا فراقبوا الله إخواني وإقبلوا نصح الشفيق عليكم . فإن الشيطان لا يقصر في صدكم عن سبيل الحق . ويحبب إليكم النظر في اختلاف الأمة لمعرفة الحق . بزعمه ، وإختيار الصواب كهيئة الناصح لكم .

ولعمري . . إنه بالأهواء والفتن دهاكم . وعن ذكر المعاد ألهاكم . فيالشغل القلوب في غير قربه . بل في التباعد عن ربكم .

ألا . ولا تردوا المهالك باتباع الهوى . عصمنا الله وإياكم من ذلك آمين .

* * *

---

(١) ورد الأمر بالإيمان بالغيب في القرآن ، ومن معاني الإيمان بالغيب : الايمان دون جدل ولا مراء .

(٢) سورة : الأعراف ، آية : ٧٩ .

الباب الخامس عشر

في رعاية الجوارح والقلوب

إخواني : وخصلة أعهد إليكم بها ، فيها جماع الخير كله . أوصيكم برعاية الجوارح والقلوب والتشبث [بذلك] في الأحوال كلها . ولا تبدأ بفضل ولا قول ، ولا تضمروا شيئاً إلا بنظر وتدبير فإن[1] كان محموداً عند الاله سبحانه وتعالى فبادروا فعله . وما كان مذموماً فجانبوه . وما خفي عليكم معرفته فكلوه الى العالم به وقفوا عنه ، حتى يأتي الله بعلمه وبيانه ، فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

« أحب البرية الى الله عز وجل من لم يقدم قولا ولا فعلاً ، ولا يداً ولا رجلاً ، ولا بطشاً ولا نية إلا بنظر وتدبير فإن كان لله فيه رضى أمضى[2] ، وإن كان غير ذلك أمسك » .

ألا فتشبهوا بأولي الألباب والنهي ، وأهل الورع والتقى ، وتأدبوا بآدابهم تجدوا به عزاء يوم الحساب .

* * *

(١) في الأصل : وإن .

(٢) كل ثقيل على النفس فهو حق ، وكل محبب إليها فهو باطل . هذا هو ضابط صحة الأعمال .

الباب السادس عشر

في أن النفس الأمارة مجمعة على تضييع حقوق الله

إخواني : هذا والله الطريق الى الله . فتمسكوا بما وصفت لكم واعتقدوه في قلوبكم ، وابنوا عليه أعمالكم ، وجاهدوا في القيام به أنفسكم ، فإني أرى النفس الأمارة مجمعة على تضييع أمر الله عز وجل . فراقبوا الله ولا تهملوها ، فيمحق دينكم ، ويؤتي عليكم وما تشعرون .

وبعد : فليس برشيد من يضيع ما تسمعون ، وإن حقوق الله لأكثر من ذلك وأكبر ، فإن أظهرتم العجز عن القيام فلا أقل من الحزن الدائم العظيم ، لأن المصيبة في تضييع حقوق الله ، وقد أحسب حزنكم لمصائب الدنيا أكثر من حزنكم لمصائب الدين ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

المصائب تترى ويعلو بعضها على بعض . ستبدو عواقبها عند الورود غدا . وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته ، إنه سميع الدعاء وبيده الخير ، وهو على كل شيء قدير ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وأذكى تحياته .

فلما انقضى كلام عبد الله رحمة الله عليه ورضوانه ، أقبل عليه أهل الانس به فقالوا :

أيها الأخ المحتاط لإخوانه . إنك لم تأب في النصح ، ولم تقصر في النظر ، وإن الذي انتهيت [به][1] إلينا هو الحق الذي لا محيص عنه . فقد ثبتت به

(١) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

الحجة ، وإتضح به منار الهدى ، ووجب علينا العمل به ، والله المعين على ذلك ، والموفق له ، فجزاك الله المنان بالنعم أفضل جزاء العاملين به .

ولقد سمعناك تصف قوماً بأحلام راجحة ، وعقول كاملة ، وأخلاق كريمة ، وأعمال صالحة ، ومعرفة بالنعم ، وإجتهاد في الشكر ، ومبالغة في درجات الصدق ، ورغبتنا في أفعالهم . ووصفت لنا قوماً عملوا بالبر جميعاً كلهم بالسواء ، وبعضهم أعلا عند الله من بعض ، وأوزن أعمالاً من بعض . ونعت قوماً بجهل عظيم ، وأعمال فظيعة ، وسرائر خبيثة ، وكفران النعم ، ووعينا عن مذاهبهم .

ووصفت أنفساً والهة بزهرات العاجل ، وحذرتنا من أمثالها ، ووضحت لنا خفيات مكائد الشيطان ، وخوفتنا منها . وأخبرتنا بوسواس النفوس تخطر على أنفسنا .

وقد وجدنا صدق وصفك في الآفات فينا ، ورأينا الفساد فيه ممزوجاً بأعمالنا ، ونرى أنفسنا غايتها أهواء غالبة ، وعدو لطيف الحيل ، قد غدا بإغوائنا يشجع على فصل كل شيء مذموم ، ويزينه بلطائف التمويه ، ويثبط عن[1] كل فعل محمود ، ويمزجه بخفايا المكائد .

فإن رأيت أيها الناصح لإخوانه ، أن تجدد لنا صفات[2] من آداب الدين محمودة ، حتى نستعين بها على مكارم الأخلاق بيننا . وتصف لنا أحوال الشكور من العباد ، وأحوال الكفور ، وأحوال أهل الورع و الصدق ، وتصف جرائم أهل الرياء والعجب ، وجرائم أهل التيه ، عسى أن يذهب الجهل عنا ، ويشرح لنا بمعرفتها صدورنا ، ويلين بها قلوبنا ، ونجاهد بها العدو عن ديننا ، ونخالف بمعرفتها أهواءنا ، وعسى الله أن يصلح بها بعض داء نفوسنا ، مع قديم ما أجرى الله على لسانك لنا .

قال لهم عبد الله رحمته عليه ورضوانه :

---

(١) في الأصل : على.
(٢) في الأصل : صفاتاً .

إخـواني : إن لكم حقوقـاً واجبة ، وقـد وجب لكم على أكـثر من ذلـك . فـرغبتكم واستزدتكم من معـرفة محـاب ربي عز وجـل . فإنكم تسـألون عن علم خفي ، في الصدور مخزون ، لا يعلمه إلا العلماء بالله ، لذلك بلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

« إن من العلم علماً مكنوناً ـ أو قال مخزوناً ـ لا يعلمه إلا العلماء بالله ، فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الغرة بالله » .

فلا تحتقروا عبداً أتاه الله علماً ، فإن الله لم يحقره لما استودعه إياه ، ألا وإني لمؤد إليكم بعض ما فتح الله لنا من ذلك ، واستهدي الله تعالى وأسترشده .

---

(١) حديث « إن من العلم علماً مكنوناً » : أورده الغزالي في الاحياء ، وقال العراقي : « أخرجه أبو عبد الرحمن السلمي في الأربعين لـه ، في التصوف ، من حـديث أبي هريـرة ، بإسنـاد ضعيف (إحياء علوم الدين ١/٢١)

الباب السابع عشر
في تفاوت العاملين بالبر

إخواني : اعلموا أن الكلام كثير ، وفنون العلم غير محدودة ،وخير القول ما ابتغي به وجه الله تعالى ، وأفضل العلم ما عمل به لوجه الله تعالى .

فانصتوا لما سألتم عنه بآذان واعية ، وأفئدة حاضرة ، وقلوب فهمة لخزائن العلم محتملة ، وعلى العلم مضمرة ، وبالعلم بالله عالمة عاملة ، وفقنا الله وإياكم لذلك .

تفاضل العاملين في العلم وحسن النية :

فأما ما سألتم عنه من أحوال قوم عملوا بالبر جميعاً بالسواء ، وبعضهم عند الله أعلى وأوزن أعمالاً من بعض . لقد بحثتم عن علم كبير ، ووصف كثير ، وتفاوت بين العباد بعيد ، وسأصف بعض أحوالهم بمن الله وإرشاده .

ذلك بأنهم تفاضلوا بالعلم ، وحسن النية ، وصدق اللسان والورع ، فإن للأعمال حدوداً ، وعلى العامل فيها شروطاً والعبد إذا كان جاهلاً بحدود أعمال أو آداب الدين ، لم يتوجه لتحري مسرات الله تعالى . ولا لاجابة الحق في عمله . ولا في نيته . وكذلك إذا جهل أدواء النفوس ، ومكائد الشيطان ، ولم يتوق على أعماله ، ولم يحسره أن يتحرز من أعداء دينه ونفسه وعدوه ، ويزينان له أمور دنياه عن آخرته ، ويرغبانه فيها وافق هواه ، وفيها يزينه للناس ويشينه عند

ربه عز وجل . والعبد منقاد لهما[1] .

مكائد الشيطان مستورة عن العبد :

وذلك [أنه][2] مستور عنه ما حل به من مكائدهما ، فيعمل في أعمال البر بقلة العلم ، وضعف الرأي ، فمرة يجهل ، وأخرى لا يصيب ، ومرة عليه ، ومرة ليس عليه . فهذا وإن أكثر من التطوع فهو خفيف الوزن ، منقوص عن درجة العارفين .

العارف يتحرى مسرات الله :

وأما الآخر فإنما أوتي العقل والمعرفة ، فإتفقت أحواله ، وخالف هواه ، وجاهد عدوه ، ووضع الأشياء بعلمه موضوعها ، وأجرى الأمور بعقله مجاريها ، وتحرى مسرات الله بمجهوده فيها ، ووقف بتقواه عما اشتبه عليه منها ، وإلتمس علم ما لم يعلم ليعمل به ، واختار لأعمال[3] البر أفضل النية ، وأعلا الادارة وأوفقها لمحبة الله عز وجل ، فجعل أصح النية أساساً ، وبني عليها أعمال البر ، ووقاها من التزين والآفات جهده ، وأسرها من العباد صيانة [لها][4] فهذا ، وإن قل تطوعه فهو أوزن عملاً ، وأعلا قدراً ، والقليل من أعماله كثير .

نية المؤمن خير من عمله :

وقيل نية المؤمن خير من عمله[5] ، ولكل امرىء ما نوى . وفي قوله عز

---

(١) أي : لأدواء النفوس ومكائد الشيطان .

(٢) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٣) في الأصول : واختار أعمال .

(٤) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٥) لأن عمل الإيمان على رجاء الثواب وخوف العقاب خير . ونية المؤمن الخالصة هي تخليص العمل لوجه الله دون ارتقاب ثواب ولا خوف عذاب وهنا ذكر خفي وتوجه كامل لله تعالى أفضل ثواباً من العمل نفسه .

راجع باب النية من كتاب « علم القلوب » لأبي طالب المكي . تحقيقه لنا . فهو أعجب ما كتب في هذا الباب .

وجل :

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكلته ﴾[1] . قال : على نيته . .

وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

« إن الملائكة ليصعدون بعمل العبد من عباد الله فيستقلون ويحقرون ، حتى ينتهوا به حيث يشاء الله من سلطانه ، فيوحي الله تعالى إليهم : إنكم حفظة على عمل عبدي ، وأنا رقيب على ما في نفسه ، فضاعفوا له ، وإكتبوا له في عليين » .

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : « إن الله عز وجل ليعطي العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله ، وإن النية لا رياء فيها والعمل قد يخالطه الرياء .

* * *

(١) سورة : الإسراء ، آية : ٨٤ .

الباب الثامن عشر

في نية العلم النافع

فإذا رغب الناس في فنون العلم فإجعلوا أعظم الرغبة في العلم المفترض على العباد . فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

« طلب العلم فريضة على كل مؤمن »[1] .

إلتماس علم الحلال والحرام والفرائض :

يا قوم : فقدموا النية في تعلم حدود الفرائض ومعرفة الحلال والحرام والورع والاخلاص لله في الأعمال ، والتمسوا علم ذلك بمجهودكم ، فإن الجاهل

---

(١) حديث « طلب العلم فريضة » : أخرجه ابن ماجه من حديث أنس ، وضعفه أحمد والبيهقي .
والحديث أورده السيوطي في جامعه الكبير بعدة ألفاظ وهي :
الأول : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » . وعزاه لابن عدي في الكامل ، والحاكم في الكنى ، وإبن عبد البر في العلم ، وتمام في فوائده ، والبيهقي في شعب الايمان ، والخطيب في تاريخ بغداد ، وإبن عساكر في التاريخ ، وابن النجار عن أنس . والطبراني وتمام عن إبن عباس ، والرافعي عن أبي سعد .
الثاني : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير » وعزاه لابن ماجه عن أنس .
الثالث : « طلب العلم واجب على كل مسلم » وعزاه للبيهقي في الشعب عن أنس .
الرابع : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » فاغد أيها العبد عالماً أو متعلماً ، ولا خير فيما بين ذلك . وعزاه للديلمي عن علي .

بحـدود الدين أعمي عن سبيـل الـرشـاد منقب في ضـد السـداد متلون في فنـون الفساد ، وقد بلغنا أن رسول الله ﷺقال :

« لو أن جاهلاً فاق المجتهدين في العبادة كان ما يفسد أكثر مما يصلح »[1] .

وإلا فمتى جهلتم حـدود الدين خسـرتم ، ومتى علمتم ما إفتـرض عليكم وعملتم به سعدتم ، فهذا فضل ما بين الرجلين ، أحدهما يلتمس فنوناً من العلم لا فقر به إليها ، ولا يؤاخذ في القيامة بترك معرفتها ، لكنه يسأل عنها وعن نصبـه في طلبها . وماذا أراد بمعرفتها . فإما للتقرب من الله تعالى أراد وإمـا لمعاني الـدنيا وأهـوائهـا[2] . والآخـر يـطلب علم حـدود الفـرائض التي يسخط الله عـلى من ضيعها .

وبعد : فإذا أحكمتم علم الفرائض فإلتمسوا من فنون العلم أوفقهـا لمحبة الله عز وجل ، وأعظمها في الدين نفعاً ، وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته .

* * *

---

(١) لأنه يفتي بغير علم ، ولا يصحح أعماله ، ويقتدي به أمثالـه من العامـة ، ويبتدع مـا فيه خـراب الضمير وبلادة القلوب .

(٢) وذلك كالجدل حول القضـاء والقدر وأفعـال العباد ودراسـة مذاهب المـلاحدة . والعلوم الـدنيويـة البحتة والتي لا نية فيها لله تعالى . ويمكن تحويل عمل الدنيا الى قربه بتقويم النية .

الباب التاسع عشر
في شرف العقل

إخواني : وإن اكتسب الناس في أنواع البر ، فنافسوهم فيها ، واجعلوا أعظم الرغبة في اكتساب العقل . فإن أولياء الله تدبروا وتفكروا ونظروا واعتبروا .

اكتساب العقل بطاعة الله :

بالعقل رغبوا ورهبوا ، وزهدوا وانتقلوا إلى الرشد ، وعلوا به في الدرجات . وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

« يا علي إذا اكتسب الناس أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربهم ، فاكتسب أنواع العقل تفقهم بالزلفة والقربة والدرجات في الدنيا والآخرة »[1] .

وبلغنا عنه عليه السلام [أنه][2] قال :

« لا يقبل الله صلاة عبد ولا صومه ، ولا حجه ولا عمرته ، ولا صدقته ولا جهاده ، ولا شيئاً مما يكون من أنواع البر : إذا لم يكن يعقل » .

---

(١) حديث « يا علي ، إذا إكتسب » : أخرجه أبو نعيم في الحلبة ، والبزار في سننه ،عن علي ،بلفظ : « يا علي ، إذا تقرب الناس إلى الله في أبواب البر ، فتقرب إليه بأنواع العقل لتسبقهم بالدرجات والزلفي عند الناس في الدنيا وعند الله في الآخرة »وأورده السيوطي في الجامع الكبير .

(٢) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

وبلغنا أن الله عز وجل لما خلق العقل قال له : أقعد . فقعد . ثم قال له : قم . فقام . ثم قال له : أدبر . فأدبر . ثم قال له : أقبل . فأقبل . ثم قال له : أنظر . فنظر . ثم قال له : تكلم . فتكلم . ثم قال له : أنصت . فأنصت[1] . ثم قال له : إسمع . فسمع . ثم قال له : أفهم . ففهم . ثم قال له : « وعزتي وجلالي ، وعظمتي وسلطاني ، وقدرتي على خلقي ما خلقت خلقاً هو أكرم عليَّ ولا أحب منك ، ولا أفضل منك منزلة ، لأني بك أعرف ، وبك أعبد ، وبك أحمد ، وبك آخذ ، بك أعطي ، وبك أعاقب ، ولك الثواب » .

فقد خص الله تعالى العقل بالكرامة ، وحباه بأمر عظيم ، وجعل العاقلين أعلى درجة وأشرفها في الدنيا والآخرة . وبلغنا عن بعض الصحابة أنه قال : « لأن يزداد عقلي كل يوم مقدار ذرة . أحب إلي من حطم السيوف في سبيل الله تعالى بنفسي ومالي وإعطائي المال سخاء في أصناف المعروف وفي الصدقات » .

ألا فمن رغب منكم في العقل وأراد السبيل في اكتسابه ، فإن أفضل ما تستفيد بالعقل أن تطيع الله فيما افترض عليك . وتتجنب ما حرم الله عليك ، فمتى فعلت ذلك أخذت من العقل بنصيب ، فبذلك جاءت الأخبار : « أن العاقل من أطاع الله ، ولا عقل لمن عصاه » .

العلو في العقل في صحة الجوارح والأرزاق :

وبعد : فإن أردت العلو في درجات العقل ، ورغبت في مزيد الفوائد من الله عز وجل ، فكن بخلاف الناس في فعلهم ، فإن الناس إنما عصموا الله بما أنعم عليهم من صحة الجوارح والأرزاق المتواترة ، وغيرها من النعم المتظاهرة ، فيها قووا على معاصي الله .

وسائل رقي العقل :

أخي : فاستحي أن تعصيه بنعمه . ولتكن من أهل الكرم والشكر ،

---

(١) في الأصل : فنصت

واستعمل نعمه لديك ، فورب البرية لئن استقمت وإستعملت نعم الله تعالى في مسراته لترتقين في درجات العقل إلى محض الإيمان ، وخالص الدين ، وصدق اليقين .

ولترتقين إلى صحة المعرفة بعظمة الله وكبريائه وجلاله ، وعظيم قدرته ، سبحانه وتعالى .

ولترتقين إلى صدق الحياء من الله تعالى وشدة الهيبة له ، والرغبة في رضوانه .

ولترتقين في الصبر على بلاء الله ، والتسليم وشدة الهيبة له ، والرغبة في رضوانه .

ولترتقين في الصبر على بلاء الله ، والتسليم لأمره ، والرضا بقضائه ، والسرور بنظره لك وإختياره .

ولترتقين في صحة التعظيم لله ، والإجلال له ، والثقة به ، والطمأنينة إليه ، والاعتماد عليه ، والأنس به ، والحب له ، والشوق إليه ، على حسب ما عقلت من عظمته ، وعظيم قدرته ، سبحانه . فذلك والله أعلى الدرجات ، وأوزن من عبادة المجتهدين أعمالاً .

فهذا فضل ما بين رجليه ، أحدهما بعمل بالبر ، قليل العلم بفوائد العقل . والآخر يتحرى بعقله مسرات الإله ، يعتقد في الضمير موافقة الله سبحانه فيما يحب ويكره . فيرقى بها في الدرجات ، وأيها درجات . وهبنا الله وإياكم علماً نافعاً ، وعقلاً راجحاً .

* * *

الباب العشرون

أصناف الناس في محاب الله تعالى

إخواني : وإذا رأيتم الناس يبغضون ما يحب الله ، ويكرهون منافعهم في الآخرة ، ألا فراقبوا الله تعالى وكونوا بخلافهم ، وجاهدوا أنفسكم على حب ما يحب الله ، فقد يحسب قوم أنهم يحبون ما يحب الله ، وليسوا هم كذلك . ولكنهم كارهون لكثير من محاب الله عز وجل ، مبغضون لكثير من منافعهم في الآخرة ، فتدبروا أمركم .

ما قولكم في أمريء عالم قيض الله له عالماً ناصحاً يرشده لمحاب الله عز وجل ؟ ويبصره عيوب نفسه ؟ ويدله على طريق الانابة فيها ؟ لينتقل عن طريق الغي إلى الرشد ، وذلك من محاب الله عز وجل ، والجاهل يأنف أن يخبر بعيوبه ، أو يعلم أحد مساوئه ، فيجد في نفسه على من أحب رشده ، ولا يعلم أنه واجد على من قيض له الناصح المرشد رأفة به . وهو يستقبل الناصح إستقبالاً شديداً ، ويتمغص من إرشاده إياه ، وما يشعر[1] .

كذلك امرؤ لطف به رحمة له منه بعيده ، فصرف عنه فتنة الجاه ، أن يكون في الناس مشهوراً يشار إليه ، ويوطأ عقبه متبوعاً معظماً ، فسلم من فتنته ذلك ، وجعله خامل الذكر ، إن غاب لم يفتقد ، وإن حضر لم يعرف .

---

(١) في الأصل : « وما يشعرون » . وذلك مصداق لقوله تعالى : (وإذا قيل له إتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم)

فذلك أسلم لدينه ، وذلك من منن الله عز وجل عليه . وبلغنـا أن الله عز وجل يقول فيما يعدد من أياديه :

« عبدي : ألم أخمل ذكرك في الدنيا نظراً مني لك ؟ »

والمفتون مضموم يصغر قدره عند الناس ، محزون مخمول ذكره ، كاره لنظر الله له ، وإختياره له ، وما يعرف ذلك من نفسه .

وكذلك امرؤ نظر الله له، فصرف عنه فتنة المال ، أن يطغي بـه ، ويشتغل بـدنياه عن بعض أمـور الآخرة ، فجعله الـرءوف به قليـل المال ، رضي البـال ، سليم الدين ، قليل التخاليط ، خفيف الثقل ، قليل الوقوف ، يسير الحسـاب ، قليل المساءلة ، سريع العبور على الصراط ، وكل ذلك رأفة من الله تعالى به .

وبلغني أن الله تعالى يقول :

« يحزن عبدي أن أصرف عنه الدنيا ، وذلك أقرب مـا يكون مني ، وأحب ما يكون إلي » .

والعبد يحزن بصرف الدنيا عنه كأنه يكره حب الله عز وجـل وما يشعـــر . لكنه يتشاءم بقلة المال ، ويتطير من صنع الله له ، ومـا يعقل مـا حل بـه . فمثل هذا كثير يحبه الله عز وجل ، ويحب من يحبه والعبد يبغض ذلك كله .

أعاذنا الله وإياكم من بغض محابه .

* * *

الباب الحادي والعشرون

في أصناف الناس في حب ما يبغضه الله

إخـواني : وإذا رأيتم الناس يحبـون ما أبغض الله عـز وجل . فقـد يحسب أقوام أنهم يبغضون ما أضر بدينهم ، وليس كذلك . ولكنهم يحبون ما أبغض الله ويفرحون بما أضر بدينهم فكونوا بخلافهم .

مـا ظنكم بامـرىء واله ، يحب الثنـاء والتعظيم ، والعلو في الـدنيـا ؟ والله يبغض ذلـك ويبغض من أحبه ؟ والجـاهـل يتمنى الـذي أبغض الله من التعـظيم والعلو ، كأنه محب لبغض الله إياه وما يشعر . أعاذنا الله وإياكم من ذلك .

وكذلك امرؤ مشغوف بحب المـال ، والتكاثـر والزينـة في الدنيـا ، والله عز وجل يبغض ذلك ويبغض من أحبه . وبلغنا أن الله عز وجل ثناؤه يقول :

« يفرح عبدي أن أوسع عليه في الدنيا ، وذلك أبعد مـا يكون مني وأبغض ما يكون إلي »[1] .

والعبد يتمنى الذي أبغض الله كأنه محب لبغض الله إياه وما يشعر .

فمثل هذا كثير يبغض الله ، ويبغض من أحبه ، والعبـد مشغوف بـذلك . فهذا فرق ما بين رجلين :

أحدهما : مسرور بنظر الله له ، يحب ما أحب الله ، ويبغض ما أبغضه الله عز وجل .

---

(١) في الأصل : الآخرة .

والآخر : مبغض لكثير من محاب الله عز وجل ، محب لكثير من مكـاره الله عز وجل ، مشغوف بكثير من منافعه في الدنيا [1] . محـزون لصنيع الله لـه ، وما يعقـل ما حـل به من ذلـك . فكفى بهذه مصيبـة حلت بعبد يمسي ويصبـح دهره مبغضاً لما يحب الله ، محباً لما أبغض الله مصراً على ذلك عمره .

ويحـك !! لقد انتهى في مخـالفة الله عـز وجل ، وفي عـداوة نفسه لـو كـان يفقه .

إخواني : فراقبوا الله عز وجـل ، ولا تتكلوا على العبـادة مع الاصـرار على حب ما يبغض الله عز وجل ، وجاهدوا أنفسكم على مخالفة الهوي ، وموافقـة الله عز وجل فيما يحب ويبغض ، وإن ذلك واجب و ثوابه جسيم ، والخطر في تضييعه عظيم .

فكفي به إثماً أن يحب الله أمراً فتكرهوه ، ويبغض أمراً فتحبوه[1] ، خلافـاً من المخلوقين على الخالق ، والله عز وجل مطلع على ذلك من قلب العبد ، تعالى الله عز وجل ، ما أحلمه[2] على عبد علم ذلك من ضميره ، ويـا لها من فتنـة قد حلت بأكثر من ترى إلا قليلاً . عصمنا الله وإياكم بما عصم به أوليـاءه ، آمين يـا رب العالمين .

---

(١) في الأصل : وتحبوه .

(٢) في الأصل : ما أحكمه .

الباب الثاني والعشرون

في خشوع القلوب مع الأبدان

إخواني : فإذا حضر الناس في الصلاة أبدانهم ، وتخشعوا بالجوارح ، وقلوبهم ساهية عن ربهم في الخشوع .

ألا فراقبوا الله ، وأحضروا القلوب مع الأبدان ، وقوموا لله مقام العبيد بين يدي أربابهم ، بخشوع وهيبة ، وإستكانة وتعظيم ، فقد يعظم بعضكم بعضاً ، وتقتنون لمخاطبة العبيد تعظيماً وإستحياء ، أو رجاء أو مخافة .

الله أولى بالتعظيم :

أيها الناس : أفليس الله عز وجل أولى بالتعظيم والاستحياء ، سبحانه وتعالى ؟ ! .

يا قوم : أفجهلتم فضل الله عز وجل على العباد ، فلم لا تعظموا الجبار عز وجل بأكثر من تعظيمكم المخلوقين ؟ فلا أقل من أن تنصتوا ويحكم لكلام الله عز وجل ، كما تنصتون لكلام العبيد ، كيلا يكون الرب عز وجل أهون عليكم من عبيده ، تعالى الله عن ذلك . .

ألا فراقبوا الله إخواني : واعرفوا قدر من قمتم له ، وعظموه وهابوه ، فقد روى بعض أهل العلم في قوله عز وجل : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِين ﴾[1] . قال :

---

(١) البقرة ، آية : ٢٣٨ .

« القنوت الخشوع في الركوع والسجود ، وغض البصر وخفض الجناح ، من رهبة الله عز وجل » .

أحوال العلماء في الصلاة :

وكان العلماء إذا قام أحدهم للصلاة هاب أن يلتفت أو يعبث بشيء ، أو يحدث نفسه بشيء من شأن الدنيا ، إلا ناسياً . وبلغنا عن بعض أهل العلم أنه قال : « ركعتان خفيفتان مقتصدتان في تفكر خير قيام ليلة والقلب ساه » .

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : « إن القوم يكونون في الصلاة الواحدة ، وإن بينهم من الفضل ما بين السماء والأرض ، إن الرجل خاشع مقبل على الله سبحانه ، والآخر ساه .

مكائد الشيطان في الصلاة :

وبلغنا أن الرجل إذا قام للصلاة وقال : الله أكبر . أتاه الشيطان فقال له : أذكر كذا . إذكر كذا . وذكر حوائجه وفتنه ، وذكره شغله ، فيقول له الملك : أقبل على صلاتك . والملك يناديه في أذنه اليمنى ، والشيطان يناديه في اليسرى، وقلبه ينازع الى الأمرين . فإن أطاع الملك ضرب الملك بجناحه الشيطان وأخسأه ، وإن أطاع الشيطان قال له الملك : سحقاً سحقاً . أما أنك لو أطعتني لم تقم من صلاتك إلا وقد غفر الله لك كل ذنب .

وجوب إحضار القلوب مع الأبدان في الصلاة :

وبلغنا أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها[1] . وبلغنا عن بعض

---

(١) أي : من معاني الفاتحة ، وما يقرأ من القرآن ، ومعاني الركوع والسجود والقيام بين يدي الله ، ومعاني العبودية والمناجاة. أما المأخوذ من سالكي طريق الصوفية فإن كان صادقاً في جذبه، فهو بين يدي الله تعالى ، وإن كان كاذباً فعليه وزره وقال بعضهم ومنهم الشيخ الدرقوي شيخ الدرقوية في المغرب : « يعرف صدق المريد في جذبه باختياره في ماله ، فإن افطن للخطأ فيه فهو كاذب » .

أئمة الهدى أنه قال : « إذا كان أحدكم في الصلاة فليجعلها من همه ، وليقبل عليها ، ولا تكونوا كالفرس على رأسه مخلاة فارغة ، يرفعها ويحطها ولا شيء فيها » .

ألا فكونوا وجلين من الاستهانة بأمر الله ، كيلا تنقلبوا من الصلاة خائبين . أعاذنا الله وإياكم من ذلك .

فهذا فرق ما بين الرجلين . أحدهما في الصلاة وقلبه لاه عن الله سبحانه ، والآخر حاضر قلبه مع بدنه ، هائب لله تعالى في مقامه .

ألا فراقبوا الله إخواني ، وجاهدوا أنفسكم على إحضار القلوب في الصلاة ، ولا يغرنكم أولياء الشيطان ، فإنهم يحضرون أبدانهم في الصلاة ، ويلهون قلوبهم في أباطيل الدنيا وأمانيهم ، ثم يطلبون المعاذير لأنفسهم ، ويزعمون أن أخيار الصحابة رضي الله عنهم قد سهوا في الصلاة ، يريدون أن يعذروا بذلك أنفسهم في الغفلة عن الله عز وجل ، باغتياب الأخيار . ولئن كان الذكر لسهو الصحابة واخلاً في الغيبة ، لقد بكوا به مع الغفلة عن الله عز وجل فاحذروا اغتياب الأخيار [1] .

يا قوم : إن الصحابة كانوا إذا بلوا بالسهو تعاظموا ذلك ، وأشفقوا منه ، ولم يرضوا به من أنفسهم .

توبيخ الرسول ﷺ للساهين :

وبلغنا أن رسول الله ﷺ وبخ قوماً على سهوهم ، فراعهم ذلك كثيراً ، واستدركوا السهو بالمراجعة إلى الذكر ، وبذلوا المجهود في إحضار القلوب والفهم

---

(١) يحتج بعض الجهلاء بما روي عن سيدنا عمر رضي الله عنه من أنه كان يعد خطة الحرب وهو في الصلاة ، ونسوا أن هذه الحرب كانت لنشر الاسلام ، ونصرة كلمة الله ، فهو رضي الله عنه في ذلك عابد لا شك في ذلك . وفرق بين خواطر إمام عادل ، وخواطر المخلصين من الناس وخواطر العامة

عن الله عـز وجل ، والهيبـة له ، ولم يعـذروا أنفسهم كما تعـذرون أنفسكم . ولم يطلبوا الحجج والمعاذير كما تطلبون .

الفرق بين غفلة الصحابة وغفلة غيرهم :

وبعد : أفتحسبون أن غفلة الصحابة وفكرتهم في الصلاة كانت على حسب غفلتكم ، ومثل فكرتكم في البيوع والخصومـات والأماني والخسـارات؟ لئن ظننتم ذلك بهم ، لقد أسأتم الظن وازدريتم على سادات الأمة إذ شبهتموهم بأنفسكم .

ولئن ظننتم أن غفلتكم في الصلاة قليلة على حسب غفلة الصحابة ، فلقـد أحسنتم الظن بأنفسكم ، ورفعتموها إلى درجـات الأولياء ، بئس مـا سولت لكم أنفسكم .

تحري التابعين لقلوبهم :

أما إنتهى إليكم أنه قيـل لبعض التابعـين : إنا نجـد وسوسـة في الصلاة . فقال : أنا أجد ذلك . فقيل له : ما الذي تجد ؟ قال : أجـد ذكر الجنـة والنار ، وكأني واقف بين يدي ربي . فقالوا : إنا نجد ذكر الدنيا وحـوائجها[1] . فقـال : لأن آخر من السماء إلى الأرض أحب إليَّ من أن يعلم الله ذلك من قلبي .

فهكذا الأخيار يا قوم . فتدبروا مـا دهاكم من الشيـطان حين ألهي قلوبكم في الصلاة عن الله عز وجل ، ثم زين لكم الاحتجاج بهؤلاء الاتقياء .

---

(١) يرى الإمام الغزالي أن المصلي إذا أحكم التوجه الخالص لله وقت النية في التكبيـرة الأولى وخرج من صـلاته متـوجهاً إلى الله كـذلـك فـما بينهـما يعفي عن العبـد فيـه . وهـو رأي أبي طـالب المكي . والضابط .

والضابط الذي تعرف به الخواطر التي يجب التخلص منها والتي لا يجوز التخلص منهـا : أن يعرض الانسان على نفسه هذه الخـواطر في خلوتـه ، فما استـوى وجوده وعـدمه فـلا شيء فيه . ومـا ليس كذلك يجب نفيه . وما ليس كذلك يجب نفيه . هذا في حال أهل البدايات . وإلا فـالمحبة الالهيـة والفيض الالهي عند أهل النهايات مما يستوي وجوده وعدمه عندهم .

ويحكم !! لـو رجعتم بـالازدراء عـلى أنفسكم عنـد الغفلة ، واعتـرفتم بإسائتكم وتضرركم لكان أقرب إلى العفو من طلب الحجج وذكر سهو الأخيار .

تكفير الصحابة عن سهوهم :

وبعـد : فهلا تستعـظمون سهـوكم كما استعـظم الأخيار سهوهم ؟! ولقـد بلغنا أن بعض الصحابـة كان يصـلي في نخيل لـه ، فشغل بـالنظر إلى النخيـل ، فسها في صلاته ، فاستعظم ذلك وقال : « أصابتني في مالي فتنة » فجعـل النخيل في الأرض صدقة في سبيل الله . فبلغ ثمنه خمسين ألفاً .

فمن منكم إستعظم سهوه فتصدق بقيراط ؟!

أف لكم ، أمـا تستحيون من هـذا القياس ؟ تقـولون إن غفلنـا في الصلاة فقد غفل الصحابة ؟ أتشبهون أنفسكم بهم ؟

يا قوم : ما أقبح قياسكم ، وأرخص حجتكم !!

أحوال خيار الأمة عند الاستعداد للصلاة :

وبعد : فهلا تأسيتم بخشوع خيار هذه الأمة ، ومثل تعظيمهم لأمر الله عز وجل ؟ لقد بلغنا أن بعضهم كان في صلاته كـالثوب الملقى . وبعضهم كـالخشبة اليابسة . وبعضهم ينتقل من صلاته متغير اللون لقيامه بـين يدي الله عـز وجل . وبعضهم لم يكن يعـرف من على يمينـه وشمالـه وبعضهم كان إذا قـام إلى الصلاة [قام][1] كأنه عود من الخشوع .

وبلغنـا عن بعض أئمة الهـدى أنه كـان إذا تـوضـأ للصـلاة رئي في وجهـه التغير[2] ، يصفر مرة ويتلون أخرى ، فقيـل له : يـا أمير المؤمنـين ، إنا نـراك إذا

---

(١) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٢) ممن روي عنهم ذلـك : الامام علي كرم الله وجهـه ، والإمام جعفـر الصادق ، والإمـام عـلي زين العابدين (راجع الطبقات الكبرى للشعراني)

توضأت للصلاة تغيرت أحوالك ، قال : « إني أعرف بين يدي من أقوم » .

وبلغنا عن بعض التابعين أنه كان إذا قام إلى الصلاة ، تغير لونه ، وكان يقول : أتدرون بين يدي من أقف ، ومن أناجي ؟ !

استعظام الناس لمصيبة المال لا لمصيبة الدين :

فمن منكم لله في قلبه مثل هذه الهيبة ؟ !

ولقد بلغنا أن من تعظيمهم لأمر الله ، أن أحدهم كان إذا فاتته التكبيرة الأولى عزوه بمصيبته ثلاثة أيام ، استعظاماً منهم لفوت صلاة الجماعة .

فبالله ، أكذلك أنتم يا قوم إذا فاتتكم التكبيرة مع الامام ؟ أو فاتكم بعض أعمال البر ؟

لعمري [هل][1] يعزونكم ؟

بل إن أصيب أحدكم في ماله فتلك المصيبة العظمى يعزي بعضكم بعضاً بمصائب الدنيا ، وتستغيثون منها ، وتسخطون من قدر الله لها ، وتشكون إلى الناس فعل الله ، فاما فوت أعمال البر ، وموافقة الذنوب ، فما أرى بعضكم يعزي بعضاً ، كأنها ليست من المصائب عندكم .

هيهات ما أبعد شبهكم بخيار السلف ! !

ويحكم ! ! تركتم التأسي بفضائل الاتقياء ، وتحتجون بزلة كانت منهم ، كأنكم في الزلل والسهو مثلهم ؟ كذبتم وباري النفوس يا غافلين .

ألا فراقبوا الله وذروا طلب المعاذير والحجج الداحضة ، وجاهدوا أنفسكم على إحضار القلوب في الصلاة ، والفهم عن الله عز وجل ، والتعظيم لأمره ، كيلا تنقلبوا من الصلاة خائبين ، جعلنا الله وإياكم من العاملين الهائبين له آمين .

* * *

---

(١) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

الباب الثالث والعشرون

في تصحيح الصوم

إخواني : وإذا صام الناس عن الطعام والشراب ، ألا فقوا صومكم عن الإفطار على الحرام ، وتحرزوا من الآثام المضرة بالصيام . فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ :

« الصائم يدع قول الزور ، والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والجهل ، والخنا ، ويحفظ ويتحفظ ، ويغض البصر ، فمن لم يفعل ذلك فإن الله تعالى يقول : لا حاجة بأن يدع طعامه وشرابه » .

فهذا فضل ما بين الرجلين : أحدهما يرعى جوارحه في صومه ، ويتحرى طعام إفطاره[1] ، ويتفقد جميع أحواله ، فهو أوزن عملاً ممن يدع في صومه الطعام ، ولا يتورع في صومه عن الآثام . وعساه يفطر على ألوان الشهوات الممتزجة بالسحت والتبعات ، فالله أعلم بحاله وحال صومه .

وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

---

(١) بل لا يكفي أن يتحرى الحلال في طعام إفطاره ، وإنما يجب التقلل من الطعام الحلال حتى تأنس النفس بالجوع وتتفجر منها ينابيع الحكمة . فالجوع وحده هو باب الحكمة ، وهو بعد ذلك انجح طريق لقيادة النفس وتبعيتها للمريد كما يقول سيدي عن بهاء الدين نقشبند . (راجع : رسائل سيدي خالد المجددي . طبعة . الشام . حلية الأبدال للشيخ الأكبر ابن عربي . وباب الحكمة من علم القلوب لأبي طالب المكي . طبعة مكتبة القاهرة) .

لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا ، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار ، ما يقبل ذلك منكم إلا بورع صادق »[٢] .

ألا فراقبوا الله . وحافظوا على حدود الدين بصدق الورع ، وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته .

* * *

الباب الرابع والعشرون

في وجوب نية النوافل لإتمام نقص الفرائض

إخواني : إذا تطوع الناس بالصوم والصلاة طلباً للثواب ، ألا فقدموا النية في استكثار التطوع لإكمال الصلاة المفروضة . فإن كان فيها خلل كثيراً[1] ، فإن أمنية العاقل من جميع أعمال بره ونوافله أن يكمل بها فرائضه .

فإنه بلغنا أن على جهنم جسوراً يسأل العبد عند أولها ، فإن سلم إيمانه من النفاق والرياء والشك والعجب نجا ، وإلا فإنه يتردى[2] في النار ، ويسأل في الثاني عن الوضوء والغسل من الجنابة ، والصلاة والصيام ، فإن جاء بها تامان ، وإلا تردى في النار ، ويسأل في الثالث عن الزكاة والحج والعمرة ، فإن جاء بها تامان ، وإلا تردى في النار » ، أعاذنا الله وإياكم من النار .

وبلغنا أن بعض الصحابة قال : « ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة المكتوبة ، فإن أتمها وإلا قيل للحفظة[3] : أنظروا هل له من تطوع ؟ فإن كان له

---

(١) كالسهو عن الله تعالى ، وعن معاني ما يقرأ المصلي ، ومراعاة العلم في الصلاة وإهمال مراعاة الأمر قيل لبعض المكلمين : إذا أمرتك فامض للأمر لا لعلم الأمر ، وإلا فللعلم أطعت لا للأمر . (راجع منهاج العوارف في شرح مشكل الحديث . مخطوط . وتنزل الأملاك للشيخ الأكبر) .

(٢) في الأصل : وإلا فيتردى .

(٣) في الأصل : « له » والسياق يقتضي ما أثبتناه .

تطوع ، أكملت الفرائض من تطوعه ، فإن لم تكمل الفريضة ، ولم يكن له تطوع ، أخذ بطرفيه وألقي في النار » .

وبلغنا أن الله جل ثناؤه يقول :

« لن ينجو مني عبد إلا بأداء ما افترضت عليه !! » .

إخواني : فأيقنت أني مطلوب بفرائض لم تتم ، ولا قاربت التمام ، ووجدت من النقص في التطوع أضعاف نقص الفرائض ، وضقت لذلك ذرعاً ، وخشيت ألا تكمل فريضة اتحدت بنوافل أضيع منها . وكيف يصلح ثوب قديم البلي بالخرق البالية ؟

فأيقنت من عملي خلاف التمام ، وأشفقت أني أتهزدى مع المتردين فيها ، فأصبحت مضطراً إلى الفرائض بكمالها ، فقيراً إلى التطوع لإتمام ما انتقص من حدودها ، شديد الحاجة إلى إكتساب البر لتكفير مساوئها ، فأنا في شغل عن طلب النوافل ، وقد ضيعت كثيراً من حدود الفرائض .

فتدبروا أمركم . فإن يكن الذي حل بي من التفريط حل بكم بعضه ، فاستكثروا من النوافل لإكمال الفرائض ، فإنه بلغنا أن الله جل ثناؤه لا يقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة[1] . وبلغنا أن نقصان الفرائض يكمل غدا بالنوافل إن كان في نوافلكم وفاء ، وكذلك نقصان الزكاة يكمل بالصدقات . إن كان في صدقاتكم وفاء ، وكذلك في سائر الأعمال .

وبلغنا أنه إذا انتقص من حدود الله ومن فرائضه[2] شيء كمل بنوافلها . فأما العاقل المعظم لحدود الله تعالى ، فإن كان شديد الرغبة في النوافل فالغالب على قلبه وهمته أداء الفرائض لربه عز وجل ، وإكمالها والاكثار[3] من أعمال البر

---

(١) بل وحتى تؤدي الفوائت . فأداء الفوائت مقدم على الاتيان بالنوافل جرياً على القاعدة . وجوب موافقة الأولى . وجاء عن بعض أهل العلم أن الفريضة تزيد على النافلة بسبعين درجة .

(٢) في الأصل : ومن فرائضها شيئاً .

(٣) في الأصل : يكثر .

لإكمال البر ، ولا يستكثرها ، ولتكن أمنيته ونيته إكمال حقوق الله عز وجل ، والإشفاق[1] من نقصها ، فهو أفضل العقل ، وأحسن النية ، وأعلا وأوزن عملاً ، وقد نعتهم رسول الله ﷺ فقال :

« ألا وإن العاملين هم العلماء الفقهاء عن الله ، الذين عقلوا عنه وأدوا إليه ما له قبلهم ، لم تتبع أنفسهم ما لهم عند الله . أولئك صفوة الله من خلقه » .

فهذا فضل ما بين الرجلين : أحدهما همته وأمنيته أن يكمل أعمال مولاه ، أثابه على ذلك أو لم يثبه[2] . والآخر مثل الأجير السوء ، يطلب الكراء ، وقد أفسد أعمال من إستأجره ، وهو بالعقوبة أولى ، وهو دائماً[3] يطلب الكراء [بما يستوجب][4] العقوبة .

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : إن قوماً عملوا أعمالاً من الطاعات ، فلما صاروا إلى الله إلتمسوا ثواب أعمالهم ، فوجدوا الله قد أحصى عليهم مثاقيل الذر ، فبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون .

إخواني : فلتكن إرادتكم في استكثار النوافل لإكمال الفرائض ، فإن ذلك أفضل النيات ، وأكرم الهمم ، وأوفقها لمحبة الله عز وجل . ولذلك فاق القوم بعضهم بعضاً[5] ، وتفاضلوا في الدرجات ، وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته . آمين يا رب العالمين .

---

(١) في الأصل : وإشفاق .

(٢) وهو مسلك أهل النهايات ، يعملون دون نظر إلى ثواب بل يعملون حتى لو كشف لهم أنهم من أهل النار .

(٣) في الأصل : دائم .

(٤) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٥) وفاق سيد الخلق ﷺ جميع العباد بصحة فرائضه وعدم تطرق الخلل إليها . ولذا كانت نوافله ﷺ لرفع الدرجات، لا لجبر ما نقص من الفرائض ، قال تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) .

الباب الخامس والعشرون

في وجوب نية العمل لمحو السيئات

إخواني : وإذا عمل الناس لعلو الدرجات ، فلا تجهلوا أموركم . قدموا النية في استكثار البر لمحو السيئات . ووجلاً من عواقبها .

فإنه بلغنا أن بعض أهل العلم قال : « إن أعقل الناس من خاف ذنوبه وإن قلت » . وقال بعض الصحابة : « وددت اني أنقلعت عيني وأن الله غفر لي ذنباً واحداً » . وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : « إنكم تسألون الجنة . هيهات ! حال ذكر النار دون الجنة » . يقولها إشفاقاً من عقاب المساوىء .

فهذا فضل ما بين رجلين : أحدهما مشفق مجتهد من رضوان الله عز وجل ، همته في النجاة ، والآخر يتمنى الدرجات ، وقد ضيع الواجبات ، واستوجب العقوبات .

ألا فلتكن النية في اكتساب الحسنات لمحو السيئات ، فإن ذلك أفضل وأعلا ، وهب الله لي ولكم عملاً نافعاً .

* * *

الباب السادس والعشرون

في وجوب الإنابة من الآثام

إخواني : وإذا عمل الناس بالبر ، وفي ذلك يتغمضون في الآثام ، ويخلطون عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، يؤملون محو المساوىء .

ألا فراقبوا الله إخواني ، وتطهروا من السيئات بالانابة منها ، والذم عليها . فإن الانابة أبلغ في رضوان الله ، وأطهر لكم ، وأمحق للذنوب من الحسنات مع التلوث في السيئات .

فإنه بلغنا ، أن بعض أهل العلم قال : « أفضل العبادات أداء الفرائض ، وإجتناب المحارم . وبلغنا عن بعضهم أنه قال : « بلغني أنه يلتقي الرجلان أحدهما أكثر صوماً وصلاة ، مستقيم منيب إلى الله تعالى مراقب ، فهو أكرمهما على الله . قالوا : وكيف يكون ذلك ؟ قال : يكون أورعهما عن محارم الله » .

فهذا فضل ما بين الرجلين . وقال بعض أهل العلم : « من سره أن يسبق الدائب المجتهد ، فليكف عن الذنوب جهده » .

يا قوم : فتقربوا إلى الله بالتقوى ومجانبة الآثام ، فإن المجانب للحرام أحظى عند الله وأعلا من المتعبدين إذا خلطوا . وإن عملوا الصالحات فهم دون المراقبين(١) .

---

(١) (١) المراقبة دوام التوجه الى الله تعالى في كل عمل من الأعمال مع مراقبة القلب والخواطر ، ونفي الباطل منها ، وقد أسس النقشبندية مذهبهم عليها .

فاجعلوا أعظم الرغبة في الورع عن [محارم] الله ، وتـرك الخلاف عليـه ، فـإن أكرمكم عنـد الله أتقاكم ، وإنمـا يتقبل الله من المتقـين . جعلنا الله وإيـاكم كذلك .

الباب السابع والعشرون

في وجوب الإسرار بالدعاء

إخواني : وإذا أعلن الناس بالدعاء ، فأسروا دعاءكم فيما بينكم وبين الله تعالى ، فإن ذلك أبلغ ، وأوفق لمحبة الله عز وجل ، وأجزل للثواب .

وقد بلغنا أن دعاء السر يزيد على دعاء العلانية بسبعين ضعفاً .

وقال بعض أهل العلم : « لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ، وما يسمع لهم صوت ، إن كان منهم إلا همساً بينهم وبين ربهم » [1] .

وذلك أن الله عز وجل ذكر عبداً صالحاً ورضي قوله ، فقال عز وجل :

﴿ . . . وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾[2] .

فهذا فضل ما بين رجلين : أحدهما : يجهر بدعائه ، فإن كان في ملأ تعرض للفتنة ، ورضي بأقل الثواب ، والآخر : يخفي ويتضرع ، فكل دعاء المخبتين خفية وتضرع[3] . جعلنا الله وإياكم كذلك

* * *

---

(١) إن هنا نافية والمعنى : ما كان منهم الدعاء إلا همساً .

(٢) سورة : مريم ، آية : ٣ .

(٣) في الأصل : وتضرعاً

الباب الثامن والعشرون

في وجوب الدعاء بالقلب واللسان

إخواني : وإذا دعا الناس ربهم بالألسن ، وبسطوا الأيدي ، وقلوبهم عنه ساهية .

ألا فاحضروا القلوب مع الألسن ، فإنه أبلغ . وبلغنا أن بعض الصحابة قال : إن الله عز وجل لا يستجيب لعبد دعاءه عن قلب غافل » . وقال بعضهم : « إن الله لا يسمع من داع دعا من فيه وقلبه ساه » .

يا قوم : فراقبوا الله ولا تحزنوا ولا تحرموا أنفسكم إجابة الدعاء بالغفلة عن الله عز وجل ، إجابة المضطر إذا دعاه ، فهذا فضل ما بين رجلين : أحدهما : داع بلسانه ، وقلبه غافل عن الله ساه ، والآخر ، وجل ، يتضرع بقلبه ولسانه . جعلنا الله وإياكم من الوجلين . آمين .

* * *

الباب التاسع والعشرون

في التدبير عند تلاوة القرآن

إخواني : وإذا تلى الناس كتاب الله لفضل ثوابه ، ألا فأريدوا بتلاوتكم التدبر والاعتبار بأمثاله وعجائبه ، ووعده ووعيده ، وأمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، والعمل بحدوده وفرائضه ، فإن ذلك أبلغ في رضوان الله تعالى .

وقد روي في قول الله عز وجل :

﴿ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تلاوَتِهِ أُوْلَـٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ . . . ﴾[1] .

قال : « الذين يعملون بما فيه ، أولئك الذين يؤمنون به » . وبلغنا أن بعض الصحابة قال : « تأتي كل آية من كتاب الله عز وجل . وتسألني فريضتها[2] ، وتشهد عليَّ الآمرة[3] . بأني لم أفعل ، وتشهد عليَّ الزاجرة[4] بأني لم أنته ، وأعوز بالله من قلب لا يخشع .

إخواني : ولقد بلغني أحاديث عن رسول الله ﷺ، إن صح ذلك من قوله أيضاً فإنها القاصمة لظهور أمثالنا . قال :

---

(١) سورة : البقرة ، آية : ١٢١ .

(٢) أي : ما وجب على ما فيها من تدبر معناها والعمل بها .

(٣) يريد : النفس الأمارة .

(٤) يريد : النفس اللوامة .

« والذي نفس محمد بيده إن الزبانية أسرع إلى فسقة حملة القرآن منها إلى عبدة الأوثان ، حتى يكبوا معهم في نار جهنم . فيضجون إلى الله فيقولون : ربنا بأي شيء أرديتنا جميعاً في النار مع من كان يأكل رزقك ، ويعبد غيرك ؟ وقد تلونا كتابك في دار الدنيا ، فيقول الله عز وجل : صدق عبادي السوء [تلوتم][1] فلم تحلوا حلاله ولم تحرموا حرامه ، ولم تقفوا عند عجائبه ، ولم تعملوا بحكمه فليس العالم كالجاهل الذي لا يعلم . فذوقوا العذاب بما كنتم تعملون » .

وبلغنا عنه عليه السلام أنه قال :

« ألا انقضت الأيام والليالي ، حتى يضع الرجل المصحف أمامه يقلب أوراقه وإنها لتلعنه ، ولا يمر بآية إلا لعنته ، ولا بحرف إلا لعنه ، قيل : ولم ذلك يا رسول الله ؟ قال : يمر بهذه الآية فيها إجتناب الخمر والميسر ، فتقول الآية : كذاب الآخر لعنه الله . ما يتجنب خمراً ولا ميسراً ، ويمر بهذه الآية : ﴿ . . . **وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا** . . . ﴾[2] فتقول الآية : كذاب الآخر لعنه الله . إنه استطاع الحج فما حج ، فما يمر بآية مخالفاً لها إلا لعنته » .

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : « من أطاع الله ، فقد ذكر الله ، وإن قل صومه وصلاته وقراءته القرآن ، ومن عصي الله لم يذكره[3] وإن كثر صلاته وصومه وقراءته القرآن » .

يا قوم : فما[4] عملتم بحدود القرآن ، وصلتم إلى أجزل الثواب ، وأعلا المنازل عند الله تعالى ، وإن ضيعتم حدود القرآن ، وتلتموه للثواب ، خشيت أن يفوتكم الثواب بحدوده . فكم قال له يتبرأ القرآن منه غداً ويهوي مع الهاوين بعد

---

(١) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٢) سورة : آل عمران ، آية : ٩٧ .

(٣) في الأصل : فلم يذكره .

(٤) ما : مصدرية . والمعنى : ما دمتم تعملون بحدود القرآن فقد وصلتم إلى أجزل الثواب .

تلاوة القرآن . أعاذنا الله وإياكم من ذلك .

فهذا فضل ما بين رجلين : أحدهما يتلو كتاب الله لفضل ثوابه ، وعساه مضيعاً لكثير من حدوده ، فهو كمن لم يتل شيئاً . والآخر يعمل بحدود القرآن ، وإن كان أعجمياً ، فهو تال لكتاب الله أجمع . جعلنا الله وإياكم من العاملين بحدوده . آمين يا رب العالمين .

* * *

الباب الثلاثون

في وجوب التطهر من المال الحرام

إخواني : وإذا بذل الناس أموالهم في سبيل الله والخير بعد نفاذ في العلم ألا فاعقلوا ، كيف تبذلون من أموالكم .

المال حلال طيب بين ، ومنه حرام بين ، وبينهما شبهات ، الله أعلم بحالنا فيها .

فأما الحرام فبادروا بالتخلص من تبعات العباد فيه ، وفروا إلى الله منه كله فرار منهزم من النار مطلوب ، فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

« من كسب مالاً حراماً لم يقبل الله منه صدقة ولا عتقاً ولا حجاً ولا عمرة ولا غزواً وكتب عليه عليه بقدر ذلك أوزاراً، وما بقي منه عند موته كان زاده إلى النار »(١) .

أعاذنا الله وإياكم من ذلك .

أيها الناس : فتخلصوا من خبث أموالكم قبل حلول المنية بكم ، فإن المصر على الحرام متعرض للتلف والبوار وما يشعر ، وقد يحسب الجاهلون إذا بذلوا من الحرام في سبيل الله أنهم يحسنون في بذلهم ، ونسوا حرامهم ، ثم

---

(١) حديث « من كسب مالاً حراماً » : أخرجه أبو داود في المراسيل ، بلفظ فيه اختلاف يسير من رواية القاسم بن مخيمر . أنظر : (إحياء علوم الدين ٢ / ٥١) .

التعدي لأمر الله .

فيا ويلهم !! أما انتهى اليهم أن رسول الله ﷺ قال :

« لـو أن صاحب المـال الحرام إستشهـد في سبيل الله سبعـين مرة ، لم تكن الشهادة له بتوبة » . والتوبة من الحرام الرد[1] .

يا قوم : فلا تجهلوا جهلكم ، واسألـوا العفو من جـرمكم ، فيما اجتـرمتم على الله حين تناولكم الحرام .

فكونوا على وجل من عواقبه ، واحمـدوا الله إذا ألهم منه الفـرار ، وأنقذكم قبل الورود عليه ، ولولاه لكان ذلك وبالاً وبيلاً .

فهذا فضل ما بين الرجلين : أحدهما يلتمس على بذله الحرام ثواباً ، وعساه مستوجب هناك عقاباً . والآخر يتطهر من جميع الحرام ، وقد أسقمه الإشفاق

ألا : فبادروا بالتطهر من كل الحرام قبل الورود على الله .

---

(١) إذا تعذر معرفة أصحاب المال المنهوب أو المسلوب ظلماً . تصدق به مكتسبه بنية أصحابه . (راجع تفصيل ذلك في شرح الفقه الأكبر من تأليف الإمام الأعظم أبي حنيفة للشيخ ملا علي القاري) .

الباب الحادي والثلاثون

في بذل الشبهات للتطهر من التخاليط

إخواني : وإذا بذل الناس من الشبهات في سبيل الخير قرضاً على الله سبحانه وتعالى ، ألا فأريدوا بما تبذلون من الشبهات أن تتطهروا من التخاليط في مكاسبكم ، عسى بقية المال تطيب قليلاً .

وبعد : فكونوا وجلين من عواقبها قبل يوم الحساب ، فإنا بلغنا أن بعض أهل العلم قال : « يبعث الله عز وجل يوم القيامة قوماً من قبورهم أنتن من الجيفة ، وهم الذين يتلذذون في الدنيا بفضول أموالهم من الشبهات .

وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

« من احتوى على الشبهات أوشك أن يقع في الحرام »[1]

وبلغنا عن بعض أهل العلم قال : « أعلم الخلق بالحلال إبليس ، فكذلك زين الحرام لأهله ، وأدخل على أهل الحلال الشبهات[2] .

---

(١) حديث من احتوى على الشبهات » سبق تخريجه ، وهو جزء من حديث : « الحلال بين والحرام بين » .

(٢) كان بعض العباد يتحرى الحلال الخالص ، فلم يهتد إليه إلا في صيد البحر فعاش عليه حياته - وهذه مبالغة لا يستطيعها أحد . والواجب تحري الحلال في المال بالإخلاص في العمل الذي يتقاضى عليه الانسان أجراً ، وإلا يستأجر أجيراً قبل أن يعرفه الأجر والعمل ، ويتحاشى الربا الخفي والجلي . وأدق من هذا ألا يأخذ حقاً من بائس محتاج ، إن كان يمكنه الاستغناء عنه .
أما الشيطان فإنه يلهم المنحرف حججاً واهية ، وجدلاً في الحق لتبرير العمل المشتبه فيه أو=

وقد يحسب قوم إذا بذلوا من الشبهات في سبيل الله أنهم يحسنون في بذلهم ، ونسوا الذي غمضوا كثيراً ، وقد خلطوا .

.ألا فلا تجهلوا، واسألوا الله العفو من التقلب في الشبهات ، وكونوا على وجل ألا يقبل الله ما بذلتم للتخليط الذي كان فيه ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً . وبلغنا أن بعض الصحابة قال : « إذا طاب المكتسب زكي العمل ، وسترد فتعلم ذلك » .

قال بعض أهل العلم : « لأن تدع درهماً واحداً مخافة ألا يكون حلالاً ، خير من أن تتصدق بألف دينار من شبهة لا تدري أتحل لك أم لا .

وبعد : فإن إستقضى الله حسناتكم ليأتين عليكم ، ولتعلمن أن ترك الفضول كان أسلم لكم من بذل التخاليط والشبهات ، وعن قريب يكون الورود ، فيا سرور المخفين يوم الحساب ، وحزن طويل لأهل التكاثر .

فإشكروا الله على ما ألهم من البذل ، ووقي من البخل ولولا ذلك لكانت المسألة أضعافاً ، وكانت المصيبة أعظم ، فله المن بذلك .

فهذا فضل ما بين رجلين ، أحدهما مغموم بما ينال من الشبهات ويتخلى عنها[1] ويخاف ألا تقبل منه ، وأمنيته التخلص من الشبهات الممزوجة بالسحت ، وعساه الذي يبعث من قبره أنتن من الجيفة وما يشعر[2] ، أعاذنا الله وإياكم من ذلك .

= المحرم ، وجدل الجهلاء حول كثير من المحرمات شاهد على ذلك ، نسمعه كثيراً بين الحين والحين .

(١) في الأصل : منها . تصحيف .

(٢) في الأصل : وما يشعرون . خطأ .

الباب الثاني والثلاثون

في النية الصحيحة لبذل المال

إخواني : وإذا بذل الناس المال في سبيل الخير من الحلال ، يزعمون بذلك مضاعفة الجزاء !!

بذل المال شكراً للنعم وإنقاذاً للنفس :

ألا فأريدوا بما تبذلون أداء الحقوق التي تجب لله وللعباد ، وأبذلوه شكراً للنعم ووجلاً من البخل على الله سبحانه وتعالى ، وإشفاقاً من مناقشة الحساب ، وابذلوه لتنقذوا أنفسكم ، فإنه بلغنا أن الله جل ثناؤه أوحى إلى بعض الأنبياء عليهم السلام :

« إنما مثل الصدقة كرجل قتل رجلاً ، فأراد أهل القتيل أن يقتلوه ، فقال : أنا أفدي نفسي فلم يزل يعطي شيئاً بعد شيء ، حتى أنقذ نفسه من القتل » ، كذلك الصدقة تنقذ صاحبها من النار .

يا قوم : فبالله كذلك أنتم . كل امرىء قاتل نفسه بالذنوب . فابذلوا الحلال من المال في فكاك رقابكم قبل ألا يقبل منكم الفداء . فعلى مثل هذا فابذلوه ، وكونوا وجلين ألا يقبل منكم ، فقد أرى من بذل الحلال بزعمه ، واحتسب رجاء لثواب حسناته أكثر من خوفه ألا يثاب عليه ، وعساه قليل الاشفاق من مساءلة الله عز وجل إياه فيما يتقلب فيه من الحلال بزعمه ، وهذا غرور وجهل عظيم ، فكونوا من أهل البصائر .

بذل المال وجلاً ألا تقبل الحسنات :

يا إخواني : فكما ترجون أن تقبل منكم حسناتكم ، كذلك كونوا وجلين ألا يقبل منكم ذلك . فإن الله جل ثناؤه قال :

﴿ ... إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(1) .

قال بعض أهل العلم : « إن الدنيا حلالها حساب ، وحرامها عذاب »

بلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

« من نوقش الحساب عذب(2) .

علو منازل المؤمنين بما عقلوا عن الله :

وبعد : فقد أثنى الله عز وجل على الوجلين :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾(3) .

قال : يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون ألا يتقبل منهم .

يا قوم : فتشبهوا بأولي التقى في الوجل على أعمالكم ، فقد كان الوجل من خيار الصحابة رضي الله عنهم [على](4) أمنية أن تقبل منهم حسنة واحدة ، إشفاقاً ألا يقبل منهم شيء . والله يقول :

﴿ ... إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(5) .

---

(1) سورة : المائدة ، آية : ٢٧ .

(2) حديث « من نوقش الحساب » : أخرجه البخاري في صحيحه ، الباب ٣٥ من كتاب العلم ، والباب ٤٩ من كتاب الرقاق . وصحيح مسلم ، حديث ٧٩ من كتاب الجنة . وأبو داود في سننه ، الباب ٨ من كتاب الجنائز . والترمذي في سننه ، الباب ٥ من كتاب القيامة والامام أحمد في مسنده ٤٧/٦ ، ٤٨ ، ٩١ ، ١٠٧ ، ١٢٧ ، ١٨٠ ، ٢٠٦ .

(3) سورة المؤمنون ، آية ٦٠ .

(4) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(5) سورة : المائدة ، آية : ٢٧ .

يـا إخواني : وإشكـروا الله عـلى مـا ألهم من البـذل ، ووقي من البخـل ، وإسألوا العفو مما إكتسبتم من الحلال بزعمكم .

فيا سعادة المخفين ـ إذا سبقوا ـ ويا لغموم المثقلين ـ إذا وقفوا . فهذا فضل ما بين الـرجلين : أحدهمـا ملتمس الثواب عـلى بذلـه من الحلال بـزعمه ، نـاس لمساءلة الله إياه . وإن استقضى الاله سبحـانه من حسـابه ليـأتين عليـه . والآخر يبذل مثل ذلك ، وقد أضناه الوجل من مناقشـة الحساب ، فـأمنيته الخـلاص من الحقـوق التي وجبت عليـه في الحـلال ، ولا يـطمـع في الفكـاك إلا بتجـاوز الله وعفوه ، لأن الله أوجب الحقوق في المال الحلال[1] ، فأما الحـرام فما له إلا الفرار إلى الرحمن عز وجل ، والتخلي إلى أهله من كله .

لا تشغل بمالك عند الله :

إخواني : فتدبروا ما سمعتم ، وإعلموا أن أعمال العباد عند الإله سبحانـه طبقات، ولذلك أقدارهم ومنازلهم عنده يعلو بعضها على بعض ، بمـا عقلوا عن الله وعلموا كيف يعملون له .

وإن كثيراً من الناس ليعملون بالبر رغبة في الثواب ، ولولا الثواب لتثـاقلوا عن كثير من البر .

يا قوم : فاستكثروا أنتم من النوافل لإكمال الفرائض ، فـإنه بلغنـا أن الله

---

(١) هـذه الحقوق أنـواع : حقوق مفـروضة ، وهي الـزكاة المقـدرة شرعـاً عـلى من يملك النصـاب من النقدين أو عروض التجارة ، أو ريع الأرض ، أو المـاشية ، وغـير ذلك . وواجبـة وهي : صدقـة الفطر ، وصدقة حرة وهي المشار اليها بمثل قوله تعالى : (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيـل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة . . .) الآية .
والمستعرض لآيات الصدقة الحرة في القرآن الكريم يجدها أكثر من آيـات الصلاة والحـج . وقد نبـه الله تعالى على أن الصدقة الحرة تكاد تبلغ مرتبة الواجب بتلوين العرض لها . فمرة هي إقراض لله تعالى ، ومرة هي نفقة مما استخلف الانسان عليه من مال الله ، ومرة يزاد ثوابها من عشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف ، إلى غير ذلك من التلوين الذي يدل على أهميتها في حفظ الـوحدة الاسـلامية والأمن الجماعي .

عز وجل ثناؤه يقول :

« لست بناظر في حق عبدي حتى ينظر العبد في حقي »[(١)] .

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : إنه لن يصل إلى قلب العبد روح الله ، ولله قبله حق لم يؤده » .

ألا فقدموا النية في أداء حقوق الله في الأمور كلها ، ولا تشغلوا قلوبكم بما لكم عنده ، وتأسوا بالذين نعتهم رسول الله ﷺ بقوله :

« ألا وأن العاملين هم العلماء بالله ، الفقهاء عن الله ، الذين عقلوا عن الله ، وأدوا إليه ماله قبلهم ، ولم تتبع أنفسهم مالهم عنده ، أولئك صفوة الله من خلقه »[(١)]

فاعقلوا تأديب الرسول ﷺ .

وبعد : فمتى أكملتم الفرائض بالنوافل . وأذهبتم السيئات بالحسنات ، ثم كان لكم بعد ذلك أعمال تزيد على حقوق الله عز وجل ، فإن ذلك مدخر عند ربكم والوفاء بما لديه مضمون ، وإن كان لكم في حقوق الله تقصير .

فيا لغموم المفرط يوم الحساب ، يسر الله علينا و عليكم الحساب . آمين يا رب العالمين .

* * *

---

(١) سبق تخريجه .

الباب الثالث والثلاثون

في طريق شكر جلائل النعم ودقائقها

إخواني : إذا شكر الناس ربهم بالألسن ، وضيعوا حدود النعم ، وفرطوا في آداب الشكر ، فذلك مذموم .

فراقبوا الله وإستعملوا كل نعمة من النعم في الشكر على حالها ، فإن الشكر واجب على العبد في كل نعمة .

شكر نعمة اللسان :

وإشكروا الله على ما أنعم عليكم من الألسن بكثرة التلاوة والذكر ، فإن فرطتم في ذلك ، فإستحيوا أن تخوضوا بالألسن في فنون الآثام كفعل من أرى . فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

« وهل تقول إلا مالك أو عليك ؟ وهل يكب الناس على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم » .

شكر نعمة البصر :

ألا واشكروا الله على ما أنعم عليكم من الأبصار ، بالنظر إلى الحق بالاعتبار شكراً له . فإن رغبتم عن ذلك فراقبوا الله أن تنظروا بالأبصار إلى الحرام ، فتغضبوا الله بنعمته كفعل من أرى .

فإنه بلغنا أنه من لم يغض بصره عن النظر إلى الحرام كحلت عيناه بملمول[1] من نار جهنم .

شكر نعمة السمع :

ألا فراقبوا الله وإشكروه على ما أنعم به عليكم من [السمع] ، بالاستماع إلى القرآن والذكر والمواعظ الحسنة ، فإن ضيعتم ذلك ، فاستحيوا من الله أن تنصتوا بأسماعكم إلى الهوى ، والأخابيص كفعل من أرى .

شكر نعمة الأيدي :

واشكروه على ما أنعم عليكم من الأيدي ، ببسطها إلى الخيرات ، فإن قصرتم في ذلك فاستحيوا أن تبسطوها إلى الظلم والأذى ، كفعل من أرى .

فإنه بلغنا أن الظلم في الدنيا ظلمات في الآخرة ، وتبعات مهلكات .

وبلغنا أن داود عليه السلام رأى محلاً بين السماء والأرض فقال : ما هذا يا رب ؟ قال : هذه لعنتي أدخلها بيت كل ظالم .

شكر نعمة الأقدام :

ألا فاتقوا ذلك ، وأشكروه على ما أنعم به من الأقدام ، بالسعي إلى الطاعات . فإن قصرتم في ذلك ، فراقبوا ألا تسعوا على الأقدام في الآثام كفعل من أرى . فإن الله جل ثناؤه يقول :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[2] .

فكيف بك والأكبال في الأقدام ، والأغلال في الأعناق ؟

---

(١) الملمول ، الميل الذي يتكحل به .

(٢) سورة : النور ، آية : ٢٤ .

شكر نعمة الأقوات :

ألا فاتقوا ذلك واشكروه على ما أنعم به من الأقوات [ألا تقووا بها][1] على مكاره الرزاق عز وجل . فإنه بلغنا أن الله عز وجل يقول :

« عبدي بفضل نعمتي قويت على معصيتي » .

فحق على الله أن يعذبه بالنار . .

ألا يا قوم : فلا تعصوا الله بنعمته ، واشكروه على ما أنعم به عليكم من اللباس ، بأن تبلوه في رضى المنعم ، فإن قصرتم في ذلك فاستحيوا أن تبلوا لباسكم في مكاره من ألبسكم . فلا تأمنوا أن يلبسكم يوم القيامة سرابيل من قطران ، وثياباً من مقطعات النيران .

شكر نعمة الأموال :

ألا فإتقوا ذلك وإشكروه على ما أنعم به عليكم من الأموال ، بأن تبلوها في سبيل الوهاب ، فإن بخلتم عنه ، فإستحيوا من الله أن تنفقوا مواهبه في مكارهه ، فتعصوا الله بنعمته ، كفعل من أرى .

فإنه بلغنا أن العبد إذا رزقه الله مالاً حلالاً فأنفقه في حرام يقول الله عز وجل : إذهبوا به إلى النار فيمكث فيها ما شاء الله .

شكر نعمة الإيمان :

فإشكروه على ما أنعم به عليكم من الإيمان بالله بأن تبذلوا المجهود في رضاه ، وتبالغوا في مسراته ، شكراً لتعظيم ما أنعم به عليكم ، فإن عجزتم عن المبالغة في رضوانه فراقبوا الله أن تِضيعوا حدود الإيمان ، وتدلسوا بما لا يليق من

---

(١) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

الأفاعيل المحرمة[1] على المؤمنين .

فلا تأمنوا سلب الإيمان مع الإستهانة بحدوده ، واشكروه على ما أنعم به عليكم من العلم . فتحروا مسرات الله عز وجل ، وأعلموا بفضائل ما ندبكم إليه من محابه . فإن عجزتم عن ذلك فراقبوا الله أن تعدوا ما إفترض عليكم .

وبلغنا أن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه[2] .

شكر نعمة العقل :

واشكروه على ما أنعم به عليكم من العقل بالتفكر والتدبر ، واعتقاد حسن النية ، والاعتبار ، وشدة الإشفاق ، وطول الحزن في جميع الجوارح ، وسلامة الصدر للعامة ، والإضمار على مسرات الله .

فإن قصرتم في ذلك فراقبوا الله واتقوا خبث السرائر ، وإضمار السوء ، وإعتقاد الغل والحسد ، والعداوة وأشباهها من المكروهات[3] .

وإشكروه على ما أنعم به عليكم من العقل [بأن][4] تعظموا الله عز وجل ، وتجلوه وتكرموه ، وتستحيوا منه ، وتهابوه وتتقوه وتطيعوه على حسب ما عقلتم من عظمته وكبريائه وعظيم قدره سبحانه وتعالى .

---

(١) كالبحث في القضاء والقدر وأفعال العباد ، ومذاهب الفرق الضالة لغير الرد عليها ، والتعالم بالاعتراض على القدر ، والبحث في كنه الذات . ومن هذا الباب كذلك شغل الوقت بما ضمنه الله تعالى ، وتضييع الحدود التي طولب بها العبد .

(٢) حديث : « إن من أشد الناس عذاباً » : أخرجه ابن المبارك في الزهد ص ١٤ ، حديث ٤٠ . والطبراني في الصغير ، والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف .

(٣) ليس المراد أن الحسد هو الآخر من المكروهات بل المراد أشباه الغل المحرم والحسد المحرم من المكروهات ، فإنه من البعيد أن يعتقد إمام ورع كالمحاسبي كراهة الحسد .

والحسد هو : تمني زوال نعمة الغير وانتقالها إلى الحاسد . فإن سعى في إزالتها عنه بقول أو فعل كان بغياً وسعياً في الفساد . أما أن يتمنى الإنسان مثل نعمة أخيه مع حبه لبقائها عليه فتلك غبطة لا شيء فيها ، وإن كان ترك التمني أفضل .

(٤) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

فإن عجزتم عن ذلك ، فراقبوا الله تعالى أن تكونوا كالذين لا يعظمونه ولا يجلونه ولا يهابونه ، ولا يستحيون منه ، ولا يتقونه ، ولا يطيعونه ، بل يستهينون بكثير من أمره .

فاتقوا الله يا قوم أن تعودوا بعد المعرفة والفهم جهالاً ، ويعود العقل والعلم عليكم وبالاً ، وهذا ونحوه من فضل العلم والعقل ، وفضل النية والإرادة .

فهذا فرق ما بين العباد ، وقد يستوي الرجلان في الطاعات والورع ، وأحدهما أرجح عقلاً ، وأشد تحرياً لمسرات الله عز وجل ، وأبلغ في رضوانه .

وهب الله لنا ولكم القيام بحدود النعم ، والشكر عليها ، إنه جواد كريم ، آمين يا رب العالمين .

الباب الرابع والثلاثون

في تصحيح السلوك العلمي

إخواني : وإذا رأيتم الناس يبدون ما عندهم من العلم وفي ذلك يزدري بعضهم على بعض ، وقلوبهم متنافرة ، والنفوس متباينة ، فأسروا أموركم بمجهودكم ، وكونوا للشهرة والجدال مبغضين ، والخمول للذكر محبين ، وبالوحدة والانفراد آنسين ، وبين الملأ مستوحشين ، وفي الخلوة والصمت راغبين[1] . فليس من أحد بخطيئته إلا والله يسأله عنها ما أراد بها .

إخواني : فلا تتعرضوا لمساءلة الله إياكم فيما لا فقر لكم إليه .

إرادة وجه الله بالعلم :

وبعد : فاني أوصيكم متى أظهرتم من العلم شيئاً فأريدوا به وجه الله ،

---

(١) كان ذلك عصر سلطان العقيدة فيه مقبل، وسلطان الإلحاد فيه مدبر. أما وقد تبدل الحال، وأقبل الإلحاد ، وأدبر الإيمان ، وصفق الملحدون طرباً لما ظنوه انتصاراً ، فلا عذر للعلماء في السكوت ، بل يجب أن يفزعوا لنصرة دينهم باللسان والقلم والعمل والقدوة الحسنة ، فالضرورة مقدرة بقدرها ، ولكل مقام مقال وحال ، ولكل عصر وسائله في نصرة الدين ، ووسائل العصر الحديث في نصرة الإسلام ليست الخطب المسجوعة والحكم المسرودة ، بل الدخول في أعماق العلم الحديث وتسخيره في خدمة الإيمان . فقد درس أسلافنا العظماء قديماً فلسفة الرومان واليونان وغيرهما ، وكانت بمثابة العلوم الحديثة اليوم ، ولكنهم سخروها لخدمة قضية الإيمان ، ونبهوا عن زيف الزائف منها . وكتب الغزالي ، والشيخ الأكبر خير شاهد على ذلك .

وتذاكروا منه بقدر الحاجة إلى بيانه للمريدين ، خشية الخروج إلى كتمانه[1] .

فقد كانت المساءلة تقع على عهد السلف رضي الله عنهم ، فيود كل أمرىء منهم أن أخاه كفاه الجواب ، وكان الرجل منهم يعلم الكثير ، ويفقه الفقه الكثير وما يعلم به جاره . وقال بعض الصحابة : « رأيت ثلاثمائة بدوي ، ما منهم الرجل إلا وهو يشتهي الكفاية في المفتي .

وبعد : فإن أظهر أحدكم أمره ، وأبدى علمه ، فنسب إلى الجهل والخطأ ، لم يؤمن عليه الأنفة والامتعاض والحقد ، فإن استحسنوا قوله لم يؤمن عليه الفتنة والتزين والإعجاب ، وإن قال بغير علم لم يؤمن عليه الجرح ، وإن تكلف القول لم يؤمن عليه الأنفة أن ينسب إلى الجهل ، فإن الله عز وجل لا يحب المتكلفين .

حب خمول الذكر من سنن السلف :

وبعد : فأنّى لك بالسلامة ، مع الصمت وخمول الذكر . فكيف إذا نصبت نفسك عالماً يشار إليك وتطاع[2] ، ويغدى ويراح إليك ، ويقبل قولك ، ويصدر عن رأيك ، ويرضى لرضاك ، ويغضب لغضبك ؟ وعساك تفرط في بغض المخالفين لك ، وتفرط في حب الموافقين لك ، وعلام الغيوب مطلع على جولان الضمير .

فيا لها فتنة ما أعظمها على العبد ، إلا من عصمه الله ، فهذا فضل ما بين الرجلين : أحدهما يظهر ما عنده من العلم ، ويتعرض لأنواع الفتن ، فإما سلامة وإما عطب ، والآخر يكتم شأنه ، فسلم بمن الله وعصمته .

---

(١) قال سيدي داود بن ماخلا : العلوم ثلاثة : علم سلوكي ، فيجب إبداؤه . وعلم كشفي فقد لا يباح إظهاره . وعلم سري فلا يباح إظهاره قط . والمراد بالعلم السري المشاهدات التي يشاهدها العارف من تجليات الأسماء والصفات على الكون . فلكل عارف مشهد ، وقد تختلف المشاهد ، والكلام فيها قد تتولد عنه المشاحنات القاطعة عن الطريق .

(٢) في الأصل : ويطاعك

رد إعتراضات في مسألة الشهرة بالعلم :

وبعد : فإن قال قائل : إن تركنا مدارسة العلم ، ولم ننظر فيما يقع من المسائل ، أوشك أن يندرس العلم .

فقولوا له : إن الأمة لم تضطر إلى أمثالنا[1] ، ونحن بحمد الله في دهر كثير خطباؤه ، وفيك بحمد الله وفيمن يظهر ما عنده كفاية .

تبوحون بالعلم رغبة في الثواب ، ومنافسة في العلو والرفعة ، وعساكم تغارون كما تغار النساء . ولو أن طلاب العلم محبوسون في السجون ، لتخلصوا إلى الوصول إلى بغيتهم من إظهار العلم ، للعلو في الدنيا ، والرياسة فيها .

وبعد : فإن في التأسي بالسلف الصالح قدوة ، فإنهم رغبوا في خمول الذكر ، وآثروا كتمان شأنهم ، فهم القادة[2] ، فكيف بمن هو منقوص في العلم ، مسجون بالتزين والإعجاب .

إخواني : فعليكم بالستر ، وإخمال الذكر ، فإن المظهرين للعلم كثير ، فمن راغب في الثواب ، ومن متعرض للعقاب .

* * *

---

(١) هذا مذهب كثير من عظماء الصوفية ، لا يدخلون في الجدل العلمي ، بل كل نشاطهم هو تربية المريد الصالح ، ولأن يهدي الله بك رجلاً واحداً ، خير لك من الدنيا وما فيها .

(٢) لعل في هذا الكلام بعض الدلالة على أسباب كراهية الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه فقد كان إماماً يشار إليه في عصره .

الباب الخامس والثلاثون

في وجوب الإسرار بأعمال البر

إخواني : وإذا أظهر الناس أعمال البر ليقتدي بهم ، فأسروا أعمالكم بمجهودكم ، فإن الفتنة فيها عظيمة ، والجهاد فيها شديد ، ولسنا والله لذلك أهلاً ، وإنما ذلك للخلفاء المهديين ، وأئمة المسلمين أظهروا قليلاً من كثير أعمالهم ، لتأديب الأمة وإرشادهم .

فلا تشهروا أنفسكم فإن للشيطان في إظهار العلم والقول مكايد يستدرج بها كثيراً . زين[1] لهم إظهار العلم والعمل ليقتدي بهم فأبدى القوم ما عندهم من العلم وأعمال البر ، طمعاً في ثواب المتأسين بهم ، وجهلوا الذي حل بهم من مكائد الشيطان . قبلوا بصنوف الآفات وما يشعرون .

وكيف للنافل علمه ، المتفقد لنفسه ، المتخوف من عدوه ، الورع في أحواله ، أن يسلم من مكائد الشيطان . إذا أسر أعماله وأخفاها[2] ، فكيف

---

(١) في الأصل : يزين .

(٢) من مكايد الشيطان في هذه الحالة ، أن يقنع العالم أولاً بأنه أدى ما عليه نحو ربه ، ونحو نصرة دينه ، ثم يشعره بلذة الفرح بحاله ، ويطمئن العالم إلى أنه لا يجهر بفرحه هذا ، بل هو كاتم حاله ، ثم بعد ذلك يشعر العالم بنقص من دونه ، ويشتد شعوره هذا حتى ينقلب إلى إحتقار البادئين في العلم ، وغيرهم ممن لم ينضجوا ولكنه لا يزال كاتماً لحاله هذه ، فيضطر إلى إظهار ما لا يبطن نحوهم ، خشية زلل اللسان ، فيقع على أول درجات النفاق . ومن هذه النقطة ينطلق في تسفيه الناس ، وصدهم عن سبيل الله ، الذي بدأوا فيه صغاراً كما بدأ هو صغيراً .

بالمفتون في أعماله وإبدائها[1] .

ألا . فلا تتعرضوا للفتنة والبلوى ، فإن لم يضطر إليكم ، ولا للتأسي بكم فأسروا أموركم بمجهودكم . فإنه بلغنا : أن الله يظل بعرشه ، يوم لا ظل إلا ظله ، رجلاً تصدق بيمينه ، فكاد أن يخفيها عن شماله . وقال بعض أهل العلم : أدركنا أقواماً وما على الأرض من عمل يقدرون أن يعملونه في سر يكون علانية أبداً .

بلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

« لما خلق الله الأرض ، فمادت بأهلها ، خلق[2] الله الجبال ، فقيدها أوتاداً للأرض ، فقالت الملائكة : ما خلق الله خلقاً هو أشد من الجبال ، فخلق الله الحديد ، فقطع الجبال ، ثم خلق النار ، فأذابت الحديد ، فأمر الله الماء فأطفأ النار ، وأمر الريح فركدت الماء ، فاختلفت الملائكة ، فقالت : نسأل الرب عز وجل ، فقالت : يا رب ، ما أشد من خلقت من خلقك ؟ قال : لم أخلق خلقاً أشد من إبن آدم ، حين يتصدق بيمينه فيخفيها من شماله . فهذا أشد خلقاً خلقته[3] .

وبعد : فإنه بلغنا أن أعمال السر تزيد على أعمال العلانية بسبعين ضعفاً ، فهذا فضل ما بين الرجلين : أحدهما يظهر ما عنده طمعاً في الثواب ، وقد دهاه الشيطان ، وعرضه للعقاب . والآخر أشد إحتقاراً لنفسه . وأوضع لها من أن يراها موضعاً للاقتداء بها . فالحذر الحذر !!

---

(١) ليس هذه دعوة إلى قتل العلم وأبحاثه ، بل هي دعوة إلى العلماء أن يطهروا قلوبهم وأرواحهم ونفوسهم قبل الدخول في العلم ، ليكون خالصاً للحق . لا يلتبس بهوى النفس فيضل ويضل .

(٢) في الأصل : نخلق . خطأ .

(٣) ظاهر العبارة خطأ لغوي ، فالمتوقع من الأسلوب « فهذا أشد خلق خلقته » . ولكنه على النصيب يعطي الشدة للخلق الالهي نفسه حيث سرت منه تعالى إلى المخلوق ، أما على الجر بالإضافة فإنه يوهم إسناد القوة إلى المخلوق . والتقدير : فهذا خلقته أشد خلقاً .
وذكر الحديث بلفظ آخر في مشكاة الأنوار للشيخ الأكبر ص ١٧ طبعة حلب .

الباب السادس والثلاثون

في أخطار المدح

إخواني : وإذا رضي الناس بالمدحة ، فإرتاحت لها أنفسهم : ألا فراقبوا الله أن ترضوا بذلك ، وكونوا وجلين من ضرر المدحة ، فإن لها حلاوة تسبق إلى القلوب ، ومواقع في النفوس موجودة ، ولهذا لا يسلم منها إلا القليل .

الشيطان يذيق الممدوح حلاوة المدح :

وذلك لأن منكم من يعمل بأعمال البر لا يريد بها سواه ، فإذا بدت فضائله ، أثني عليه وأكرم ، إذاقة الشيطان حلاوة يا لها من حلاوة ، توافق هوى النفس ، فترتاح لها نفسك أيها العابد ، للثناء والمدحة ، والتعظيم والتبجيل ، وتعطي عليه ، وترضى به . وهذا من خبايا النفوس وأنت في غفلة .

مثال من يرضى بالمدح :

وسأضرب[1] لكم مثلاً للمتراخي بالمدحة ، فإنما مثله كمثل رجل يهزأ به[2] ، فيقال له إن العذرة التي تخرج من جوفك لها رائحة كريح المسك ، فالمغرور يعلم أنه بخلاف الذي قيل فيه ، والله عز وجل عالم بما في جوفه من

---

(١) في الأصل : وما أضرب

(٢) في الأصل : وجلين يهذيء به . تحريف .

النتن والقذر ، ولكن بجهله قد يرضى بما يسخر منه ، ويستهزأ به ، مع علمه أنه بخلاف ذلك الذي قيل لـه ، عما في جـوفه[1] من القـذر والنتن ، ومع ذلـك فهو يفرح بالمدحة .

وكذلك المتلوث في الذنوب، أقذر ـ والله ـ وأنتن من العذرة ، وأولى بالمذمة في الآخـرة والدنيـا ، وقد رضي بـالمدحـة جهلاً ، وعسـاه مستـوجب للمقت من ربه ، فمن أخسى منه لو يعملون[2] .

الرضي بالمدح من قياس إبليس :

يـا قوم : فمتى بليتم بـالمـدحـة ، فجـاهـدوا أنفسكم عـلى نفي ذلـك عن القلوب ، بالكراهة والوجل من المدحة ، وقد أشفق عليكم رسول الله ﷺ منها ، ونهاكم عن التمادح ، لعلمه بأنها مضرة[3] .

فـإتقوا الله أن تـرضوا بـالمدحـة لكم ، ولا يغـرنكم الشيـطان وأوليـاؤه من الإنس ، فإنهم يزعمون أنهم إذا أرادوا بأعمـال البر وجه الله ، لم يضرهم الفـرح والرضى بالمدحة . فهذا من قياس إبليس ، وآرائه فتنة لأوليائه .

ويح المادح والممدوح : كيف جهلوا رشدهم فكـرهوا مـذمة لا تضر ، بـل يؤجرون عليها ؟

ورضوا بالتمـادح بينهم ، خلاف وصـايا رسـول الله ﷺ، لقد جهـل القوم جهلا بينا .

---

(١) في الأصل : بما في جوفه . تحريف .

(٢) وقد يظهر أمثال هؤلاء ألمهم من المدح ، طلباً لزيادة المـدح بهذا النفـور منه ، فيمعنـون في غيهم ، ويعلنـون أنهم أقل من أن يمـدحوا . وأنهم مـذنبون ، وأنهم لا يعلمـون شيئاً ، وحينئـذ يقعون في مشكلة معقدة غاية التعقيد حيث يضلون غيرهم بنفاقهم وتنشأ على أيـديهم أجيال المنـافقين الـذين يحرجون الذمم والضمائر بنفاقهم ، وينسحب هذا الحكم على غيره من الأخلاق .
أما النافر من المدح حقاً ، فإنه لا يعود إلى العمل الذي استوجب من أجله المدح .

(٣) في الأصل : أنها مضرة .

زعمت أيها المفتون أنك إذا أردت الله تعالى بأعمال لم يضرك الفرح والرضى بالمدح ، فإنا ندع ذكر عبادتك ، فالله أعلم بحالك فيها ، ونرجع إلى النظر فيما إبتدعت من القول .

رأى العلماء في المدح :

ويحك أيها المستدرج : أما بلغك أن بعض أهل العلم قال : « من فرح بمدح فقد أمكن الشيطان من الدخول في بطنه » . فهذا العالم قد ذمك بفرحك بالمدحة ، ولم يذكر عبادتك التي زعمت أنك عليها ، ولو عملت لغير الله ، لكنت من رؤوس المرابين ، فما ذكرك للعبادة ؟ ! وإنما استوجبت المقت بفرحك ورضاك بالمدحة ، [فقد][1] علمت البر ولم تعمل به .

فإنه بلغنا أن بعض أهل العلم قال : « إذا قيل لك نعم الرجل أنت ، فأنت - والله بئس الرجل » . وهذا العالم لم يذكر عبادتك ، وقد أقسم بالله أنك بئس الرجل إذا كانت المدحة أحب إليك من المذمة .

فأنظر أيها المغرور : هل تجد نفسك [أهلاً][2] للمدحة والتعظيم ، وترضى به ؟ وهل تأنس بالمادح وإن كان مفرطاً في مدحك ؟ وهل تكره المذمة وإن كانت حقاً ؟ وهل تغضب على الذام وإن كان صادقاً ؟ فإن كنت كذلك فأنت بئس الرجلين وإن أكثرت من العبادة ، فإن نفسك من أنفس المحبين للمدحة والتعظيم ، بل أنت أعظم جرماً ممن يحب المدحة ، ويقر بالاساءة ، ويعترف بذنبه ، فهو أرجى للأمانة والعفو منك ، إذ تزعم أن رضاك وسرورك بالمدحة لا يضرك أيها المغرور .

وقد بلغني حديث لم أتقن إسناده ، إن صح ذلك فإن فيه بوارك . بلغنا أن رجلاً أثنى على رجل خيراً عند رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ :

---

(١) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٢) ما بين المعقوفتين : سقطت من ب .

« لو كان صاحبك حاضراً فرضي بالذي قلت فمات ، دخل النار » .

أيها المفتون : وهذا جزاء من ختم أعماله بالرضى بالتزكية .

ويحك أيها العابد : قد كان في الصحابة كثير أرادوا الله بأعمال البر كإرادتك بزعمك ، وحاشا لله أن تكون مثلهم أو يكونوا مثلك ، لقد كانوا للثناء والإجلال أهلاً ، وهم مع فضلهم وتقواهم ، أشفق عليهم رسول الله ﷺ من ضرر المدحة ونهاهم عنها ، وقال للمادح :

« ويحك قطعت ظهره لو سمعك ما أفلح إلى يوم القيامة »[1] .

وقال لهم :

« ألا لا تمادحوا ، وإذا رأيتم المادحين فاحثوا في وجوههم التراب »[2] .

يقولها ﷺ إشفاقاً على الممدوح أن يفرح بالمدحة ويرضى بها ، فيضر نفسه بدينه ، وعساه لا يفلح منها أبداً ، فحذرهم رسول الله ﷺ فتنة المدحة ، قبل أن تحل بهم ، وأنت تزعم أنك إذا مدحت فرحت ، ورضيت بالمدحة ، لأن ذلك لا يضرك ؟

ويحك !! ما أجهلك بالذي علم رسول الله ﷺ من ضرر المدحة .

أحوال السلف في المدح :

وبعد : فتدبروا أحوال الصحابة رضي الله عنهم ، فقد كانوا أعلم بالله تعالى وأخشى له منكم[3] وأخلص أعمالاً ، وكانوا مع ذلك وجلين من المدحة ،

---

(١) حديث « ويحك قطعت ظهره » : أنظر : إحياء علوم الدين ٣/٢٨٢ .

(٢) حديث : « ألا تمادحوا ، وإذا رأيتم » : أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي عن المقداد بن الأسود ، والطبراني وابن حبان عن ابن عمر ، والحاكم في الكنى عن أنس . وأورده العجلوني في كشف الخفا حديث رقم ٢٣٧ ، بلفظ : « إذا رأيتم . . . » .

(٣) في الأصل : منك . خطأ .

يكرهونها ويبغضونها من المادح[1] إشفاقاً من الفتنة فيها ، وأنت تزعم أن رضاك بالمدحة لا يضرك ، كأنك أرجح صدقاً وإخلاصاً من السلف ، كأنك أقوى على نفي الفتنة منهم .

كذبت أيها المفتون . ولقد بلغنا عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم ، أنهم كانوا يكرهون المدحة ، ويغضبون على المادح ، أما أحد الخلفاء فإنه سأل رجلاً عن شيء ، فقال له الرجل : أنت يا أمير المؤمنين خير مني وأعلم . فغضب عليه وقال : إني آمرك أن تزكيني . وقيل لبعض الصحابة : لن يزال الناس بخير ما أبقاك الله . فوجد من قول المادح وقال : إني لم أحسبك عرافاً[2] وما يدري ما يغلق عليه بابه من أهله .

وبلغنا أن رجلاً مدح بعض السلف ، فغضب الممدوح وقال : « اللهم إن عبدك هذا تقرب اليّ بمقتك ، فأشهدك على مقته » . فهؤلاء الأخيار كرهوا المدحة ، وغضبوا على المادحين وجلاً من ضررها ، وأنت تزعم أن فرحك بالمدحة لا يضرك ؟

أف لك !! ما أبعد شبهك بالقوم .

ويحك !! إن الصحابة أبغضوا المدحة وإنك لترتاح إليها ، وغضبوا على المادح الصادق في مدحتهم ، وإنك لتود المادح الكاذب المفرط في مدحتك ، ورضوا بالمذمة وهم أطهر الناس منها ، وإنك لتغضب وتأنف من المذمة ، وأنت أولى الناس بها ، ورحموا الذام ، وعفوا عنه ، وإنك لتحقد عليه ، وهذا من خبايا النفوس للعابدين ، وأنت في غفلة ، ودهيت ودهيت وما تشعر .

أيها المغرور : أترى نفسك طمعت فعملتِ على الإخلاص ، لتستوجب الثواب من الله عز وجل ، ثم لم تأخذ بعد ذلك نصيباً من الفرح بالمدحة ، والقدر والتعظيم في الدنيا ، لتنال ثواب العاجل والآجل ، بئس ما منتك نفسك .

---

(١) في الأصل : على المعارج . تحريف .

(٢) في الأصل : عرافياً . خطأ.

الخوف والحذر أفضل من الركون إلى المدح :

أفتنا برأيك أيها المفتون ، أي الأمرين أصلح لديننا ؟ أن نخاف وتحذر ما حذرنا رسول الله ﷺ من ضرر المدحة ، ونجاهد أنفسنا على نفي السرور من القلوب إذا بلينا به ، ونستغفر الله تعالى منه ؟ أو نتكل على قولك إن الفرح والرضى بالمدحة لا يضر ، فنزكي أنفسنا لقول المغرور[1] ونرضى بالمدحة ، ونرتاح لها لرضاك بالمدحة وإرتياحك لها ؟

ثم تحسب أنك مع ذلك من المخلصين ، وعساك بشر المنازل عند الله تعالى ، غير زكي ولا حميد .

أف لك أيها المغرور الفاسق لنفسه وللأمة . تذكر ما أقول لك ، فإني ناصح لك ، [يجب أن][2] تكره المدحة ، وتخشى الفتنة فيها ، فقد خوفك رسول الله ﷺ منها ، ومتى وجدت حلاوة المدحة والسرور بها ، فجاهد نفسك على أن تقي ذلك عن قليل ، واستغفر الله تعالى من فرحك بالمدحة ، كتائب من الذنوب ، وكن بعد المجاهدة والتوبة خائفاً ألا تكون نصحت في التوبة ، ولم تجاهد نفسك في الله حق جهاده ، لأنك لم تصل إلى بغض المدحة ، ولا إلى الغضب على المادح ، كفعل الصحابة رضي الله عنهم . فكن عارفاً بإساءتك إذا فرحت بالمدحة ، وكن وجلاً من العقوبة إذا رضيت بها ، وكن مشفقاً لعلك ألا تكون عند الله تعالى من المحبين لها ، فإن علمك بها أنفع من العبادة مع الجهل بما وصفنا[3] .

---

(١) في الأصل : إلى قول المغرور .

(٢) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٣) تلك دعوة إلى تصحيح العبادة وليست دعوة إلى هجران العبادة فالعبادة لا تتم مع الفرح بالمدح بها أو بالعلم فيها أو في غيرها لأنها فرض ، وحتى النوافل لا يجوز الفرح بها لأنها إلجبر ما نقص من الفرض ، وليس هناك نافلة خالصة الثواب إلا للرسول ﷺ « ومن الليل فتهجد به نافلة لك » . ولكن النافلة من غيره كالفرض ، محاولة للتقرب من جناب الله .
أما ما جاء في الحديث القدسي : « وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وعينه التي يبصر بها ، ويده التي يبطش بها . . . . » الحديث . فظاهر

وبعد أيها العابد : فما أنت والفرح بالدنيا وهي سجن المؤمن ، لا يفرح بها ولا ينعم فيها ولا يطمأن إليها ، وإنما الدنيا دار بلوى وفتن ، ودار هموم وغموم وحزن ، وقد قال آدم عليه السلام : « كنا نسأل الله من السماء نسلاً ، فسبانا إبليس بالخطيئة » . فليس لنا أن نفرح ، ولا ينبغي لنا إلا البكاء والحزن ، ما كنا في دار السبي حتى نرد إلى الدار التي سببنا منها .

المدح باطل وغرور :

إخواني : وقبيح بالعاقل أن يفرح بشيء من أسباب الدنيا ، فكيف بمدح الباطل والغرور ؟ !!

وبعد : فإفهم ما أقول لك أيها العابد المسرور بالمدحة ، فإنك لو أتيت من العبادة ما أنست بك [لأجله] [1] الطير والسباع والدواب وهو أم الأرض جميعاً ، وأثنت عليك به الملائكة ، وفرح بجوارك الإنس والجن بأجمعهم ، وحمدوا أمرك في كل أحوالك ، ومدحوك بأعمالك ، وعرفوك بها ، ومدحت بر نفسك ، فهل ترى لك أو لغيرك أن يتكل على ذلك ، أو يغتر بمدحة المخلوقين دون الورود على الله تعالى ، فيتبين لك بماذا ختم لك أمرك ، وتعلم رضي الله عنك من سخطه عليك ، فإما نعيم مقيم ، وإما عذاب أليم ؟

أخي : راقب الله عز وجل ، ولا تغتر بالمدحة ، فكم من معدّل في الناس ليس بعدل عند الله تعالى ولا مرضي ، ولم من مجتهد في العبادة صار للنيران حطباً ، وصارت عبادته هباء منثوراً ، أولهم إبليس . وكم من عبد يصبح مؤمناً ويمسي كافراً ، ويسلب إيمانه وما يشعر .

فالعاقل الشفيق من سلب الإيمان لا يأمن ولا يفرح بمدح الباطل والغرور .

الحديث أن هذا الجزاء لمن أدمن النوافل وأكثر منها حتى خلصت كل فرائضه من الخلل ، وبقيت له منها بقية إستحق بها حب الله تعالى ، وليس هذا لمن اقتصر على السنن المؤكدة بل هو لمن زاد على ذلك بالسنن غير المؤكدة وبالمندوبات والمستحبات .

(١) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

فلو أتاك الوحي بأنك ممدوح عند ذي العرش ، بالـغ في المخافـة والتقى ، فتدبر أمرك وقل الحق . بماذا صرت ممدوحاً في السماء ، ولست لذلك أهلاً ؟ فـإن جعلت أنـك نلت ذلـك بـذات نفسـك ، وإستـوجبتـه بفعلك ، لقـد ادعيت عظيماً[1] . أيادي النعم لله عز وجل عليك ، ولولاه لم تكن ممدوحاً ولا مهدياً .

وجوب العمل في الشكر والإشفاق من سلب النعم :

يـا أخي : فالمنـة لله عليك أعـظم ، وبذل المجهـود لك في الشكـر ألزم ، والوجل والإشفاق من زوال هذه النعمة عليك آكد وأوجب .

ويحـك : إن عملت[2] في الشكـر ، وأشفقت من سلب النعمـة ، فلك في ذلك شغل شاغل عن الفرح بمدح الباطل ، فقد أشفقت الملائكـة والأنبياء عليهم السلام ، فقالوا :

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا . . . ﴾[3] .

فكيف وأنت مقصر في كثير مما يجب عليـك ، وأنت والله مسؤول في القيامـة مطلوب ، فالحزن أولى بك من الفرح ، ولا سيما بمدح الباطل والغرور.

الله هو المستوجب للمدح لا غيره :

أخي : تدبر ما أقول لك . من المستوجب عندك للثناء والمدحة ، ألا زيَّنَكَ بالأفاعيل الجميلة ، وحباك[4] بالخصال الممدوحة ؟

ومن تفضل عليك بالأيادي الجسيمة ، والمنن العظيمة ، والنعم المتواتـرة ، والآلاء المحمودة المتظاهرة ؟

---

(١) هذه الكلمة : مشطوبة في الأصل . ولولاها لا يستقيم المعنى .

(٢) في الأصل : إن علمت . تحريف .

(٣) سورة : آل عمران ، آية : ٨

(٤) في الأصل : حبيك . خطأ .

فالمنعم بذلك أولى بالمدحة والثناء والشكر ، أم أنت مستوجبها في خاصة نفسك ؟

ويحك !! قل الحق . من المستوجب للثناء والمدحة والشكر إلا متفضل عليك بأن شهدت له بالوحدانية ، وشغلك بالطاعة ، وحفظك من المعاصي ، وصرف عنك سرور نفسك ، ومكائد عدوك ، وأعاذك من أهوائك المردية ، وستر عليك القبيح ، وأظهر لك الجميل ، وجعلك بستره عليك مكرماً في الناس محموداً[1] .

أخي : فالمنعم بذلك أولى بالمدحة والشكر ، أم أنت مستوجب [ذلك][2] في خاصة نفسك ، التي تأمر بالأسواء وتقبض[3] عن الخير ، وتشجع على المعاصي ، وتطغي في الغي ، وتكفر وتبطر عند الرخاء ، وتقنط عند الضراء ، وتنسى حسن الآلاء ، وتقصر في شكر النعماء ، فمن أولى بالمدحة ؟ وكيف يستوجب المدحة من هذا نعته ؟ !

أخي : فراقب الله عز وجل ، وبالغ في الشكر ، وكن وجلاً من زوال النعم ، وسلب الإيمان ، ولا تحسب أنك للمدحة أهلاً ، فيهلك الله ، ويكلك

---

(١) والبلاء هنا معدوم من كرائم النعم على العارف ، لأنه يشهد فيه أعماق الإيمان والمعرفة من طريق آخر غير طريق النعم ، ويحقق لوناً جديداً من ألوان الطرق الموصلة إلى معرفة الحق ، يعجز عن الذوق في سلوكه أكثر من في الأرض ، ويشهد أن هذا الطريق أشد إلزاماً للعارف بمقام العبودية الحقة في الوقت الذي ينحرف الناس في تجلي البلاء إلى دركه اليأس والقنوط ، وينحرفون في تجلي النعم كذلك إلى دركه الغرور والكبرياء في سلوكهم .

أما البلاء لغير العارف من السالكين فهو من كرائم النعم أيضاً ، لأنه تطهير للنفس وتصفية للروح ، ودفع لها على جادة المعرفة الحقة .

وأما البلاء لغير هؤلاء وهؤلاء ، فيجب على المقيمين فيه أن يذكروا النعم حتى يعرفوا أنها ترجح النقم ، فلم يظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ـ ولا مخرج لهم إلا إدمان الذل على بابه تعالى ، سراً في خلوة الليل الهادىء الساكن وتحريك القلب بشدة نحو قدسه الأقدس ، وإزعاج الروح للاستقرار تحت كنفه ، وهو الذي وسعت رحمته كل شيء ، وهو الرحمن ، وهو الرحيم ، سبحانه ، وعز اسمه .

(٢) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٣) في الأصل : وتبسط.

إلى نفسك ، ويزيل عنك النعم ، ويهتك عنك الستور ، ويبدي الـذي يعلم من قبائحك للعالمين .

ويحـك !! لقد عـظمت مصيبتـك ، إذا إستبـدلت بمـدحـة الملك الأعـلى ، ورضيت بتزكية العبيد الأذلاء ، وآثرت الـرفعة في الـدنيا عـلى الدرجـات العلى ، وإنحططت عن العلو عند الله إلى السفلى !!

ويحك !! تدبر ما دهـاك به الشيـطان ، أراد أن ترضي بتـزكية العبيـد كيلا تكون عند الله زاكياً ولا حميداً .

ويحك !! إن خير الأمة [كانوا][1] إذا بلي بـالمدحـة أحد منهم ، كـره ذلك وساءه ، ومتى وجد نفسه سيئاً استغفـر الله واستعاذ بـه من شر ما بـلي به ، وهـو المـادح ، ومن العود إلى المـدحة ، وشكـوا الذي وجـدوا من ذلك الى رسـول الله ﷺ ، فأمرهم بالاستغفار والاستعاذة من شرها .

فهؤلاء أهـل الفضل والتقي ، وأهـل المدحـة في الأرض والسماء ، وكـرهوا المـدحة ، ويـرضى بها [الجـاهل][2] كـأنـه من أهلهـا ، وهـو أبعـد النـاس من استحقـاقها ، وسيـرد الجاهـل إلى ربه ، فيعـرض عليه ذنبـه وأقذاره ، فيجـازى بالذي هو أهله ، أو يعفو الكريم بفضله .

فتأسوا بخيار الأمة ، ولا ترضوا بالمدحـة ولا تتعرضـوا للمقت ، وجاهـدوا أنفسكم على نفي ما بليتم [به][3] من حلاوة المدحة بالكراهية كفعل المهتدين .

فهذا فضل ما بين الرجلين : أحدهما يكره أن يمدح و هو للمـدحة أهـل . والآخر يحب أن يمدح وهو غير مستوجبها . عصمنا الله وإياكم من السوء برحمته .

* * *

---

(١) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٢) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٣) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

الباب السابع والثلاثون
في فضل الرضى بالمذمة

إخـواني : وإذا إمتعض الناس [من] [1] المـذمة ، وأنفـوا منها ، وحقـدوا على الذم . ألا فراقبوا الله تعالى ، وكونوا على خـلافهم ، وجاهـدوا أنفسكم على الرضي بالمذمة ، ففيه الخلاص والصدق إن شاء الله تعالى .

وجوب تفقد النفس عند المذمة :

فتفقدوا أنفسكم عند المذمة ، فـإن لها كـراهية ومـرارة تسبق إلى القلوب ، ومنها الامتعاض في النفوس موجود ، لا يسلم منه إلا القليل .

إخـواني : فمتى بليتم بكراهيـة المـذمـة ، فجاهـدوا أنفسكم عـلى الصبـر والـرضى ونفي الغضب ، فإن الأنفـة من المذمـة ، تعقب البغضـاء والحقـد عـلى الذام ، وإن الأنفة داعية إلى الكبر ، أعاذنا الله وإياكم من ذلك .

أنواع الكارهين للمذمة :

وإنما يـأنف من المـذمـة ويتمغص منهـا رجـل عـظيم في نفسـه ، جـاهـل بأسوائه ، يحسب أنه غير مستوجب لما ذم به [2] وإني سأضرب لك في ذلك مثلاً .

كمثل كناس الكنيف ، متلوث بالعذرة ، فقيل له : كناس أنت ، بالعـذرة

---

(١) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٢) في الأصل : إلى ما ذم به .

ملطخ ، فاغسل ما بك . فاستعظم ما قيل له من ذلك فأنق ، ووجد على القائل .

والله إن المتلوث بالذنوب لأقذر من العذرة وأسوأ حالاً من الكناس ، فما إمتعاضه وقد استوجب الذم سراً وجهراً في الآخرة والأولى ؟ !! فهذا أخسر منه لو يعلمون .

ما أخلق هذا أن يكون رجلاً عظيماً في نفسه ، حقيراً عند ربه ، فمتى بليتم بالمذمة فاشمأزت منها أنفسكم ، فلا تعجلوا بالغضب على الذام لكم ، وإرجعوا بالنظر والتدبر .

واعقل [يا أخي] [1] مخاطبتي إياك ، والتعظيم في نفسك .

فضل الذام على المذموم :

ألم تعلم أن الذام لك لا يخلو من إحدى ثلاث خصال :

إما رجلاً ذمك نصحاً لك ، وإشفاقاً عليك . فهو عظيم المنة ، واجب الطاعة . فمم امتعاضك من نصح المشفق عليك ؟! لقد عظمت مصيبتك أن تغضب على من نصحك .

وأما الخصلة الثانية : فرجل غير ناصح لك ، فذمك بما عرفه فيك ، وعلمه منك ، وأظهره بسببك [2] [الذي] [3] قد أضر بدينه ، ووجب عليك قبول الحق إن كان صادقاً في مقالته . فدع الوجد عليه ، أو بادر بالإنابة قبل الفضيحة في الآخرة كما افتضحت في الدنيا .

فانت [إن] [4] عنيت بشأنك فلك في نفسك شغل شاغل عن الوجدة على الذام ، وإن أبيت قبول الحق ، وأنفت من قبول الحق ، بليت برد الحق على ربك

---

(١) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٢) أي : بسبب إرتكابك لما استوجب ذمك

(٣) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٤) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول

تجبراً منك ، لقد تعرضت لسخط الجبار عز وجل ، أعاذنا الله وإياكم من ذلك .

وأما الخصلة الثالثة : فرجل إجترأ على الله بباطل افتراه ، وبزور يقوله عليك ليسبك به ، فقد أتى البائس على نفسه . وأما الذي نالت من أذاه وقول الزور فيك فيما إكتسبت يداك [١] ، وعقوبة الذنوب ، وكفارة المساوىء ، وأجر عظيم يساق إليك .

إخواني : فاغتنموا نفع المذمة ، فإنه بلغنا عن بعض أهل العلم قال : « حسناتك من عدوك أكثر من صديقك » . لأن صديقك يدعو لك ، فإما يجاب له . وأما عدوك فيقع فيك ويغتابك . وإنما هي حسنات يزفها إليك عفواً صفواً حلالاً . ولا يرضي حتى تقول : اللهم أهلكه [٢] . فقل : اللهم أصلحه ، اللهم ارجع به ، اللهم تب عليه ، فتكتب لك حسنات . فهذه منافع لك من عدوك ، وقد مكنك من حساته فيظ القيامة تحكم فيها .

فهذه منافع لك من عدوك ، وقد مكنك من حسناته في القيامة تحكم فيها . فالذام والمذمة أنفع لك في دينك وآخرتك من المادح والمدحة.. وإنما يتذكر أولو الألباب . .

أخي : فبادر بالعفو عمن ذمك واغتابك عند الفقر إليك [٣] ، [فذاك] [٤] أعظم من جرحك بينك وبين ربك [٥] ، فإن أنت طالبت من ذمك

---

(١) أي : من ذنوب سابقة .

(٢) لا يرضى الذام حتى يهلك من سلب حسناته ، وهو يسترد حسناته بدعائك عليه . ولنا في سيد الخلق ﷺ أسوة في فلسفة الذم حيث رد قمة الذم له من قريش : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون». ويصعد صاحب الخلق العظيم صلوات الله وسلامه عليه وراء الطبائع والعقول البشرية حينما ناله أشد الذم قولاً وعملاً في الطائف : « . . . . إن لم يكن غضب علي فلا أبالي » . وهي مرتبة النعيم بالذم .

(٣) أي : عند حاجته إليك .

(٤) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٥) أي : إن العفو عن الذام لك ، أعظم من أن يجرحك الله بكراهيتك له وردك عليه بالذم . وجاءت العبارة في الأصل غامضة هكذا ، فبادر بالعفو عمن ذمك واغتابك عند الفقر إليك بأعظم من جرحك . . . . ألخ .

واستعصيت عليه فلا تأمن أن يستقصي الله عليك [ذنبك] [٤] ويطالبك بحقوقه ، فإذا أنت أسوأ الرجلين حالاً .

وبعد : فلو كنت في طهارة الملائكة من الذنوب ، وفي مثل المرسلين من ربهم لوجب عليك أن تتبع حجة الله عز وجل ، فقد أوجب الله عز وجل العفو ، ومدح الكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، فكيف وفيك من الأسواء ما الله به عليم ؟

ويحك !! لا يغرنك الشيطان بأنك مظلوم فيما دهيت به ، فتركن إلى الغرور ، وتأبى الرضى بالمذمة ، وتتيه في نفسك ، وتحقد على من ذمك .

ويحك !! وإن كنت بريئاً من هذه الخصلة التي ذممت بها ، فإن لها عندك أخوان موبقات قد سترها الله عليك ، فلا ترى في نفسك النزاهة عن الذنوب ، ولا تأخذك حمية الجاهلية ، فيتخلى الله عنك ، ويزدريك بالذي أنت له أهل [١] ، فيبدي من فضائحك ، وقبيح خبثك ، وتسخيم وجهك ما يشغلك عن الوجدة على الذام [٢] .

---

(١) في الأصل : ويزدريك الذي أنت له أهل .

(٢) نعم . لا يوجد إنسان على وجه الأرض ما عدا الأنبياء والرسل بدون مساوىء ، وتلك حقيقة لا يفهمها حق فهمها إلا من ابتلي بالمذمة بلاء شديداً واعتقد أن تحذير الإمام أحمد رضي الله عنه الناس عن المحاسبي كان سبباً في نضوج فلسفة المدح والذم عنده حتى عد الذم لمن يستحقه لقاء مساوىء خفيت على مثله من الألمعيين .
قال الحسين بن عبد الله الخرقي : سأل المرزوي عما أنكر أبو عبد الله على المحاسبي ، فقال : قلت لأبي عبد الله ـ بن حنبل : قد خرج المحاسبي إلى الكوفة وكتب الحديث ، فقال : أنا أتوب من كل ما أنكر على أبو عبد الله ، فقال : ليس لحارث توبة ، يشهدون عليه بالشيء ويجحد . إنما التوبة لمن إعترف ، ثم قال : حذروا عن حارث .
وقال أبو بكر بن حماد : إن الحارث مربه ومعه أبو حفص الخصاف . قال : فقلت له : يا أبا عبد الله ، تقول أن كلام الله بصوت ؟ فقال لأبي حفص : أجب . قال أبو حفص : متى قلت بصوت احتجت أن تقول بكذا أو بكذا . فقال للحارث : ماذا تقول أنت ؟ قال : أجابك أبو حفص .
فقال أبو عبد الله بن حنبل : أنا من ذلك اليوم أحذر عن حارث . والمروزي عن الحارث هنا : عنه عن الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق عن عبد الله قال : إذا تكلم الله بالوحي سمع صوته

تـدبر مـا سمعت أيها العـظيم في نفسه ، واعلم أن الله تعـالى يُعَلّم اللبيب فيتعظ بالمدحة والمذمة إذا بلي بهما ، يعلم أن المدح لا يليق بأمثالنـا ، ولسنا لـذلك أهلاً ، وقد علم الله منـا مساوىء كثيـرة ، والمذمـة أولى بنا من المـدحة والثنـاء . والمدحة أبغض إلى اللبيب من المـذمة ، لعلمـه بفسادهـا للدين ، وقد أبغض الله من أحبها (١) . وذلك اللبيب إذا بلي بالمذمة أيقن أن الـذي فينا من الأسـواء أكثر ممـا به قـد ذممنا . وأن الإنـابة من أسـوائنا أولى بنـا من الوجـدة على الـذام لنـا . فالناصح المهدي إلينا معرفة عيوبنا مستوجب للمحبة والشكر منا .

وأما المفتون العـظيم في نفسه فـما يتعظ بمدح ولا ذم ، تجـده يرتـاح إليها ، ويحب المضرة بدينه ، ويمتعض من المذمة كأنـه غير مستـوجبها . ويبغض النـاصح المهدي إليه عيوبه . فالمادح والذام يضران بدين المستمدح وما يشعر (٢) .

فهذا فضل ما بين الرجلين : أحدهما يتمغص من المذمة ، وهو أولى الناس بها . والآخر يرضى بالمذمة وهو أطهر الناس منها .

أخي : إن عقلت مـا وصفت لـك ووعيتـه ، فـإن لـك في رعـايـة نفسـك والإتعاظ بمساويك ، والنظر في أحوالك ، والإنابة إلى مـولاك من مساوئـك شغلاً شاغلاً عن الوجدة على غيرك .

فراقب الله واحذر أوزار الحقـد والغضب على الـذام ، وتضرع إلى الله عـز وجل في دوام سترة وتمام النعمة ، فلن تزال بخير ما كنت في كنف الله عز وجل ، عالماً بأياديه ، عاملاً في الشكر له ، معترفاً بالإسـاءة والتقصير ، خـاضعاً للحق ،

أهل السماء . أنظر : (تاريخ الاسلام للذهبي ، جـ ١٣ مخطوط ، رقم ٤٢ تاريخ ، ورقة ٤٥ وما بعدها) .

وكلا الإمامين مسلم له بالفضل ، فالمحاسبي فاضل في المشاهدات ، وابن حنبـل فاضـل في حفظ الحدود ، والمحاسبي إستفاد من هذه الواقعة بلا شك ، فكأنما يتحدث عن خواطره هو .

(١) في الأصل : وقد بغض الله لمن أحبها .

(٢) أمـا المادح ، فـإنه يضر بـدين المستمدح لأنـه يدخـل الغرور في قلبـه ، وأما الـذام فإنـه يضر بدين المذموم ، لأنه يكرهه وربما كان ذمه حقاً .

متواضعاً لله ، فإن ذلك أبلغ في رضوانه ، وأوصل إلى درجة الثناء والمدحة من الله عز وجل ومن ملائكته في مواقف القيامة وزمرة الأولياء .

خبايا نفوس العابدين عند المدح والذم :

وسأصف لكم في المدح والذم صفات [1] من خبايا النفوس من العابدين بزعمهم ، عسى الله عز وجل أن ينفع بمعرفتها .

وذلك أن منهم من يعمل بأنواع البر لله ، لا يريد بها سواه ، ولا يحب أن يحمده الناس . وإن بلي بالمدحة نفى حبها عن قلبه ، فهذا كله حسن ، فيه دلائل على الإخلاص ، غير أني أخشى على العابد مكائد من خبايا النفوس يعجز مثلي عن القيام بها .

وذلك أني أحسب عابدكم إذا مدح وعُظم لم يجد في نفسه [من] [2] الكراهة مثل غم المذمة .

لا . ولا يجد من إستقبال المادح بالغضب عليه كما يجد على الذام .

وعسى أن تكون مجالسة المادح ومكالمته الدهر ، أخف على قلب العابد من النظر إلى الذام ومطاعته إياه مرة واحدة .

وعسى العابد أن يتحمل للمادح ، ويتكفل قضاء حوائجه بالشاشة وعساه لا يسعى للذام في حاجته ، ولا يجود له بقيراط ، وعسى قطيعة الذام دهره أهون على العابد من هجران المادح [يوماً] [3] ، وعسى الكبيرة تكون من المادح أخف على قلب العابد ، والصغيرة من الذام أعظم عند العابد من كبائر المادح .

وهذا وأشباهه من خبايا النفوس ، والعابد في غفلة من الزلة إهمالاً .

أما بلغك أن العبد لا يستكمل حقيقة الإيمان حتى يكون ذامه ومادحه في

---

(١) في الأصل : صفاتاً .

(٢) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٣) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

الحق عنده سواء ، وعسى لا يساوي بين الذام والمادح في البر والتكرمة لهما ، ولا يساوي لهما في الوجدة عليهما . فالعابد منقوص بذلك عن حقيقة الصدق وما يشعر [1] .

فمتى شئتم فاسألوا عابدكم عن نفسه ، وليقل الحق . هل يجد للمدحة والتعظيم مثل كرهه المذمة ؟ وهل يرضى بالذمة كرضاه بالمدحة ؟ وهل يستقبل الذام كما يستقبل المادح ؟ وهل يخف على قلبه الذام كما يخف المادح ؟ فإن زعم أن الذام والمادح يجريان عنده مجرى واحد ، والمدح والذم عنده سواء ، فإن جعلوا في ناحية العابد عصابة يعرف بها ويشار إليه ، فإنه إمام زمانه كما يزعم . والله سائله عن دعواه ، وعسى يرجع عند المساءلة عما ادعاه .

وإن أقر عابدكم أن المدحة والمذمة لا يستويان عنده ، فالصدق أولى به وبنا ، والاعتراف أنجى له ولنا ، ولذلك المادح والذام لا يستويان عنده وفقنا الله وإياكم للصدق في جميع الأحوال .

---

(١) قال أبو حازم : كل مودة يزيد فيها اللقاء مدخولة ، وإنما انتفى الصدق عن مثل هذا العابد ، لأن من لم يعرف ما طوى في نفسه من الصفات ، كيف يدعي معرفة ربه . فادعاؤه المعرفة في هذه الحالة دعوى بلا دليل ، وهي زور وبهتان . والعابد في هذه الحالة كذلك ساكن الى الخلق مستأنس بهم ، مطمئن إليهم .

وقد قال أبو الحسين محمد بن سعيد الوارق : الأنس بالخلق وحشة ، والطمأنينة إليهم حمق ، والسكون إليهم عجز ، والاعتماد عليهم وهن ، والثقة بهم ضياع ، وكل تلك صفات تعارض الصدق وتنافيه .

ومن ابتلي بمثل ما ابتلي به هذا العابد فليشحذ كل مواهبه في علاجها . فقد أكبر الصوفية تلبيسات النفس وفطنوا إليها ، ونبهوا على خطورتها . قال أبو بكر الطمستاني : « النفس كالنار إذا أطفئت في موضع تأججت في موضع ، وكذلك النفس إذا هذبت من جانب ثارت من جانب آخر » .

وخير علاج لها ما يراه الأستاذ أبو السعد أبو العشائر المتوفى عام ٦٤٤ هـ ، حيث يقول : « يجب على السالك إذا راى من نفسه خلقاً سيئاً أن يدخلها في كل ما يسوءها ويغمها حتى ترجع له مطيعة ، فإنها هي العقبة التي تعبد الله الخلق باقتحامها ، وما دام لها حركة لا يصفو لها الوقت ، وما دام لها خاطر لا يصفو لها الذكر » .

إخواني : سأصف لكم من أحوال الصادق عند المدحة والمذمة صفات [1] عسى الله أن ينفع بمعرفتها .

وذلك أن من أخلاق الصادق : أن رضاه بالمذمة إذا صارت له حسنات أكبر من رضاه بالمدحة ، لأن المدحة تضر ولا تنفع .

من أخلاق الصادق : أن يشفق على الذام ويرحمه ، ويخصه بالدعاء أكثر لنفي الحقد من قلبه ، ويتفضل عليه عند حاجته . أفتحسبون عابدكم يفعل ذلك ؟

وبعد : فإن الذم أولى الأشياء أن يحبه العابد ، لأنه ينفعه في الآخرة [2] ، ويزيد حسناته ، ولا سيما إن لم يضر بدنياه .

وذلك أن المذمة والغيبة لا ينقصان من رزقه ، بل وينفعانه في آخرته ، ويزيدانه في حسناته ، وأحسب عابدكم يقول : لا حاجة لي في المذمة ولا في حسناتها . فأين الصدق ؟

ويحك فما عذرك في بغض المذمة النافعة لك في الآخرة ؟ وأنت تزعم أنك طالب للحسنات ، وهذه حسنات لك من غير اكتساب ولا تعب ولا نصب ، فإن زعمت أنك إنما غضبت على الذام المغتاب لأنه عصى الله فيما اغتابك به ، فما ترى في الناس من هو أكثر ذنوباً ، وأعظم جرماً من الذي إغتابك وذمك ؟ ومالك لا تغضب على نفسك إذا ذممت عباد الله ؟

وهذا من خبايا النفوس وأنت في غفلة .

أيها العابد : فكن على يقين [من] [3] أن نفسك لنفسك تغضب ، ومن ذمها امتعضت ، وتعدى على الله بغضبك على الذام المغتاب ، فتزداد من الله بعداً .

---

(١) في الأصل : صفاتاً .

(٢) في الأصل : وزاد

(٣) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

ألا وإن أولى الأشياء بأن يبغضه العابد لأنه أضر بعبادته ـ لا سيما إن لم تزد في رزقه ـ تلك المدحة ، فإن المدحة لا تزيد في الرزق شيئاً ، وتضر بالعبادة .

ما حجة العابد إذا لم يكره المدحة ؟ وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

« رأس التواضع أن يكره المرء أن يذكر بالبر والتقوى » [1] .

ويحك أيها العابد !! إن مادحك أحق بالهجران من ذامك ، لأن المذمة حسنات ، والمادح عرضك بالمدحة للفتنة ، وعرض عبادتك للتلف ، وقد نهي رسول الله ﷺ عنها فقال للمادح :

« ويحك قطعت ظهره فلو سمعك ـ يعني الممدوح ـ ما أفلح إلى يوم القيامة » [2] .

فقوله الحق ﷺ مشفق عليك وعلى عبادتك ، فلم يكترث المادح لنهي رسول الله ﷺ إياه عن المدحة ولم يبال ، بل لا أفلح أبداً ، فهذا أولى بالهجران ، إذ عصى [1] رسول الله ﷺ . وأنت لم تكترث لعطبك .

وأحسبك أيها العابد تبر وتكرم هذا المادح أن تمحق المدحة عبادتك ، وعساك لا تفلح مع المدحة أبداً ، وأنت غير مكترث ، ولا يروعك قول رسول الله ﷺ ولا تحزن .

فأين الصدق ؟

ويحك !! أما بلغك أن كعباً قال : لن تنالوا شرف الآخرة حتى تسقطوا أنفسكم وأعمالكم ، وحتى تكرهوا المدحة ولا تبالوا بالمذمة ؟

أيها المغرور العابد : كفى بك جهلاً أن تغضب على الذام لك ، وباغتيابه

---

(١) صدق رسول الله . وقال أبو الحسن البصري : « شرط التواضع أن يخرج الانسان من بيته فلا يرى أحداً إلا رآى له الفضل عليه ، وإلا فهو متكبر . والكبر ما دخل منه شيء في قلب إنسان إلا نقص من عقله بمقدار ما دخله أو أكثر » ولا شر في الكون إلا وهو يمت إلى الكبر بصلة وثيقة ، ومن وعى عرف .

(٢) في الأصل : إذا عصى الله .

لـك حسنـات ، وتحب المـادح وقـد عـرضـك للتلف ، وتـأنف من المـذمـة وأنت مستوجبها ، والمذمة تنفعك في الآخرة وأنت لها كاره ، وترضى بالمدحة ولست من أهلها وهي تضر بدينك . وأنت لا تحزن لها .

فأين الصدق ؟

ويحك !! فإن زعمت أن كراهتك للمـذمة لأنـك من الأسواء طـاهر ، وأن رضـاك بـالمـدحـة لأنـك مستوجبها ، فـأنت حينئـذ أهـل أن يضحـك منـك الضاحكون ، ويستهزىء بك المستهزئون ، وأنت مستوجب للمقت من ربك .

أيها العابد : تدبر ما وصفت لك من خبايا النفوس ، هل تجد شيئاً منها ؟ أم أنت طاهر من كلها ؟ أم اجتمعت كلها فيك جميعاً ؟ .

وتدبر [1] ما وصفنا من أخلاق الصادق عنـد المدح والـذم . هل تجـد فيك شيئاً منها ؟ أو تزعم أنك أكملتها كلها ؟

أيها العابد : إنك من فقـراء آخر الـزمان ، ومن نفـاية الأمـة ، لا أحسبك تقوى على هجران المادح ، والإحسان إلى الذام .

هـذا والله يمن عـلى من يشـاء من عبـاده ، وإن الـذي وصفنـا من أخـلاق الصادق لبعيد عن أمثالنا ، فليتك أيها العابد لا تحجب بـالتعظيم لـك ولا ترتـاح بالمدح الباطل .

وليتك لا تزيد المادح مودة وبراً ، لإفراطه في مدحك .

وليت أوداجك لا تنتفخ غضباً من المذمة .

وليتك تحقد على الذام حتى تنتقم وتشفي صدرك .

وإن ملكت نفسك عن ذلك فانت إمام زمانك ، وواحد دهرك .

---

(١) في الأصل : فتدبر .

(٢) أي : وأنت على هذه الأحوال التي وصفها المؤلف من خبايا النفوس .

واعلم أيها العابد : إن كنت في الأصل تريد الله عز وجل فأنت بعيد عن الصدق في أحوالك .

هيهات ما أقعدك عن الصادقين .

يا قوم : جاهدوا أنفسكم على بغض المدحة والرضى بالمذمة ، فإنه بلغنا حديث ـ إن صح ذلك ـ من قول رسول الله ﷺ ـ إنه لقاصم الظهور لأمثالنا ـ بلغنا عنه عليه السلام أنه قال :

« ويل للصائم ، ويل للقائم ، ويل لصاحب الصدف إلا . فقيل : إلا من يا رسول الله ؟ قال : إلا من تنزهت نفسه عن الدنيا وأبغض المدحة »[1] .

يا قوم : فمتى نصير إلى حب المذمة ونبغض المدحة ، ووالله إن لم نسلم من حب المدحة وكراهية المذمة فإنا لله وإنا إليه راجعون . نسأله العصمة والعفو والصفح والنجاة . إنه جواد كريم .

يا قوم : فبمثل هذه الآداب فتقربوا إلى الله تعالى ، فإن ذلك أبلغ في رضوان الله تعالى من العبادة مع الجهل بما وصفنا .

أصناف الناس عند المدح والذم

إخواني : وبعد . فإن الناس في المدح والذم أصناف :

فمنهم من يتمنى المدحة ويعمل بأنواع البر حيالها ، فهذا هالك أو يتوب الله عليه .

ومنهم من لا يريد المدحة ، فإذا بلي بها سبق السرور إليه ، فجاهد على نفي ذلك من قلبه . فهذا في طريق المجاهدة يقع مراراً ويقوم مرة ، ويرجي له الخير ، وهو على خطر .

---

(١) حديث « ويل للصائم » : ذكره الغزالي في الإحياء ٣/٢٨٤ ، وقال العراقي : « لم أجده هكذا ، وذكره صاحب الفردوس من حديث أنس ، بلفظ : « ويل لمن لبس الصوف فخالف فعله قوله » . ولم يخرجه ولده في مسنده » .

ومنهم من إذا بلي بالمدحة لم يسر بها ، لعلمه بضررها ، غير أنه لا يجد في نفسه الكراهة ولا الإغتمام لها ، فهو على خير إن شاء الله ، وبقي عليه من الإخلاص بقايا .

ومنهم من إذا بلي بالمدحة ساءته ، وكرهها في نفسه ، وعجز عن الغضب على المادح ، فهو على خير ، ويرجى له الوصول إلى الصدق .

ومنهم من إذا بلي بالمدحة غضب منها ووجد على المادح ، فهذا في باب المدحة على سبيل هدي وبقي عليه في باب المذمة بقايا .

ألا وإن الناس عند المذمة أصناف :

فمنهم من إذا ذم غضب على الذام وحقد عليه ، والتمس الانتقام منه ، فهذا متحير هالك ، أو يتوب عليه .

ومنهم من إذا بلي بالمذمة يتمغص من مقالة الذام ، إظهاراً للورع تزيناً ورياء ، ويلتمس مما قيل فيه المعاذير ، وإن نيران المذمة تشتعل في جوفه ، يتمنى فضائح الذام وبواره ، فهذا قريب من الأول ودونه في الهلاك .

ومنهم من إذا بلي بالمذمة يتمغص منها ، ويتجرع مرارتها ، خشية أن يصاب بأكثر منها ، وإن بغض المذمة مستوطن في قلبه .

ومنهم من إذا بلي بالمذمة كرهها ، ووجد منها ، وجاهد نفسه على الصبر عليها ، رغبة في الثواب ، لا يحقد على من ذمه ، غير أنه يستثقل الذام ، فهذا في طريق المجاهدة يقع مراراً ويقوم مرة .

ومنهم من إذا بلي بالمذمة سبق إليه الكراهية ، فيرجع ويتيقظ ويعلم أنه مستوجبها فيسرى ذلك عنه ، غير أن حال الذام في قلبه بخلاف حال من لم يذمه . فهذا على خير ، وبقي عليه من الصدق بقايا .

ومنهم من إذا بلي بالمذمة لم يكرهها ، لكن تواضع وخضع لها ، وأجرى الذام له ومن لم يذمه بمنزلة واحدة ، فهذا على المحجة يرجى له الوصول إلى الصدق .

ومنهم من يقول في قلبه الحق [1] ، ويرجع بالبغضاء على نفسه ، فإذا بلي بالمذمة ورضي بها وعلم أنه أهل لها ، ولأكثر منها ، ولما صرف عنه منها ، علم أن ذلك ستر الله ، وكانت المذمة غنيمة له ، إذ صار بالمذمة أوضع الناس وأحقرهم عندهم [وآن ذلك] [2] أسلم لدينه ، وصارت المذمة له حسنات ، من غير سعي ولا نصب ، فهذا واحد زمانه .

وبعد : فإنهم جميعهم ينتقلون عند المدح والذم من حالة إلى حالة ، في الساعة واليوم ، والشهر والسنة . فمنتقل عن حاله متقدم مقبل ، ومنتقل عن حاله مول مدبر .

فتفقدوا الإنصاف في أيها تجاهدون أنفسكم .

وبلغنا أن الرياء بضع وسبعون باباً [3] ، وروي أن الرياء أخفى من دبيب النمل على الصفاة [4] ، وعقلي يقصر عن دبيب النمل ، فكيف ما هو أخفى منه ؟

---

(١) في الأصل : المحق . تحريف .

(٢) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٣) حديث « الرياء بضع وسبعون باباً » : أخرجه إبن حبان من حديث أبي هريرة ، بلفظ : « الرياء سبعون حوباً ايسرها أن ينكح الرجل أمه » . وفي إسناده أبو معشر واسمه نجيح ، وهو مختلف فيه . وأخرجه إبن ماجه أيضاً من حديث إبن مسعود عن النبي ﷺ، بلفظ : « الرياء ثلاث وسبعون باباً » وإسناده صحيح . وأخرجه البزار من حديث ابن مسعود ، بلفظ : « الرياء بضعة وسبعون باباً والشرك مثل ذلك » .

(٤) الوارد أن الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفاة ، ولعل المؤلف تأول بما ورد أن يصير الرياء شرك . والحديث أورده الغزالي بلفظ : « الشرك . . . » وأورده في موضع آخر بلفظ : « في الرياء شوائب أخفى من دبيب النمل » وقال العراقي : أخرجه أحمد والطبراني من حديث أبي موسى الأشعري ، بلفظ : « اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل » ورواه إبن حبان من حديث أبي بكر الصديق ، وضعفه هو والدارقطني » . والاحياء ٣/٢٨٦ ، ٤/٢٧١) .

وقد تشدد المحاسبي في هذا الحكم ، وفي حكمه على القدرية والواقعية بالكفر ، فقد مات أبو الحارث وترك ثروة ضخمة ، وكان محتاجاً إلى دانق ، ولكنه لم يأخذ من ميراث أبيه شيئاً ، وقال : صحت رواية عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يتوارث أهل ملتين » . وكان أبوه واقفياً أو قدرياً ، وقد يقال : أن ذلك من باب الورع :

ولكنه أمسك بأبيه بباب الطاق ببغداد ، وقال له : « طلق أمي فإنك على دين وهي على دين » =

وفيما وصفنا كفاية للعاقلين ، فكيف لعابدكم أن يقوم ببعض هذا ، وكيف [يقوم] [٢] بكل ما وصفنا ، وهب الله لنا ولكم الصدق في جميع الأحوال .

= أنظر : (طبقات الأولياء لابن الملقن . مخطوط رقم ٣٦٩ تاريخ بدار الكتب) . وكذلك انظر : (تاريخ بغداد ، طبقات الشافعية ، وميزان الاعتدال) .
ويرى السبكي أن المسألة فيها خلاف . وقد أخذ المحاسبي بأشد الآراء .

الباب الثامن والثلاثون
في وجوب تفقد القلوب

إخواني : إذا تورع الناس عن ذنوب الجوارح الظاهرة ، فغضوا الأبصار ، وأنصتوا عن الغيبة ، وكفوا عن الظلم ، واتركوا الخوض في الآثام ، وتخلصوا من تناول الحرام ، وكونوا من أتركهم لهم .

يا قوم : تفقدوا مع ذلك ذنوب القلوب ، فإنهن المهلكات القاصمات . وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

« في ابن آدم مضغة فإذا فسدت فسد الجسد كله ، وإذا اصلحت صلح الجسد ، ألا وهي القلب » (١) .

وقال عليه السلام :
« من أصلح جوانبه ، أصلح الله برانيه ، ومن أصلح سريرته ، أصلح الله علانيته » .

وقال بعض أهل العلم : « السرائر التي تخفى على الناس وهن عند الله بواد : أطلبوا دواءهن ، وما دواءهن إلا أن تتوبوا وتعدلوا . وبلغنا أن سليمان عليه السلام قال : « من أفسد جوانبه ، أفسد برانيه » .

ألا فتدبروا عظيم معاصي القلوب ، فإن منها : الشك والشرك ، والنفاق

---

(١) حديث « في إبن آدم مضعفة » : جزء من حديث « الحلال بين والحرام بين » وقد سبق

والكفر ، ومنها : الاغترار بالله عز وجل ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله . ومن معاصي القلوب : إحتقار الذنوب والتسويف بالإنابة ، وقلة الإكتراث بتراكم الأوزار ، والإصرار على المعاصي ، والتيه والرياء ، ومن معاصي القلوب : العجب والنفاق ، والتفاخر وحب الزينة ، والمباهاة في الدنيا .

ومن معاصي القلوب : التعزز ، والتكبر ، والزهو ، والأنفة من المسكنة ومن كثير من الأعمال الحلال [التي] (١) يرضاها الله ويحبها ، والعبد يأنفها .

ومن معاصي القلوب : النكث والخيانة والغدر .

ومن معاصي القلوب : الحسد والغل والحقد ، والشماتة والعداوة والبغضاء ، وسوء الظن والتجسس ، وإضمار السوء والتربص بالدوائر .

ومن معاصي القلوب : مساعدة الهوى ، ومخالفة الحق .

ومن معاصي القلوب : الرضى بالهوى ، والحب والبغض بالهوى .

ومن معاصي القلوب : الجفاء والقطيعة ، والقسوة وقلة الرحمة .

ومن معاصي القلوب : الأماني ، والحرص والسترة ، والطمع والطيرة .

ومن معاصي القلوب : الطغيان بالمال ، والفرح بإقبال الدنيا .

ومن معاصي القلوب : استقلال الرزق ، وإحتقار النعم ، واستبطاء الله في القطيعة .

ومن معاصي القلوب : الغفلة عن الله عز وجل ، والاحتقار بمصائب الدين .

ومن معاصي القلوب : إستعظام الدنيا ، والحزن على ما فات منها .

ومن معاصي القلوب : الأسف على فوات أهوائها ، والسترة بموافقة شهواتها المردية .

---

(١) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

ومن معاصي القلوب الاستهانة بعلم الله تعالى بمساوئها .

ومنها : قلة الحياء من إطلاع الله عليها .

ولقد بلغنا أن إبن عباس رضي الله عنهما قال : « يا صاحب الذنب ، لا تأمن من لا يؤمن ، ولا تأمن من تتبع الذنب ، [فإنه من] [1] قلة حيائك ممن على اليمن وعلى الشمال من الملائكة ، وأنت على الذنب أعظم من الذنب إذا علمته وعملته . وفزعك من الريح إذا هبت وحركت ستر بابك ، وأنت على الذنب ، ولا يفرق فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب إذا عملته .

وتدبر هذا الحديث أيها المغرور ، فإنك تزعم أنك عند الذنب تستحي من الآدميين وأراك تستحي من الكرام الكاتبين . . وأنت تخفي ذنوبك من المخلوقين ، وأراك لا تكترث لإطلاع رب العالمين ، تريد بزعمك ثواب الصادقين ومرافقة المرسلين .

أف لك !! ويحك !! ما أعظم جهلك !! لا أنت من ملائكة الرب عز وجل تستحي ، ولا أنت بنظر الجبار إليك تبالي .

يا قوم : فتدبروا ما أصف لكم من معاصي القلوب ، فإن العاملين بها قليل ، والمتفقدين لها في الثرى نازلين ، فراقبوا الله عز وجل إخواني ، وتورعوا من معاصي القلوب ، وتفقدوا خفيات آثامها ، وإعتقاد معاصيها ، وسوء ضمائرها ، ودقائق شهواتها ، مكنون أهوائها ، فجاهدوا على نفي ما خالف رضوان الله تعالى من سرائركم ، فما عصمتم منه فاحمدوا الله عليه ، وما بليتم به فبادروا بالإنابة والإنتقال [منه] [2] ، وتضرعوا إلى الله عز وجل في العصمة والعفو ، فإن الله تعالى يعلم سركم وجهركم ، ويعلم ما تبدون وما تكتمون ، إنه عليم بذات الصدور .

إخواني : فمتى سلمتم من آثام القلوب ، فأنتم الناجون من عذاب الله

---

(١) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٢) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

تعالى عز وجل ، وإن أصررتم على خبث السرائر ، فما أقل عناء الجوارح [1] .

وهذا فضل ما بين الرجلين : أحدهما يتورع عن المعاصي المعروفة عنده ، وعساه جاهل بعظم الضمير ، فينطوي على كبائر تأتي عليه وما يشعر . والآخر عالم بأهواء النفوس ، متفقد لأحوال سرائره ، مجانب لمكاره الله في ظاهر الأمور وباطنها ، فهذا أوزن من صاحبه كثيراً . وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته آمين يا رب العالمين .

---

(١) أي : أن الجوارح ستخلد الى الراحة ولن تقوم بعبادات تقربها من الله والجنة .

الباب التاسع والثلاثون
في التقرب بطاعات القلوب

إخواني : وإذا تقرب الناس إلى الله عز وجل بأنواع البر الظاهرة مثل الحج ، والجهاد ، والصوم ، والصلاة ، والصدقة ، والزكاة ، وتلاوة القرآن ، وغير ذلك . فنافسوهم فيها ، واجعلوا أعظم الرغبة في طاعة القلوب ، التي لا يطلع عليها الإنس ولا الملائكة ، ولا يعلمها غير علام الغيوب ، فإن القليل من أعمال البر كثير [إذا كان من القلوب] (١) . بلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

« الذكر الذي لا يكتبه الحفظة يزيد على الذكر الذي تكتبه الحفظة بسبعين ضعفاً » (٢) .

ألا فتقربوا إلى الله بطاعة القلوب ، فإن فيها المعرفة بعظمة الله تعالى وكبريائه وجلاله وقدرته وعظيم قدره سبحانه . فأين العالم بتعظيم الرب عز وجل إجلاله وتكرمه ، والهيبة له ، والاستحياء منه ، وأنى يكون له ذلك .

فتقربوا إلى الله بمحاب الله ، وبغض مكارهه ، والرضى والغضب له وفيه . وتقربوا إلى الله تعالى بشدة الحب له ، والحب فيه ، والبغض من أجله .

---

(١) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٢) والذي لا تكتبه الحفظة هو ذكر القلوب والتدبر في ملكوت السموات والأرض ، وذلة القلب وتوجهه إليه إذا غاب الذاكر عنه ، وفني عنه في الله تعالى ، كما يرى شيخ شيوخنا سيدي عمر الشبراوي رضي الله عنه في كتابه (الأسرار البهية) .

وتقربوا إلى الله بالمعرفة بأياديه الحسنة ، ونعمه الظاهرة [1] والباطنة ، وأفعاله الجميلة ، ومنته المتواترة على تواتر الإساءة منا ، وهو يعود بأنواع النعم علينا .

ألا . فتقربوا إلى الله تعالى بالخوف من زوال النعم ، وشدة الحياء من التقصير في الشكر ، وتقربوا بالوجل من مكر الله تعالى ، والاشفاق على إيمانكم .

وتقربوا إلى الله تعالى بشدة الخوف منه ، وحقيقة الرجاء فيه ، والسرور بذكره ومناجاته والشوق إليه ، والرغبة في جواره .

وتقربوا الى الله تعالى بصدق اليقين ، والتوكل عليه ، والثقة به ، والطمأنينة إليه ، والأنس به ، والإنقطاع إليه . وأين أولئك ؟

ألا فتقربوا إلى الله تعالى بالوفاء ، ولين الجناح والتواضع والخشوع والخضوع ، وتقربوا إلى الله بالحلم والاحتمال ، وكظم الغيظ ، وتجرع المرارة .

وتقربوا إلى الله بسلامة الصدور ، وإرادة الخير للأمة ، وكراهة الشر لهم ، وتقربوا إلى الله بالرأفة والرحمة ،والشفقة والحوطة على المسلمين .

ألا وتقربوا إلى الله بالجود والكرم ، والتفضل والإحسان ، وصدق الوفاء .

ألا . وتقربوا إلى الله تعالى بغناء النفوس ، والقناعة والكفاف والرضى بالبلغة ، واليأس من نائل الناس .

ألا وتقربوا إلى الله بالتثبت والعبرة ، والتأني والنظر .

وتقربوا إلى الله باستكثار نعمه لديكم .

وتقربوا بالتدبر لكتابه ، والإضمار على القيام بحدوده ، وإخلاص الأعمال له .

وتقربوا إلى الله بمجاهدة الشيطان عن دينكم ، ومخالفة الهوى في سريرتكم والتفقد لأحوالكم ، والتقوى في كل أموركم ، والندم على ما أسلفتم .

---

(١) في الأصل : المتظاهرة ، والسياق يقتضي ما أثبتناه .

ألا . وإرغبوا في مكارم الأخلاق ، وتقربوا إلى الله بأداء الأمانة إلى من خانكم ، والإحسان إلى من أساء إليكم ، والإيثار على أنفسكم ، وإن كان بكم خصاصة .

وتقربوا إلى الله بإيثار الوضعة على الرقعة ، وإيثار الشدة في الله على الرخاء ، وإيثار الفقر على الغنى ، وأني لكم ذلك .

وتقربوا إلى الله بالفرح بمصائب الدنيا ، والسرور بنظر الله ، وإختياره فيما يلي وأولى ، وأني لكم السرور بذلك .

وتقربوا إلى الله بذكر الموت والبعث دائماً ، وطول الوقوف دهراً طويلاً ، وبماذا تجيبون عند السؤال ، وذكر الورود حقاً عليها ، وعبوركم على جسور الصراط .

إخواني : فارغبوا فيما نصت لكم من أعمال القلوب وطاعتها ، فإن العارفين بها قليل ، والعاملين بها عزيز ، وقد جاءت الأنباء عن الله عز وجل ، عن رسول الله ﷺ بفضل أعمال القلوب . وقد بلغنا أن الله عز وجل ثناؤه يقول :

« لست أنظر في كلامكم وأعمالكم ، ولكن أنظر إلى هممكم وإلى قلوبكم ، فأيما قلب وافقت همته محبتي ، جعلت ضمنه تسبيحاً وتهليلاً وتقديساً »[1] .

وبعد : فإن طاعات الجوارح بالقلوب صلاحها ، وفي فساد القلوب تضييع لطاعات الجوارح ، فلا تضيعوا حظكم من أعمال السرائر ، ففيها الحزم ، والفضل العظيم . فهذا الوصف يقصر عن قدرها عن تحصيل ما في الصدور .

---

(١) حديث « لست أنظر في كلامكم » : لم أجده بهذا اللفظ ، ولكن ذكر الغزالي حديث بلفظ : « بحسب المرء من الشر إلا من عصمه الله من السوء أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه . إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . وقال العراقي : « أخرجه البيهقي، والطبراني عن أبي هريرة . وأخرجه إبن يونس في تاريخ الغرباء . وإسنادهما ضعيف .

والناس عنها غافلون .

يا قوم : فما آتاكم الله منها شكرتم ، وما قصرتم عنه حزنتم ، وتضرعتم إلى الله في الفضل والتسديد لرضوانه .

فهذا فضل ما بين الرجلين : أحدهما يستكثر من أعمال البر الظاهرة ، وعساه محزوب من جوانب الباطن . والآخر يستكثر من أنواع البر ويعتقد جوانحه الباطنة ومثاليها ، متحر[1] في مسرات الله فيها ، فهو أوزن من صاحبه كثيراً ، وأعلى عند الله قدراً .

فهذا ونحوه من فضل العلم والعقل ، وفضل النية والإرادة ، وفرق ما بين العبادة ، وقد يستوي فيها الرجلان في الورع والعقل والبر ، وأحدهما أرجح من الآخر عقلاً ، وأشد تحرياً لمسرات الله ، وأبلغ في رضوانه ، وهب الله لنا ولكم علماً نافعاً ، وعقلاً راجحاً ، إنه جواد كريم ، رؤوف رحيم .

---

(١) في الأصول : متحير . تحريف .

الباب الأربعون
في آفات العلم

إخواني : وسألتم عن أحوال الذين أظهروا العلم وأعمال البر ، وما أرادوا بإظهاره .

وسألتم عن أحوال الذين أسروا العلم وأحوال البر ، ورغبوا في خمول الذكر ، ما أرادوا بذلك من سره .

إخواني : لقد سألتم عن أهواء مختلفة ، وإرادات متباينة ، وعقول متفاوتة وسأصف بعض أحوالهم بمن الله وإرشاده .

أحوال العلماء :

وذلك أن منهم من يظهر ما عنده من العلم والعمل ، لينال به من عرض الدنيا ، أعاذنا الله وإياكم من ذلك .

ومنهم ضعيف الرأي لايقاد بعلمه [1] ، جاهل بأدواء النفوس ، قليل المعرفة بمكائد الشيطان ، وهو يظهر كثيراً من العلم والعمل ، رغبة في ثواب إرشاد الناس ، وقد غرق في بحار الفتن والجهل ، وأتت عليه مكائد الشيطان وما يشعر .

(١) أي : لا يقوده علمه إلى العمل ، فهو عالم لسانه جاهل قلبه وهو المنافق عليم اللسان .

ومنهم متداه [1] في نفسه ، مدع للعلم والفطنة بمكائد الشيطان ، فيظهر كثيراً من أعمال بره ، وعلمه ، للإقتداء [2] [به] [3] ، ليكون له مثل أجور القابلين منه ، فنصب لذلك نفسه ، وسهر ليله ونهاره ، وإشتد عليه حرصه ، وهو به مسرور ، نفسه تمنيه أن الذي هو فيه من أعلى الأعمال عند ربه ، وأنه مأجور على حرصه ، وسروره بإجتماع الناس إليه للمنافع التي أنالهم الله على يديه بزعمه فيما يرى ، فلا يشك أنه كذلك في مبلغ علمه ، وإنه ناظر لنفسه بزعمه ، يرى الفضل بإظهار ما أحسن من قوله وفعله ، يؤمل العزم في أمره ، ويطمع في دفع الفتنة عن نفسه ، وينفي الآفات عن علمه ، يرتجي الصدق والإخلاص في أحواله ، وعساه كالذي بلغنا أن الشيطان يقول :

« من زعم من ولد آدم أنه بعلمه إمتنع مني ، فبجهله وقع في حبائلي » .

فالجهل أولى به إذا إدعى النفاذ في علمه ، والقوة في عقله وفعله ، يتصنع فيما أظهر من القول والعمل ، كيما يؤكد به أمره ، ويصوب به فعله ، ويتباهى [4] في الآفاق لمنافع الناس بزعمه ، فيقتبس ذلك عنه ، ويعلو به ذكره ، وكذلك أمنيته وما يشعر .

وعساه كبعض المغتربين من قبله ، فإنه بلغنا أن حكيماً من الحكماء ، قرأ ثلاثمائة وستين مصحفاً [5] ، فأوحى الله تعالى إلى نبي زمانه ، قل له : إنك ملأت الأرض نفاقاً ، وإن الله لم يقبل من نفاقك شيئاً .

وعساه يحتمل النصب والتعب لإظهار علمه ، وإصراف وجوه الناس إليه ، لا يعدل به شيئاً ولا يؤثر عليه براً .

---

(١) أي : يصطنع الدهاء في نفسه والخبرة بالنفوس دون علمه .

(٢) في الأصل : والإقتداء .

(٣) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٤) في الأصل : ويتباه . تحريف .

(٥) روى أبو طالب المكي هذا الخبر في كتابه « علم القلوب » على أنه قرأ ثلاثمائة وستين كتاباً وأن الرجل من علماء بني إسرائيل ، ونقل المحاسبي غريب . (راجع باب الفرق بين العالم والعليم من كتاب « علم القلوب » للزيادة من تفاصيل أنواع العلماء .

وعساه مشغول بـه عما وجب عليـه من أمرهم ، وهـو مع ذلـك لا يألـو في حسن النطق ، وإتقان الكلم [جهـداً] (١) ، ويزعم أن ذلـك حكمة تجـري على لسانه ، وعسى ذلك تجويد من نفسه لكلامه وما يشعر ، يظن بلا شك أن القابلين منه رغبتهم [إنما هي] (٢) في علمه ، ورضاهم إنما هو لصدقه وإخلاصه ، ونفاذ علمه ، ولولا ذلك ما قبلوا منه ، فقد دهاه الشيطان ومـا يشعر . وهـو يكثر حمـد الله فيما أجري من المنافع على لسانه .

وعساه هنالك له أمر وأمارة يتنعم بها لنفسه ، يكرم من صوب فعله ، ويبر من حمد أمره ، وينقبض عمن خالفه ؛ ويجفو من إستفاد من غيـره ، ويعصي من خـالف هواه ، ويجـد عـلى من رد شيئـاً من قـولـه ، متجبر في غضبـه ، مستنصر لنفسه ، يشقي بذلك ، و[يظن] (٣) غضبه لربه ، تأديباً لمن خالفـه ، وقد دهي وما يشعر .

وعسـاه يفضـل بعض أصحـابـه عـلى بعض ، لا يسـاوي بينهم في القـــدر عنده ، ويزعم أن أخـطأهم لديـه أفضلهم علماً وديناً ، وإنمـا كان المقـدم عنده ، وأعزهم عليه أبرهم به ، وأشدهم موافقة لهواه ، وتعـظيماً لـه ، وتزيينـاً (٤) لأمره وهذا من خبايا النفوس ، والعالم في غفلة وما يشعر .

وعساه يلبث بذلك عمره ، أو برهة من عمـره ، مموهـاً عليه (٥) في أمـره ، يلتمس الأجر في غيره ، ويضيع الحزم في خاصة نفسه ، ويطمع أن يكون بمـا هو فيـه [نائـلاً] (٦) من الثواب مـا يكفر آثـامه ، ويكـون فيه عـوض ممـا ضيـع من شأنه ، وقد دهي وما يشعر .

---

(١) ما بين المعقوفتين سقطت من الأصول .

(٢) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٣) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٤) في الأصل : وتزينا . تصحيف .

(٥) في الأصل : مموه . خطأ .

(٦) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

وعسى الأخاويض تكبر في أمره ، فقوم يتعمقون عليه ، ويعيبون له فعله ، وآخرون يحققون فعله ، ويحسنون به الظن ، كحسن ظنه بنفسه ، وقوم مستور عنهم شأنه ، كما كان عنه مستوراً دواء نفسه ، فهو مستور بالمختلفين إليه ، شديد الإعجاب بالقابلين .

وعساه يحقق صدقهم ، ويصحح إخلاصهم ، ويزين أفعالهم ، وأصحابه في ذلك مستورون عنه بحالتهم عنده ، يعجبون بمنازلهم منه ، فإتفقت أهواؤهم على تزكية بعضهم بعضاً .

وبعد : فإن علا في الناس أمرهم ، وإضطرب الصوت بهم ، وحمد بعض شأنهم ، ووصلت النفوس إلى أمنيتها من إضطراب الصوت ، وعلو الذكر ، وكادت النفوس تستصغر من ليس من شأنهم ، وتستجهل من جهل علمهم ، وتزدري بمثل من لم يكن في مثل أحوالهم ، وما يعلم القوم من ذلك [شيئاً] [1] من أنفسهم ، قد دهوا وما يشعرون .

مكائد الشيطان للعلماء :

وبعد : فإن قديم الحيل [2] يستقل لهم ما قد دهاهم به ، فيجد لهم مكائد موبقات ، وعساه يأتي الكبير ، والمنظور إليه منهم كهيئة الناصح له ، فيخطر بقلبه أنك قد أوتيت حظاً من العلم ، وأخذت منه بحمد الله نصيباً ، فما لك والشهرة ، والتعرض للفتنة ، شأنك والعمل بما علمت .

ويحه !! لقد دهاه ، وعرضه للهلاك ، وما يشعر .

فعند ذلك ينفرد من أكابرهم في عصابة أتبعوه من أصاغرهم ، فاعتزل إعجاباً بما وصل إليه من العلم والعبادة ، وما يشعر بإعجابه ، ولا يشك أن الصواب في إعتزاله في قوله وفعله ، ولا يعلم ما قد دهي به ، فحينئذ يخالف الشيطان بين أهوائهم ، ويفرق شملهم ، ويشتت جمعهم ، ويجعلهم أحزاباً ،

---

(١) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٢) أي : الشيطان .

ويزين عند كل صنف منهم شأنه ، ويعيب عندهم أحوال من يخالفهم ، فأغوى بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عثرات بعض ، ولقن بعضهم حججاً على بعض كهيئة الناصح لهم ، فيكيد جمعهم بمكائده وما يشعرون [1] .

وعسى القوم يبدون ما في النفوس ، ويطلبون العثرات ويظهرون العيوب ، ويتفكهون بالغيبة وبقول الزور ، ويترامون بالبهتان ، ويشهد بعضهم على بعض بالعظائم ، وينسبه إلى الكفر والضلال ، أعاذنا الله وإياكم مما حل بهم .

إخواني : لو شغل القوم بينهم ووضعوا أنفسهم ، وأنزلوها منازل الإستفادة من غيرهم ، وإقتبسوا العلم من أهله ، لكانوا أولى البلوغ الجيد أجراً .

ويحكم !! لقد سلك بهم الشيطان في أودية المكاره ، وغرهم بفنون من الحسنات ، أوقعهم بها في باطل السيئات ، وفي [مكائد] [2] النفوس من الموبقات ، ورقي بهم فيما يحسبون إلى الدرجات ، ولقد حطهم بمكائده في الدركات ، فجمعهم في سفينة تتلاطم [3] بهم الأمواج ، وجهلوا أدواء النفوس ، ومكائد الشيطان ، إلا من عصم الله ، وما يشعرون .

ولعمري لئن أيقظهم من رقدة الغفلة ، ونبههم من حيرة الهوى ، وعرفوا أدواء السرائر ، والأهواء الخفية ، وتدبروا أمرهم ونصحوا أنفسهم ليجدون إخمال الذكر ، وإخفاء عمل البر لهم أولى وأقرب إلى الله ، وليجدون النفوس منغصة لتفقد أسوائها ، نافرة من مخالفة أهوائها ، مستحسنة لما ظهر من أعمال برها ،

---

(١) مثل هؤلاء كثيرون بين علماء الشريعة الذين أنفوا من اتباع السلف وإعتزلوا ، مثل : واصل بن عطاء رأس المعتزلة ، وإختلاف المعتزلة معروف يرجع إليه في كتب النحل ، والشيعة كذلك فارقوا الجماعة وإنشعبوا شعباً كثيرة كان لها أثر هدام بالغ في التراث الإسلامي ، وكذلك انفرد الحسن الصباح زعيم الحشاشين بمذهبه ودواهيه في التاريخ الإسلامي .

ويوجد مثل هؤلاء بين علماء التصوف . إما عن جهل كما يفعل الجهال الذين ينفردون عن أشياخهم ويصدرون أنفسهم للإرشاد دون إذن ، وإما عن علم الشيطان كالطريقة البكتاشية ، وبعض الطرق الإباحية التي عم أذاها في مصر وغيرها .

(٢) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٣) في الأصل : يتقي .

حائدة عن خالص فعلها ، ملبساً عليها أمرها ، مبغضة لكثير من حقوق ربها ، متهاونة بالورع في كثير من أحوالها ، قاهرة لعقولها ، متقلبة في شهوات قذرها ، لم تصحح [1] حلالها ، مسوفة بالإنابة من أسواء سرائرها ، ومن تبعات العباد لديها ، مطوية على أدواء قصر علمهم عنها ، ولم ينتبه القوم من رقدة الهوى ، ليعرفوا فقرهم إلى الإنابة من أعمال استحسنوها ، وإلتمسوا عليها ثواباً ، وعسى العقوبة أولى بهم فيها .

ألا فإحذروا ما نعت لكم من أدواء النفوس ، ومكائد الشيطان ، فإن في القول والعمل المكتوم فينا لهوى وشهوات ، وإرادة في النفوس كثيرة ، فما ظنكم بأدواء النفوس إذا ظهرت في العلم والعبادة [2] ؟

يا قوم : فلا تعدلوا بالسلامة شيئاً واقبلوا النصيح الشفيق عليكم ، ولا ينبئك مثل خبير ، والله شهيد على ما تعملون ، وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته بمحمد وآله يا رب العالمين .

---

(١) في الأصل : لم تصح .

(٢) في الأصل : إذا ظهر العلم والعبادة .

الباب الحادي والأربعون
في خمول الذكر وإخفاء أعمال البر

إخواني : وسألتم عمن رغب في خمول الذكر ، وأخفي أعمال البر ، أولئك أولو الألباب الذين أفادهم الله عز وجل من خزائن علمه ، وكان الغالب على هممهم وعزمة قلوبهم ، وإرادتهم وأمنيتهم ، ألا يطلع غير الله تعالى على شيء محمود [من] (١) أمرهم ، فما أسروه فبالرشاد ، وإن أعلنوا شيئاً فبالسداد ، وهم في ذلك أصناف .

أنواع الناس في إخفاء أعمال البر :

فمنهم من يخفي أعماله وجلاً من مكائد عدوه ، الذي يوقعه في الفتن ، ويحبط الأعمال ويخيب سعي العاملين ، لو يجد العالم المتحرز سبيلاً إلى أن يسر أعماله عن نفسه وعدوه ، لفعل ذلك خوفاً (٢) من أعداء دينه ، وعجزاً عن مجاهدة نفسه وعدوه (٣) ، فلم يعدل بالسلامة شيئاً .

---

(١) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .

(٢) في الأصل : خزماً . تصحيف .

(٣) مجاهدة النفس والشيطان تصعب إذا أظهر الإنسان أعماله ، فإجتاحته شهوة الشهرة وعزة العلم ، فقد قال بعض الصوفية : « إن للعلم سطوة كسطوة المال » . بل أشد .
ولذة العلم هي التي لو علمها الملوك لقاتلوا عليها العلماء بالسيوف ، ومن هنا كان العجز عن مقاومة النفس عند إظهار العلم ، لقوة سلطانها . أما في حال الكتم فالجهاد أسهل من الحال السابق بكثير .

ومنهم من يخفي أمره إيثاراً لخمول الذكر ، ورغبة في فضل ثواب السر مع طلب السلامة ، فأسر أحواله بمجهوده ، وقد بلغنا أن بعض أهل العلم قال : « ما أحب أن يعرفني بطاعته غيره » .

وبعد : فإن ظهر أمره بمكان ، فر بدينه إلى موطن خمول الذكر إن وجد إلى الفرار سبيلاً .

متى يباح إظهار العمل :

وقد تحدث أمور يضطر المرء فيها إلى إظهار بعض قوله لحاجته إلى معرفة ما اضطر إليه ، والحاجة مضطر إليه [1] ، فيبدي على الضرورة بقدر الحاجة مستفيداً ومفيداً ، يتضرع في خلال ذلك إلى الله عز وجل ، في السلامة من فتنة ما ظهر منه ، كفعل المحبين لخمول الذكر ، فنال ثواب حب الإخمال وثواب السر ، ووصل إلى معرفة ما أراد من العلم ، وهذا على سبيل السلام من الفتنة ، بعصمة الله وتأييده .

ومنهم محفوظ بجواهر الفوائد ، مسدد في فعله ، طاهر في أحواله ، مجانب الآثام واللغو ، متبرىء من الأسواء ، منزه عن الأدناس ، قبض الجوارح عن المهيمنات [2] والتبعات ، ورفض الحرام والشبهات ، وتطهر من الاغتياب ، وتقلل من الشهوات ، وإقتصر على البلغة من الأقوات ، وجلي الدين عن القلب بالتدبر والإعتبار ، فعاين ما في الدارين من الجزاء من السعادة والشقاء ، وجد في الهرب فما أبقي ، وانكمش في طلب ما رجى ، وشغل بهما عن نعيم الدنيا ، فاحتمل من أجلها النصب ، وتجرع من أجلها المرارة ، وجاهد في الله العدو ، فلم يصر طرفة عين على معصية علمها ، ولم يلبث ساعة في زلة عرفها ، فإستغفر من كل سيئة جهلها ، ولم يرض من نفسه بالتقصير في رضوان الله ، ولم يهمل نفسه فتغفل عن ربها ، فإرتقى بعلمه ، وعمل في الوعيد بقلب موقن بوعيد الله ،

---

(١) في الأصل : والحاجة غير مضطر إليه . وهو عكس المعنى المراد .

(٢) أي : عما يهيمن على النفوس من أدواء خفية وما يؤدي إلى تلك الأدواء .

هارباً من مساخطه ، خاشعاً مشفقاً وجلاً من عقابه وعذابه ، وعمل في وعده بقلب موقن بثواب الله ، راغب مخلص ، مجد منكمش .

وعمل في ضمان الله بكفالة الأرزاق ، بقلب موقن بوفائه ، متوكل واثق معتمد [١] ، وعمل فيما ينزل من المكارة بالصبر والرضى ، والمعرفة بحسن النظر من الله سبحانه ، والإختيار له .

وعمل في تواتر النعماء عليه بقلب عالم بعظيم النعم ، عارف بتقصيره في الشكر ، لا يحقر شيئاً يتحبب به إلى مولاه ، ولا يستكثر شيئاً يعمل به لربه عز وجل .

وعمل في محاب الله بالزهد في الدنيا والإيثار على نفسه ، مسروراً [٢] بالمصائب ، فرحاً بالمكارة ، متيقظاً من الغفلة ، كلامه ذكر ، وصحته فكر ، ونظره عبر ، عالماً بما يحب ويكره ، عالماً بما يفضل الخمول للذكر ، وإخفاء العمل ، علم بفقر العباد إلى معرفة حدود الدين ، فيبدي لهم حاجتهم إليه بمبلغ الحاجة ، وجلاً من كتمان علمه عن أهله ، مشفقاً على إرشادهم إذا إسترشدوه ، صابراً محتسباً ، ونبه إليه العباد . فإنه بلغنا ـ والله أعلم ـ أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى داود عليه السلام :

« إن صلح على يديك عبد من عبيدي ، كتبتك عندي جهيداً [٣] ، ومن كتبته جهيداً ، فلا وحشة عليه ولا فاقة ، يا داود لا ترد عبداً أبقي مني إلي ، [فذلك] [٤] أحب إلي من أن تلقاني بعبادة سبعين صديقاً » .

فرغب الموقن في إرشاد العباد إلى ربهم ، وعمل بالمراقبة لله في خاصة نفسه ، ونفح لله في خلقه ، وقام بأمر الله في عباده يعمل بعلم نافع ، وورع

---

(١) في مسألة التوكل ، راجع : « التنوير » لابن عطاء الله السكندري .

(٢) في الأصل : مسرور . خطأ .

(٣) لا نعلم صيغة مبالغة من غير الثلاثي ولعلها مبالغة من جهد .

(٤) أي : عدم رد العبد الآبق الهارب من ربه ، وعدم زجره والقيام على إرشاده .

صادق ، صبر فيهم على الأذي وكظم لهم ، ورد عنهم الغضب ، ولقيهم بالتي هي أحسن ، هاشاً لهم ، طلقاً سهلاً متكرماً ، جواداً قريباً ، متواضعاً لطيفاً بهم في معاشرتهم ، رفيقاً بهم في التأديب لهم ، وناظراً [1] فيما اشتبه عليهم ، وقيل ما ورد [2] عليه من الحق ، ولأن لهم في المذاكرة ، وحدد لهم ذكر أيادي الكريم وقديم إحسانه ، وتواتر النعم على قلة الشكر من العباد ، وذكرهم حلم الإله ، وتأنيه بهم على تعرضهم لمساخطه ، وحذرهم من مساخط الله ونعمائه [3] ، وندبهم إلى التحبب إلى الله عز وجل بمحابة ، فلم يزل في تحبيب الله إلى خلقه ، وتحبيب العباد إلى خالقهم ، ففي الله أحبهم ، وفي الله أبغضهم ومن أجله سخط عليهم ، فعمل برضوان الله في عباده ، ولم يعد أمر الله عز وجل في نفسه خاصة ، وفي كل أحواله فهو العارف بربه عز وجل ، المتأسي بنبيه محمد ﷺ ، وهو موضع الإقتداء به ، وهو المسدد في أمره ، والموفق فيما أسر وأعلن من فعله وقوله ، وقد جاء الأثر بنعته .

بلغنا أن بعض القارئين تلى هذه الآية : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [4] . قال : « هذا حبيب الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله في الدنيا في دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله في دعوته ، وعمل صالحاً في إجابته ، وقال إنني من المسلمين ، إن هذا خليفة الله » .

إخواني : هذا نعت المرسلين والخلفاء المهديين ، فهذا الوصف لا يليق بنا ولا يشبه أمثالنا ، فلا تجهلوا أمركم ، وتذاكروا الذي تعلمون من أسواء أنفسكم ، وإنتبهوا من الغفلة التي دهتكم ، فإن أخذ الإله عليكم ، فإنكم بالرجم أولى من الإقتداء بكم .

---

(١) جاءت الأحوال في الفقرة كلها مرفوعة ما عدا كلمة (هاشاً) في الأصل .

(٢) في الأصل : أورد . تصحيف .

(٣) التحذير من النعم يراد به : التحذير من سطوتها . وإستعمالها في مساخط الرب ، والغرور بها والكبر على الغير من أجلها .

(٤) سورة : فصلت ، آية : ٣٣

فاقبلوا نصح الشفيق عليكم ، وأسروا أمركم بمجهودكم ، وإرغبوا في خمول ذكركم [١] ، فإن السلف الصالح لم يعدلوا بالسلامة شيئاً ، وهم الأخيار في زمان الأخيار .

وكيف بكم [وأنتم] [٢] من نفاية الأمة بين صرع الدنيا .

وبعد : فلو وافق الأخيار دهركم هذا ، لكانوا أشد منكم فراراً وأبعد آثاراً ، وقد قال بعض أهل العلم : « لو أن رجلاً من السلف الصالح أنشر من قبره ، فنظر إلى قرائكم ، ما كلمهم ، ولقال لسائر الناس : ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب » . وعن بعضهم قال : « لا خير في الذكر إذا أعلن » .

ويا قوم : فارغبوا في خمول الذكر ، ولا تعدلوا بالسلامة شيئاً .

وهب الله لنا ولكم السلام في جميع أحوالنا ، آمين يا رب العالمين .

* * *

تم بحمد الله وعونه
وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

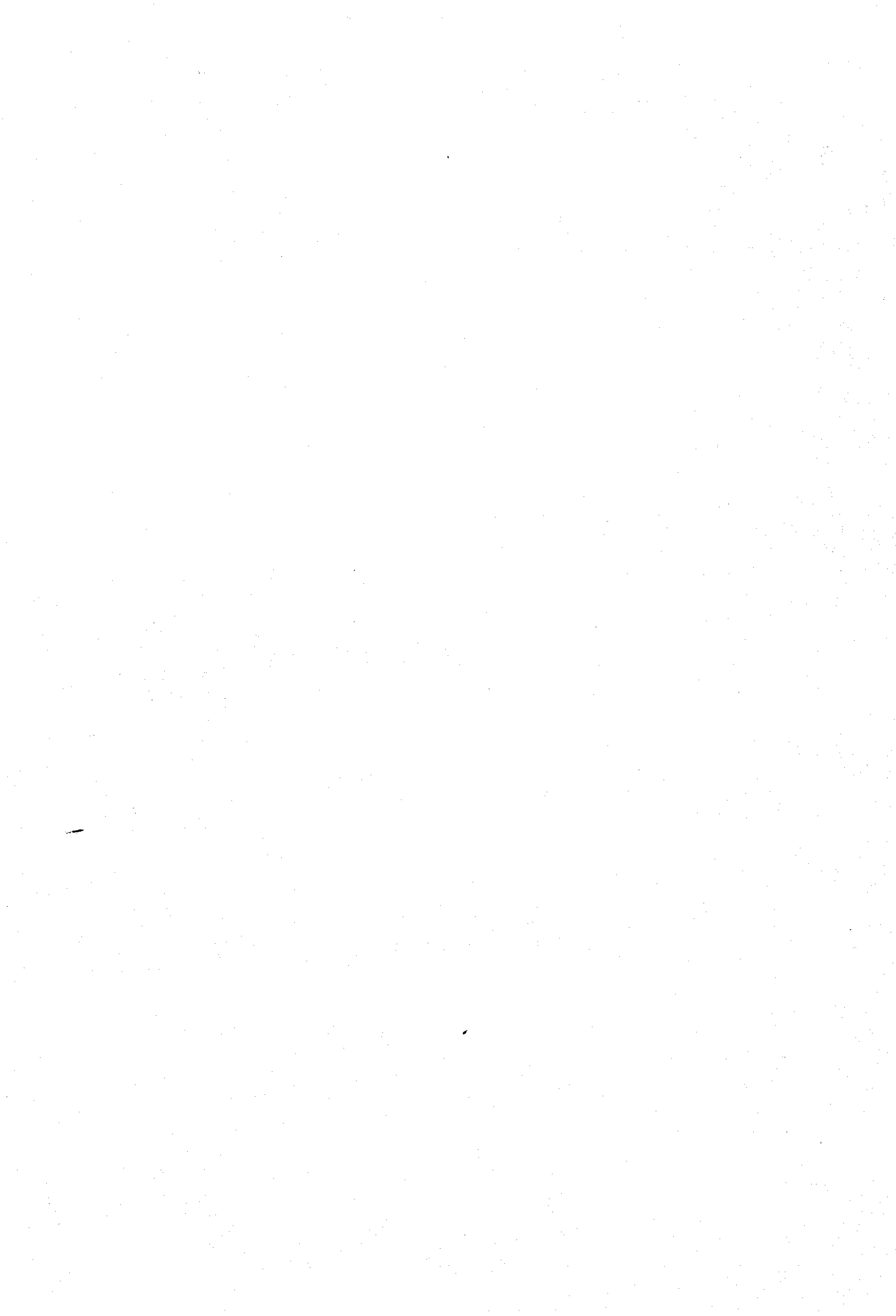
---

(١) ليس المراد بخمول الذكر ، الخمول عن العمل ، فهذا ليس من مذهب الصوفية في شيء .
قال سيدي أحمد الرفاعي في كتابه « البرهان المؤيد » : « علو اليد خير من سفلها » .
بل المراد : أن يعمل الانسان في صمت ، لا يعلن عن عمله ، ولا يبتغي به شهرة ولا أجراً ولا يزدهر الإخلاص في العمل إلا في تلك البيئة المتجردة بأعمالها لله وحده .

(٢) ما بين المعقوفتين : سقطت من الأصول .



القَصدَ والرجُوع إلى الله



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

قال الشيخ : أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي ، رضي الله عنه وأرضاه :

إن خير ما أبتدىء به من الكلام : ذكر الله عز وجل ، والثناء عليه ، فإنه بلغنا أن النبي ﷺ قال : « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أقطع » . ويقال : « بالحمد فهو أجذم »[1] .

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وصلى الله علي محمد خاتم النبيين ، وعلى آله الطيبين ، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

والحمد لله الذي حسن الوجوه وزينها بدارة الحدق[2] ، وأذن للسان بفصيح الكلام فنطق ، والحمد لله الذي تسبح له الرمال ، وتسجد له الظلال ، وتتدكدك من مهابته صم الجبال ، الذي لا يوارى عن بصره سواد ليل داج[3] ، ولا ما انطوت عليه البحار والأمواج ، عالم ما في السماء ذات الأبراج ، وما استقر

---

(١) حديث « كل أمر ذي بال » : أخرجه الطبراني عن ابن مسعود .

(٢) دارة الحدق : العينان وما حولهما .

(٣) يواري بالبناء للمجهول : يخفى . وليل داج : حالك شديد السواد .

في قعر بحر عجاج[٤] ، الذي أعذب ألسنة الذاكرين بحلاوة ذكره ، وأرهب قلوب المتفكرين من مخافة مكره ، ووهب المزيد من نعمه لمديم شكره ، ورحم أهل المعاصي تكرما في خفي سره ، وعاد على العباد بحلمه ، وستر ما أبطنوا بعلمه[٥] .

الذي علم ما يكون قبل أن يكون ، وسبق علمه بلج العيون[٦] ، واطلع على الغيب المكنون ، ولم تبلغه الأوهام والظنون .

على العرش استوى ، وعلى الملك احتوى ، فلا يرى[٧] ، وقرب فشهد النجوى ، يعلم السر وأخفى مما هو أخفى ، مما لم يقع في وهم الضمير من حبيس خطرات العارفين ، ومعاني ضمائر الصامتين[٨] ، ومذاهب نيات المتكلمين ، الذي ليس كمثله شيء ، وهو خالق الأشياء حين لا شيء[٩] .

قسم بيد خلقهم أقواتهم ، واخترع لهم مثالات أشكالها ، واختلاف صور انشائها ، فلم يعيه خلق الخلائق كلهم ، ولم تشتبه عليه مثالات صورهم ، ولا تمييز لغاتهم ، واختلاف مذاهبهم ، ولا تلوين أجسادهم ، ولا مشكلات معاني ألفاظ أصواتهم ، ولا تغيير نغم ألسنتهم ، ولا دقيق خفي ما بطن منهم .

وكيف يعجز عن ذلك وهو خلقه ، وهو في قبضته وأمره ، فكونهم بين الكاف والنون ، لقوله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن

---

(٤) بحر عجاج : متلاطم الموج .

(٥) أي : علم ما احتوت عليه بواطنهم من النوايا ، وسترها في علمه . ولم يفضحهم بها .

(٦) بلج العيون : وضوحها وظهورها .

(٧) يريد أن يقول : إن الله تعالى استوى على العرش ، وأحاط بكل شيء واحتواه ، ومما أحاط به عالم الملك الظاهر ، فاحتجب به فلا يراه أحد .

(٨) عالم الخفاء على هذا كما يراه المحاسبي ثلاث مراتب : السر ، وهو ما أسره الإنسان من الخطرات . والأخفى من السر ، وهو الخواطر التي لم تستقر بعد ولم تتميز . والأخفى من الأخفى ، وهو : الخواطر التي لم تقع بعد في عالم الوهم ، وإنما قسم للعارف أن ينازلها ويظفر بها .

(٩) هذا رد على المعتزلة وانظر (أسرار الآيات لصدر الدين الشيرازي طبع طهران ١٨٩٥) وخلاصته ، وانظر رسالة الواردات للشيخ محمد عبده ص ١٢ ـ ١٤ .

فَيَكُونُ ﴾[١٠] .

فتبارك من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، الله الذي ما كان من حسنة فمن عطائه ، وما كان من سيئة فمن بلوائه[١١] ، المعبود في أرضه وسمائه ، المحتجب عن أبصار الناظرين فلا عين تراه ، ولا بصر يدركه ، وهو الذي ينعم بالنظر إليه في جنات النعيم أولياؤه .

وأسأله أن يصلي على النبي الذي انتخبه لطاعته[١٢] ، واصطفاه لرسالته ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، واستوجب الوسيلة ، ﷺ .

أما بعد . . .

فهذه مسائل في المعرفة ، وعلم طريق الآخرة ، والقصد والرجوع الى الله تعالى ، حيث أراد الله ، ومن الله التوفيق إن شاء الله .

وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا أتى على يوم لا أزداد فيه علماً يقربني الى الله عز وجل ، فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم »[١٣] .

وبلغني عن الضحاك بن مزاحم قال : « أول باب من العلم الصمت[١٤] ، والثاني استماعه ، والثالث العمل به ، والرابع نشره »[١٥] .

***

---

(١٠) النحل : ٤٠

(١١) أي : من ابتلائه واختباره للعبد في التوبة والإنابة .

(١٢) أي : اختاره ليطاع من أمته والناس أجمعين . قال الله تعالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ (النساء : ٨٠) .

(١٣) حديث « إذا أتى عليَّ يوم » : أخرجه الترمذي عن عائشة وصححه .

(١٤) الصمت وصلته بالعلم : أنه عبارة عن تطهير محل العلم من كل كلام ، حتى لا ينزل بالقلب إلا العلم ، ولا يطرق الأذن إلا العلم .

(١٥) نشره يكون بإذاعته في مجالسه ، وإجابة السائلين عنه ، أو بطبعه في كتب للناس .

مسألة (١)

في شرح بيان ابتداء التوبة ، والقصد إلى الله عز وجل بالانابة

قال : سألت أبا جعفر محمد بن موسى[١] ، قلت : رحمك الله ، ما أول ما أبتدىء به الطريق الى الله عز وجل ؟

قال : الرجوع إلى الله تعالى ، من حيث أراد الله ذكره .

قلت : وما معنى الرجوع إلى الله ؟

قال : التوبة يا فتى ، كما قال سعيد بن جبير[٢] في قوله عز وجل : ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورا ﴾[٣] قال : يعني : الراجعين إلى الله عز وجل .

قلت : وما معنى التوبة ؟

قال : الندم على ما كان من الفعل القبيح ، والعزم على ألا تعود الى ما

---

(١) محمد بن موسى : لم نعثر عليه بكنية أبي جعفر ، وإنما عثرنا عليه بكنية أبي بكر ، وليس هذا هو المعاصر للمحاسبي .

(٢) سعيد بن جبير : كان مثلاً في العلم والورع ، ويخرج كل سنة مرتين للحج والعمرة ، اسند عن علي ، وابن عمر وابن عمرو ، وأبي موسى ، وعدي بن حاتم ، وأبي هريرة وأكثر الرواية عن ابن عباس قتله الحجاج سنة أربع وتسعين ، وعمره سبع وخمسون سنة . عرض عليه رسل الحجاج الهرب فأبى ، وكان قد خرج على الحجاج ، وشهد دير الجماجم . انظر (صفوة الصفوة ٣ ـ ٤٣) .

(٣) الاسراء : ٢٥ ، والأوبة نهاية منازل التوبة ، وأوسطها الإنابة .

كنت عليه من حال الاصرار على العقود[٤] ، والفزع من عارض داعي الذنب[٥] ، لأن الله عز وجل يقول : ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٦] .

قلت : بم يبتدىء الرجل من التوبة ؟

قال : بترك الذنب من فعله ، والخيانة من ضميره ، والمداهنة في معاملته ، والمواراة في مذهبه[٧] ، وبرد المظالم على أهلها ، ويؤدي كل ما كان عليه من حق لله وللعباد ، لأن الله عز وجل يقول : إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أتوب عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[٨] .

قلت : فما الذي يجب عليه بعد ذلك ؟

قال : اصلاح القوت[٩] ، لأن منزلة القوت من الدين كمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا أصلح الرأس صلح جميع الجسد ، وكذلك يا فتى إذا صلح القوت في الدين ، زكت الجوارح بأعمال المطيعين .

قلت : ثم ماذا يجب بعد ذلك ؟

قال : الأسى على ما فات ، واصلاح ما هو آت ، والاستغفار باللسان من

---

(٤) يعني : إذا عقدت العزم على التوبة ، فاعزم على ألا تعود إلى حل إصرارك على هذا العقد كما كنت تفعل من قبل .

(٥) الفزع من عارض داعي الذنب ، أي : الهرب من كل ما يدعو إلى الذنب ، من رفقة السوء ، وأماكن الفسق ، والنظر إلى الشهوات ، وأمثال ذلك .

(٦) آل عمران : ١٣٥ .

(٧) خيانة الضمير : الميل إلى حب الذنب بالقلب ، مع اجتنابه في الظاهر . والمداهنة : اصطناع الخلق الحسن نفاقاً لجلب مصلحة شخصية . والموارة : موافقة الكل في مذاهبهم خشية الخلاف ، مع تضييع الحق .

(٨) البقرة : ١٦٠ .

(٩) اصلاح القوت : يعني تحري الحلال الخالص من الطعام والشراب . فكل لحم نبت من حرام فالنار أولى به . وانظر للمحاسبي (أعمال القلوب والجوارح ص ١٩٥ ، والوصايا الباب التاسع عشر) .

الذنوب التي مضت ، وحل الاصرار من القلب[١٠] ، والعزم على ترك العود إلى ما لا يحل ، والندم على ما كان منه ، مع الاستغفار . فإذا دام على ذلك كان من الراجين لقبول العذر بالتوبة .

قلت : فما يزعج العبد إلى التوبة ؟ ومتى يستقر عندي أن التوبة فرض علي ؟ ومتى أخاف التخلف عنها ؟

قال : بالفهم عن الله : أنه فرضها . فأما بيان فرضها فإن الله عز وجل قال : ﴿ وَتُوبُواْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١١] .
وقال ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ تُوبُواْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحا ﴾[١٢] .

يا فتى ، إنه من عدم الفهم عن الله تعالى لم يحسن أن يستجلب وعظ حكيم ، أما سمعت قول الله عز وجل : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ ﴾[١٣] .

ففرض التوبة عليك ، ونسبك إلى الظلم إذا تخلفت عنها ، فلذلك أوجبها العبد على نفسه ، وألزمها خوف التخلف عنها .

قلت : فما الذي يقويني على هذا الطلب للتوبة ؟

قال : دوام علم القلب بقرب الأجل ، وأخذ الموت بالكظم[١٤] بغتة ، وخوف فوت المأمول من الله عز وجل ، وخوف العقاب لمن قدم[١٥] على الله

---

(١٠) الاصرار : بقاء حلاوة شهوة الذنب في القلب ، مع تركه في الظاهر . وهناك اختلاف في وقته وحدوده بينه النابلسي في كتابه (حقائق الإسلام وأسراره) . تحت الطبع دار الكتب العلمية ، بيروت .
(١١) النور : ٣١ .
(١٢) التحريم : ٨ .
(١٣) الحجرات : ١١
(١٤) الكظم : الحبس .
(١٥) في الأصل : (ممن قدم) خطأ .

مصراً على الذنب . قال لقمان لابنه : « يا بني ، لا تؤخر التوبة ، فإن الموت يأتي بغتة » .

ويقويك أيضاً على طلب التوبة ثلاث خصال :

أولاها : ذكر الذنوب السالفة ، وقلة المطعم والمشرب[١٦] ، مع ترك الكثير من الشهوات .

والثانية : جمع الهم لما تطلب ، مع دوام ذكر الموت .

والثالثة : لزوم العلم بذكر ما قدمت ، وهو الذي يطوى عليك ذكر ما ذكرت[١٧] .

قلت : فما الذي حركه إلى التوبة ، وأيقظه وقطعه عن الغفلة ؟

قال : دوام الخوف ، ورجاء الموعود ، لأن الله عز وجل دعا خلقه بالرغبة والرهبة ، فرهبهم بخوف الوعيد ، ورغبهم بشوق رجاء الموعود . فهذا الذي يزعج العبد ، ويهيجه على اصلاح شأنه ، وما هو أولى به .

قلت : وما علامة الصادق في توبته ؟

قال : دوام الأسى على العمر الذي انقضى منه في البطالة واللعب ، والاشفاق على أنه لا يدري : قبل منه التوبة أم لا ، واستقلال ما عمل لله ، مع دوام الانكسار والحزن ، والاجتهاد والانكماش ، والمسارعة ، مع الفزع من عارض الهوى والذنوب ، حتى تضيق عليه الأرض بما رحبت ، ويعلم أنه لا ملجأ من الله إلا إليه ، كما قال عز وجل : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا

---

(١٦) ذكر الذنوب وشؤمها يوجه النفس إلى النفور منها ، وقلة المطعم تضعف ميل النفس للشهوات .

(١٧) يعني : أن يلازم الخصلتين السابقتين فلا ينساهما ، حتى يسهل عليه ذكر الموت ، وذكر الذنوب ، وذكر التوبة . ويضيف المحاسبي إلى ذلك : المعاتبة والتخويف . فيقول : وذكرها عظيم جرائمها ، وكثرة ذنوبها ، وأدام ذلك عليها ، وجعله عمله ، فأوجع ضميرها ، فسالت دمعتها ، واستغفرت من سوء ما تقدم من صنعها ، فحمل عليها ، وذكرها ، ثم أخبرها أنه لا أمان عندها أن يكون ربها قد غضب عليها لما أسلفت من معاصيها .

ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[١٨] .

فهذه صفة التائب الصادق في توبته .

قلت : شيء غير هذا ؟

قال : نعم ، ثم يبتدىء من قلبه دوام علم القلب لمنة الله عز وجل في التوبة ، وتوفيقه لها ، فيعتقد القلب دوام العمل لله عز وجل ، لعله الفرح الذي دخل عليه في التوبة ، من روح معرفة النعمة التي ابتدأه بها من التوبة[١٩] .

قلت : فإذا بلغ من التوبة إلى هذه الدرجة ، يجب عليه شيء ؟

قال : نعم ، ما لا غنى به عنه : الشكر لله على مواهبه له في التوبة ، إيجاباً عليه من الله .

---

(١٨) التوبة : ١١٨ .

(١٩) كتب المحاسبي فصلاً في صفه التائب وصدقه في كتاب (بدء من أناب الى الله) ص وما بعدها ، خلاصته :

(١) الجد في الطاعة : إذ يشاهد ما غاب من الآخرة بعقله ، ويقوى تعظيم الله في قلبه ، ويشتد خوفه منه ورجاؤه إياه . فيهيج منه الحياء ويزعجه عن كل قاطع ، وينشطه الدؤب والاجتهاد ، ويهيجه الحب على مناجاة سيده .

(٢) سقوط الكلفة في الطاعة . إذ ترتفع عنه السآمة . وتزايله الملالة . لما في صدره من المهابة والجلال لربه .

(٣) العلم بطريق التوبة : إذ يصبح بصيراً بداء نفسه ، ونزغات عدوه ، لا يركن إلى خطره ، ولا تجوز عليه زينة فتنته ، بصيراً بالطريق إلى الله ، إن أجابك أجابك بالوصف عن طريق سلكه ، وعن آفات رفضها ، وعن مكابد جاهدها ، وعن درجات ارتقى اليها .

(٤) العلم بالرجاء والخوف : أحسن الظن بربه ، ورجاء أن يكون لم يمن عليه بالتوبة إلا لسابقة سبقت له منه بالرحمة قبل أن يخلقه ، فغلب الأمل على قلبه إن الله تعالى سيعفو عنه إذ من عليه بمنا من ، فأنس بالرجاء ، وعظم الشكر في قلبه ، وخاف أن يعذبه على تضييع الشكر .

مسألة (٢)

في صفة الفترة وشرحها ، وبيان معانيها

قلت : فما الذي بعد التوبة ؟

قال : الرجوع إلى الفترة .

قلت : رحمك الله ، فما أول الرجوع إلى الفترة ؟

قال : هو : أن تعرض دواعي الهوى ، فتستجيب له النفس ، فتستريح إلى الفترة ، بروح ترك الكد والاجتهاد .

قلت : فمن أين تزايدت عليه الفترة ؟

قال : من قلة معرفة ما فاته من الله عز وجل ، واستقلاله عظيم المواهب من الله عز وجل .

قلت : فمن أين لحقه ذلك ؟

قال : من تخليط القلب في أودية الدنيا[1] ، وأخذه الرخصة منها[2] ، فعندها مال إلى الفترة ، واستبلته الغفلة ، فصار أسيراً فيها .

---

(١) يعنى سياحته في أودية الدنيا ، وصنوف متاعها .

(٢) الرخصة : ما يستثني من الحكم الشرعي لضرورة ، كقصر صلاة المسافر ، والفطر له وللمريض ، وما أشبه ذلك .

قلت : رحمك الله ، فما علامة الفترة ، وهل يعرفها القلب ؟

قال : نعم يا فتى ، أول الفترة : الكسل ، فإن كان للرعاية عليه سلطان تلاشى الكسل ، وإلا تزايد حتى يصير جزعاً ، فإن كان للإشفاق عليه مانع[٣] ، وإلا تزايد حتى يصير نفوراً من الطاعة ، فإن كان للنية[٤] في قلبه موضع وإلا صار شرودا ، ونعوذ بالله من ذلك .

فإذا صار إلى الشرود خرج من سلطان الخوف إلى غرة الأمن ، فاتسعت به الخطا إلى مواطن الهلكة ، فكشف عنه ستر العدالة ، وفضحته شواهد العزة[٥] ، وذلك من قلة محاسبة النفس .

* * *

---

(٣) أي : أن منعه الخوف عن الاسترسال في الجزع ، ورده إلى السهولة ، وإلا تحول الجزع إلى نفور .

(٤) قد ينفر الإنسان من الطاعة ولكنه ينوي أن يعاودها بقوة وعزم . وهذه النية آخر ما يبقى في القلب من أعلام الاستقامة .

(٥) كتب المؤلف كتاباً صغيراً فصل فيه قصة التوبة ومداخل النفس والشيطان فيها ، هو (بدء من أناب إلى الله) وقد نشرناه بتحقيقنا باسم (التوبة) وهو ملحق بهذه المجموعة . فارجع إليه للزيادة من العلم بهذا الموضوع . ومعنى كشف ستر العدالة أن حال المسلم مبني على الستر ، وما لم يجاهر بمعصية فهو عدل في نظر المسلمين ، فإذا شرد جاهر وانكشف هذا الستر . ومعنى فضيحة شواهد العزة : أن اغتراره بالله وبأنه غفور رحيم مع المجاهرة فضحه بين جمهور المسلمين .

مسألة (٣)

في محاسبة النفس ، ودفع الهوى

من ضمائر القلوب

قلت : رحمك الله ، ما معنى المحاسبة ؟

قال : قيام العقل على حراسة النفوس من خيانتها ، لتتفقد منها زيادتها من نقصانها .

قلت : زدني في شرح البيان في المحاسبة أجلى من هذا .

قال : تقدم بين يدي كل فعل تفعله : لم ؟ ولمن ؟ فإن كان لله مضيت فيه ، وإن كان لغير الله امتنعت عنه ، ولمت نفسك على اشارتها إلى روح دواعي الهوى ، وعاقبتها على ذلك ، وأثبت[1] عليها جهلها ، وبينت[1] عند العقل فضيحتها ، وعرفت أنها عدوة لك ، لسوء فعلها ، وما دعتك إلى ما يقطعك عن خالقها .

قلت : فمن أين مخرج المحاسبة ؟

قال : من مخاوف النقص ، وشين البخس ، والرغبة في زيادة الأرباح ، لأن الشريك إنما يحاسب شريكه مخافة البخس والخسران ، وأمل رجاء كثرة الأرباح ، وكثرة زيادة البضاعة ، كما قال ذو النون[2] . لبعض العابدات : « بم تجدين الزيادة ؟ قالت : بالتفقد والمحاسبة » .

---

(١) في الأصل (وتبين عليها) . وما أثبتناه أوضح .

(٢) ستأتي ترجمته .

قلت : فما معنى قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ؟ » .

قال : يزنها وزن من لا يدعها تميل إلى الباطل وزن مثقال ذرة .

قلت : فما ميراث المحاسبة ؟[٣] .

قال : زيادة في البصيرة ، وكيس في الفطنة ، وسرعة إلى إثبات الحجة ، واتساع في المعرفة ، وهذا على قدر لزوم القلب للتفتيش .

قلت : بأي شيء يقوى العبد على محاسبة نفسه ؟

قال : بثلاث خصال :

أولاها : قطع العلائق التي تشغله عن جمع الهم على المحاسبة[٤] ، لأن من أراد أن يحاسب غريمه فرغ قلبه من الأشغال .

والثانية : التفرد لها عن غيرها اختيارا منه ، لخوف الفوت لما أمل من المحاسبة .

والثالثة : الخوف من الله عز وجل أن يسائله عما فرط فيما بلغه على لسان نبيه عليه السلام حيث قال : « للمؤمن أن يرى في أربع ساعات : ساعة يحاسب فيها نفسه »[٥] . الحديث .

قلت : لم تخلفت القلوب عن محاسبة النفس ؟

قال : من غلبة الهوى والشهوة ، لأنهما ضد النظر والعلم والبيان ، فمن ثم

---

(٣) اشتهر المحاسبي بالمحاسبة علماً وسلوكاً . ولذلك سمي بالمحاسبي . وله في كل كتاب من كتبه حديث عنها . وقد جمع أبو نعيم الأصبهاني قدراً كبيراً من أقواله في المحاسبة .

(٤) لا يشتت هم الإنسان عن المحاسبة إلا الاسترسال بالخيال أو بالعمل في الشهوات ، والفكر فيها وفي وسائلها ، أما إذا قطع الإنسان على نفسه الخيال فيها فإنها تستجيب لأول منزل المحاسبة . ثم يفرغ نفسه وقلبه من الاشتغال بعمل الدنيا في المكاسب وغيرها . ويفرغ تماماً للمحاسبة .

(٥) حديث « للمؤمن أن يرى » : أخرجه أبو يعلى والبزار عن أبي هريرة .

تخلفت عن محاسبة النفـوس ، وعميت عن النظر ، فـلا ترى النفس جميـلاً ترغب فيه ، ولا قبيحاً تأنف عنه .

قلت : رحمك الله ، أخبرني عن الهوى الذي حجبها عن المحاسبة .

قال : الهوى هو : تعلق النفوس بالشهوات ، وميلها إلى الراحـات ، فعلى قدر الشهوات يتمكن منها الضعف ، فيستولي عليها الهوى[٦] .

قلت : كيف أعاقب نفسي على ما جنت ؟

قال : تفرق بينها وبين محابها ، وتأخذ سوط الخشية لها ، بدوام الرعايـة لها في سعيها ، وتضاعف عليهـا أورادها ، وتـزيد في كـدها ، وتنقص من غـذائها ، وتقـطعها عن مـلاذها ، وتجـرعها غيظ التهـديـد زجـراً لهـا ، حتى يغلب سلطان رعايتك سلطان كبرها ، فعند ذلك يا فتى تذل في نفسها ، وتخضع بعـد كبرهـا ، وتسقط عن كلبها[٧] وشرها ، وتمر على الاستقامة الى خالقها ، ومن الله التوفيق .

* * *

---

(٦) الفـرق بين الشهـوة والهوى . أن الشهـوة حـال من أحـوال النفس ، والهـوى مقـام من مقـامـاتها المرذولة ، فالشهوة عارضة ، فإذا استحكمت صارت هوى . والهوى ملكـة ثابتـة ، وسلوك راسخ يجمع شهوة أو شهوات كثيرة يصعب الإقلاع عنها ، بعكس الشهوة العارضة .

(٧) الكلب ، بفتح الكاف واللام : السعار والشراهة .

مسألة (٤)

في مخالفة العدو ، ودفع نزغاته

قلت : رحمك الله ، قد بينت لي في مخالفة النفس والهوى ، فما السبب الذي يقوى على مخالفة العدو وابليس ؟

قال : أن أولى الأسباب وأقواها على مخالفة العدو وابليس : فرض الله اللازم الذي أمر بمحاربته ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾[١] . وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾[٢] .

فهذا دليل على أن الله عز وجل فرض عدواته ، وأمر بمحاربته ، وهو الذي يقويك على مخالفته ، لخوف التخلف عما أمرك به .

ألا ترى أنه فرض عليك عدواته ، وأمرك بمحاربته ، ومعرفتك بذلك تقويك على مخالفته ، وتشد غيظك عليه ، ويكثر همك بحراسة نفسك ، ويعظم منك الاشفاق خوفاً أن يكون قد نزغك العدو ، ودعاك إلى حالة لعل نفسك مالت إليها من حيث تعلم ، أو من حيث لا تعلم ، فيدق عليك علم ذلك ، فينقص بذلك قدرك عند سيدك ، ويشين إيمانك ، ويضيع يقينك ، ويقصر به صدقك عن مخالفتك لعدوك .

---

(١) فاطر : ٦ .

(٢) النور : ٢١ .

قلت : صف لي حالة تعينني على مخالفته ، ودفع نـزغاتـه ، وزدني في شرح بيان ذلك .

قال : افهم وفرق بين الداعيين : إلى ما دعـا الله عز وجـل ، وإلى ما دعـا إبليس . ثم انظر إيهما أحق أن تجيبـه : من دعاك إلى هلكتـك ، وتلف نفسك في طول مدتك ، وأتعبك في ثبـوت أسباب حيلتـك ، ووعدك الفقـر في أمنيتك ، أو تجيب من بدأك بنعمته ، ولم ينسك في قديم وحدانيته ، وخصك بالإيمـان في علم الغيب في دوام أزليته ، ودعاك إلى جنتـه ، وحسن كرامتـه ، ولطيف بـره ، وتمام نعمته .

وإنما العدو يـريد أن يقـطعك عن الله عـز وجل ، مـولاك وسيدك ، بسـوء ظنونه وقنوطه ، وشكوكه وخدعه ، وحبائل مصائده ، وكثرة غروره ، ويـزين لك العمل في نفسك . قال الله عز وجل : **﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾**[٣] .

ويريد أن يبعـدك عن الله مولاك ، وعن الحظ الجـزيل من الله عـز وجل ، والنعمـة القصوى[٤] ، ويعـطيك الشكـوك ، ويـأخـذ منـك السكـون ويعـطيـك الاضطراب ، ويأخذ منك الصبر ويعطيك الجزع ، ويأخذ منك الرضـا ويعطيـك السخط ، ويأخذ منك الجد ويعطيك الهزل .

يمنعك أن تروح بالثقة ، وتـطمئن الى العدة[٥] ، ويسلط عليـك الحرص ، ويخوفك الفقر وطول الأمـل ، وسوء الـظن بموعـود الرب ، ويثبط عليـك نيتك ، ويفسخ عليك عزمك ، ويسوف لك في التوبة ، ويقطعك عن الانكماش والمبادرة إلى مـا دعاك الله عـز وجل ، ويـريد أن يفضحـك عند خـالقـك ومـولاك تبـارك وتعالى .

(٣) النمل : ٢٤ ، العنكبوت : ٣٨ .

(٤) كل هذه أمور معلومة بالضرورة فلماذا أهمل الناس رعايتها ؟

يجيبنا صدر الدين الشيرازي عن السبب فيقول : إنها في اختلاف النـاس ، وانشغالهم بـالصور عن الحقائق بدواعي النفوس . انظر (أسرار الآيات ص ٥٣) .

(٥) العدة : وعد الله للعبد بضمان الرزق والكفاية والرعاية والحماية في كنف الإيمان والطاعة .

فإذا عرفته بهذه المعرفة ، وعاديته بهذه العداوة ، توحشت منه أشد من توحشك بظاهر مشاهدته ، وخفت أن تميل إلى مصالحته ، فيعقبك من ذلك العطب .

قلت : رحمك الله ، يكون أحد يقبل ممن يبغضه ، ويطيع من يهلكه ؟

قال : تلحقه هذه الفروع لعلة الغفلة ، ويخالفه في الأصول لمعرفته ، لأنه في عقد الايمان مبغض له ، معتقد له العداوة ، ولا يقبل منه نصيحة ، ولا يجيبه الى نزغة ولا خطرة .

وأما في الفروع فإنه يقبل عليه بمطالبته ، ويريه أنه ليس بضار ما يدعو إليه ، وقد غلب عليه الهوى ، وجرته أسباب الرخصة ، وأسرته الفتنة ، فعمى عن البصيرة ، وانقاد له بالغفلة ، من مواطأته في الفروع ، وهو معتقد مخالفته في الأصول[٦] .

فالنجاة في لزوم دوام مخالفته ، والحذر منه ، ثم لزوم الورع .

* * *

---

(٦) تساءل المحاسبي : هل يعلم الشيطان ما تحدث به النفس فيعارضها بالصد عن الخير ؟ وأجاب : بأن الشيطان طالت مقارنته للإنسان ، وتفقده لأحواله ، حتى لم تخف عليه حاله ، فعرف مطالبه ومذاهبه ، فعند كل خير صده عنه هذا من غير علم منه بما يحدث ، غير أنه علم أن خيراً قد أحدثه العبد ، وكذلك يعلم أن شراً قد أحدثه ، لا يعلم أي خير ولا أي شر .

ثم تساءل : هل يدعو الشيطان إلى خير يريد الصد به عن خير أكبر منه ؟ وأجاب بقوله : معاذا الله أن يكون من أعمال الشيطان الدعاء إلى خير قل أو كثر لأن الله تعالى يقول : ﴿ **إنما يأمركم بالسوء والفحشاء** ﴾ (البقرة : ١٦٩) . ولكن الإنسان إذا عظمت رغبته في الخير وفي الطاعة فقد يفعل من الخير الأقل بدعائه له ألا يفعل . أي هو يدعوه ألا يفعل ولكن العبد يفعل القليل بعد أن كان يفعل الكثير . (أعمال القلوب والجوارح ٨٠ ـ ٨٣) .

والحيلة التي أشار إليها المحاسبي هنا لإضلال الناس في الفروع . وعدم التعرض لهم في الأصول تنتهي إلى تضييع الأصول ، فما الفروع إلا لتقوية الأصول ، فإذا أهملت ضعفت العقيدة في الأصول ، ثم وهنت ، ثم زالت ، وإن بعثت في الظاهر . . وهي بعينها نفس الحيلة التي يستخدمها أعداء الإسلام في حربه ، إذ يزينون للناس كل ما يصرفهم عن الفكر العميق ورعاية النفس ومراقبتها ، ومن ثم تنطلق في فنون الهوى .

مسألة (٥)

في بيان الورع ومعناه

قلت : رحمك الله ، فما معنى الورع ؟

قال : وقوف القلب عند هجومه للفعل ، حتى يفرق بين الحق والباطل[١] .

قلت : أفيه جواب غير هذا ؟

قال : نعم ، اسقاط ما حاك في القلب ، مع ترك ما اشتبه عليك .

قلت : زدني في الشرح ، واكشف لي عن بيان ما تقول .

قال : جميع الورع في ترك ما يريبك إلى ما لا يريبك[٢] .

---

(١) وضح المؤلف هذا المعنى في كتابه (المكاسب) فقال : (التثبت في جميع الأحوال قبل الفعل والترك ، من العقد بالضمير أو الفعل بالجارحة ، حتى يتبين له ما يترك وما يفعل . فإن تبين له ما كره الله عز وجل جانبه بقصد ضمير قلبه ، وكف جوارحه عما كره الله تعالى ، ومنع نفسه من الإمساك عن ترك الفرض ، وسارع إلى أدائه ، انظر (أعمال القلوب والجوارح ص ٢٠٠) .

(٢) اختلف السلف في الورع على ثلاثة أقوال ساقها المحاسبي في « المكاسب » .

(أ) ترك ما حاك في الصدر . وهو مذهب الثوري . وابن أدهم ووهيب بن الورد ، وشعيب بن حرب وغيرهم .

(ب) الوقوف عند كل شبهة إذا لم يتبين فيها الحلال من الحرام . وهو مذهب أصحاب الحديث ، والأوزاعي ، ومخلد بن الحسين ، وعلي بن بكار ، ومحمد بن مقاتل وغيرهم . =

قلت : من أين مخرج الورع ؟

قال : الورع مشتق من الخوف ، كما تقول العرب : راعني فلان ، وروعني : خوفني فلان ، وخفت من فلان . فالورع مشتق من الخوف .

قلت : ما علامة الورع ؟

قال : ترك حزازات[٣] القلوب في باطنها ، والتفتيش عن مثاقيل الذر في ظاهرها .

قلت : اكشف لي عن هذا .

قال : ان من دقيق الورع وأعلاه : ترك ما ليس به بأس ، مخافة أن يلحقه ما به البأس .

قلت : ما الذي يقوي الورع ويثبته ؟

قال : ان الحالة التي تزيد في قدر الخوف ، هي الحالة التي تزيد في قدر الورع .

قلت : فما الحالة التي تزيد في قدر الخوف ؟

قال : علم مشاهدة القلب لسطوات الله عز وجل ونقمته[٤] .

قلت : فما الذي يزيد في قدر هذا ؟

=

(جـ) ترك ما لا بأس به مخافة ما به البأس . وهو مذهب طاووس . وابن سيرين ، وأيوب بن عون ، وغيرهم . انظر (أعمال القلوب والجوارح ص ٢٠٦) .

(٣) حزازات القلوب : عداواتها وأحقادها .

(٤) كتب المحاسبي كتابين مستقلين لبعث العلم بسطوات الله عز وجل . وهما : التوهم ، وهو عبارة عن رحلة إلى الجنة والنار في عالم الوهم حتى يقربهما إلى المشاهدة ، وقد طبع مراراً ، وكتاب (معاتبة النفس) وهو على غرار التوهم إلا أنه ممزوج بخطاب النفس مباشرة ، وهو مخطوط لم يطبع ، والتوهم ضمن هذا المجموع .

قال : هذا يا فتى مشتق من المعرفة ، فعلى قدر لزوم القلب للمعرفة[٥] يكون الخوف ، وعلى قدر هيجان الخوف يكون الورع .

قلت : فما الذي يشين الورع ويوهنه ؟

قال : الرغبة في الدنيا ، وكثرة الطمع فيها ، ودوام الحرص عليها[٦] ، بجمع ما لا يضر فقده .

قلت : فإلى أي حالة يصير العبد من درجة الورع ؟

قال : آخر درجة من الورع أول درجة من الزهد .

* * *

---

(٥) كتب المحاسبي كتاب (العقل) في هذا المجال وقد طبع ضمن مطبوعتنا (أعمال القلوب والجوارح) وكتب كتاب (المعرفة) وهو تحت الطبع لولدنا .

(٦) الحرص على الدنيا والطمع فيها هو المذموم ، أما العمل فيها لنماء العمران دون حرص ولا طمع فهو المحمود . ومعنى عدم الحرص عليها : عدم عقد القلب على عشقها ، وأن تهود على مالكها في محاب الله تعالى . وقد تحدث القاضي أبو زيد الدبوسي بحثاً غاية في القوة في هذا الموضوع في كتاب الفقر من كتابه (الأمد الأقصى) . مخطوط بدار الكتب المصرية والأزهرية بالقاهرة .
قامت الدار بطبع هذا الكتاب ، بتحقيق إبن المرحوم عبد القادر أحمد عطا . (الناشر) .

مسألة (٦)

في بيان الزهد ومعناه

قلت : فما معنى الزهد في الدنيا ؟

قال : اختلف الناس في معنى الزهد .

قلت : فما الجواب عندك ؟

قال : هو العزوف عن الدنيا ولذاتها وشهواتها .

قلت : ما معنى العزوف ؟

قال : انصراف النفس ، واعتوار الهم .

قلت : ما معنى انصراف النفس ؟

قال : هو أن تميل إلى ما دعا الله عز وجل اليه بنسيان ما وقع بها من طباعها .

قلت : فما اعتوار الهم ؟

قال : الانقطاع الى خدمة المولى .

قلت : اكشف لي عن هذا ، وزدني في شرح البيان ، لأعرف معنى قولك في الزهد .

قال : الزهد هو : الترك والقلى والبغض . قال الله عز وجل : ﴿وَمَا

﴿ وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾[1] . أي : ما تركك ربك وأبغضك . ويتفاوت الناس في ترك الدنيا[2] .

قلت : أخبرني : ما الذي يقويني على الزهد في الدنيا بما حضر من الجواب عندك .

قال : إن الذي يقوى على ترك الدنيا : معرفة القلب بسوء عواقبها ، وكثرة الوقوف للحساب على ما أخذ منها ، مع دوام الاشتغال بها عن خالقها ، وخوف العقاب على مثاقيل الذر منها .

قلت : صف لي حالة أجد العذوبة بها في تركها بلا مكابدة .

قال : بتركها موافقة لله عز وجل في تركها ، رجاء وأملاً في الوصول الى النعيم في جوار الله ، والأنس بقربه .

قلت : دلني على حالة من غير ما وصفت ، تزيد على قدر علمي ، ليتوحش من الدنيا قلبي ، وأعلم أن الناس متفاوتون في تركها .

قال : يا فتى ، قلب قرعه التنبيه ، فدله وأراه ذل العبودية لها[3] ، فضن

---

(١) الضحى : ٣

(٢) يرى المؤلف هنا أن الزهد هو الترك والبغض وفي مسائل الزهد يرى أن الزهد لا يكون بالترك ، وإنما يكون في حبس الحلال عن إنفاقه في وجوهه (أعمال القلوب والجوارح ص ٤٣) . ويقول : (فإن كان العبد عقد ونيته الامضاء في الحقوق ، وليس يمنعه من الامضاء أن نفسه بالامضاء لا تصدق ، فهذا خازن من خزان الله عز وجل ، ليس حبسه للأموال ضنا بها ، وحرصاً عليها ، فهو زاهد ، وإن كثر عنده المتاع . وإن كان منفقاً للأموال ، وواضعها في الحلال والحرام ، أو منفقها في غير وجوهها الفاضلة ، فهو راغب وإن قل حبسه . (أعمال القلوب والجوارح ص ٤٤) .

وعلى هذا فالزهد ليس هو السلبية في مواجهة الحياة ، بل هو حبس المال عن غير الوجوه المشروعة ، وإنفاقه في المشروع منها . ويمكن أن يكون الغنى زاهداً ، والفقير راغباً .

وما يراه المؤلف هنا يبدو أنه كان في بداية حياته ، كما كان مذهبه في المال كذلك شديداً في بداية حياته ، كما أثبته في الوصايا (الباب الثالث) . وهو ضمن هذا المجموع .

(٣) أي : ذل العبودية للدنيا .

بنفسه عن خدمتها ، فاستحيا من الله عز وجل أن يراه خادماً لها ، فرمى بها عن قلبه ، وانقطع إلى خدمة سيده ، وتعزز بملك ربه ، فرحلت الدنيا عن قلبه ، إذ علم أن في خدمته لها شغلا عن خدمة غيره ، فألبسه الله رداء عمله ، واستغنى بخروج خوف الفقر من قلبه ، ونفى التعب في ثبوت أسباب الحيلة عن نفسه ، فأعتقها من رق عبوديتها ، واعتز أن يكون خادماً لها بعزة العزيز الذي أعزه بالاعتزاز عنها[٤] .

فصار غنياً من غير مال ، وعزيزاً من غير عشيرة ، وجرت ينابيع الحكمة من قلبه ، ونفذت بصيرته ، وسمت همته ، وقرب من محبته ، وقطع عن نفسه أسباب حيلته ، ووصل الوهم إلى منتهى منيته ، فتراقى[٥] ، وارتفع ، ووصل إلى روح الفرج من هموم الأطماع ، وعذاب الحرص .

قلت : ما علامة عذاب الحرص ؟

قال : الطمع فيما لا يستحقه ، واشتغال القلب بما لا يناله[٦] كما قال ابن

---

(٤) من هنا يتقرر : أن الزهد لا يكون في أصل الدنيا ، بل في العبودية لها ، والحرص عليها . ومن هنا اختلفوا في تحديد معنى الزهد . فبعضهم يرى الاحتياط وسد الذرائع بالترك . وآخرون قالوا : إنه : برودة وقع الأشياء على القلب بأن يستوى وجودها وعدمها . ومنهم المحاسبي ، وبه قال الشيخ أحمد زروق في (قواعد التصوف) . وبعضهم يرى أن الزهد هو : أن يستوي عندك الحجر والذهب ، وقد علق أبو سعيد الخراز في كتابه (الصدق) ، فقال : لم يتحقق ذلك إلا لأبي بكر الصديق رضي الله عنه .

وقد أورد أبو نعيم في (الحلية ١٠/١٨٥) قولاً يبين سبب ترجيحه الترك وقال في آخره : « وإذا لم يكن في تركها الا موافقة الله عز وجل في حب ما أحب وبغض ما أبغض لكفى ، فلا شيء أهون عند الله من الدنيا » . وكذلك انظر (الوصايا ، الباب الثالث) .

(٥) تراقي : ارتقى وارتفع وسما .

(٦) ومن هنا ينشأ : الحسد ، والغل ، والحقد ، والبغي ، والغش ، والخداع ، للوصول إلى ما طمع فيه ، فإن وصل فعذاب الحرام ، وإلا فعذاب الفشل . وكذلك أنظر في فضائح الحرص كتاب الفقر من (الأمد الأقصى . للدبوسي) .

ومعنى الطمع فيما لا يستحقه : إن العبد لا يستحق على مولاه وخالقه شيئاً وعلى وجه الإيجاب .

ومعنى اشتغال القلب بما لا يناله : شغل الوقت بما لا يمكن نيله عن طريق الحيلة المشروعة .

والحق : أن الإنسان واصل إلى ما قسمه الله له بالسعي بالمشروع .

شبرمة :

حتى متى أنت في دنيــاك مشتغــل　　　　وعــامـل الله عن دنيــاك مشغـول

* * *

مسألة (٧)

في بيان ما يفسد الزهد

وفرض الزهد

قلت : ما الذي يفسد الزهد ؟

قال : استرواح النفس وميلها لرخص التأويل من سماع العلم والأقاويل في أخذ ما لا يضر فقده ، ودوام السعي في فضول الباح ، فولد عليه ذلك الرغبة الخفية ، فآسر محبة نفسه على محبة ربه ، فكدر عليه العيش في زهده ، وأخذت الرخصة من قلبه ومن ميراث زهده بقدر ما رغب الى فضولها ، فولد عليه المسألة في قلبه ، فغطت بصيرة القلب، لأن ارادة الدنيا ظلمة في القلب ، والزهد نور لمن صدق في تأديب نفسه بترك زينة الدنيا التي لا يضر فقدها .

فهذا المعنى الذي أفسد عليه زهده وأوهنه ، وقال عبد الله بن مسعود : « من أراد الدنيا أضر بالآخرة ، ومن أراد الآخرة أضر بالدنيا ، فأضروا بالفاني للباقي »[1] .

قلت : رحمك الله ، الزهد فرض أو نافلة أو فضيلة ؟

قال : اختلف الناس في الزهد .

قلت : فما الجواب عندك ؟

---

(١) روي هذا القول عن ابن مسعود من قوله في كتاب (معاني الزهد) لأبي سعيد بن الأعرابي ورقة ١/٦ وروي عنه مرفوعاً عند الطبراني في الأوسط . والصحيح رفعه .

قال : الزِهد على وجهين : فرض ، وفضيلة . فالفرض منه : ترك الحرام ورفضه ، وأما الفضيلة فهو : الزهد في الحلال[٢] . وهو قول الحسن بن أبي الحسن البصري[٣] وغيره .

وبلغني أن أبا برزة الأسلمي قال أيام الجمل : « اللهم إني أصبحت عاتباً على أحياء قريش كلها ، أهل المدينة يريدون الدنيا ، وأهل العراق يريدون الدنيا ، وأهل الشام يريدون الدنيا ، والله ما أعلم عصابة خيراً من عصابة أصبحت ملبدة رؤوسهم ، خميصة بطونهم ، خفيفة ظهورهم من دماء الناس وأموالهم »[٤] .

* * *

---

(٢) يرى المحاسبي كذلك : أن الزهد المفروض هو : الزهد في الحرام . أما النافلة فهو : الزهد في حبس الحلال عن وجوهه . ثم يقول : « فإذا كان الرجل يحسن التمييز بين الفرض والنفل لم يقدم على الحرام ، ولم يزهد في الحلال . إلا أن الله تعالى لم ينفل أن يزهد الإنسان في حلاله ، ولكن نفل أن يزهده في حبس الحلال عن إنفاقه في وجوهه » انظر (أعمال القلوب والجوارح ص ٤٣) .

(٣) الحسن البصري هو العالم الزاهد شيخ التابعين ، وأستاذ العلماء قالوا : ما رئي إلا كأنه عاد من جنازة . مات عام ١١٠ هـ . (حلية الأولياء ٢/ ١١٠) .

(٤) ملبدة رؤوسهم من أثر العرق . خميصة بطونهم : جائعة . وانظر الطبري ٣/ ٢٤٠ .

مسألة (٨)

في بيان الزهد في الحياة

قلت : رحمك الله ، فيكون زهد في غير المطعم والمشرب والملبس ؟

قال : نعم ، الزهد في الحياة .

قلت : وكيف ذلك ؟

قال : تبرما بالدنيا ، وبالبقاء فيها ، والنظر إلى أهلها وأبنائها في دار العاصين ، وحب القدوم على الله عز وجل ، ورغبة في جواره مع المقربين .

قلت : قل لي فيه قولاً يبلغه فهمي ، ويحتمله عقلي ، ويقوى به إيماني ، ويضبطه قلبي ، وتقوم به جوارحي .

قال : احمل نفسك على ما قامت به الرغبة ، وندب إليه العلم ، ولا تكونن ممن يحدث نفسه بالفترة .

قلت : فبم أبتدىء من ذلك ؟

قال : بترك الشهوات لتستريح من ضررها ، وتلزم قلبك قناعة المتخلص بنفسه من آفاتها[١] .

---

(١) يقول المحاسبي في مسائل الزهد :

أما الذي يبعث على الزهد في الدنيا فقصر الأمل ، والجد في العمل ، فإذا قصر أمله حسن عمله ، ومن لم ينظر إلا في يومه ، ورأى ان غدا ليس من أيام عمره ، لم يطل أمله ، ولم يقصر في عمله .=

قلت : شيء غير هذا ؟

قال : خلع الراحة ، وبذل المجهود[٢] .

* * *

= (أعمال القلوب والجوارح ص ٤٥) .

ثم يقول : (فلو لم ينظر صاحب الزهد في الدنيا إلى الدنيا إلا بالعتق من رقها ، واستبدال الشركاء أهل الظاهر ، لكن قد نجا من الفتن ، وزال عنه محل الندم ، فأخلى قلبه من اختلاج الهم ، ومؤنة الشفاء) . (المصدر السابق ص ٤٦) .

ثم يقول : (وإن تكن شدة الموت آخر شدته سهل عليه ما يلقى فيها ، لما يصير إليه من طول الراحة ، ومما يعنيه على الابتداء : قلة الكلام فيما لا يعنيه ، وإقباله على ما يعنيه من طول الصمت على الفكرة . (المصدر السابق ص ٤٧) .

(٢) ترتيب السلوك هكذا : ترك الشهوات ، والقناعة للتخلص من آفات الشهوات ، ثم حمل النفس على ما ندب اليه العلم ، ثم خلع الراحة وبذل الجهد في عمل الآخرة . وهنا يتم الزهد .

مسألة (٩)

في الزهد في الناس ، وحب المنزلة والرئاسة والشرف وبيان تفاوت الناس في الزهد

قلت : إذا استوطنت المعرفة قلوب العارفين بترك الدنيا ، هل يحتاجون إلى أن يزهدوا في غيرها ؟

قال : نعم ، الزهد في الناس والمنزلة والرئاسة ، وفي إقامة الجاه والشرف ، واختيار[١] التواضع ، والفرار من حب الدنيا ، ولزوم قصر الأمل ، وملاك هذا الأمر : الخمول[٢] ، وتلبيس الظاهر[٣] ، واظهار أخلاق التوسط في الإيمان ، والدخول في جملة العامة ، ليستر مذهبه ، ويخفي زهده ، ويخفي أنه ممن يخفي زهده .

فعندها يتبرم بالدنيا والحياة ، وتضيق عليه الدنيا ، يختار الوحدة ، ويتوحش من معاشرة البطالين ، ويأنس بروح موافقة الزاهدين[٤] .

قلت : كيف يتفاوت الناس في الزهد ؟

---

(١) في أ (ويختار) .

(٢) الخمول هو : العمل في خفاء . ودون رغبة في الشهرة ما دام المقصود بالعمل هو الله ، وليس المراد به الكسل ، بل المراد : خمول الذكر مع بذل المجهود في العمل واتقانه .

(٣) تلبس الظاهر هو : الظهور بمظهر غير الزهاد لاخفاء الزهد ، كما كان عليه علي زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهما . ومنه أخذ الملامتية مذهبهم . ولا يجوز أن يلبس الإنسان ظاهره بمحرم كما يفعل جهال المتصوفة .

(٤) وانظر (الوصايا الباب الثامن) وفيها يقول : (عاشروا من الناس رجلين : أحدهما يعين على البر والتقوي ، والآخر يعين على شؤونك من الدنيا ، فإن جمع الله المعونة على الدين والدنيا في رجل واحد فتمسك به ، وجانب من سواه) .

قال : على قدر صحة العقول ، وتوحش الدنيا في القلوب ، وقوة العلم الذي يبعث على الهجوم على العزوف عن الدنيا ، وعلى قدر معرفتهم بسوء عواقبها ، وسرعة فنائها ، وكثرة ضررها ، وفساد عللها ، وعلى قدر ما استولى على القلوب من الهيبة لله عز وجل فيما حذر منها ، وعلى قدر قصر الأمل فيها .

قلت : وما تصحيح ما وصفت من تفاوتهم ؟

قال : تفاوت الزاهدين على قدر صحة العقول ، وطهارة القلوب . فأفضلهم : أعقلهم ، وأعقلهم أفهمهم عن الله عز وجل ، وأفهمهم عن الله عز وجل : أخوفهم من الله ، وأخوفهم من الله تعالى : أحسنهم قبولاً عن الله عز وجل ، وأحسنهم قبولاً عن الله عز وجل : أسرعهم إلى ما دعا الله إليه ، وأسرعهم إلى ما دعا الله إليه أزهدهم في الدنيا ، وأزهدهم في الدنيا : أرغبهم في الآخرة[٥] .

فمن ثم تفاوتوا في العقول .

قلت : فما غاية الزهد ؟

قال : الزهد متفاوت في قلوب الزاهدين . فكل رجل منهم زهده على قدر معرفته ، ومعرفته على قدر عقله ، وعقله على قدر إيمانه .

فرجل استولى على قلبه وهمه كشف علم الآخرة ، ونبهه التصديق على القدوم عليها ، وتبين لقلبه عوار الدنيا ، ودلته بصائر الهدى على سوء عواقبها ، ومحبة اختيار الله على تركها ، وموافقة الله عز وجل في العزوف عنها ، فرحلت الدنيا عن قلب هذا الموفق .

* * *

---

(٥) فكأن الرغبة في الآخرة أساس الزهد والعلم والعقل والخوف وكل الصفات الحسنة . والرغبة في الآخرة أرشد إليها المحاسبي في كتابيه (التوهم) و (معاتبة النفس) : عن طريق التخويف والترهيب . والزهد في الناس أرشد اليه في كتابه (آداب النفوس) في باب حسن الظن بالنفس . وأنظر في التنفير من حب المنزلة والمدح عند الناس (آداب النفوس) باب النية والإرادة . و (الوصايا) باب المدح والذم .

مسألة (١٠)

في معنى الدنيا ، وشرح بيان المحمود منها والمذموم

قلت : رحمك الله ، الدنيا في نفسها ما هي ؟

قال : الدنيا منها ظاهر وباطن ، ومنها عرض ومنها جسم ، ولها أول ولها آخر ، ولها شاهد ولها غائب[1] .

قلت : فما الباطن منها ؟

قال : اتباع الهوى الذي بطن في النفوس ، واتبعته القلوب ، مثل : الكبر ، والغل ، والحسد ، والرياء ، وسوء الظن ، واعتقاد سوء الضمير ، والمداهنة ، وحب المحمدة ، وحب جمع المال ، والتكاثر ، والتفاخر ، وحب الشرف .

والظاهر منها : الدينار والدرهم ، والثوب ، والدار ، والخادم ، والمركب ، ومثل هذا وأشباهه من متاع ظاهرها الذي يشين صاحبها ، ويقطع به عن الآخرة .

وقالت طائفة : الدنيا هي الحياة . وقالت أخرى : هي الدينار والدرهم .

---

(١) شاهد الدنيا : ظاهر متاعها ، من المال والبنين والنساء والذهب والفضة والأنعام والحرث كما جاء في القرآن الكريم . وغائبها : الجاه . والرئاسة ، ونفوذ القول ، واجتماع الناس حولك ، وغير ذلك من المتاع الباطن ، أو الغائب منها : مثل متاعها من متاع الآخرة في الجنة .

وقالت أخرى : هي التكاثر والتفاخر .

قلت : فما صحة الجواب عندك ؟

قال : هو ما وصفت لك من متاع ظاهرها وباطنها ، على ما شرحته لك .

قلت : فما المحمود منها والمذموم ؟

قال : جملة ذلك كله : ما أخذت من الدنيا للدنيا فهي الدنيا المذمومة ، وما أخذت من الدنيا للآخرة فهي الدنيا المحمودة . وذلك أن النبي ﷺ قال : « من طلب الدنيا حلالاً مكاثراً مفاخراً لقي الله وهو عليه غضبان ، ومن طلبها استعفافاً عن المسألة ، وصيانة لنفسه ، جاء يوم القيامة كالقمر ليلة البدر »[٢] .

فإذا كان أخذه منها للتكاثر والتفاخر ، وإقامة الجاه والقدر ، والعلو والمباهاة ، وجمع الفضول لخوف الفقر ، فهي الدنيا المذمومة .

وإذا كان أخذه لها من طريق المباح فيما لا بد منه ، وفيه الفضل وصيانة الدين فهو من الدنيا ، وليس بمذموم ، كما قال النبي ﷺ : « حبب إلى من دنياكم : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة »[٣] .

فهذا مما لا يضر ، ولا ينقص من الزهد ، ولا يسمى دنيا مذمومة . وإنما ذم الله عز وجل من الدنيا فضولها ، كما بلغنا عن عمر رضي الله عنه : أنه استعمل أبا الدرداء على حمص ، فاتخذ كنيفاً أنفق عليه درهمين ، فكتب إليه :

---

(٢) حديث « من طلب الدنيا حلالا » : أخرجه الطبراني عن جابر وابن عمر . وطلب الدنيا للاستعفاف وصيانة النفس من السنة ، وهو طريق السلف الصالح . وقد روي أن سفيان الثوري أخذ بيده دنانير وقال : لولا هذه الدنانير لتمندل بنا هؤلاء .

(٣) حديث « حبب إليَّ من دنياكم » : أخرجه الطبراني في الكبير ، والنسائي في السنن عن أنس مرفوعاً ، بهذا اللفظ ، والحاكم بدون قوله : (وجعلت) . وقال : صحيح على شرط مسلم . أما ما اشتهر من زيادة قوله : « من دنياكم ثلاث » فقال ابن حجر : لم أقف عليها إلا في موضعين من الأحياء ، وفي تفسير آل عمران من الكشاف للزمخشري ، وما رأيتها في شيء من طرق هذا الحديث بعد مزيد البحث والتفتيش . وبذلك صرح الزركشي وهي زيادة محلية للمعنى ، لان الصلاة ليست من الدنيا (تمييز الطيب من الخبيث ص ٦٧) .

« من عمر أمير المؤمنين إلى عويمر . . .

لقد كان لك في بناء فارس والروم ما تكفي به عن عمـران الدنيـا حين آذن الله بخرابها ، فإذا أتاك كتابي هذا فقد سيرتك وأهلك إلى دمشق »[٤] .

فلم يزل بها حتى مات رحمه الله .

* * *

(٤) الزهد للإمام أحمد ص ١١٩ .

مسألة (١١)

في بيان العقل وصفته

قلت : رحمك الله ، أخبرني عن العقل ما هو ؟

قال : اختلف الناس في ذلك[1] .

قلت : فما الجواب عندك ؟

قال : العقول : أنوار بصيرة أسكنها الله عز وجل القلوب ، يفرق بها العبد بين الحق والباطل ، في جميع ما يرد عليه من خطرات قلبه ، ونزغات عدوه ، ووساوس نفسه ، وما تعبد برعايته .

قلت : فالعقول تكتسب ، وكل من طلب العقل لحقه ، وكيف له علمه ،

---

(١) قال المحاسبي : العقل غريزة جعلها الله في قلوب الممتحنين من عباده ، أقام به على البالغين الحجة ، فهو غريزة لا يعرف إلا بفعاله في القلب والجوارح ، لا يقدر أحد أن يصفه بغير فعاله .
وقال قوم من المتكلمين : هو صفوة الروح . أي خالص الروح . وقالوا : لكل شيء خالصة ، والخالصة اللب ، ولذلك سمي العقل لباً فقال تعالى : ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ (الرعد : ١٩ ، الزمر : ٩) . يعني العقول . قال المحاسبي : ولا نقول بذلك إذ لم نجد فيه كتابا مسطوراً ، ولا حديثاً مأثوراً .
وقال قوم : هو نور وضعه الله طبعاً وغريزة يبصر به ، ويعتبر به ، نور في القلب كالنور في العين وهو البصر . فالعقل غريزة يولد العبد بها ثم يزيد معنى بعد معنى .
وقال قوم : إن العمل معرفة خلقها الله ووضعها في العبد يزيد ويتسع بالعلم المكتسب . أنظر كتاب العقل من (أعمال القلوب والجوارح ص ٢٣٧ وما بعدها) .

وخبرني عنها محدثة هي أو قديمة ، أهي مكتسبة أو موهوبة ؟

قال : إن الله تعالى خلق العقول وقسمها بين عباده ، مواهب أسكنها القلوب ، فمن ثم قلنا : عقلت القلوب عن الله بالمواهب ، وبالعقول نيل حسن المواهب ، وبالعقول ينبعث على الجد في المكاسب .

قلت : رحمك الله ، خبرني عن العقل ما هو ؟

قال : نعم يا فتى ، إن العقل صفة تدل على معنى موجود في صواب القول وخطئه ، وليس بجسم ولا حاسة يحسها ، ولا ينظر إليها ، ولكن تعرف الجسم كما تعرف الطبيعة .

ألا ترى أنك تقول : بطني متغير ، فيقال : هذا عمل طبيعتك ؟ فتقول : أجد يبوسة ، فيقال : هذا عمل طبيعتك ؟

وهكذا يا فتى الرجل ، إنما دل لسانه على عقله ، فإذا كان الصواب فيه قيل : فلان عاقل . وإذا كان الخطأ فيه قيل : فلان أحمق . فاللسان يدل على أن في الجسم نوراً هو : العقل .

قلت : فكأنك قلت لي : إن العقل حال في البدن ، إلا أنه ليس له حد يوجد فيه .

قال : نعم ، وكفى بالبدن حدا .

قلت : رحمك الله ، أخبرني عن هذه العقول ، أتزيد وتنقص ، أم هي واقفة لا تزيد ولا تنقص ؟

قال : لله أبوك ، لقد أنشأ لك الأدب ، وعلمك المسائل في الصغر ، وجمع بينك وبين الفطن .

اعلم يا فتى أن العقل في نفسه غريزة مخلوقة . والعقل عقلان : عقل

غريزة ، وعقل تجارب . فالغريزة أدركت التجارب ، وبالتجارب عقـل أن العقل عقل[٢] .

***

(٢) قال المحاسبي
« والقول بأن العقل معرفـة خطأ ، لأن العقـل لو كـان المعرفـة لسمينا الحمق والجنـون نكرة ، لأن النكرة ضد المعرفة ، والجهل ضد العلم ، فلما امتنع أهل العلم أن يسموا المجنون منكراً جاهـلاً ، ولا المنكر مجنوناً ، ولا الجاهل مجنوناً صح أن العقل ليس هو المعرفة .
ومما يدل على أن العقل غريزة : أن الانكار فعل ، فكذلك ضـده وهو المعـرفة فعـل ، فعنه فعـل عن طبع يوجبه الطبع كالضر ، كمعرفة الرجل أباه وأمه ونفسه والسماء والأرض وجميع الأشياء التي يعرفها برؤية ولم يعرفها باسم ولا تفصيل » (أعمال القلوب والجوارح ص ٢٣٩) .

مسألة (١٢)

في الصدق وبيانه

قلت : رحمك الله ، أخبرني عن الصدق ما هو ؟

قال : الصدق قول باللسان ، مع اضمار القلب حالة واحدة ، لا يخالف أحدهما صاحبه .

قلت : اشرح لي كلاماً أفهمه عنك .

قال : الصدق : صدق النية ، وصدق اللسان ، وصدق العمل .

فأما صدق النية فهو : أن يبديها القلب خوف عقاب ، أو رجاء ثواب ، لا يريد بذلك غير الله عز وجل .

وأما صدق اللسان فهو : أن يطلقه إذا قام له شاهد من الحق ، وكان التخلف عن اللفظ وهنا في صدقه .

وأما صدق العمل فهو : الهجوم على ما عزم عليه بترك روح النفس ، حتى يصير إلى ما عزم عليه من العمل ، فيتمه بالحرص عليه ، والانكماش وخوف الفوت ، ودرك الأمل ، لا يقطعه عنه قاطع ولا يمنعه عنه مانع .

قلت : شيء غير هذا ؟

قال : خوف السؤال عن مثاقيل الذر من إرسال اللفظ[1] ، وخلف الوعد ، وتأخير الضمان[2] .

قلت : ما أصل الصدق ؟

قال : المعرفة ، لأنك لا تصدق إلا من تعلم أنه يراك ويسمعك ، وهو قادر على عقوبتك ، وعلمك أنه لا ينجيك منه إلا الصدق له ، فوقع حينئذ الصدق ضرورة .

فالمعرفة أصل الصدق ، والصدق أصل لسائر أعمال البر ، وعلى قدر قوة الصدق يزداد العبد في أعمال البر .

قلت : ما الذي قطع الخلق عن مطالبة الصدق ؟

قال : من قلة المعرفة بقدر الصدق ومنافعه ومواريثه ، وضعف اليقين . فإذا ضعف اليقين وهن الصدق ، وقلت الرغبة ، فلم يحتمل مؤن الصدق ، لما غيب عنه من عذوبته ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾[3] . فضمن لهم الخير بالصدق .

فغاب عنهم قرب المشاهدة ، ولذة الموافقة ، واحتمال مؤن الصدق ، فمن ثم انقطع العبد عن مطالبته .

قلت : رحمك الله ، صف لي : كيف نزوله في القلب ؟

قال : إن الصدق موهبة من الله عز وجل ، فإذا وقر في القلب انصدع لذلك نور ، وكان له هياج في القلب ، وأخذ بالرأس ، وانتشر في سائر الجسد ، فتأخذ كل جارحة منه قسطها من الصدق على قدر الكثرة والقلة من هيجان

---

(١) إرسال اللفظ : اجراؤه على اللسان دون تمييز بين حق وباطل ، ولا لغو وعقد ، فهو كذب ، وضبط اللسان صدق .

(٢) تأخير الضمان : تأخير الأعمال التي ضمن الله للعبد بها النجاة فمن خافه صدق معه وابتعد عن كل ما فيه مساءلة ، واقترب مما فيه النجاة .

(٣) محمد : ٢١ .

الصدق ، وعلى قدر ما وافق من ذلك رقة القلب ، وصحة العقل .

فربما هاج الصدق في القلب فولهه[٤] ، وربما حيره ، وربما أذهله ، وربما أبكاه ، وربما أحزنه ، وربما نغص عليه الطعام والشراب ، وربما دام منه البكاء والنحيب ، وربما لحقه النشيج[٥] ، وربما أفحم[٦] ، وربما صرخ ، وربما شهق ، وربما زال عنه العقل ساعة ويوماً ويومين ، وربما سقط عنه التمييز ساعة ويوماً ويومين ، أو أكثر من ذلك ، على قدر هيجان الصدق من القلب ، وربما قطعه الصدق عن كثير من أعمال البر وهو مشتغل بمواجيد الصدق ، وربما هام ، وربما توحش من الخلق إلى أنس الوحدة ، وربما دام به الحزن ، وربما كمد ، وربما تغير منه اللون ، وربما اقشعر منه الجلد ، وربما استبسلت[٧] منه الجوارح ، وربما خمدت منه الأعضاء ، وربما لم ينتفع به أهل ولا ولد ، وربما لم يقدر أن يأكل الشيء تغصصاً بالطعام حتى يحسوه حسواً[٨] ، وربما عمشت عينه من البكاء ، وربما احترقت منه الجفون ، وبكت لبكائه العيون .

فهذا الذي وصفناه كله يهيجه من القلب صدق الحياء ، أو صدق الخوف ، أو صدق حسن الظن ، أو صدق المحبة . فهذا يا فتى الذي يورث الصدق من الآلام في القلوب والأبدان[٩] ، وهكذا صفته .

* * *

---

(٤) ولهه : من الوله ، وهو : الحب المقارن للحزن .
(٥) النشيج : البكاء بصوت مكتوم .
(٦) أفحم : صمت وانكسر .
(٧) استبسلت الجوارح : جدت في العمل دون ملل ولا تعب .
(٨) يحسوه حسواً : يشربه شرباً .
(٩) ليس المقصود من الصدق حصول هذه الآلام التي ذكرها المؤلف ، بل المقصود نتائج هذه الآلام ، وهي : اخلاص العمل لله تعالى وما يتبعه من إحساس بالعزة بالله ورسوله ، والفوز بمواريث الاخلاص التي يفيضها الله تعالى على المخلصين ، من ولايته لهم ، وحبه إياهم ، وامدادهم بالعلم والنصرة على العدو في الدنيا والآخرة .

مسألة (١٣)

في صفة الصادق ، وسيرته بين الخلق

قلت : رحمك الله ، كيف تكون معاملة الصادق بين الخلق ، وهل يقدر أن يخالطهم ، وهل يكره مذمتهم ، أو يفرح لمدحتهم ؟ قل لي فيه قولاً موجزاً مختصراً دقيقاً .

قال : إن الصادق لا يبـالي لو خـرج كل قـدر له في قلوب الخلق من أجـل صلاح قلبه ، ولا يحب إطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله ، ولا يكره أن يطلع الناس على السيء من عمله ، فإن كراهيته لاطلاع الناس على نقصه من عمله دليل منه لحب الزيادة عندهم ، وليس هذا من أخلاق الصادقين .

قلت : صف لي من أحواله شيئاً أفهمه عنك .

قال : إن من علامة الصادق : أن يكـون بصواب القـول ناطقـاً ، ولسانـه مخـزوناً ، إن نـطق فكلامـه بالحق مـوزون ، فإن الصـادق طاهـر القلب من كـل دنس ، يصافي مولاه في كل نفس .

قلت : فالحالة التي تقوى الصدق في الأخلاق الظاهرة ما هي ؟

قـال : نعم يا فتى ، وضـع النفس في ذل العبوديـة ، وإلقاء الجـزع والأنفة عن أبصار الناظرين إليه ، لتعظيم الربوبية .

قلت : فالحالة التي تقوى على هذا ما هي ؟

قـال : قصد القلب لمعـاملة الوحـداني ، فعند ذلـك تجردت الـوحدانيـة في القلب ، فيقصد من يملك الضر والنفع[1] .

قلت : فإلى أي حالة يؤول هذا المقام ؟

قال : إلى حالة الاخلاص .

* * *

(١) في الحديث : « من جعل الهم هماً واحداً كفاه الله ما أهمه ، ومن تفرقت به الهموم في الدنيا لم يبـال الله به في أي أوديتها هلك » . فالأصل في التعامل مع الله توحيد وجهة القلب إلى الواحد . . وهنا يؤمن الإنسان ألا نافع ولا ضار غير الواحد . ومن هنا يصيب مقام العبودية ، وهي السكون تحت جريان الأقدار ، والتسليم والتفويض للواحد . ومن وصل إلى هـذا المقام لا يعلو عـلى غيره ، ولا يجزع من شيء نزل به ، لعلمه بأنه لا نافع ولا ضار غير الواحد .

مسألة (١٤)

في الإخلاص وبيانه

قلت : رحمك الله ، ما صفة الإخلاص ؟

قال : خروج الخلق عن معاملة الرب عز وجل ، والنظر إلى ثواب الله تعالى ، لا يريد بذلك حب محمدة ، ولا كراهية مذمة .

قلت : لم سمي الإخلاص إخلاصاً ؟

قال : لأنه زايل العمل من الانتقاص .

قلت : زدني بياناً .

قال : لأنه خلص العمل من الآفات ، كما تقول العرب : فلان أخلق لفلان المحبة ، أي : لا يمازجه غيرها . وهكذا لا يمازج عمله رياء ، ولا سمعة ، ولا إعجاب ، ولا حب محمدة ، ولا كراهية ذم ، لأنه خلصه من الأدناس .

قلت : فالإخلاص فرض أو فضيلة ؟

قال : الإخلاص لله عز وجل واجب لازم في جميع الأعمال ، لأن الله عز وجل يقول : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ . . . ﴾[1] . وقال

(١) البينة : ٥

تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾[٢] .

فكل من داخله في عمله أعجاب أو رياء ، أو حب محمدة ، أو كراهية مذمة في اسقاط المنزلة فليس بمخلص في عمله ، لأن الله عز وجل لا يقبل إلا ما كان خالصاً ، كما روي عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله عز وجل يوم القيامة : من عمل عملاً أشرك فيه غيري ، فأنا بريء منه ، وهو للذي أشرك »[٣] .

قلت : من أين مخرج الإخلاص ؟

قال : من الرغبة والرهبة في أصل العقود قبل العمل ، فإذا هيجه للعمل رغبة أو رهبة[٤] واعترضت عليه الآفة فدفعها بقلبه ، وكرهها بعمله ، فقد أخلص لله عز وجل في عمله .

قلت : اضرب لي فيه مثلاً أستعين به على عملي ، وأتقوى به على الفرار من نظر الناس إلي .

قال : إن الشجرة إذا تبين عروقها انقطعت عن شربها ، ولم تحسن فروعها ، وجف ورقها ، ولم تثمر ، ولم ينتفع بها ، وذهب قدر قيمتها . فإذا غاصت عروقها ، وغابت عن الناظرين إليها ، كثر شربها ، وجرى ماؤها ، وتزايدت عروقها ، واخضر ورقها ، وطاب ثمرها ، وجناها صاحبها ، وكثر قدر قيمتها .

وهكذا يا فتى إذا كان العمل الصالح له أصول في القلب مغطاة عن الخلق ، زكا في نفسه ، وطهر من الأدناس ، وكثر الثواب لصاحبه ، وإذا بدا

---

(٢) الكهف : ١١٠

(٣) حديث « من عمل عملا » : أخرجه ابن ماجه في الزهد ، والإمام أحمد في المسند ٢/٣٠١ ، ٤٣٥ .

(٤) المراد : رغبة فيما عند الله ، ورهبة من وعيده ، أما الرغبة والرهبة من الدنيا فلا تدفع إلى الاخلاص .

شيء من اعتقاد قلبه ، ومن أصول علمه ، لم يأمن إليه من أبصار الناظرين إليه ، ومازجه حب المحمدة .

وكلما أخفى العامل لله عمله ، زاد في قدر الصدق والإخلاص له عنده ، وأعطى أكثر الثواب ، كما قال النبي ﷺ : « عمل السر يزيد على عمل العلانية بسبعين ضعفاً »[٥] .

قلت : ما أخوف ما تخاف علي في وقت إخمال عملي[٦] ، وحيث لا يراني إلا ربي ؟

قال : أخوف ما أخاف عليك في ذلك الوقت : الإعجاب ، لأن الرياء غائب عنك في ذلك الوقت ، إلا أن تستحسنه بقلبك ، وتحب إطلاع الناس على حسن سريرتك ، وهم لا يعلمون ذلك منك ، وأنت حينئذ الذي لا ينجو من الرياء إذا قبلت ذلك .

* * *

(٥) حديث « عمل السر » أخرجه الترمذي وأبو داوود عن حذيفة .

(٦) اخمال عملي : خفاء عملي .

مسألة (١٥)

في الرياء وبيانه

قلت : رحمك الله ، ما أصل الرياء ؟

قال : حب الدنيا .

قلت : كيف ذلك ؟ إكشف لي[١] عن بيان ما تقول ، وأوضح لي الحجة في ذلك .

قال : إنه لما أحب الدنيا ، أحب البقاء فيها ، فأراد ثبات العدالة فيها ، ونشر الجاه ، وجميل الذكر ، وحسن الثناء ، وأحب أن يحسن مذهبه عند أبنائها ، ليتسع مراده فيها .

قلت : ما معنى الرياء ؟

قال : حب المحمدة من الناس على الفعل الحسن .

قلت : ما علامة المرائي ؟

قال : ثلاث خصال : أن ينشط في الملأ ، ويكسل في الخلاء ، ويحب أن يحمد على جميع أموره[٢] .

* * *

(١) في الأصل (اكشفه لي) .

(٢) فصل المحاسبي موضوع الرياء في بابه من (الرعاية لحقوق الله) . وفي باب اليقين وحسن الظن =

= بالنفس من (آداب النفوس) . وفي مواضع كثيرة من كتبه وأقواله . ولكن أجمع ما كتب وأوجزه في كتاب (أعمال القلوب والجوارح) ص ٦٤ وما بعدها ، وخلاصته :

الرياء نوعان : نوع قليلة وكثيرة شرك . ونوع ليس بشرك .

أما الذي قليله وكثيره شرك فهو أن يظهر الإنسان من فعله ما لا يرغب به في ثواب الله ولا يرهب من عقابه ، ويسر في نفسه العبادة لغير الله ، ويظهر للناس أنه يعبد الله ، لأنه لا يعبد الله في سره ، ويظهر أنه يعبده في جهره ، وهو من صفة المنافقين .

وأما الذي ليس بشرك فهو رياء أهل التوحيد ، الذي وحدوا الله في السر والعلانية . والرياء منهم : أنهم أظهروا الخير لا لرغبة في ثواب الآخرة ، غير أنهم رغبوا فيما في أيدي غيرهم ، ونظروا إلى الناس يعظم بعضهم بعضا ، ويثيبون على التقى ، فأظهروا ما يرجون عليه من الناس الثواب . وقد يعمل الرجل العمل يريد به الآخرة ، ويعبد الله في السر والعلانية غير أنه يحب أن يظهر العمل عليه ، وينسب حسن الفعل اليه . وهؤلاء ضروب شتى ، فمنهم عالم ، ومنهم جاهل .

فإذا كان عالماً يظهر أعماله ليقتدي بها أمثاله فقد أحسن وأصاب . وإن لم يكن مقامه مقام داع إلى الله ، ولكنه يحب أن يظهر عليه الصلاح لينال من دنيا الناس ، فهذا أصابه الضعف لسوء إرادته .

وآخر رسخت منه الطاعة لله ، يحب أن يظهر طاعته لله ليعطف الناس عليه فيسره ذلك وتقضى حوائجه ، ويزداد بذلك طاعة الله ، فهذا ليس بمستطيل في طاعة .

وقد يظهر الطاعة لمكان ستر الله عليه ، وحفظه من قول السوء . وهذا كله ليس بشرك ولا نقص .

مسألة (١٦)

في صفة الإعجاب وبيانه

قلت : رحمك الله ، ما الإعجاب الذي تخاف علي منه ؟

قال : النظر إلى نفسك بالعمل ، واستكثاره عند نفسك ، مع نسيان النعم من الله عز وجل ، والتوفيق ، وحمد النفس على فعلها الحسن . واستكثار الشيء هو : الإعجاب ، لأن الله عز وجل يقول : ﴿ . . . وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً . . . ﴾[١] . فالاستكثار هو : الإعجاب .

قلت : فما يدفع الإعجاب ، وبم يزول عن القلب ؟

قال : أن تعلم : أن الله عز وجل هو الذي ابتدأك بالعمل ، موهبة منه لك ، أو نعمة منه عليك ، إذ خصك بذلك ، بلا عمل استحققته[٢] .

فإذا علمت أنها نعمة من الله عز وجل ، وجب عليك الشكر للمنعم على النعم .

قلت : فما ميراث ذلك ؟

قال : القوة على العمل ، والزيادة منه .

قلت : رحمك الله ، زدني حالة تقويني على دفع الإعجاب .

---

(١) التوبة : ٢٥ .

(٢) أي : بلا حق لك عند الله استحققت به هذه المنة والنعمة .

قال : أخبرني يا فتى ، علام أعجبت ؟ وبم أعجبت ؟ أبشيء هو لك ؟

قلت : بشيء هو لي .

قال : ادعيت علم الغيب ، وما علمك أنه لك ، وقد غيب عنك قبوله ، وأنت غير آمن من اعتراض الآفات في فساده .

قلت : فإن قلت : إني أعجب بما ليس لي ، أيكون جائزاً في العلم ؟

قال : هذا أيضاً محض الجهل ، لأنه ليس من صفات أهل العلم : أن يعجبوا بكيس الصيرفي ، وما ليس لهم .

قلت : فما السبيل إلى صحة ذلك ؟

قال : تعلم أنها نعمة وردت عليك من الله عز وجل ، وموهبة منه لك ، إذ وفقك للعمل ، وقواك عليه ، وترجو من الله عز وجل حسن ظن به : أن يتقبل منك ، وتخاف من اعتراض العدو ، وفساد الأعمال ، فيلحقك من ذلك الإشفاق على العمل .

* * *

مسألة (١٧)

في صفة الفرح بالعمل

قلت : رحمك الله ، كيف أفرح بالعمل ؟ وكيف صحة فرحي به ؟

قال : تفرح لتوفيق الله إياك على العمل ، ومعونته لك ، واستعماله إياك ، بما عرفك ووفقك وقواك وهداك وأرشدك . فتزداد له شكراً ، وتعلم أنه فضل من الله ونعمة .

فها هنا أباح لك الفرح كما قال عز وجل : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[١] .

* * *

(١) يونس : ٥٨ .

مسألة (١٨)

في صفة الشكر لله عز وجل

قلت : رحمك الله ، ما علامة الشكر لله عز وجل ؟

قال : الزيادة ، لأن الله عز وجل يقول : ﴿ ... لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ... ﴾[1] والشكر في نفسه ومعناه : أن تعلم أن النعمة من الله سبحانه وتعالى ، وأنه لا نعمة على الخلق من أهل السموات والأرض إلا وبدايتها من الله عز وجل ، فتكون الشاكر لله عز وجل عن نفسك ، وعن غيرك ، بمعرفة نعم الله على الخلق جميعاً ، فهذا غاية الشكر .

قلت : يلزمني على الشكر شكر ؟

قال : نعم ، هذا لا يلحقه عقل ، ولا يحيط به فكر ، ولا يستطيعه جسم ، ولا يقوم له قلب ، ولكن تعلم أن الله عز وجل وفقك للشكر ، فشكرت الله على معرفة نعم الله عليك ، وشكرك إياه عليها ، وشكرت الله الذي وفقك لذلك ، ثم فاض حكمه على لسانك فنطق بالحمد لله على نعمه في جملة النعم ، بمعرفة النعمة أنها من الله عز وجل . هذا شكر الشكر ليس له نهاية في الشكر ، فيقل كثير من شكرك عند قليل ما أنعم به عليك .

قلت : كيف أزداد في الشكر إذا علمت أن معي قليلاً من الشكر ، وأنا

---

(١) ابراهيم : ٧ .

مفرط في الشكر ؟

قال : تعلم أن قليلاً مما معك من الشكر عظيم من عطاء مولاك ، فلو جئت بأعمال الخلائق كلهم شكراً لوجب عليك لذلك في نفسك ما لا تحمله جوارحك ، ولا يقوم له عقلك من الشكر ، فحينئذ تقارب كثيراً من الشكر .

* * *

مسألة (١٩)

في صفة الصبر وبيانه

قلت : رحمك الله ، ما معنى الصبر ؟

قال : المقام على ما يرضى المولى عز وجل بترك الجزع . قال تبارك وتعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاة وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ . . . ﴾[1] . قال مجاهد : اصبر نفسك : احبس نفسك . فالصبر هو : حبس النفس في موضع العبودية من الصبر ، مع نفي الجزع ، لأن ضد الصبر الجزع . فإذا قلت : نفى العبد الجزع ، فهو في مقام العبودية من الصبر .

قلت : علام يكون الصبر ؟

قال : الصبر داخل في ثلاثة : صبر على طاعة الله عز وجل ، وصبر عن معصية الله عز وجل ، وصبر على مصائب الدنيا .

قلت : فما الذي يقويني على الصبر ؟

قال : أشياء كثيرة .

قلت : صف لي منها شيئاً .

قال : أحدها : ما فرض الله عليك في الصبر حيث قال تعالى :

---

(١) الكهف : ٢٨ .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾[2] .

والثانية : معرفة قدر عظيم الثواب ، لأن الله عز وجل يقول : ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرا ﴾[3] .

قلت : دلني كيف أصبر ؟ ولأي علة أصبر ؟ ومتى تنكشف لي حالة الصبر لرغبة الثواب ؟

قال : ألم تسمع إلى قوله عز وجل : ﴿ ... هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾[4] . فإذا لم تدر لأي علة تصبر ، لم تحتمل الصبر .

قلت : متى أحتمل الصبر ، ومتى تخف على مؤنة التعب في الصبر ؟

قال : إذا علمت أنك تصبر لثواب الله عز وجل ، ولعظيم قدر الصابرين عند الله تبارك وتعالى ، فإذا استوطنت علم هذا في قلبك تحملت الصبر ، وسهلت عليك السياسة ، وسقط عنك عظيم طول تلك المكابدة ، ودخلت الجوارح في الطاعة بعذوبة وسماحة .

قلت : الحالة التي تزيد في قدر الصبر من العلوم الباطنة[5] ما هي ؟

قال : علم القلوب بمشاهدة الآخرة ، ونور اليقين ، يزيد في قدر الصبر ، كما قال حارثة : « ... كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وإلى أهل الجنة يتنعمون ، وإلى أهل النار يعذبون ، فأظمأت لذلك نهاري ، وأسهرت

---

(٢) محمد : ٣١
(٣) الإنسان : ١٢
(٤) الكهف : ٦٦ - ٦٨ .
(٥) العلوم الباطنة هي علوم القلوب ، كشهود الله في آثاره ، وشهود الهيبة والعظمة ، واليقين بالغيب وبالآخرة ، وأشباه ذلك .

ليلي »[٦] .

قلت : فكيف يكون العبد عندك في شيء من الكد الشديد ، والاجتهاد الطويل ، وهو لا يجد ألم ذلك ؟

قال : يكون هذا منه في كثير من الأوقات ، وذلك على قدر ما استولى على القلوب من الهيبة ، ووكدت فيها المعرفة ، فعندها تشرق القلوب بنور اليقين على منازل المقربين ، وكرامات الله للمجتهدين ، فتستغرق الأوهام في تعجب نفاذ القدرة ، وإتقان الصنع ، فتشتغل الهموم بكفر القلوب إلى ما وقع فيه وبه التعجب من استغراق معرفتها ، وعجائب حسن صنع الله ، والإتقان ، فتنسى الأتعاب ، ويشغلها عن الالتفات إلى مواضع ألم التعب ، لعظيم قدر ما كشف عن أبصار قلوبهم .

قلت : اضرب لي مثلاً أستعين به على فهم المخاطبة ، ليستقر عندي ما تقول .

قال : ألا ترى إلى قصة يوسف عليه السلام حيث قالت له امرأة العزيز : ﴿ . . . آخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدَيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَراً إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[٧] . ألا ترى يا فتى أنه لما فاجأ القلوب والعقول ، تعجبن منه ، ومن اتقان الصنع فيه ، واستغرقت عقولهن ، وقطعن أيديهن وهن لا يشعرن ، ولا يجدن لذلك ألماً ، حتى غاب عنهن وجدن لذلك ألم القطع ؟

وهكذا يا فتى ، إذا استغرقت القلوب من تعجبها في حسن أيادي

---

(٦) تمام الحديث : عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر بالنبي ﷺ فقال له : « كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقا . قال : أنظر ما تقول ، فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً » الحديث . أنظر مجمع الزوائد ١/٥٧ . وقد عزاه للطبراني والبزار . ورواية الطبراني فيها ابن لهيعة . ورواية البزار فيها يوسف بن عطية . لا يحتج به .

(٧) يوسف : ٣١ .

سيدها ، ونفاذ قدرته فيها ، وصنعه في اتقانها ، شغلها ذلك عن النظر إلى الآلام ، ولم يجدوا تعبها ، لعظيم قدر ما غلب على عقولهم من التعظيم لله والهيبة والإجلال له .

قلت : هذا الصبر ، فما التصبر ؟

قال : هو حمل النفس على المكاره ، وتجرع المرارات ، وتحمل المؤن والمكابدات ، يريد ذلك تمحيص الجنايات رجاء الثواب ، ومطلب الصابر ذي غايات الطاعات .

والمتصبر يجد كثيراً من الآلام ، والصابر قد سقط عنه شديد المكابدات ، فمذهبه في العمل على الطيب والسماحة[٨] .

قلت : هل بين الصبر والتصبر حالة ؟

قال : نعم ، بينهما حالة تسمى التنعم .

قلت : وما معنى التنعم في مثل هذا الموضع ؟

قال : لما تصبر العبد ، وعلم الله عز وجل منه طول اجتهاده ، رفع الله علماً من الآخرة يدله على منازل الصابرين ، ووجد الحلاوة الدائمة ، وعرف قدر الطاعة ، وعلم أنها نعمة من الله عز وجل ، ولطف وبر ، فامتزجت المعرفة بملاحظة المنعم ، فتنعم القلب سروراً بالمنعم . فهذه حالة تحمله على الدخول في حالة الصبر من منزلة التصبر .

قلت : الصابرون في حالة واحدة ، أو متفاوتون ؟

قال : متفاوتون ، بعضهم أفضل من بعض .

قلت : من أين تفاوتهم ؟

---

(٨) المتصبر يجد كثيراً من الآلام لأنه يجاهد ما تجده نفسه من ألم النازلة ، أو فقدان المحبوب ، فهو يحاول الصبر وليس صابراً على الحقيقة . أما الصبر الجميل ففيه علم بحكمة النوازل أو الفقدان . وفيه إحساس بالبديل من لطف الله ، وجمال الانتصار على النفس ، ولذة موالاة الله لمن أحب .

قال : على قدر عقولهم ، وما سمت إليه هممهم ، يا فتى لو أن رجلاً أعطى أجراً ليعمل عملاً تعباً ، وآخر أعطي مثل هذا الأجر مرتين ، وآخر أعطي مثل أجور هؤلاء بأجزاء كثيرة ، لعلهم كانوا يستوون عندك في العمل ؟

قلت : بين لي كيف ذلك ؟

قال : كل واحد منهم يزداد في صبره ، وينشط في عمله ، على قدر معرفته بكثرة العطاء . وكذلك الصابرون إذا استوطنوا الصبر ، وتفاوتوا منه على قدر المعرفة ، واتساع العلم بعظيم ثواب الله عز وجل وعطاياه على قدر علم القلب ، كذلك يقدر على احتمال المؤن لسرعة العواقب ، وانقضاء الأتعاب[٩] .

قلت : صف لي حالة تزيد في قدر صبري ، وتزيل عني الجزع .

قال : تعلم أن الله ناظر إليك في صبرك على احتمال المؤن ، وأنك بعينه ، وقد روى في بعض الأخبار أن الله عز وجل يقول : « بعيني ما يتحمل المتحملون من أجلي ، وما يكابد المكابدون في طلب رضائي ، أتراني أضيع لهم عملاً ، أو أنسى لهم أثراً ، وكيف وأنا ذو الجود ، أجود بفضلي على المولين عني ، فكيف بالمقبلين علي » .

قلت : رحمك الله ، إن طريق الصبر طريق قل من يسلكه ، فصف لي منه ما أتقوى به عليه .

قال : أما سمعت قول الحكيم حيث يقول :

رضيت وقد أرضى إذا كان مسخطي ... من الأمر ما فيه رضى من له الأمر
وأشجيت أيامي بصبر حلون لي ... عواقبه والصبر مثل اسمه صبر

---

(٩) بل يكفي قوله تعالى : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ (الزمر : ١٠) حافزاً على احتمال أعظم البلايا بصبر جميل وكذلك قوله تعالى : ﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ (فصلت : ٣٥) وقوله : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ (البقرة : ٢١٦) والعلم بأن كل ثقيل على النفس فيه نعمة خفية من الله يدفع المؤمن إلى الرضا بكل ما يرد عليه من الله .

قلت : إلى أي حالة يصير العبد من حالة الصبر ؟

قال : إلى حالة الرضا .

* * *

مسألة (٢٠)

في صفة الرضا وبيانه

قلت : ما السبيل إلى مقام الرضا ؟

قال : علم القلب بأن الله عز وجل عدل في قضائه ، غير متهم فيما حكم .

قلت : من أين مخرج الرضا ؟

قال : من حسن الظن بالله ، والمعرفة بأن الله تعالى غير جائر في حكمه .

قلت : متى يسهل على الرضا ؟

قال : إذا عرفت عواقب الأمور ، وأن اختيار الله عز وجل خيراً من اختيارك لنفسك .

قلت : اشرح لي كلاماً أعرفه عنك .

قال : إذا أبصرت العقول ، وأيقنت القلوب ، وعلمت النفوس ، وشهدت لها العلوم : أن الله عز وجل أجرى بمشيئته ما علم أنه خير للخلق في اختياره ومحبته ، وعلمت القلوب : أن العدل من واحد ليس كمثله شيء ، خرست الجوارح أن تعترض على من علمت أنه عدل في قضائه ، غير متهم فيما حكم (فسر القلب من قضائه)[1] .

---

(١) ما بين الحاصرين زدناه من (حلية الأولياء ١٠/١٨٩) .

قلت : ما معنى الرضا ؟

قال : سرور القلب بمر القضاء .

قلت : فما ضده ؟

قال : السخط .

قلت : وما معنى السخط ؟

قال : تبرم القلب وتسخطه وكراهيته لحلول القضاء ، وكثرة الاختيار منه بالتملك . وقد قيل لأبي بكر رضي الله عنه : ألا ندعو لك طبيباً ؟ قال : « أنه قد رآني » . قيل له : فما قال لك ؟ قال : « قال : اني فعال لما أريد »[٢] . وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه لعبد الله بن مسعود في مرضه : ما تشتكي ؟ قال : « ذنوبي » . قيل : فما تشتهي ؟ قال : « رحمة ربي » . قيل : أفلا ندعو لك طبيباً ؟ قال : « الطبيب أمرضني »[٣] .

قلت : صف لي حالة تكون لي قوة على الرغبة في طلب الرضا ، ووجه لي وجهاً ظاهراً ليقرب منه فهمي ، ويضبطه عقلي ، وتستعمله جوارحي ، وألزم نفسي فرض ذلك ، ويقع لي خوف التخلف عنه .

قال : أما الوجه الظاهر : فإن الله عز وجل يقول : ﴿ . . . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ . . . ﴾[٤] . فوقعت المدحة من الله عز وجل على الراضين . وقال النبي ﷺ : « من رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط »[٥] .

وأما الوجه الباطن فهو : علم القلب أن الرضا عن الله عز وجل فيما قضى من أمر مما يرضي المولى كما قال الحكيم :

---

(٢) أنظر سير السلف الصالحين ص ٧٥ .

(٣) أنظر سير السلف الصالحين ص ١٣٠ .

(٤) المائدة : ١١٩ ، المجادلة : ٢٢ ، البينة : ٨ .

(٥) حديث « من رضى فله الرضا » : أخرجه الطبراني عن عبدالله بن عمرو بن العاص في الأوسط ، وفي سنده كلام .

رضيت وقد أرضى إذا كان مسخطي		من الأمر ما فيه رضا من له الأمر

وكما قال : دخلت على بكر بن عبد الله المزني[٦] أعوده فقال : « يا اخوتاه ، لقد بت بليلة ما يسرني أنها أعيدت وأن لي كذا وكذا ، وما يسرني أنها إذا كانت لم تكن » .

فإذا علمت أن الله عز وجل ناظر إليك في احتمالك مؤنة ما قضاه عليك احتملت ذلك لعلمك بنظر الله إليك في حالة المحنة . يرى منك استبسالك ، وإلقاء كنفك ، وشدة فاقتك ، وحسن تذللك ، وسرعة قبولك ، واستقبالك المحن سروراً بمفاجأة المحن ، والرضا بذلك ، لأن الله عز وجل يحب ذلك من عباده . قال الله عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿ **وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا** . . . ﴾[٧] .

وقال ابن عون[٨] : لما بعث الحجاج في طلب سعيد بن جبير ، وأخذ عليهم المواثيق لئن رأوه لا يدعونه ، فأخذ ، فرأت الرسل شيئاً مما وهبه الله تعالى له ، فأعجبهم ذلك وراعهم ، فأقبلوا يبكون ويتنصلون وقالوا : اعذرنا عند ربك . فقال سعيد : « ما أعذرني لكم ، وأرضاني بما سبق من علم الله فيَّ » .

قلت : يرحمك الله ، ما وجود الرضا في القلب ؟

قال : علم القلب بتوفيق الله عز وجل ، وأنه نعمة من الله تعالى ، أسعفهم وهداهم للبصيرة ، ومن عليهم بالرضا ، فعندئذ يكون للشكر هياج في القلب يقويهم على دوام الرضا عن الله عز وجل .

قلت : يحتاج الراضي إلى سبب يثبت به ، ويزيد في قدر الرضا عنده ؟

قال : نعم ، خوف السلب يديم له حالات إثبات الرضا ، ومعرفة التقصير

---

(٦) بكر بن عبدالله المزني من كبار العلماء الزهاد ، وأهل الحديث ، مات عام ٢٢٠ هـ .

(٧) الطور : ٤٨ .

(٨) ابن عون ، محمد بن عون عالم زاهد محدث عاش في البصرة ، ومات عام ٣٣٠ هـ .

في الشكر لله عز وجل عليها . فهذان الحالان يزيدان في قدر الرضا في كل أحوال المريدين .

* * *

مسألة (٢١)

في صفة ورود المعرفة إلى قلوب العارفين

قلت : رحمك الله ، كيف ورودها إلى القلوب ، ساكنة أو متحركة ؟

قال : أما هي في الأصل فساكنة بالإقرار بالعبودية بمعرفة التوحيد ، وأما في هيجان ورودها فمتحركة غير ساكنة ، كحدور الماء من مجاريه الى مفيضه ، حتى يسكن ، فإذا سكن راق وصفا .

وهكذا يا فتى المعرفة ، مضطربة غير ساكنة في حدورها إلى القلوب ، حتى تسكن في مفيضها كسكون الماء في مفيضه ، فعند ذلك يكون من العبد الهدوء والعلم والحلم ، والأناة وحسن الظن بموعود الله عز وجل ، وتصديق القلوب بما وقع به من الوعد والوعيد .

قلت : الغالب على قلوب العارفين ما هو ؟

قال : أشياء كثيرة ، منها : دوام الخوف والرجاء والحياء ، وكل حالة جميلة .

قلت : بسكون أو اضطراب ؟

قال : لهذه الحالات يا فتى هياج في حركاتها ، وسكون في وطناتها[1] ،

---

(١) الوطنات : استقرار المعارف حتى تصبح معرفة وحالا في وقت واحد . أنظر (تعريفات الجرجاني) .

واستعمال في خلواتها ، ووجود في غدواتها ، ومسير إلى مناهلها ، وفوائد في زوائدها ، وفطنة في بصائرها ، ونفاذ وهم في استدراك مرادها .

قلت : فأي شيء يعقد المعرفة بالقلوب بعد جولانها ، وأي شيء تولده بعد هيجانها ، وما الذي تورثه وتخلفه بعد سكونها وهدوئها ؟

قال : خصال ست غير معدومة عند أهلها .

قلت : اذكر لي منها .

قال : الخوف المبرح لصفاء معرفتها[٢] ، والصفاء الدائم لما رأت من ألطاف سيدها ، وكثرة العلم والحلم ، وطول الألم والأسى وخوف الفوت[٣] ، وحب فراق الدنيا ، والتوحش من أهلها[٤] .

قلت : أجمل لي حالات العارفين ما هي ؟

قال : عن أي حالات العارفين تسأل ؟

قلت : أريد أن تدلني منها على حالة تثبتني في التواضع ، وتكمل لي الحياء ، وتجمع لي الرعاية ، وتمزج لي السرور بالمقدور ، وتسقط عني كثيراً من الإعجاب ، ويدخل عليَّ منها مطالع الامتناع عن كل سبب يجر إلى دواعي فتنته .

قال : الحمد لله الذي وفقك للصواب ، ودلك على الرشاد ، وكشف عن قلبك غطاء ظلمة الجهل . الآن رجوت أن تكون قد قربت من المعرفة ، ووصلت إلى بابها .

---

(٢) يكون الخوف مقارناً لصفاء المعرفة ، لأنها تكون قد كشفت عن الحقائق واضحة ، ومن ثم يخاف العارف أن تضطرب فيفقد عرفانه .

(٣) المعرفة تعقب الألم ، لأن العارف يعلم أنه لم يقم بحقها ولن يستطيعه . ويخاف أن يفوت عمره دون أمنيته .

(٤) يتوحش العارف من أهل الدنيا لما سيطر عليهم من الجهل والعمى .

يا فتى ، إن الحالة التي تجمع لك الحالات هي كلها في حالة واحدة : هي المراقبة ، فألزم نفسك وقلبك دوام العلم بنظر الله إليك في حركاتك وسكونك وقعودك ، وذهابك ومجيئك ، فإنك بعين الله عز وجل ، في جميع منقلبك ، وإنك في قبضته حيث كنت ، وإن عين الله على قلبك ، فناظر إلى سرك وعلانيتك .

وهذه الصفة يا فتى بحر ليس له شطآن ، بحر تجري منه السواقي والأنهار ، وتسري فيه المراكب إلى معادن الغنيمة .

قلت : فما معنى قولك في البحر ، والتمثيل به ؟

قال : أما البحر فهو العلم الذي وصفته لك ، وهو العلم الذي ليست له نهاية ولا غاية ، وهو علم القلب بقرب الرب ، وهو العلم الذي يؤدي إلى العظمة ، وهو البحر الذي ليس له حد ولا نهاية .

حصرت قلوب العارفين عن التفتيش بكيفيته ، وانقطعت أوهام الموقنين باستدراكها بالكلية ، ورجعت أبصار قلوبهم خاسئة هائبة ، إجلالاً وتعظيماً لما سارت أوهامها في بحر المعرفة ، ولجحت في تيارها ، وأقلعت بها شرعها[٥] ، رجاء سرعة السير إلى كنوز العلم منها .

قلت : أي شيء بلغوا من ذلك ؟

قال : إنما مبلغهم من ذلك على ما طاب لهم الريح ، وسارت بهم الريح ، واستقاموا على الاستواء حتى وصلوا إلى معادن الجواهر ، فتخيروا منها نوراً يسطع بالهداية .

قلت : رحمك الله ، قد صعبت على الأنوار ، ودققت على المذاهب وأبعدت على الشقة ، بعد أن رجوت بلوغها ، وحدثتني نفسي بطول المدة قبل بلوغ الغاية .

---

(٥) شرعها : بضم الشين والراء جمع شراع .

قال : لا تعجل ، إنما قربت عليك البعيد ، وسهلت عليك الشديد .

قلت : وقد سمعت ما وصفت ؟

قال : حيث رجوت أن تكون قد فهمت عني . ويحك !! عجزت ، بعدئذ دللتك على كنوزها ، وأبنت لك المنار على المحجة عليها[٦] ، وقربتك إلى بابها ، وزدت في تحريضك على الهجوم .

ويحك !! لا يضق قلبك ، ولا يفتر عزمك ، ولا تحدث نفسك بالضعف في أمرك ، إن المعونة متألقة إلى من طلبها ، ومنصبة إلى من أشفق عليها .

فليكن مثلك في طلب المعرفة مثل الراعي الشفيق الكيس الرفيق المحتال المتأدب إذا نفرت عنه الغنم في رؤوس الجبال ، وبطون الأودية ، صاح بها صيحة من يريد أن يذودها عن مراتع الهلكة ، فاستجمعت له ولحق آخرها بأولها ، فسار بها حيث يريد .

فهكذا يا فتى إذا أردت المعرفة وجمعها ، فكن حريصاً عليها ، معنياً في طلبها ، متفقداً أحوالها ، عاملاً في معانيها ، راغباً فيها رغبة من قد عرف قدر منافعها ، حتى إذا وصلت إلى شيء منها ، دلك أولها على آخرها ، واستجمعت لك برفقك بها ، وحسن صبرك عليها ، كما استجمعت الغنم لراعيها ، فسرت في محجة الأبرار[٧] ، إلى منازل الأخيار .

قلت : الآن شرحت قلبي ، وكشفت عني كربي ، وزدت في رغبتي ونشاطي للازدياد في مرادي ، فاصبر لي ، واحتسب الثواب في ، فإني قد

---

(٦) يعنى : وضعت لك العلامة على الطريق لتهتدي .

(٧) هذا منهج متكامل محدد للمعرفة وطلبها حدده المحاسبي في :

١ ـ الحرص عليها ، والعناية بطلبها .

٢ ـ التأمل والتدبر في كتاب الكون لاستخلاص أحوالها .

٣ ـ العمل بمعانيها سلوكا بعد علمها .

٤ ـ الرغبة فيها وهوايتها .

٥ ـ ربط الأوائل بالأواخر ، وعدم الفصل بين جزئياتها .

رجوت أن تكون سبباً لصحو قلبي ، والبرء من سقمي ، والفرج من كربي ، والحياة من موت قلبي ، فلا تبعدن عليَّ .

قال : اصبر على جفوة الطبيب المتفقد ، والدليل المرشد ، تجد المنفعة عند عواقب أمورك ، وأعلم أني إنما أكويك لأبرئك ، وأداويك لأشفيك ، وأجرعك المرارة لتعقبك الحلاوة ، وأحملك على الشدة لتصير إلى موضع الراحة ، وأحضر بك الخشونة لتصير إلى موضع اللين والسهولة .

قلت : أفهمني معنى ما تقول .

قال : أو لم تفهم معنى قولي لك ؟ إني أخاف أن تكون قد أتعبتني .

قلت : قد فهمت عنك ، إلا أني قد طلبت الزيادة من حسن شرحك ، ليزداد فهمي بتكرير الألفاظ منك إليَّ ، لأنه ليس الشاهد الواحد مثل الأثنين ، ولا الخبر مثل المعاينة .

فقال : أحسنت . ثم سكت سكتة ، ثم قال : لا يغرنك ثنائي عليك ، وحسن الألفاظ مني إليك ، فإني إنما أضع لك الأساس لترفع البناء ، ولا تفرح بالوصف دون العمل ، ولا تعمل العمل بغير وجل ، ولا تستحسن الوصف لاستكثار العلم ، وعليك بالجهد والاجتهاد ، ودوام الكد والمبادرة ، والانكماش[٨] ، فإنك مطلوب ، فاعمل على اليقين ، واترك الشكوك ، وكن وصي نفسك ، ولا تؤخر اليوم لغد ، ولا تتوان في التوبة ، فإن الموت يأتي بغتة .

ألا وأن الدنيا ميدان السابقين ، وسجن المؤمنين[٩] ، وروضة

---

٨ ـ الانكماش : اجتماع الهمة وعدم تشتتها ، والتفرغ الكامل لطلب المعرفة .

(٩) كتب القاضي أبو زيد الدبوسي باباً كبيراً في كتابه (الأمد الأقصى) بعنوان (كتاب السجن والمملكة) فيه تفاصيل لم يسبق إليها . ولم يلحق بها في بيان كون الدنيا سجناً حابساً لحرية المؤمن من كل جهاته ، وأن الحرية الكاملة في الآخرة ، فليرجع إليه من أراد في دار الكتب المصرية برقم ٨٤٥ تصوف . ومنه نسخة ناقصة قليلاً في المكتبة الأزهرية فهرس التصوف . الجزء الرابع من الفهارس .

قامت الدار بطبع هذا الكتاب من تحقيق ابن المرحوم عبد القادر عطا . الناشر

المنافقين ، ومن لم يكن في الدنيا على رحلة الى الآخرة بعدت عليه الشقة ، وطالت عليه الطريق ، وتحير بحصر الضيق . وكن ناصحاً لله عز وجل في نفسك وفي غيرك .

* * *

مسألة (٢٢)

في معنى المعرفة وبيانها

قلت : يرحمك الله ، ما معنى المعرفة وبيانها ؟

قال : تعرف الله عز وجل بما عرفك به نفسه سبحانه وتعالى[١] .

قلت : كيف ذلك ؟ اشرح لي .

قال : تعلم أن الله عفو قدير ، جبار كريم ، عظيم حليم ، الأول قبل كل شيء ، والآخر بعد كل شيء ، يعلم دبيب حركة الصغير ، وحزاز حركات الفطن ، ومعاني تواتر الهموم ، ويعلم خفي خفيات السرائر ، ومكنون ما خطر في الضمائر .

يا فتى ، من يستطيع أن يصف أقل القليل من حسن صنعه ، ونفاذ قدرته في خلقه ، وكثرة أياديه ومنته ؟

تكل الألسنة ، وتحصر القلوب ، وتحطم النفوس[٢] ، ويتلاشى الفكر ، وتضمحل العلوم ، وتتحير العقول ، وتتساقط الأوهام ، وينقطع مبلغ منتهى

---

(١) وهو ما جاء معرفا بالله تعالى في القرآن والسنة ، نعرفه ونؤمن به كما هو ، دون تأويل ولا دخول في فهمه بالعقل ، فالله قديم ، والعقل مخلوق حادث ، ولا يجوز أن يحيط الحادث بالقديم ، والعكس صحيح . أنظر (الفيض الرباني للنابلسي كتاب الإيمان) . ورقة ٢٥ وما بعدها .

(٢) تحصر ، وتحطم ، بالبناء للمجهول : تخرس وتعجز .

النفس عن ارادة الدخول في معرفة الجليل جل جلاله ، وعظيم عظمته ، وكبير كبريائه .

ولو اجتهدت قلوب العارفين الأولياء بحدة فهومهم ، وإثبات يقينهم ، وقوة علومهم ، وخفي مرادهم ، وقرب ذهنهم ، وسعة فطنتهم ، وكشف عينهم ، ونفاذ هممهم الى استدراك مرادهم ، وغائص الفتنة من بصيرتهم ، وحسن عقولهم ، وفراغ قلوبهم لمطالبة ارادتهم ، وإصابة توفيقهم ، لكان ما نالوه عندما لم ينالوا من جميع ما أرادوا كلا شيء .

فسبحانه جل جلاله وثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، حصرت قلوب أولي الألباب عن التفتيش في ذلك بكيفيته ، وانقطعت أوهامهم عن مبلغ استدراك علومهم بكليته ، ورجعت أبصار قلوبهم خاسئة إجلالاً لعظمته ، بقدرته كون الأسباب تكويناً ، وأتقن الصنع إتقاناً متيناً ، وكل شيء كان فهو قبله ، وكل شيء يكون فهو بعده .

خلق الأشياء بدلالة مستدل تدل على دلالته ، وأحكمها صنعاً بغير مثال سبقت بدايته ، وكان أعظم الأشياء لا شيء حين لا شيء ، وكل شيء كان فمن مشيئته ، شاء الأشياء بلا مشيئة شيئت من غير مشيئته(٣) .

فتبارك منشيء الأشياء وهو شاءها من قبل وميزها ، وتبارك من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير(٤) .

---

(٣) يعني أن مشيئته سبحانه وحدها هي التي تعلقت بالأشياء بلا مشيئة غيره .

(٤) في هذه الآية يتجلى التنزيه والتشبيه ، فليس كمثله شيء تنزيه ، وهو السميع البصير تشبيه يرجع إلى التنزيه . وبيانه : أن السمع والبصر من صفات الإنسان ، وقد أثبت الله تعالى لذاته سمعاً وبصرا ، والحكم الحق هنا : إثبات ما أثبته لنفسه دون البحث عن كيفيته ، والإيمان به كما ورد دون تأويل ولا تفسير على مذهب السلف ، فنحن نثبت الوصف الحميد لله تعالى ، وننفي عنه ما يشبهه بخلقه كما في الآية . . أما الخلف فقد أجازوا تأويل هذه الكلمات المتشابهة في مواجهة أهل الالحاد والتجسيم لما تعاظم خطرهم على الفكر الاسلامي - والآية : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ من سورة الشورى : ١١ .

فإذا عرفته هذه المعرفة ، لزمت قلبك الرغبة والرهبة ، وعظمته واستحييت منه وراقبته .

قلت : بم يتزايد الناس في ذلك ؟

قال : علي قدر لزوم القلب لنفاذ القدرة ، واتقان الصنع .

قلت : فبم يتقوى على ذلك ؟

قال : بحسن الذكر والاعتبار .

* * *

مسألة (٢٣)

في بيان معنى الاعتبار

قلت : ما معنى الاعتبار ؟

قال : الاستدلال بالشيء على الشيء .

قلت : ما معنى الاستدلال بالشيء على الشيء ؟

قال : هو أن تنظر بقلبك إلى الشيء المتقن ، فيلحق قلبك التعجب من نفاذ القدرة ، واتقان الصنع ، وحسن التدبير فيه ، ثم لم تقع عينك على شيء إلا دلك الشيء على غيره .

قلت : كيف ذلك ؟ اشرحه لي .

قال : يدلك المفطور على أن له فاطرا[1] .

قلت : أو لم أعلم قبل ذلك أن له فاطر ؟

قال : بلى ، ولكن هذا من طريق التنبيه في الفروع ، وذاك من اعتقاد القلوب ، لأن الاعتقاد إنما هو تطرية للفكر ، وزيادة في الإيمان ، ويدلك المفطور ويدلك المخلوق على الزيادة في معرفة الخالق ، ويدلك المصنوع على الزيادة في

---

(١) هذا من بداية المعرفة . أما النهاية فالفاطر دليل على المفطور . أي أن بداية المعرفة تكون من الجزئي إلى الكلي ، ثم في النهاية من الكلي إلى الجزئي ، كما سيأتي بعد قليل .

معرفة الصانع ، ليكون منك التعظيم له ، وتزداد في معرفة القدرة ، فتنظر إلى الأشياء بعد ذلك بخالقها ، وإلى المصنوع بصانعه ، وإلى المفطور بالفاطر ، فتنظر إلى الأشياء بعواقبها .

ثم يدلك وجود ما علمت منها على الشيء المغيب عنها ، أنه أعجب مما رأيت وعلمت ، وأن ما علمت عند ما لم تعلم كلا شيء في لا شيء .

قلت : وكيف ذلك ؟

قال : إنما تنظر على قدر عقلك ، وما سمت إليه همتك ، وأصاب وهمك .

قلت : الناس متفاوتون في الاعتبار ؟

قال : نعم ، على قدر صحة العقول ، وقوة الإيمان ، وما ورد عليَّ من ذلك على قدر اتساع المعرفة[٢] .

قلت : شيء غير هذا ؟

قال : نعم ، على قدر طهارة القلوب ، لأن مخرج الاعتبار من القلب ، فاذا خرج من قلب طاهرنفذ في الغيب ،وسمت به الهمة ، وتراقى به الفكر ، ولم يمنعه مانع من الأدناس ، فوافق مراد القلب ، وصفى معرفة النفس ، كما قال وهب بن منبه[٣] : قال الحواريون : يا عيسى ، من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؟ فقال عيسى : هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا ، حين

---

(٢) في جامعة القاهرة مخطوط منسوب إلى الجاحظ بعنوان (العبر والاعتبار) يعتبر أكبر عون للمسلم على الاعتبار ، إذ تتبع فيه كل ظواهر الحياة تقريباً من الفصول الأربعة ، والليل والنهار ، واختلاف الطقوس في اليوم الواحد ، واختزان الماء في بطن الأرض ، والحيوان والنبات والجماد والحشرات ، وما فيها من دلائل تدل على وحدة الصنع ووحدة الصانع ، وإبطال مذهب الصدفة .

(٣) وهب بن منبه الأنباري الصنعاني الذماري ، مؤرخ كثير الأخبار عن الكتب القديمة ، عالم بأساطير الأولين ، لا سيما الإسرائيليات ، أصله من أبناء فارس الذين بعث بهم كسرى من اليمن ، وأمه من حمير ، ولد ومات بصنعاء ، ولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها ، مات عام ١١٤ هـ (وفيات الأعيان ٢ / ١٨٠ والحلية ٤/٢٣ والمعارف لابن قتيبة ٢٠٢ وطبقات ابن سعد ٥/٣٩٥) .

نظر الناس إلى ظاهرها ، وإلى آجل الدنيا ، حين نظر الناس إلى عاجلها ، وأماتوا ما يخشون أن يميتهم ، وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم ، فصار استكثارهم منها استقلالا ، وطلبهم لما أدركوا منها قوتا ، وفرحهم بما اصابوا منها حزناً ، فما عارضهم من نائلها رفضوه ، وما عارضهم من رفعتها بغير الحق وضعوه ، وخلقت[٤] الدنيا عندهم فليس يحيونها ، فيبنون بها آخرتهم ، ويبيعون دنياهم ، فيشترون بها ما يبقى لهم .

رفضوها فكانوا برفضها هم الفرحين ، ونظروا إلى أهلها غرقى قد حلت بهم المثلات ، فأحيوا ذكر الموت ، وأماتوا ذكر الحياة الدنيا ، يحبون الله عز وجل ، ويحبون ذكره ، ويستضيئون بنوره .

لهم خبر عجيب ، وعندهم أعجب الخبر ، بهم قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب ، وبه نطقوا ، وبهم علم الكتاب وبه علموا ، ليس يرون نائلاً مع ما نالوا ، ولا أمانا دون ما يرتجون ، ولا خوفاً دون ما يحذرون .

* * *

(٤) خلقت : بليت .

مسألة (٢٤)

في طهارة القلب

قلت : رحمك الله ، أجمل ما تراه القلوب في طول عاداتها التي تطهرها وتجلوها من صدئها وتقويها على دفع هواها ، ما هو ؟

قال : قطع الشهوة ، وعدم الميل إلى الرخصة ، والفرار من تأويل الغرة[١] ، مع التقلل من المطعم والمشرب ، وإصلاح القوت[٢] .

قلت : وبالتقلل تطهر القلوب ؟

قال : نعم ، ليس شيء أجلى للقلوب من صدئها مثل الجوع ، لأن الجوع أقطع أسباب دواعي النفوس للشهوات .

قلت : رحمك الله ، لا يبعدك عني ما سمعت مني ، ولكن رغبتي في الفقر إليك على قدر معرفتك بحاجتي إليك .

قال : فاجمع إذن همك ، وأحضر قلبك ، وجدد فهمك ، وأصغ بسمعك ، وأصغ بقلبك ، واعتقد القبول كما أقول لك ، فإني سمعت بعض الحكماء يقول : ما هلك من المريدين بعد تعشقهم إلا لمخالفتهم أستاذهم .

---

(١) الغرة : تمني المغفرة ، وطيب النفس بها فيما يظن أنه حسن ظن بالله تعالى ، ورجاء له ، مع المقام على المعصية ، أنظر (أعمال القلوب والجوارح ١٢٠) .

(٢) إصلاح القوت : تحري الحلال الخالص منه .

وإياك والمخالفة ، فإنه من خالف الطبيب طال سقمه ، فأقبل على الله بقلبك ، واجمع لي كلك في كلك ، فإني واصف لما تسمع ، والله الموفق لفهم قلبك ، واستعن بالله على بعدك ، وارغب إلى الله في رشده .

يا فتى ، لعل نفسك نظرت إلى خفي استشراف مطالعة طباعك ، فحركت عليك عاداتها ، فذكرتك مواضع رفاهاتها ، فتاقت إلى ذلك نفسك من حيث لا تعلم ، أو من حيث تعلم ، فدق عليك علم ذلك ، فأخذت في قلبك بقسط ما ملت إليه ، فحجبك ذاك عن فهم المخاطبة ، فارجع إلى الله في سرك ، واستعن به على أمرك ، واختر نصيحة الناصح لك في رشدك ، والمشير بذلك إلى منهج النجاة ، وسبيل الاستقامة في مركب السلامة[٣] .

سل يا فتى على اسم الله ، واكشف عما تريد ، والله الموفق لإصابة الحق في رد الجواب .

---

(٣) هذا منهج المؤلف في تصفية الفهم ، واستنباط المعرفة الذاتية وهو : تفريغ القلب والنفس من كل دواعي الهوى والشهوات ، لأن وجود الهوى والشهوات يعوق الفهم ، أو يشوه المعارف .

مسألة (٢٥)

في شرح الحكمة وبيانها

قلت : رحمك الله ، رجل يقوم الحق في قلبه ، وضرب الأمثال في صدره ، وبصائر الهدى عند عقله ، يراه ويعلمه ، ولا يحسن أن يصفه بلسانه ، أي مقام هذا ، وأي حالة ، وأي شيء أوصله إلى هذا ؟

قال : أرجو أن يكون هذا الرجل قد قارب إصابة الصواب ، ومرت سحائب الحكمة على فهم جسمه ، فأمطرت قلبه شرباً ينبت به العشب .

إن الحالة التي أوصلته إلى هذا استعمال الصدق ، وعزوف النفس عن الدنيا ولذاتها ، وحفظ القلب والجوارح ، وترك ما لا يعني ، وجمع الهم ، وتلقي الفهم عن دواعي الحق ، وهذا ميراث الزهد في الدنيا ، وقد شابه ومازجه روح اليقين[١] .

وقال النبي ﷺ : « إذا رأيتم العبد يزهد في الدنيا فاقتربوا منه ، فإنه يلقى الحكمة »[٢] . وقال ﷺ : « إذا زهد العبد في الدنيا ورث ثلاث خصال : عزا

---

(١) أجمع السلف من الزهاد على أن الزهد هو باب الحكمة . ولكن هنا عنصرين إلى جانب الزهد ، هما : جمع الهمة ، وتلقي الفهم عن دواعي الحق . وهذا هو الاستجماع والاستمداد والتوجه القلبي إلى الله . وادامة هذا الاستجماع والتوجه تستنزل المعارف الإلهية . أنظر مقدمة (شفاء السقام للسبكي) للشيخ محمد بخيت .

(٢) حديث « إذا رأيتم العبد يزهد في الدنيا » : أخرجه أحمد في الزهد عن أنس ، وابن المبارك في الزهد أيضاً عنه .

من غير عشيرة ، وغنى من غير مال ، وعلما من غير تعلم »[٣] .

وكتب عمر رضي الله عنه إلى أمراء الأجناد : « احفظوا من المطيعين ما يقولون ، فإنهم تتجلى لهم أمور صادقة » .

وقال بعضهم : إذا زهد العبد في الدنيا وكل الله به ملكاً يغرس من إناء الحكمة في قلبه ، كما يغرس أحدكم من طرف الأشجار في بستانه .

قلت : فمتى يطلقها على لسانه ؟ وما الذي حجبه عن وصف ما يجد في قلبه من إصابة الحق في وهمه .

قال : مثل هذا كمثل شجرة غرست فطابت ، وطاب ثمرها ، وغاصت عروقها ، وعلت فروعها ، وجرى ماؤها فيها ، وأخضر ورقها ، وخرج ثمرها ، إلا أنها لم تدرك ، ولم تصلح ، ولم تستحكم ، ولم تبلغ وقت جناها ، حتى إذا استحكمت وصلحت للجاني ، جنى منها جناها صاحبها .

وهكذا يا فتى هذا الرجل ، لم يستحكم في حكمته ، ولم يصلح أن يستفاد ويقتبس منه ، حتى إذا استحكم في حالاتها ، وتم في بلوغ مقاماتها ، انصبت الحكمة وجرت على لسانه ، وتفجرت ينابيعها من قلبه ، وتمكن في حالاتها ، وانتفع به المقتبس والمستفيد .

قلت : فالحالة التي يستحكم بها ما هي ؟

قال : تعاهد أخلاقها ، واتباع مروءة معرفتها ، واحتياط القلب بضبطها ، ومعرفة قدرها ، والحرص على جمعها ، والرغبة في بلوغها ، وصيانات كراماتها ، ودوام الشكر عليها ، والتواضع في وقت ورودها ، والخضوع في حالاتها ، واستعمالها في نفسها ، وكثرة العادات في مشاهدتها ، وتكرير القلب لضرب أمثالها ، ونشرها في كل وقت ، وعرضها على الموافقة في إصابتها ، فهذا الذي

---

(٣) حديث « إذا زهد العبد في الدنيا » : أخرجه الطبراني في الكبير عن واثلة .

يمكنه من القوة على نشرها[٤] .

فإذا استحكم في حالاتها ، تفجرت على لسانه إلى معادنها ، وهطلت عليه مزن سحائب صيبها ، ونظر إلى إصابة الحق في توفيقها .

قلت : رحمك الله ، قد وصفت لي ما رجوت أن يكون حياة لقلبي ، وتنبيهاً لعقلي ، واتساعاً في معرفتي ، ورغبة في ازديادي لارادتي ، وحرصاً على جمعي لهمتي ، واستدراك مطالبتي ، فخبرني الآن لم سميت حكمة ؟

قال : لأنها محكمة من حكيم إلى قلب حليم ، تشيعها بصائر الهدى وتسبقها ، ويشفعها رشاد التوفيق ، وتكلؤها حياطة السلامة .

قلت : ما معنى محكمة ؟

قال : متقنة .

قلت : ما معنى متقنة ؟

قال : ليس فيها شين يشينها .

قلت : رحمك الله ، زدني في صفتها ، وأوقفني على بيان شرحها .

قال : إن الحكمة تبين عن نفسها ، فلا تحتاج أن يعاد عليها .

قلت : وما هي في نفسها ؟

قال : إصابة الحق[٥] .

قلت : ما علامتها إذا وردت ؟

قال : تبين الحق ، وتكشف ستر الجهل ، وتدل على مكامن الهدى ، وفضيحة الجناية ، وتزيد في البصيرة ، وتوسع في الفطنة ، وتقوى الرغبة ، وتشد

---

(٤) خلاصة ذلك كله : إدمان الطلب ، وشغل الهمة بطلب الحكمة ، مع دوام التوجه وطهارة القلب والجسد من الحرام .

(٥) أنظر معاني الحكمة في (علم القلوب ص ٢٣) . فقد ذكر لها ثمانية عشر معنى .

اليقين ، وتفطم حرص القلب ، وتفرق بين الحق والباطل ، وتطهر القلوب من أدناسها ، وتبين مواضع تخلفها ، وتثبت حجتها على نفسها .

قلت : من أين صحة مخرجها قبل نسقها ؟

قال : بشاهد من العلم في سرها ، وقائم من الحق في إصابة وجهها ، وبصائر من الهدى في نشرها[٦] .

قلت : فما علامة الحكيم عند السؤال عنها ؟

قال : التثبت عند الجواب فيها ، مع كشف بيان الحق بالحجة البالغة عنها ، وإصابة الحق من الجواب فيها .

قلت : فما علامة الاستواء فيها ، وإطلاقها ، والإصابة في الفطنة منها ؟

قال : تبتدىء الألفاظ كالسهام الصوائب منها ، وتذعن قلوب المستمعين لها إيماناً بها ، وتحصر أوهام المعترضين عليها ، باثبات الحجة على قلوبهم ، وتبصرة الصواب التي تأكدت عندهم من ضرب أمثالها ، وغرائب علمها ، لا يقدرون على التخلف عن الاستجابة لها .

قلت : شيء غير هذا ؟

قال : تنبيه القلوب من غفلاتها ، وتوقظ الأوهام الى استدراكها ، وتزيد في رغبة الحرص على الاستفادة منها ، وتحيي القلوب من بعد موتها ، كما قال الحكيم لابنه : يا بني ، جالس الحكماء ، وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله عز وجل يحيي القلوب الميتة بالحكمة ، كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء .

* * *

---

(٦) يعني : قوة تأثيرها في السامعين .

مسألة (٢٦)

في اعتقاد القلوب وبيانه

قلت : رحمك الله ، وربما عارض الهوى النفوس ، والقلوب به واهية ، فتستريح النفوس والقلوب إلى مواطأته ، وتعتقد على العمل ، ولا تعمل بما دعا الهوى إليه ، هل يضره ذلك بينه وبين الله عز وجل ؟[١] .

قال : نعم ، إذا لم يحل اصرار القلب ، وكان عازماً على الفعل وهو مقيم على عقد قلبه ، وسوء نيته ، ووحشة اصراره ، فهو فعل[٢] ، وهو مذموم ، وهو عاص لله عز وجل ، وقد قال النبي ﷺ : « هلك المصرون قدماً »[٣] .

قلت : فما تقول في قول النبي ﷺ : « عفى عن أمتي ما حدثت به أنفسها » ؟[٤] .

قال : افهم عني ، ولا تكن من الغلاطين . إن حديث النفس غير اعتقاد القلب ، وإنما سألتني الآن عن اعتقاد القلب .

قلت : فما الفرق بين اعتقاد القلب ووسوسة النفس ؟

(١) يعني اشترفت النفس إلى شهوة ، ووافقها القلب ، ولكن صاحبها لم يرتكبها .

(٢) الاصرار فعل ، لأنه عزم على عمل ، فهو من آثام الباطن ، وإن لم يكن من آثام الظاهر .

(٣) حديث « هلك المصرون » : أخرجه أبو يعلى الموصلي عن ابن عمرو بن العاص .

(٤) حديث « عفى عن أمتي » : أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة .

قال : أما اعتقاد القلب على الفعل السوء فمذموم في كتاب الله عز وجل في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا ﴾[٥] .

وقال عز وجل : ﴿ ... وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ... ﴾[٦] .

وقال : ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ... ﴾[٧] .

هذا وأشباهه في كتاب الله عز وجل بينه الله بما يطول الكتاب بذكره .

وقال النبي ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى »[٨] .

وقال : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » . قيل : يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : « لأنه أراد قتل صاحبه »[٩] .

ألا ترى أنه بإرادة قلبه قتل صاحبه شهد له النبي ﷺ بالنار ، ولم يقتل وقد نوى ، والله عز وجل يؤاخذه بباطنه ، وبعقد قلبه ، إذا كان مقيماً على الفعل ، وهو مصر على ذلك .

قلت : اكشف لي عن اصرار القلب وكسبه المذموم .

قال : مثل الحسد وهو في القلب ، والكبر بالقلب ، والنفاق بالقلب ، وسوء الظن بالقلب . وقال عز وجل : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ... ﴾[١٠] فأخبرنا أنه اثم ، وأنه باطن .

---

(٥) الاسراء : ٣٦ .

(٦) البقرة : ٢٨٣ .

(٧) البقرة : ٢٢٥ .

(٨) حديث « إنما الأعمال بالنيات » : أخرجه البخاري ومسلم عن عمر .

(٩) حديث « إذا التقى المسلمان » : أخرجه البخاري ومسلم عن أنس .

(١٠) الأنعام : ١٢٠ .

وبعـد .. لو أن رجـلاً عزم من الليـل أن يقتل النفس التي حـرم الله ، أو يفعل فاحشة بحرمة مسلم ، أو يكفر بالله إذا هو أصبح ، ونوى ذلـك بقلبه ، ثم مات على تلك النية ، وذلك الاصرار ، حشره الله على ما عقـد عليه ونـوى ، كما قال النبي ﷺ : « يحشر الخلائق على نياتهم »[١١] .

قلت : فإذا حل الإصرار عن القلب ، وعزم ألا يفعل ، وندم على ما كـان منه ، كيف يكون حاله عندك ؟

قال : هذا تـائب إلى الله عز وجـل مأجـور إن شاء الله ، لاعتقـاده الخير ، والفرار من مواطن الشر ، كما قال النبي ﷺ : « نية المؤمن خير من عمله »[١٢] . أو قال : « خير من أجزاء عمله »[١٣] .

* * *

---

(١١) حديث « يحشر الخلائق على نياتهم » : لم نعثر عليه فيما بين أيدينا من مصادر .

(١٢) حديث « نية المؤمن » : ورد بلفظ : « نية المؤمن أبلغ من عمله » . رواه العسكري في الأمثال ، والبيهقي في الشعب مرفوعـاً عن أنس ، وقـال ابن دحيـة : لا يصـح . وقـال البيهقي : إسنـاده ضعيف (تمييز الطيب من الخبيث ١٨٥)

(١٣) حديث « خير من أجزاء عمله » : لم نقف عليه فيما بين أيدينا من المصادر .

مسألة (٢٧)

في حديث النفس وبيانه

قلت : رحمك الله ، بيّن لي حديث النفس من أي شيء هو ؟ وحديث النبي ﷺ : « عفى عن أمتي ما حدثت به نفوسها » . ما هو ؟ ومثل أي شيء هو ؟

قال : هو مثل حديث عثمان بن مظعون حيث قال : يا رسول الله نفسي تحدثني أن أطلق خولة . فقال : « مهلاً ، فإن من سنتي النكاح » . قال : نفسي تحدثني أن أجب نفسي . قال : « مهلاً ، إن خصاء أمتي : دؤوب الصيام » . قال : نفسي تحدثني أن أترهب بنفسي . قال : « مهلاً ، رهبانية أمتي الحج والجهاد » . قال : نفسي تحدثني أن أترك اللحم . قال : « مهلاً ، فإني أحبه ، ولو أصبته لأكلته ، ولو سألته ربي لأطعمني »[١] .

ألا ترى يا فتى أن قول النبي ﷺ : مهلاً ، حيث يقول عثمان : نفسي تحدثني . فحديث النفس إنما هو تروية . والدليل على أنه تروية : أنه لم يفعل ، ولم يمض فيما حدث به نفسه حتى وقعت به المشورة على ذلك من رسول الله ﷺ يروي فعله ، دليل على أنه لم يستوطن اعتقاد الفعل بقلبه ، ولم تسكن النفس إلى ذلك ، وإنما يحل بقلبه خطرات بغير استيطان .

---

(١) حديث عثمان بن مظعون : أخرجه مسلم والترمذي والنسائي عنه .

وإنما قال : نفسي تحدثني ، ولم يقل : اعتقدت بقلبي ، فصادف نهى النبي ﷺ دفع القلب بحديث النفس .

وأما إذا اعتقد بقلبه ، وأصر على الذنوب ، فهو عاص لله عز وجل ، فاسق غافل عن اعتقاد الخير باعتقاد السوء ، لأنه لا يكون قلب يجمع بين نيتين : مصر على معصيته ، مستعمل بكمال الطاعة . وهذا يستحيل ، لأن الله عز وجل قال : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ من قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ . . . ﴾[٢] .

فإذا كان مشتغلاً بالإصرار عمى عن البصيرة ، ولا يرى حسناً تتوق نفسه إليه رغبة ، ولا قبيحاً يتجنبه رهبة ، وجرته أسباب الفتنة إلى مصارع الهلكة .

* * *

---

(٢) الأحزاب : ٤

مسألة (٢٨)

في صفة الحزن وبيانه

قلت : قد روي في الخبر : « ما حزن عبدي في الدنيا ، إلا فرحته غدا في الآخرة » . « ولا سر مؤمن في الدنيا إلا أحزنه الله غدا في الآخرة »[١] . فما هذا الحزن أكرمك الله ؟

قال : إذا حزن في الدنيا للآخرة فهو المفروح غدا في جوار الله ، وإذا حزن في الدنيا للدنيا فهو القاصي عن قرب الله عز وجل .

قلت : رحمك الله ، فبم يستجلب هذا الحزن ، وما السبيل إلى مقام الحزن ؟

قال : ثلاث خصال : الفكر في الذنوب السالفة ، والقدوم على الله بغير زاد .

والثانية : أخذ القلوب بحقوق الله عز وجل الواجبة ، والفرائض اللازمة ، فهو يورث الأحزان الدائمة[٢] .

والثالثة : معرفة الخلاف على الله عز وجل ، لأنه ليس من عارف يذكر

---

(١) هو مروي من قول الحسن البصري . وهناك خلاف في رفعه .

(٢) فرائض القلوب اللازمة لله عز وجل هي : التوحيد ، والاخلاص ، والحضور مع الله ومراقبته ، وما أشبه ذلك ، وإنما تورث الأحزان الدائمة لأن العامل يشعر بالتقصير دائماً ، وبأنه لم يقم بها كما ينبغي لجلال الله تعالى .

خلافه على الله تبارك وتعالى الا أخذت الأحزان بقلبه ، وإن كـان نادمـاً تاركـاً لما يكره الله ، محسناً[٣] .

قلت : من أين مخرج الحزن ؟

قال : علمهم بعلم الله عز وجل فيهم : أنه قد رآهم في مواطن يكـرهها ، فهم غير آمنين ، لا تقر لهم أعين ، ولا ينشطون لفرح ، لمـا غلب على قلوبهم من الأحزان .

قلت : ما نعت الحزن في القلب ؟

قال : انكسار في باطنه يكسر الجوارح عن الانبساط .

قلت : ساكن أو متحرك ؟

قال : متحرك في أوائله .

قلت : من أين حركته ؟

قال : متحرك لأنه ممزوج بالخوف ، فإذا دام ذلك وتفاقم[٤] سكن .

قلت : من أين سكونه في آخره ؟

قال : لأنه ممزوج بالكمد[٥] ، والكمد ساكن غير متحرك .

قلت : فما علامة الحزن .

قال : الكمد الذي يسكنه .

قلت : بم يتزايد الحزن ؟

قال : على قدر المصيبة ، كلما عظمت المصيبـة عندهم عـظمت الأحزان في

---

(٣) إلا أنه خالف الله تعالى يوماً من الأيام . وهنا مذهب المحاسبي : أن يذكر التائب ذنبـه ولا ينساه ، على عكس غيره من الصوفية الذين يرون نسيان التائب لذنبه أفضل .

(٤) تفاقم : تعاظم وكبر .

(٥) الكمد : شدة الحسرة والانكسار .

قلوبهم ، وكلما تجدد خوف الفراق تزايدوا في الأحزان ، وهذا أشرف الحالين .

قلت : متى يجد المحزون سروراً في نفس حزنه ؟

قال : إذا مزج حزنه بملاطفة .

قلت : ما معنى الملاطفة ؟

قال : أن يقرع التنبيه قلبه ، فيدله على الذي أحـزنه ، فيـرى أن قليلاً ممـا معه من الحزن كثير من عطاء مـولاه في الحزن[٦] ، وأنـه هو الـذي ابتدأه بـالحزن لطفاً منه ، فعندها يكون في نفس حزنه شجا[٧] ، رحمك الله .

* * *

(٦) لا بد من ملاحظة النعمة والعطاء في الحزن ، لما يعقبه من صفاء القلب ، وتوحد همه ، وتجرده من الشتات ، ومن تنوير البصيرة ، وعند ذلك من عوائد الحزن .

(٧) الشجا : الغصة في الحلق .

مسألة (٢٩)

في شرح محبة الله عز وجل للعبيد

قلت : رحمك الله ، إن علامة محبة العبد لله عز وجل : مرضاة الله ، والتمسك بسنن رسول الله ﷺ ، فما علامة حب الله للعبد ؟

قال : ما الذي كشف لك عن هذا ؟

قلت : قال الله عز وجل : ﴿ ... إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ... ﴾[1] . فعلمت : أن علامة محبة العبد لله اتباع رسول الله ﷺ . ثم قال : ﴿ ... يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ... ﴾ . فما علامة محبة الله عز وجل للعبد ؟

قال : لقد سألت عن علم رصين ، وخطر جسيم ، غاب عن كثير من أهل العلم فهمه ، نعم يا فتى ، إن علامة محبة الله عز وجل للعبد : أن يتولى سياسة همومه ، فتكون جميع همومه هو عز وجل المسير لها ، فهي الهموم التي لا تعترض عليها حوادث القواطع ، ولا سبيل لها الى التوقف[2] .

فأخلاقه على السماحة ، وجوارحه على الموافقة تصرخ به ، وتحثه بالزجر والتهديد .

---

(١) آل عمران : ٣١

(٢) أي : أن يتولى الله تعالى العبد المحبوب بنفسه ، بحيث لا يرد عليه من الله تعالى قاطع يقطع عنه إمداد ولاية الله تعالى له ، ولا يوقف فيض المحبة الفائض من الله تعالى اليه بالطاعة والاتباع . ومن ثم يتوحدهم العبد المحبوب فيصبح هما واحداً هو الله .

قلت : ما الدليل على ذلك ؟

قال : خبر النبي ﷺ : « إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه ، وزاجراً من قلبه ، يأمره وينهاه »[٣] .

قلت : زدني من علاماته .

قال : ليس شيء أحب إليه من أداء فرائضه ، بمسارعة من القلب والجوارح ، والمحافظة عليها .

ثم العلامة بعد ذلك : كثرة النوافل ، كما قال النبي ﷺ : « يقول الله عز وجل : ما تقرب عبدي إليَّ بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ، وإن دعاني أجبته ، وإن سألني أعطيته »[٤] .

قلت : صف لي الآن من علامات وجود قلبه .

قال : نفسه محبوسة في سجن الملاطفة ، مخصوصة بعلم المكاشفة ، متلذذ بنعيم النظر في مشاهدة الغيب ، وحجاب العز ، ورفقة المنعة .

فهي القلوب التي أسرت أوهامها بعجيب انفاذ اتقان الصنع ، فعندها تصاعدت في المنى ، وتواترت على جوارحها فوائد الغنى ، فانقطعت النفوس عن كل ميل إلى داعي راحة ، وانزعجت الهموم وفرت من الرفاهية ، فنعمت بسرائر الهداية ، وغذيت بلطيف الكفاية ، وأرسلت في روضة البصيرة ، فأحلت القلوب محلاً نظرت فيه بلا عيان ، وجالست بلا مشاهدة ، وخوطبت بلا مشافهة .

فهذه يا فتى صفة أهل محبة الله عز وجل من أهل الموافقة والحياء ، والرضا والتوكل ، فهم الأبرار من العمال ، والزهاد من العلماء ، والفقهاء من الحكماء ،

---

(٣) حديث « إذا أحب الله عبداً . . . » : أخرجه أبو داود عن سلمان .

(٤) حديث « ما تقرب عبدي » : أخرجه البخاري عن أبي هريرة .

والحكماء من النجباء ، وهم المسارعون من الأبرار ، وهم رعاة الليـل والنهار[٥] ، وأصحـاب صفـاء التـذكـار ، وأصحــاب الفكـر والاعتبــار ، وأصحـاب المحن والاختبار[٦] ، ممن أسعدهم الله بطاعته ، وحفظهم برعايته ، وتولاهم بسياسته ، فلم تشذ لهم همة ، ولم تسقط لهم ارادة .

هومهم في الجد والطلب ، وأرواحهم في النجاة والقـرب ، يستقلون الكثير من أعمــالهم ، ويستكثـرون القليـل من نعم الله عـز وجـل ، إن أنعم عليهم شكروا ، وإن منعوا صبروا .

يكـاد يهيـج منهم صـراخ الأحـزان إلى مـواطن الخلوات ، ومعـادن العبـر والآيـات والحسرات ، قلوبهم في تـردد ، وخوف الفـراق في صـدورهم يتـوقـد ، أذاقهم الله طعم محبته ، ونعمهم بدوام العذوبة في مناجاتـه ، فقطعهم ذلـك عن الشهوات ، وجانبوا اللذات ، وداموا في خدمة ملك الأرض والسموات .

قد اعتقدوا الرضا قبل وقوع القضـاء[٧] ، منقطعـين عن اشارة النفـوس ، منكرين للجهل المأسوس ، طاب والله عيشهم ، ودام نعيمهم ، فعيشهم سليم ، وغنـاهم في قلوبهم مقيم ، كأنهم نـظروا بأبصـار القلوب الى محجـوب الغيـوب ، فقطعوا كل محبوب ، وصار الله عز وجل هو المنى والمطلوب .

دعاهم إليه فأجابوه بالجـد ودوام السير ، فلم يقم لهم اشتغـال إذا استيقنوا دعوة الجبار . فعندها غابت عن قلوبهم أسباب الفتنة بدواهيها ، وظهرت أسباب المعـرفة بمـا فيها ، فصـارت مطيتهم إليـه الرغبـة ، وسائقهم الـرهبة ، وحـاديهم الشـوق من المحبة ، حتى أدخلهم في رق عبـوديته ، وبصـرهم عظيم ربـوبيتـه ، فليس تلحقهم فترة في نية ، ولا وهن في عزمة ، ولا ضعف في خدمة ، ولا تأويل في رخصة ، ولا ميل إلى دواعي غرة .

---

(٥) رعاة الليل والنهـار : جعلوا لكل وقت من الليـل والنهار وردا من العبـادة والذكـر القلبي بحيث لا يقطعهم عن أعمالهم ، ولا يحجبهم عن ربهم .

(٦) المحن هنا مقرونة بالعطايا العظام من العلم والمعرفة ، لا محن إنتقام مقرونة بالطرد والمقت .

(٧) وهو مقام العبودية ، أما الصبر فمقام من مقامات العبادة .

قلت : أرى هذا مرادا بالمحبة .

قال : هذه صفة المرادين بالمحبة .

قلت : كيف المحن على هؤلاء ؟

قال : سهلة في علمها ، صعبة في اختبارها ، هينة في مباشرتها ، فمحنتهم على قدر ايمانهم .

قلت : من أشدهم محنا ؟

قال : أكثرهم معرفة ، وأواقهم يقينا ، وأكملهم إيماناً ، وقد قيل في الخبر : « أكثر الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل »[8] .

---

(٨) حديث « أكثر الناس بلاء » : أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس .

مسألة (٣٠)

في خوف المحبين لله عز وجل

قلت : هل يلحق المحب لله عز وجل خوف ؟

قال : نعم ، لا يزول عنهم خوف عذاب التقصير .

قلت : متى حل هذا بقلبه : في أول شأنه ، أو في آخر مقامه ؟

قال : هذا لازم له كما لزمه الإيمان ، لا يزول إلا بزواله ، وهذا الخوف هو الذي يكون في بدايته ، حتى إذا صار إلى خوف الفوت ، صار إلى الخوف الذي يكون في أعلا حال[١] .

فكان الخوف الأول يطرقه خطرات ، وصار خوف الموت وطنات .

قلت : كيف أخاف من أحبه ؟

قال : أفهم عني ويحك ، واجمع همك للجواب ، إن المحب لله عز وجل يعلم أن مولاه يحب منه الخوف ، فلزمه الخوف ضرورة ، لأن الله عز وجل يحب من المحبين له الخوف منه ، ولو لم يخف المحب الله لم يكن موافقاً له سبحانه ، لأن المحبة اتباع محاب الله عز وجل ، ولو سقط عنه الخوف وقع به الأمن ، ودخل

---

(١) خوف التقصير ملازم لعقد الايمان ، فهو خوف التقصير في الاتباع والقيام بشعائر الايمان . أما النهاية فهو خوف أن يفوته الحب ، أو يفوته شيء لم يؤده لمحبوبه . والخوف الأول خوف أحوال ، والثاني خوف مقامات .

في المحظور ، لأن الأمن محظور ، لأن الله عز وجل يقول : ﴿ . . . فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ ﴾[٢] . ولو زال الخوف عن قلبه لزالت المراقبة منه .

قلت : الحالة التي تكشف لهم عن قلوبهم شديد الخوف ، وكثرة الأحزان ، ما هي ؟

قال : الرجاء بحسن الظن ، لمعرفتهم بسعة فضل الله عز وجل ، وأمل النظر إلى ذي الكبرياء إذا وردوا عليه .

ولو لم يحسن ظنهم بالله عز وجل فيأملون منه أن يظفروا بمرادهم ، لولا ذلك لتقطعت أنفسهم حسرات ، وماتوا كمداً . وقد روى عبد الواحد بن زيد[٣] قال : قال الحسن بن أبي الحسن البصري : « لو علم المحبون لله عز وجل في الدنيا أنهم لا ينظرون إلى الله عز وجل في الآخرة ، لتقطعت أنفسهم حسرات ، وماتوا كمداً ، ولما هناهم عيش الدنيا ، ولتنغصوا من الوله ، لشدة قلوبهم برجاء روح الظفر[٤] بمقعد صدق عند مليك مقتدر » .

فيهدأ روعهم ، ويسكن هيجان خوفهم ، وترجع إليهم قلوبهم ، فهو يتولاهم بصنعه وتقويمه ، ويتعاهدهم بلطفه ، ويسعفهم بتوفيقه ، فأمرهم على الاصابة والتوفيق ، هم أكثر الناس صواباً ، وأطهرهم أخلاقاً ، ليس شيء آثر عندهم من الله عز وجل ، ولا لهم غيرة ولا غنى إلا به ، ولا يؤملون غيره ، ولا يرجون سواه .

قد اتخذه وكيلاً في جميع أحواله ، راضياً بفضله ، شاكراً لآلائه ونعمائه ،

---

(٢) الأعراف : ٩٩ .

(٣) عبد الواحد بن زيد . قال الحارث بن عبيد : كان عبد الواحد يجلس الى جنبي عند مالك بن دينار ، فكنت لا أفهم كلام مالك من بكاء عبد الواحد ، حتى أصابه الفالج ، فسأل الله أن يطلقه اذا أراد الوضوء ، فكان ينطلق للوضوء ثم يعاوده الفالج . آلى على نفسه ألا ينام الليل ، أسند عن الحسن البصري . وأسلم الكوفي (صفوة الصفوة ١ / ٧٠) .

(٤) صفوة الصفوة ١ / ٦٠ .

موقناً بعظمته وكبريائه ، راضياً غير مختار ، يتوقع مواقع القدر من الجبار ، قد أخرج من قلبه التملك والاختيار لنفسه ، لموضع الثقة منه بربه ، وحسن الظن بسيده ، فألف القلب محبته ، واشتاق الى رؤيته ، فألهمه علماً من علمه ، وعرفه ما لم يكن يعرف ، فعن الله سبحانه أخد علمه ، وبأمر الله عز وجل أدب نفسه ، حتى طهرت له أخلاقه ، وغابت مساويه ، وظهرت محاسنه ، لما آثر ربه ، على محبة نفسه ، فتمت عليه من الله النعمة في الدنيا والآخرة .

قلت : ففي أي شيء أكثر صنيعهم ؟ وما الغالب على قلوبهم في جميع أحوالهم ؟

قال : كثرة الذكر لمحبوبهم على طريق الدوام ، لا ينقطعون ولا يملون ولا يفترون . أجمع الحكماء على أن من أحب شيئاً أكثر من ذكره ، فذكر الله عز وجل هو الغالب على قلوب المحبين لله تعالى ، لا يريدون به بدلاً ، ولا يبغون عنه حولاً[٥] .

ولو قطعوا عن ذكر سيدهم لفسد العيش عليهم ، ولتشتتوا في أمورهم ، ولتنغصوا في أحوالهم ، فذكر الله هو المستولي على همومهم وعقولهم كما قال فتح الموصلي[٦] : « ايثار محبة الله عز وجل على محبة نفسك من علامة حبك لله عز وجل » .

فالمحب لله عز وجل لا يجد مع الحب لله عز وجل لشيء لذة ، ولا يغفل عن ذكر الله عز وجل . قال فرقد السبخي[٧] : « في بعض الكتب : لن يسأم المحبون لله عز وجل من طول اجتهادهم ، يحبونه ويحبون ذكره ، ويحببونه إلى خلقه ، ويمشون بين عباده بالنصائح ، ويخافون عليهم يوم تبدو الفضائح ، أولئك

---

(٥) ليس المراد الذكر اللساني وحده ، بل المراد جميع أنواع الذكر : اللساني ، والقلبي الخفي ، والذكر عند الأمر بالمبادرة اليه ، وعند النهي بمجانبته .

(٦) فتح الموصلي : أنظر ترجمته في طبقات المناوى ١/١٤٥ .

(٧) فرقد السبخى . بالباء والخاء . ويخطىء من يجعلها بالنون والجيم ، نسبة إلى السبخة ، زاهد عالم عابد ، مات عام ٢٠٤ هـ .

أولياؤه وأحباؤه وأهل صفوته ، فأولئك لا راحة لهم دون لقائه » .

وقال بعض الحكماء : « ما تلذذ المتلذذون بشيء ألذ من ذكر الله تعالى ومحبته » . ويروى عن رجل من أهل البحرين يكنى أبا سليمان أنه كان يقول في جوف الليل : « قرة عيني ، وسرور قلبي ، ما الذي أسقطني من عينك ، ثم صرخ صرخة وأتبعها البكاء ثم قال : إلهي ، طوبى لقلوب ملأتها من خشيتك ، واستولت عليها محبتك ، فخشيتك قاطعة لها عن سبيل كل معصية ، خوفاً لحلول سخطك ، ومحبتك مانعة لها من كل لذة غير ذكرك ومناجاتك » .

ويروى عن أبي نوح[٨] قال : سمعت رجلاً من العباد يقول : إذا سئم الطالبون من طلبهم فلا يسأم محبوك من ذكرك ومناجاتك .

وكانت رابعة العدوية[٩] إذا جنها الليل تقول : « قد جاء الليل ، واختلط الظلام ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وخلوت بك يا محبوبي » .

وقال ذو النون[١٠] : « ما أولع امرؤ بذكر الله سبحانه إلا أفاد منه حب الله عز وجل ، والغالب على قلوب المحبين لله عز وجل كثرة الذكر لله عز وجل » .

* * *

---

(٨) أبو نوح لم نعثر على ترجمته فيما بين أيدينا من مصادر .

(٩) رابعة العدوية بنت اسماعيل أم الخير ، مولاة آل عتيك ، البصرية صالحة مشهورة من أهل البصرة ، لها أخبار في العبادة والنسك ، ولها شعر . توفيت بالقدس من ظاهر شرقها على رأس جبل الطور ماتت عام ١٣٥ هـ (وفيات الأعيان ١/١٨٢) .

(١٠) ذو النون المصري الاخيمي أبو الفياض ـ أو أبو الفيض ـ . أحد الزهاد العباد المشهورين من أهل مصر نوبي الأصل من الموالي ، كانت له فصاحة وحكمة وشعر ، وهو أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال و المقامات فأنكر عليه عبد الله بن الحكم ، واتهمه المتوكل العباسي بالزندقة ، فاستحضره اليه ، وسمع كلامه ، ثم أطلقه ، فعاد الى مصر ، وتوفي بالجيزة عام ٢٤٥ هـ (وفيات الأعيان ١/١٠١ وميزان الاعتدال ١/٣٣١ والحلية ٩/٣٣١ وطبقات الشعراني ١/٥٩) .

مسألة (٣١)

في شرح المراقبة وبيانها

قلت : رحمك الله ، ما المراقبة ؟ ما أوائلها ؟

قال : علم القلب بقرب الرب عز وجل .

قلت : وكل من علم قرب الله عز وجل منه هو مراقب ، ويستحق اسم المراقبة ؟

قال : إنما سألتني عن أوائل المراقبة ، وكل من كان معه العلم بهذا فمعه شيء من المراقبة ، ولا يستحق أن يقال له : مراقب .

قلت : فما المراقبة في نفسها ، التي تورث صاحبها وتكمل له الاسم ، ويستحق أن يسمى مراقباً ، ويسمى بها ؟

قال : دوام علم القلب بعلم الله عز وجل في سكونك وحركتك علماً لازماً للقلب ، بصفاء اليقين ، وكشف غطاء حجب الظلم[1] ، غير قاطع عن النظر بمشاهدة الغيب . فعندها يا فتى تغيب أسباب الغفلة عن القلوب بدواهيها ، فيعقل عن الله نصائح الحكمة بما فيها ، ويكشف له اليقين عما فات منها .

قلت : رحمك الله ، فما يوصله إلى هذه الحالة ؟

---

(١) الظلم : بتشديد الظاء وضمها وفتح اللام ، جمع ظلمة .

قال : قطع علائق الأشغال ، ولزوم العلم ، والتعاهد بالعناية والرعاية .

قلت : ما علامة ظاهر المراقبة ؟

قال : إن الحالة التي تكشف عن حال المراقبة : اجتماع أطرافه ، والانفراد بها عن غيرها ، حتى إذا نظر إليه ناظر قال : هذا ساه مشغول القلب ، مفسود العقل ، لما قد تمكن فيه من دوام مراعاة المراقبة ، ولزوم العناية .

قلت : اكشف لي ما تقول ، أي شيء علامة هذا ، حتى يصح عندي أنها هي ؟

قال : نعم يا فتى ، ربما مر الرجل الذي يعرفه فينكره ، وربما كلم فلم يتكلم ، وربما مشى فلم يلتفت ، حتى يصير إلى الموضع الذي يريده ، لما غلب على عقله ، واستولى على همه من أخذ المراقبة لقلبه ، كما روى عن عتبة الغلام[٢] أنه كان يمشي في طرقات البصرة باسقاط التمييز في الخلق ، وربما مر بوالده فلا يكلمه ولا يسلم عليه حتى يعتبه ويشكوه إلى اخوانه ، فيقولون له : إذا مر بك بعد هذا فحركه ، فإنه لا يعلم بمكانك .

وكما روي عن عبد الواحد بن زيد أنه قيل له : هل تعرف في زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخلق ؟ قال : ما أعرفه ، إلا أن رجلاً سيدخل عليكم الساعة . فما كان أسرع من أن دخل عتبة الغلام ، فقال له عبد الواحد بن زيد : من أين جئت ؟ قال : من موضع كذا وكذا ، وكان طريقه على السوق . فقال له عبد الواحد : من لقيت في طريقك ؟ قال : ما رأيت أحداً .

وكما روي عن بعضهم : أنه كان يختلف إلى أستاذيه عشرين سنة ، وكان طريقه على السوق ، ولم يكن يميز بين رجل وامرأة[٣] .

وكما روي عن يحيى بن زكريا عليه السلام : أنه مر بامرأة فدفعها على

---

(٢) عتبة الغلام . انظر ترجمته في طبقات المناوى ١ / ١٧٠ .

(٣) ومن هذا اللون ما رواه الجنيد البغدادي : أنه كان يخرج مع الحارث المحاسبي الى الصحراء ، فكان يسير الى جنبه ، وكأن الطريق خال وليس معهما ، أحد ، وهما في شوارع بغداد .

وجهها ، فقيل له : لم فعلت هذا ؟ فقال : ما ظننته إلا جداراً .

فهذا يا فتى علامة صدق المراقبة : أن تصير الهم واحدا .

قلت : فإلى أي شيء تنقله المراقبة وتؤديه ؟

قال : تبلغه إلى الحياء من الله عز وجل ، والعظمة له ، وكل حال جميل ، كما روي عن أبي الوليد(٤) : قال نبئت أن امرأة كانت بالبصرة تقول لقلبها : فقدتك من قلب ، فما أقساك ، أصبحت وأمسيت لعظمة الله ناسياً ، يا إلهي ، فكيف لي بالقرب منك وقاسي القلب منك بعيد .

* * *

(٤) أبو الوليد هو الناجي . أنظر ترجمته في طبقات المناوي ١ / ١٧٥

مسألة (٣٢)

في معنى الحياء وبيانه

قلت : رحمك الله ، ما معنى الحياء ؟

قال : تقبض القلب من مطالعته .

قلت : زدني علماً بالحياء .

قال : حظر القلب وقصره وحصره عن الانبساط .

قلت : شيء غير هذا ؟

قال : الامتناع من كل خلق رديء لا يرضاه الله عز وجل .

قلت : ما علامة المستحيي من الله عز وجل ؟

قال : لا يرى في المكان الذي يستحيي منه .

قلت : فما الذي يقوي الحياء ، ويزيد في قدره ؟

قال : معرفة القلب بظاهر النعمة ، مع اعتقاد كثرة التفريط ، وتضييع الشكر لله تعالى .

قلت : أليس فيه جواب غير هذا ؟

قال : علم القلب بمعرفة السؤال ، والوقوف بين يدي الله عز وجل ، فيسأله عن مثاقيل الذر .

قلت : ما الذي يزيد في قوة قدر الحياء ؟

قال : أن تعلم أنك بعين الله عز وجل في جميع منقلبك ، لا يخفى عليه شيء من حركتك وسكونك .

قلت : ما الغالب على قلب المستحيي ؟

قال : تعظيم رؤية من يراه ، المقتدر على عقوبته ، المسبل عليه ستره ، المتواتر عليه نعمه ، الذي يعلم منه حزاز حركة الضمير ، وخفي مكنون سويداء القلب .

قلت : ما علامته في ظاهره ؟

قال : تقبض الجوارح عن الانبساط . والدليل على ذلك فعل النبي ﷺ حين كشف فخذه ، فدخل عثمان بن عفان رضي الله عنه فقبضها وقال : « ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة » ؟[1] .

وقال مالك بن دينار[2] : « قد استحييت من الله عز وجل من دخولي الخلاء ، وددت الله تعالى جعل رزقي في حصاة أمصها حتى أموت » .

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه لا يدخل الخلاء إلا متقنعاً حياء من الله عز وجل .

فهذا من علامات الحياء من الله تعالى في الظاهر ، وكذلك تقبضه في الباطن امتناعاً من كل لذة وشهوة لا توافق محبة الله عز وجل .

قلت : فهل في حالة الرخصة لموضع الشبهة ؟

قال : سبحان الله ، والله انهم ليستحيون من الله أن ينبسطوا إلى فضول

---

(١) أخرجه الشيخان في المناقب .

(٢) مالك بن دينار البصري ، أبو يحيى . من رواة الحديث ، كان ورعاً يأكل من كسبه ، ويكتب المصاحف بالأجرة . توفي بالبصرة . (وفيات الأعيان ١/٤٤٠ ، حلية الأولياء ٢/٣٥٧ ، تهذيب التهذيب ١٠/١٤ ، ١٥) .

المباح ، فكيف ينبسطون إلى الشبهات ؟

قلت : زدني من علاماته الظاهرة .

قال : ربما مشى فغطى رأسه حياء من الله عز وجل ، وخشوعاً له ، وتذللاً واستكانة وهيبة ، لعلمه بنظر الله عز وجل في حالته ، وربما لم يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله عز وجل .

وهكذا كان عطاء السلمي[٣] . وقيل لبعضهم : لم تصلي خارج المسجد ؟ قال : أستحيي من الله عز وجل .

ويمسي ويصبح وليس له جارحة تضمر على ما يكره الله عز وجل ، فأفعاله بها على حسن الاصابة ، ومذاهبه على الموافقة ، كثير الاحتمال ، واسع العلم ، حسن السمت ، عظيم الحلم ، دائب الفكر ، كثير الذكر ، منكسر الظاهر ، قليل المؤنة ، دائم الكد ، ظريف المذهب .

* * *

(٣) عطاء السلمي أنظر ترجمته في طبقات الصوفية ٢٤٠ .

مسألة (٣٣)

في معنى الظرف

قلت : فما معنى الظرف ؟

قال : ترك أخلاق الريب ، مع دوام السخاء والكرم ، طاهر الأخلاق ، صافي الهم ، حسن اللفظ ، كثير الصمت ، دائم الفكر ، الغالب عليه الخوف والحياء من أن يشين قدره بحالة تستريح إليها نفسه ، فيميل إلى طباعها .

فهذا الذي صدق في حيائه من الله تعالى .

قلت : ما الذي يشين الحياء ويوهنه ؟

قال : الإشارة إلى موضع الأطماع كما قال الحكيم : يستحيونه أن يراهم يشيرون بالأرواح نحو سواه .

قلت : زدني في شرح الحياء وما يوهنه .

قال : إذا ترك ما وصفت اتسعت به الخطا عن مواضع أعمال الريب .

قلت : وما أعمال الريب ؟

قال : كثرة الحرص[1] ، وتضييع الهم[2] ، والميل معه الى الرخصة ، وأخذ

---

(١) المراد : الحرص على متاع الدنيا ، والحرص عليه في ذاته هو المذموم أما تناوله دون حرص عليه فلا شيء فيه .

(٢) تضييع الهم يعني : تعدده ، واخراجه عن صفة الوحدة التي لا تكون الا بتوحيد القصد والرغبة لله وحده .

ما لا يضره فقده ، ومحالفة الأطماع الكاذبة مع طول الأمـل[٣] ، وخوف الفقـر ، وتضييع الشكر .

* * *

(٣) طول الأمل هو الذي يصيب الانسـان بالأطمـاع الكاذبـة . ولا يبرىء الانسـان منه إلا العلم بـأن المكتوب من الرزق لا بـد أن يصيبك ، ومـا ليس لك لا يمكن أن تصيبـه . والسعي مأمـور به من الله .

مسألة (٣٤)

في صفة الخوف ، وشرح نعت الخائفين

قلت : رحمك الله ، ما السبيل إلى خوف الخائفين ، بعد الانتقال من خوف المستأنفين ؟

قال : يا فتى ، أما خوف المستأنفين فهو : خوف الجنايات والعقوبات ، فعندها يجدون في المكابدات ، ويخلفون الراحات بالتقرب إلى الله عز وجل في الليالي الداجيات .

وأما خوف الخائفين فهو أعلى من هذا ، هو : خوف العارفين ، وهو : خوف معرفة سطوات الله عز وجل ونقمه ، وسرعة القدرة في النكال والمثلة ، ليكون منهم الخوف على قدر المخوف ، والرهبة على قدر المرهوب ، لأنه ليس خوفك من الأسد كخوفك من القط ، وليس خوفك من الملك كخوفك من أعوانه .

وكذلك ليس خوفك من النار وشدة حركتك عند ذكرها كشدة خوفك وحركتك عند ذكر صاحب النار ، المالك لها ، لأن النار لا تضر ولا تنفع إلا بأمر الله عز وجل ، الذي يملك الضر والنفع . وكذلك الخوف في القلوب يا فتى .

قلت : والخوف في نفسه ما هو ؟ وما معناه ؟

قال : هو مطالعة القلوب لسطوات الله عز وجل ونقمه ، فيولد على القلب فزع خوف الوعيد ، فهذا نعت الخوف في القلوب .

قلت : فما علامة الخائف ؟

قال : الفرار من مواطن العقوبات رجاء السلامة ، وشدة الحركة ، وكثرة البكاء ، وطول العزلة ، والنفور من ذكر العاصين .

قلت : صف لي ما علامته الظاهرة ؟

قال : تغير اللون عند الحوادث والريح العاصف ، والرعد القاصف ، وقد كان النبي ﷺ إذا سمع الرعد تغير لونه ، ودخل وخرج[1] ، وعند كسوف الشمس والقمر ، ومثل الشهب في السماء ، والظلمة ، والزلزلة ، وقد روي عن عطاء السلمي وكان في بغداد ذات يوم ، فخرج منهم رجل فنظر في السماء ورجع فقال : سحابة قد نشأت في السماء ، فوثب فزعاً ، فنظر إليها ، ثم وضع يده على أم رأسه وجعل يبكي ويقول : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2] .

وقال جعفر بن سليمان الضبعي[3] : هاجت ريح بالبصرة ، فسعى الناس إلى المسجد ، فأتيت عطاء لأنظر ما حاله ، فإذا هو قائم في حجرته ، ويداه على أم رأسه وهو يقول :

إلهي وسيدي ، لم أكن أظن أنك تنظرني[4] حتى تريني أعلام الآخرة .

وقال العوام[5] : كنت إذا رأيت ابراهيم النخعي[6] رأيته كأنه غضبان ،

---

(١) أخرج هذا المعنى ابن السني في عمل اليوم والليلة . وما كان من الرسول ﷺ إلا لأنه يرى ما لا نرى ، ويخشى أن يشتد غضب الله فتنزل بالناس القوارع والمهلكات .

(٢) الأحقاف : ٢٤ .

(٣) جعفر بن سليمان الضبعي انظر ترجمته في طبقات الصوفية ١٨٠ .

(٤) تنظرني : تمهلني وتطيل أجلي .

(٥) العوام لم نعثر له على ترجمة فيما لدينا من مصادر .

(٦) ابراهيم النخعي كان يكره الشهرة . روى عن خاله الأسود بن يزيد ، وعلقمة بن قيس ، ومسروق ، وغيرهم . وروى عنه حماد بن أبي سليمان ، والأعمش ، ومنصور ، وغيرهم . قال الشعبي : كان خيراً في الحديث . دخل على عائشة وهو صغير وروى عنها ، وقيل : أنه لم يسمع منها . مات عام ست وتسعين وهو ابن تسع وأربعين سنة .

وكنت إذا رأيت عبد الله بن أبي الهذيل[7] رأيته كأنه مذعور الدهر كله .

وذكر عطاء أنه كان إذا هاجت الريح بالبصرة ، أو حدث بها حادث قال : « هذا من أجلي يصيبهم ، لو مات عطاء لاستراح أهل البصرة »[8] .

وذكر عن عتبة الغلام أنه اشترى تمراً بنصف دانق ، فهاجت الريح ذلك الوقت ، فخرج عتبة هارباً على وجهه وهو يقول : يا رب لا أعود ، يا رب لا أعود . فلما سكنت الريح أقبل على نفسه ، وجعل يعاتبها ويقول : يا نفسي ، هذا من جرأتك على الله عز وجل ، وشرائك التمر بالقراريط .

وكان عبد الواحد بن زيد يقول : إذا ارتفع هذا الغيم لأنت بطن عطاء من شدة أن ينزل به العذاب .

وكان يقال : ما هلك من هلك حتى حيل بينه وبين السماء .

فهذه علامة الخائف في ظاهره .

قلت : فما العلامة في باطنه ؟

قال : إنه ربما أراد أن يسأل الله عز وجل حاجة أو يدعوه ، فينقطع عن ذلك مخافة أن يمنع ، لمعرفته بنفسه ، وعظيم قدر الله تعالى عنده ، ولا تحرك حارك إلا وظن أنه مأخوذ عنده بالعاجل ، كما روي عن مطرف بن عبد الله بن الشخير قال : سمعت ضجة الناس بعرفات ، فهممت أن أحلف أن الله قد غفر لهم ، ثم ذكرت أني فيهم فأمسكت .

وروي عن مسروق بن محمد[9] ، وكان من الخائفين : أن رجلاً من خثعم قرأ عليه : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْداً وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِين إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾[10] . فقال : أعد عليَّ ويحك ، فإني أراني من المجرمين ، ولا أراني

(٧) عبد الله بن أبي الهذيل : انظر ترجمته في الكواكب الدرية ٢ / ٧٥ .

(٨) هذه مبالغة غير مقبولة ، فما من أجل رجل صالح ينزل البلاء ، حتى ولو كان فاسقاً ، فما من أجل مخطيء واحد ينزل البلاء ، ولكنها حساسية مفرطة ، أو أقوال بالغ فيها الرواة .

(٩) مسروق بن محمد جد سفيان الثوري . كان عابداً زاهداً عالماً رأساً في العلم مات عام ١١٥ هـ .

(١٠) مريم : ٨٥ ، ٨٦ .

من المتقين . فأعادها عليه ، فشهق شهقة لحق منها بالآخرة .

قلت : كيف حاله عند سكون هيجان الخوف عنه ؟

قال : تراه قاعداً مستوفزاً ، كأنه يريد شيئاً يريده أو يراد به ، كما قال عبد الله بن المبارك :

مستوفزين على رحل كأنهم ... ركب يريدون أن يمضوا وينتقلوا
حتى لقد جعلوا أوقاتهم ابلا ... فلن يحطوا رحال الإبل أو يردوا

قلت : والحركات التي يظن أنه مأخوذ عندها ، ما هي ؟

قال : مثل : الهدة[11] ، والوجبة[12] ، والضجة على غفلة ، والرعد ، والبرق ، والريح ، أو كلمة تصادف منه مواجيد قلبه .

وقد روي عن بعضهم أن كان يوقد تحت قدر له ، فأصاب وجهه شيء من سواد القدر ، فقالت له ابنته : يا أبتاه ، وجهك أسود . فصاح صيحة خر مغشياً عليه ، فلما أفاق مسح بيده على وجهه وقال : خفت أن يكون الله قد سود وجهي في الدنيا قبل الوصول إلى الآخرة .

ألا ترى أنها لما صادفت الكلمة ما قام في وهمه من التخوف استغرق قلبه في تعجيل النكال ؟

وقد روي عن زرارة بن أوفى[13] : أنه قرأ في محرابه : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾[14] . فشهق شهقة ورفع من المحراب ميتا .

وقال عثمان بن عمارة[15] : أخبرني صالح المري[16] ـ وكان وصافاً لطريق

---

(١١) الهدة : الصوت الشديد المفاجىء .

(١٢) الوجبة : حركة القلب بالخوف .

(١٣) زرارة بن أوفى : انظر ترجمته في كتاب الكواكب الدرية ٢/٩٦ .

(١٤) المدثر : ٨ ، ٩ .

(١٥) عثمان بن عمارة : انظر ترجمته في الكواكب الدرية ١/١٣٣ .

(١٦) صالح المري هو ابن بشير ، أبو بشر ، كان مملوكاً لامرأة من بني مرة بن الحارث ، من بني بني عبد

العابدين ـ قال : قدم علينا محمد بن صبح السماك[17] ، فقال : أرني عجائب عبادكم . فذهبت به إلى رجل ، فإذا هو في خص له ، فاستأذنا ودخلنا ، فإذا هو يعمل الخوص ، فقرأت عليه : ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾[18] . فشهق شهقة ، فإذا هو قد يبس مغشياً عليه .

فخرجنا من عنده ، وتركناه على حاله ثم أتينا رجلاً آخر ، فاستأذنا عليه ، فقال : ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا . فدخلنا ، فإذا هو جالس في مصلى له ، فقرأت عليه : ﴿ . . . ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾[19] . فشهق شهقة بدر الدم من منخريه ، ثم سقط متشحطا في دمه ، مغشياً عليه .

فخرجنا من عنده ، وتركناه على حاله ، حتى أدرته على ستة أنفس ، كل نخرج من عنده وندعه على مثال صاحبه .

حتى أتينا السابع ، فاستأذنا عليه ، فقالت امرأة من وراء الخص : ادخلوا . فدخلنا ، فإذا شيخ كبير فإن في مصلاه ، فسلمنا وجلسنا ، فلم يعقل مقصودنا ولا سلامنا ، فقلت له بصوت عال : إن للخلق غدا موقفاً ومقاماً . فقال : بين يدي من ويحك ؟ ثم بقي مبهوتاً ، فاتحاً فاه ، شاخصاً ببصره ، ويصيح بصوت ضعيف ، حتى انقطع صوته .

القيس فأعتقته ، وصفه سفيان بأنه نذير قوم ، بعد أن ظن أنه من القصاص ، أسند عن الحسن ، وابن سيرين ، وثابت ، وقتادة ، وبكر بن عبد الله المزنى ، في خلق كثير من التابعين ، مات سنة ١٧٠ هـ (صفوة الصفوة ١/١٠٨) .

(١٧) محمد بن صبح السماك ، يكنى أبا العباس . أسند عن عدة من التابعين ، منهم : اسماعيل بن أبي خالد ، والأعمش ، وهشام بن عروة . روى عنه حسين الجعفي ، ويحيى بن يحيى النيسابوري ، وأحمد بن حنبل . وهو كوفي ، ولكنه قدم بغداد فمكث بها ثم عاد إلى الكوفة ، ومات بها سنة ١٨٣ هـ (صفوة الصفوة ١/ ٨٠) .

(١٨) غافر : ٧١ ، ٧٢ .

(١٩) ابراهيم : ١٤ .

فلما سمعت ذلك امرأته قالت : اخرجوا عنه ، فانكم لا تنتفعون به ، فخرجنا من عنده ، وتركناه على حاله ، فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم ، فإذا ثلاثة منهم أفاقوا ، وثلاثة لحقوا بالله عز وجل ، ومكث الشيخ ثلاثة أيام على حالته لا يعقل ، ولا يؤدي فرضاً ولا نفلا .

وقال صالح المري : قال لي مالك بن دينار : يا أبا بشر ، اغد بنا نزور أبا جهين[2] مسعود الضرير . قال : فغدوت إلى الجبان ، فإذا هو قد سبقني ومعه محمد بن واسع[21] ، وثابت البناني[22] ، وحبيب الفارسي[23] ، فلما رأيتهم قلت : والله هذا يوم سرور .

قال : فانطلقنا نريد أبا جهين ، حتى أتينا موضعه ، فسألنا عنه ، فقالوا : الآن يخرج إلى الصلاة . قال : فانتظرناه حتى خرج علينا رجل إن شئت قلت : نشر من قبره . فوثب رجل منا فأخذ بيده فأقامه على باب المسجد ، فأذن ، ثم أمهل يسيرا ، ثم دخل فصلى ما شاء الله ، ثم أقام الصلاة ، فصلينا معه ، فلما قضى صلاته جلس كهيئة المهموم ، فتآمر القوم في السلام عليه ، فتقدم محمد بن واسع فسلم عليه ، فرد عليه السلام وقال : من أنت ؟ يرحمك الله . قال : أنا محمد بن واسع . فقال : أهلاً وسهلاً ومرحبا . أنت الذي يزعم هؤلاء أنك أفضلهم ؟ ـ يعني أهل البصرة ـ لله أنت ان قمت بشكر ذلك . اجلس .

---

(٢٠) أبو جهين مسعود الضرير لم نعثر له على غير هذه القصة في حلية الأولياء .

(٢١) محمد بن واسع قال عنه أبو نعيم في الحلية : كان عالماً واعياً لا ناقلاً راوياً ، وعي فارعوى ، ونوى فاستوى ، قليل الكلام والرواية ، طويل الصيام والسعاية ، روى عن أنس ، ومطرف والحسن ، وابن سيرين ، وسالم ، وعبد الله بن الصامت ، وأبي بردة ، رضي الله عنهم .

(٢٢) ثابت البناني أبو محمد ، أسند الحديث عن ابن عمر ، وابن الزبير ، وشداد ، وأنس ، رضي الله عنهم . وروى عنه جماعة من التابعين ، منهم : عطاء بن أبي رباح ، وقتادة ، وأيوب ، ويونس بن عبيد ، وسليمان التيمي وحميد ، وداوود بن أبي هند . كان رأساً في التابعين ورعا وزهداً . كان يقول : اللهم إن كنت أعطيت أحد الصلاة في قبره فأعطنيها ، فما كان الله ليرد ذلك الدعاء (حلية الأولياء ١/٢١٩) .

(٢٣) حبيب الفارسي أنظر ترجمته في طبقات الصوفية ٢٠٣ .

قال : فقام إليه ثابت البناني ، فسلم عليه ، فرد عليه السلام وقال : من أنت ؟ يرحمك الله . قال : أنا ثابت البناني . قال : مرحبا يا ثابت ، أنت الذي يزعم أهل البصرة أنك أطولهم صلاة ؟ اجلس ، لقد كنت أتمناك على ربي .

فقام إليه حبيب أبو محمد ، فسلم عليه ، فرد عليه ، وقال : من أنت ؟ يرحمك الله . قال : أنا حبيب أبو محمد . قال : مرحبا يا أبا محمد ، أنت الذي يزعم هؤلاء أنك لن تسأل الله شيئاً إلا أعطاك ؟ فهلا سألته أن يخفي لك ذلك ؟ اجلس يرحمك الله ، وأخذ بيده وأجلسه إلى جنبه .

قال : فقام إليه مالك بن دينار ، فسلم عليه ، فرد عليه وقال : من أنت ؟ يرحمك الله . قال : أنا مالك بن دينار . قال : بخ بخ ، إن كنت كما يقولون ، أنت الذي يزعم هؤلاء أنك أزهدهم ؟ اجلس ، الآن تمت النعمة ، وأمنيتي على ربي .

قال صالح المري : فقمت إليه ، فسمعته يقول لهم : انظروا غدا كيف تكونون بين يدي الله عز وجل بجمع القيامة . قال : فسلمت عليه ، فرد علي وقال : من أنت ؟ قلت : أنا صالح المري . قال : أنت الفتى القارىء ، وأنت أبو بشر ؟ قلت : نعم . قال : اقرأ يا صالح ، لقد كنت أتمناك ، وأحب أن أسمع قراءتك .

قال صالح : فحضرني والله ما كنت قد فقدته ، فابتدأت ، فما استتممت الاستعاذة حتى خر مغشياً عليه ، ثم أفاق وقال : عد في قراءتك ، فإني لم تنقطع نهمتي منها . قال صالح : فرأيت منه عجباً لم أره من أحد من المتعبدين . كان إذا سمع القرآن فتح فاه .

قال : فقرأت : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾[٢٤] .

---

(٢٤) الفرقان : ٢٣ ، ٢٤ .

قال : فصاح صيحة ، ثم انصب لوجهه ، وتكشف بعض فخذه ، وجعل يخور كما يخور الثور . ثم هدأ فذهبنا ننظر فإذا هو قد خرجت روحه ، كأنه خشبة ملقاة .

* * *

بَدْءُ مَنْ أَنابَ إلى الله



بسم الله الرحمن الرحيم

عونك اللهم

بداية العودة إلى الله

قال أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي :

قلت : ما بدء من أناب إلى الله عز وجل ؟

قال : ابتداء من أقبل على ربه ، وعمل لطلب مرضاته : معرفة الله عز وجل ، وما أوعد ، مما وعد وتوعد ، ومعرفته بنفسه ، كيف سوء رغبتها ، وضعفها في طلب نجاتها في آخرتها ، فأدبها بأدب الله ، فاستقامت إلى محبة الله عز وجل .

معرفة الله :

قلت : وكيف كان بدء ذلك كله ، حتى أدبها بأدب مولاه ؟

قال : إن أول ذلك ، أن الله سبحانه وتعالى أخطر بقلب عبده العارف ذكره ، وذكر آخرته ، وحركه للفكر والتذكر لعظيم قدر مولاه ، وقدر رضاه وسخطه ، وما وعد وتوعد ، واستنار بذلك قلبه[1] .

---

(١) إنما يستنير القلب بهذا التذكر إذا استمر عليه الانسان وأدمنه، حتى صار شغله الشاغل، وبذلك تزول الحجب عن القلب ، ويعود إلى أصله الذي فطره الله عليه . انظر (القصد إلى الله وآداب النفوس باب معرفة النفس) . وفيها يذكر المحاسبي أن إدمان التذكر للموت والآخرة ينير القلب ويخليه تماماً من الوسوسة .

خلائق النفس الأمارة بالسوء :

ثم نبهه لمعرفته بنفسه . وأول ذلك : أن نبهه لتذكر ما سلف من جناية نفسه عليه ، من كثرة الذنوب التي كتبت عليه في صحيفته ، والتي لا يمحى ما فيها عنه حتى يوقفه عليه ربه ، ويسائله عن جميع ما جنت عليه نفسه ، مما كتبه وأثبته عليه ، فيقر بأعظم الحياء ، وأشد الخطر ، وأعظم الخوف والوجل .

ومن ذلك ، فإنه لا يأمن أن يبدو له عند قراءة ما في صحيفته من الله الغضب ، فيجر ويسحب من بين يدي الله إلى عذاب الأبد .

ثم ذكره : أن نفسه كانت في جميع ما جنت عليه من سالف عمره تأتيه بسرور ونشاط ، لم تزل مختلفة[1] راغبة ، متيقظة فطنة ، متلحظة إلى ما يهلكها في آخرتها ، مسرورة متنعمة بما يسخط مولاها ، كأن الله لا يميتها ولا يفنيها ، وعن سوء حالها لا يسألها ، وكأنه لم يزجرها ، ولم يتوعدها .

بل كأنه ازدجرها وتوعدها ، ولا يقدر على عذابها بما توعدها به ، أو كأنها ممتنعة منه ، ولها ناصر ينصرها .

وكانت ـ مع سرورها ونشاطها في جميع ما يكره ربها ـ معرضة عن (سبيل) نجاتها في آخرتها ، مستثقلة لأقل القليل مما يرضى عنها ربها ، نافرة ناشزة كارهة[2] مبغضة للتعرض لأسباب عزها عند مولاها .

فإن عملت بالقليل من طاعة مولاها فمجبورة مكرهة . بعد جذب منه لها ومجاهدة .

فإن طال المكث في طاعة مما يقربها إلى ربها ، نازعته إلى تركها[3] . وثقلت عليه ما هو فيه (من عمل الآخرة) . وذكرته طيب راحة بدنه في ترك تعب الطاعة . وخوفته فوت بعض حوائجه .

---

(١) مختلفة : مترددة بين الشهوات .

(٢) ناشزة : نافرة عاصية .

(٣) في الأصل : إلى تركه .

وإن أراد بذل القليل من ملكه لآخرته ، ألزمته الاغتمام بنقصان ذلك من ماله ، وخوفته الفقر إن دام على خراج مثل ذلك .

فإن أبى إلا أن يقدمه لآخرته دعته إلى النقصان منه[1] .

فإن أبى إلا إخراجه بغير نقصان ، اغتمت لذلك ، ولم تزل تفزعه بعد إخراجه بذكر نقصان ماله ، لئلا يعود إلى إخراج مثله ، وتستعظم ذلك إذا أبى إلا إخراجه .

(١) وبالتالي أنسته وعد الله تعالى بمضاعفة الصدقة في الدنيا والآخرة .

العزم على تأديب النفس

فلما تبين له ذلك ، وعرف أن في طاعتها عطبه في يوم معاده ، وأن في عصيانها نجاته في آخرته[1] ، وأنها قد اعتادت سلوك (طريق) هلكته ، وألفت طول النفور والاشمئزاز مما يرضى عنده سيده ، وأنه إن هجم عليه[2] الموت ـ ولا أمان له من سرعة هجومه ـ لقي الله تعالى على ما يسخطه ، وإن بغتة الموت على حالته (هذه) كان فيها عطبه وهلاكه ، لا أن يعفو عنه ربه ، وأنه لا محيص[3] له عن الموت ، ولا معدل[4] له عن لقاء ربه، وأنه لا رجعة له إلى الدنيا بعد ندمه ، وبعد لقاء خالقه ، وأن تغرير (النفس إياه) بضعف بدنه خطأ عظيم . وحمق بين ، وهلاك وعطب .

الوعظ والتذكير :

فألزم قلبه العزم على تأديبها ، والمواظبة على توقيفها ، والإلحاح على معاتبتها ، والدوام على موعظتها ، وتذكيرها ربها ، وترداد ذكر عظيم خطرها ، وأنها لا بد لها من المصير إلى مولاها .

---

(١) في الأصل : في آخرتها .
(٢) في الأصل : هجم عنده .
(٣) لا محيص : لا مخرج .
(٤) لا معدل : لا مفر .

فلم تمكنه من معاتبتها ، وأعرضت عما يقرعها به ويذكرها .

عزل النفس عن مواطن المعصية :

فكان أول ما بدأها بـه من الأدب لتفهم وتعقل مـا ألقي إليها : أن ألـزمها الصمت ، وحال بينها وبين من يشغلها بحديثه .

فلما لم تجد من تحادثه صمتت ، فلما طال (بها) الصمت سكتت[1] .

فلما طال السكوت تبين لها كثير مما كـانت تخوض فيـه من الخطأ والـزلل ، وانكسرت لما علمت أنها كانت خائضة في الباطل ، متعرضة لسخط مولاها .

إدمان معاتبتها وتخويفها :

ثم ابتدأ في معاتبتها . وتقريرها بالسوء الذي صنعت ، وبما هي إليه صائرة عن قليل .

فلم يـزل يلح عليها ، حتى لانت ، واعتـرفت بـذنـوبهـا ، وأقـرت بسـوء صنعها ، ودوام غفلتها عن نجاتها .

فلما اعترفت بذلك ، ذكرها عظيم جـرائمها ، وكثـرة ذنوبهـا ، وأدام ذلك عليها ، وجعله عمله ، لا عمل له غيره[2] .

فأوجع ذلك ضميرها ، فسالت دمعتها ، واستغفرت الله من سوء ما تقـدم من صنيعها .

فحمـل عليهـا ، وذكـرهـا : أن المقـام عـلى مـا عـرفت ، وبـه أقـرت ،

---

(١) الفـرق بـين السكـوت والصمت : أن الصمت سكـوت اللســان ، وشغـل النفس بـالكـلام . والسكوت : سكوت اللسان والنفس جميعاً .

(٢) مذهب المحاسبي : أن العكوف على تطهير النفس من الذنوب أفضل من عمل النوافل وهي مقيمة عـلى عمل الشر ، وأن عمـل الخير إذا خـالطه الشر انقلب إلى شر وإنمـا ترفض النفس ذلـك لثقل التطهير عليها .
أنظر (آداب النفوس : باب الإرادة) .

بعرضها[1] لأن يحل بها سخط مولاها .

ثم أخبرها : أنه لا أمان عندها أن يكون (ربها) قد غضب عليها لما أسلفت من معاصيها ، فكيف نقيم عليها بعد ذلك ؟ فأذعنت ، وسخت بالعزم على ترك المعاودة لذنوبها .

النفس تأبى مفارقة الشهوات :

فطهر قلبه من الإصرار[2] ، وأشرق واستنار ، وعاود النظر ، وردد الفكر ، وألح بالفكر في الأسباب التي كانت (النفس) تنال بها معاصيها ، من الأصحاب ، ومن الأهل ، ومن القرابة ، والخلطاء الذين كانوا يعانونها على الشهوات . فدعاها إلى قطع جميع ذلك ومباينته[3] ، وأخبرها أنها لا تصح توبتها ، ولا تتوب إلى خالقها ، إلا بهجران ذلك كله .

فنفرت ، ونشزت ، والتوت عليه ، وأبت .

علاجها بالصوم والجوع والتذكير :

فكسرها بإدمان الصيام ، فانكسرت قوى طبعها (التي نالتها) من الاغتذاء بالطعام الذي كانت تألفه بالدسم ، فانكسرت عن نشاطها ، وهي مع ذلك مولية عنه[1] .

فلما رأى أن ذلك لم يبالغ في تأديبها ، أمسها الجوع[2] . فلما ألح عليها

---

(١) في الأصل : يعرض .

(٢) الإصرار : عقد القلب على شهوة الذنب حتى ولو أقلع عنه الإنسان .

(٣) مباينته : مباعدته .

(٤) يعني بالحنين إلى الشهوات وعدم الإقبال على الطاعة .

(٥) يقصد المحاسبي بالجوع : التقلل من الطعام مع الصيام ، ولا يقصد الجوع من غير صوم ، فهو يرى أن كل عمل نافلة ليس له أصل في الكتاب والسنة فهو بدعة ، كالصدقة أصلها الزكاة ، وصوم النافلة أصله فرض رمضان ولم يفرض الله الجوع على العباد .

انظر (آداب النفوس ، باب العدل والفضل . وأعمال القلوب والجوارح : ٢٢٥ والعرائس القدسية المفصحة عن الدسائس النفسية للبكري . . ورقة ٢٥) .

الجوع ذلت وخشعت ، فأمكنت من المعاتبة ، فحمل عليها فلم تقبل ، فذكرها عذاب الله ، وسوء المصير لمن أعرض عنه ، وتعرض لمقته .

فلانت له قليلاً ، وسوفته ، ووعدته الترك لذلك عن قليل ، لتقضي بعض حوائجها ، وتداري بعض من تحبه .

فحمل عليها بالوعيد كما يحمل البطل على قرنه[1] ، وألح بالزجر والتذكير ، وعظم عندها الرب عز وجل ، وكرر عليها شدة نقمته ، وعظيم عقوبته .

الحنين إلى بعض الشهوات دون بعض :

فأذعنت ، وطاوعت إلى إجابته إلى قطع تلك الأسباب ، وأبت أن تقطع باقي أسباب معاصيها .

فأمسك عنها وهو مغموم بعصيانها ، فنوى أنها متى أرادت أن تتعرض للأسباب التي أبت أن تقطعها : أن يحجزها عنها .

فلما قطعت بعض أسبابها واستبدلت بها أضدادها : من صاحب مرشد بدلاً من الصاحب المغوي ، ومن تيقظ وتذكر بعد سهو وغفلة ، ومن تثبت وفكرة بعد طيش وعجلة ، والإدمان على مناجاة الرب جل ذكره ، بحلاوة تلاوة كتابه ، والنظر في العلم من آثار نبيه ﷺ، وآداب الصالحين بعده ـ بعد كثرة الخوض والاستراحة إلى محادثة المفسدين .

واستبدل بعد كثرة الكلام صمتاً ، وبكثرة اللحظ إلى مالا يحبه مولاه غضاً ، وبادر إلى ترك الكثير من شهواته التي تباعده من ربه ، وتوقى كثيراً مما خبث من مكاسبه ، وما لا يطيب من غذائه .

فلما بلغ هذا ، اجتمعت أنوار ذلك في قلبه[2] واستنارت مواريث الطاعة في

---

(١) القرن : المبارز من الأعداء .

(٢) الأنوار الناشئة عن ترك المعاصي هي المعبر عنها في السنة النبوية بحلاوة الإيمان ، أو حلاوة العبادة .

عقله ، وأيده الله تعالى بمعونته ، وهو الذي ابتدأ تنبيهه ، وحرك قلبه للنظر إلى نفسه ، وعرفه سوء رغبتها ، وقلة مبالاتها بآخرتها .

فلما استقر في قلبه ما وهبه الله سبحانه من نور طاعته ، والسرور بما هم به ، حيي قلبه ، وقوى عزمه ، وقهرت أنوار الطاعة هواه .

عقوبات مشروعة للنفس :

والنفس بعد ذلك يعرض لها بعض ما ألفته ، مما كانت تلتذ به . فمنه ما تتركه طوعاً ، ومنه ما تنازعه إلى معاودته .

فكل ما تركته طوعاً حمد الله الذي من بذلك عليه . وما نازعت إليه حمل عليها ، وقاتل هواه ، كمحاربته قرنه من أعدائه . فإذا تركته كرها حمد الله عليه ، وغمه قلة سخائها بتركه ، وكان حذراً منها أن تعاوده .

وما أبت إلا مواقعته زجرها . فإن انزجرت وإلا توعدها بعقوبة : أن يأخذ منها من الراحة ، وينزل بها من التعب ، والنقصان من المال ، والترك من اللذة من المباح أكثر من لذتها التي تريد أن تواقعها .

فإن انتهت بالتوعد (بذلك) حمد الله . وإن أبت إلا مواقعتها ورجت ألا يعاقبها ، وغلبته ، وغفل عنها ، وعجز عن مجاهدتها ، فرجعت إلى بعض ما يكره مولاها ـ بصرها سوء فعلها ، وخوفها أن يكون مولاها قد سخط عليها ، وأنزل بها العقوبة التي وعد أن يعاقبها بها .

فإن لم تقلع[1] أتعبها بكثرة الصلاة ، وأجاعها وأعطشها بصيام أو منعها كثيراً من شهوات الحلال التي لا تكاد أن تصبر عنها ، أو إخراج مال يتصدق به من ملكه .

---

(١) في الأصل : فلم تقلع .

بداية الهداية

فنظرت إلى لذة المعصية التي نالتها قد ذهبت ، وإلى العقوبة بها قد حلت ، وزادته العقوبة نوراً في قلبه[1] ، ونشاطاً إلى التقرب إلى ربه .

فانكسرت ، وقوى عليها ، وزجرها فانزجرت ، ووعظهـا فاتعـظت ، لأنها مؤمنة وإن عصت ربها .

وذكرها ما أنزل بها من العقوبة ، فعرفت أنه سيعاود ما عاقبها به . إن هي عادت ، فتركت ذلك ، وانصرفت عنه .

فما زال بها في كل ما تأباه ، يؤدبها بمثل ذلك ، حتى قطعت كـل سبب كان يباعدها من ربها عز وجل .

بين عقوبتها والتخفيف عنها :

فلما تركت عادتها ، واستقامت على طاعـة ربها ، تـرك شدة العقـوبة لهـا ، كراهية الملال والنفور ، ثم لم يـأمن منها أن تعـود إلى بعض ما رفضت ، مما يكره مولاها عز وجل .

فخفف عنهـا (تناول) بعض مـا يقوي طبعهـا الذي يهيج منـه هـواهـا ،

---

(١) يعني بذلك نور الطاعة التي عاقب بها نفسه ، أو نور التقلل من المباح حيث تتسع مداركـه المعنويـة تبعاً لذلك .

فمنعها من بعض لذتّها : من كثرة الطعام الذي ألفته ، من اللحم وغيره ، وشدة البطنة والامتلاء ، وتعاهدها بالصوم إن قوي عليه .

لأنه لما رأى شهوتها تنازعه من قبل طبعها ، أراد أن يكسر قوى شهواتها ، ليخلو قلبه ، فينظر إلى أعاجيب آخرته ، ووعد ربه ووعيده ، ويتيسر ويصفو ذكر ربه في قلبه(١) .

النفس تسلم قيادها :

فرع لها بالفكر والتوهم أعلام الآخرة ، فشاهد بها أهوالها وشدائدها .

وأراها بالتوهم النار والجنة من ورائها ، وأنها لا تصل إلى الجنة إلا بعد النجاة من عذابها .

فأبصرت مالا صبر لها عليه ، فسخت بترك ما يحب طبعها خوفاً أن يورثها الركون إلى ذلك مالا صبر لها عليه .

فكان مثله في ذلك كالذي وقع الداء في رجله ، فاسودت وتآكلت فخشي إن لم يقطعها أن يدب (الداء) منها إلى جميع بدنه ، فبذل بعض ما له لمن يقطعها بشهوة وسرور لقطعها ، بعدما كان يعز عليه أن تنقطع شظية من ظفر أظفارها ، ولكن لما رأى السبب الذي لا يأمن أن يؤديه إلى عطب بدنه ، سخت بذلك نفسه ، خوفاً مما هو أعظم منه .

فكذلك هذا الذي نظر إلى آخرته ، ورأى أسباب هلاكه فيها في قلبه وجوارحه ، ففارق ذلك بسخاء نفس ومحبة ، ولو كان لا يقدر عليه إلا ببذله ما

---

(١) كتب المحاسبي رسالة في أمور الآخرة سماها « التوهم » وتحدث عن مادة الفكرة في كثير من كتبه في « آداب النفوس » قال : « والزم يا أخي قلبك الفكرة في أمر المعاد ، فلا يفارق قلبك ، وتوهم بقلبك هول المطلع عند مفارقة الدنيا ، وترك ما قد يذل أهلها فيه مهج نفوسهم ، وتدنيس أعراضهم ، وأخلاق مروءتهم ، ثم تركوا ذلك كله ، وقدموا على الله فرادى وآحاداً . . . فإنك إن شغلت قلبك بذلك ، وكان فيك شيء من صحة تركيب العقل فإنه لا يعدمك الخوف اللازم المحيط بقلبك . . » أنظر (آداب النفوس . باب معرفة النفس) .

يملك لفعل ، كما بذلك ما بذل لمن قطع رجله وحسمها بالنار ، فاحتمل حرقة ذلك لخوف العاقبة ، وكذلك يحتمل المؤدب لنفسه الحرارات مخافة سوء عاقبة الأبد .

وشتان ما بين العاقبتين ، وشتان بين ما يرث القاطع لرجله من الراحة ، وبين ما يرثه الخائف من الله تعالى من الراحة في جواره .

خداع النفس

الحنين إلى الشرف بين الناس :

فألزم قلبه الحذر ، فلما سكنت نفسه عن منازعتها ، وجانبت إلفها ، واستحلت طاعة ربها ، نازع طبعها إلى حب العز والشرف ، وحسن الثناء ، والتبجيل على ما ظهر من طاعتها ، وما تركت من معاصيها .

فزجرها ، وخوفها نظر الله إلى ضميرها بالمقت إن أضمرت التقرب بعبادته إلى غيره ، فانزجرت ، لأنه رياء ، والرياء شرك .

العجب :

ثم رجعت للتروح بالمن عليه : أنها أطاعت ربها وحده ، وأخلصت عبادتها .

فزجرها ، وقررها بما تقدم منه من مجاهدته إياها ، وأنها أبت طاعة ربها ، ونازعت إلى حب الشرف عند العباد بطاعتها ، بعد تركها معاصي ربها ، وأن المنة للذي أيقظه لأدبها ، ومن عليه بأن صرفها عن محبوباتها ، فاعترفت أن ذلك كان من مولاها ، وأنها كانت له كارهة .

توهم فضلها على غيرها من الناس :

ثم رجعت عليه قائلة : إن الله تبارك وتعالى لما من بذلك عليها ، وقلبها

عن محبتها ، قد فضلها بذلك على غيرها ، ممن هو مستور الحال بين الناس .

فزجرها ، وذكرها سوء ما سلف من آثارها ، فيما بينها وبين خالقها ، وما يخاف عليها من خواتم السوء في آخر عمرها ، وأن ما يعرف من ذنوبها أكثر من ذنوب من تروحت إلى التعظم عليه ، وأنها أفضل عند الله تعالى منه .

فأذعنت . وتواضعت . لأن صاحب العيب إذا عرف بعيبه أذعن وخضع ، فخشعت وانكسرت[1] .

اعتقاداتها مصطفاة وصادقة :

ثم رجعت عليه متروحة إلى أن الله سبحانه لم يمن عليها بطاعته ويجنبها معاصيه ، ويذللها بالتواضع ، إلا وقد اصطفاها ، وجعلها من الصادقين له ، تروحاً منها إلى ذلك ، لتنال السرور بذلك في طبعها .

فزجرها، وذكرها ما كان منها من ذنوبها، وخوفها أن يكون قد سخط عليه من أجلها ، وأنها لم تقم له بحق كما يحق لها ، وأنها لا تدري على ماذا تموت .

فأذعنت ، وخافت ، ووجلت ، وصغرت . فلما أراها أن هذه الأربع تعارضه في طاعته لربه : الرياء ، والعجب ، والكبر ، والعزة ، ألزم قلبه حذرها ، وتعاهدها باعتراضها ألا تكون مالت إلى بعضها ، وهو غافل ناس .

---

(١) أجمل المحاسبي المخاوف التي يجب أن يعيش فيها العبد السالك إلى الله ، وجعلها تسعة . أولاها : أن يخاف ويدعو ألا يكله الله إلى حسناته التي يتعزز بها في عباد الله ظلماً وعدواناً . والثانية : أن يخاف من كفران النعم التي بطر بها ولم يشكر عليها . والثالثة : خوف الاستدراج بالنعم . والرابعة : خوف أن ترد عليه أعماله . والخامسة : خوف الذنوب التي عملها . والسادسة : خوف تبعات الناس عنده . والسابعة : خوف ما يحدث له في بقية عمره . والثامنة : خوف تعجيل العقوبة في الدنيا . والتاسعة : الخوف من سابق علم الله فيه وفي أي الدارين أثبت اسمه .

ويرى أن في استحضار هذه المخاوف نجاة النفس من العلو والالتواء (آداب النفوس : باب معرفة النفس) .

دلائل الصدق في التوبة

الجد في الطاعة :

فلما تبدلت أحواله ، واستحلت (النفس) ما كـانت تشمئز منـه ، وأنست بما كانت منه نافرة ، وزهدت فيما كانت فيه راغبة ، وأنار منه اليقين ، فشاهـد ما غاب من الآخرة بعقله ، فقوى تعظيم الله في قلبه ، واشتد خـوفه منـه ، ورجاؤه إيـاه ، فهاج منـه الحياء من الله وأزعجـه عن كل قـاطع يقـطعه من قـرب ربـه ، وسبب يشغله عنه وبعثه الرجاء ، ونشطه الدؤوب ، والاجتهـاد ، وأهاجـه الحب على مناجاة سيده ، والأنس به ، والوحشة مما سواه .

فأطال مناجاته ، وأقبل الله تعالى بعوائده ، واتصال المزيد في قلبـه ، فأنـار فيه ذكره ، وعظم فيه حبه ، مع شدة الشفق أن يحال بينه وبينه ، فاشتد شوقه إلى مولاه ، وطال حزنه ، ووله عن الدنيـا عقله إجلالاً وإعـظاماً لهيبتـه ، مع الشفق والوجل أن يقطع عن قرير عينه .

الحزن والخوف :

وذعر وفزع ، فمرة تنفضه الرعدة بـرجفان قلبـه ، ومرة يهيـج منه الانثنـاء بسيلان دموعه بالحرقات ، وطوراً يثور بالزفـرات ، وتارة يـزول عقله[1] ، يحسب

---

(١) ليس المراد من زوال العقل هنا : الجنون ، وإنما المراد الـذهول ، وشـدة الخشوع ، وهـو معنى قول تعالى : (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً) .

الجاهل بأمره أن طيفاً من الجن قد اعترض له ، وقد خامرته في أكثر أحواله البهتة ، وغلبت عليه الكآبة ، فهو في نهاره نافر مستتر ، مستوحش من الخلق[1] ، وليله ليل مضطرب .

فلو أبصرته أيها المغرور بدنياه ، المخدوع عن طريقه ، في سواد ليله وقد هدأ العباد ولم يهدأ فؤاده ، وسكن الخلق ولم يسكن خوفه ، واستراحت الخليقة ولم يفتر حنين قلبه ، وقام بين يدي ربه بقلبه المحزون ، وفؤاده المغموم ، منكساً رأسه ، مقشعراً جلده ، وقد ثني عنقه ، وحنى صلبه ، والحياء قد غلب على قلبه ، فافتتح كتاب ربه ، مع تعظيمه لما يتلو ، إجلالاً للمتكلم به[2] .

فما لبث أن هاجت عليه أحزانه ، واشتعلت حرقات فؤاده ، وأسبل دمعه ، وحن في بكائه خشية أن تسمعه أذن غير سمع ربه[3] فأنفاسه متوهجة ، وزفراته بحرق فؤاده متصلة .

فلما طال منه القيام بين يدي ربه ، اشتاق إلى التذلل له بتعفير وجهه ، خضوعاً له ، فلو أبصرته منحطاً من انتصابه بحرقة قلبه ، وأزيز صدره ، وتراجع أنفاسه ، فخر ساجداً على وجهه ، ذاكراً لنظر مولاه إليه ، سائله دموعه على خده ، حتى أثرت في وجهه ، يضرع ويتضرع ، ويهتف ويبكي ، ويزفر وقد ملأ العظيم قلبه ، وأذهبت رهبة الله عقله[4] .

---

(١) ليست الوحشة من الخلق عند المحاسبي هي العزلة عنهم ، وخلاصة مذهبه في ذلك قوله لتلميذه الجنيد البغدادي : « لو أن نصف الخلق تقربوا مني ما أنست لقربهم ولو أن نصفه الآخر بعد عني ما استوحشت لبعدهم » (حلية الأولياء ٩٠ - ١٨٠) .

(٢) يريد أن التائب الصادق يتوهم أنه يسمع القرآن من ربه فيجله ويعظمه لذلك .

(٣) البكاء عند مناجاة الله تعالى مشروع في القرآن حين يقول تعالى في علامات الصادقين : (ويخرون للأذقان يبكون) وقوله : (خروا سجداً وبكياً) .

(٤) يرى المحاسبي : أن الشيطان لا يسكن إلا القلب الخرب . ويرى أن خراب القلب إنما يكون إذا كان فارغاً من الحزن والخوف الدائم ، فحينئذ ينقث فيه بالوسوسة وتمنى الدنيا ، والطمع فيها ومخافة فقرها . انظر : (آداب النفوس : باب معرفة النفس . والقصد الى الله ، وأعمال القلوب والجوارح : ١١٠) .

سقوط الكلفة في الطاعة :

وقد ارتفعت عنه السآمة ، وزايلته الملالة ، لما في صدره من الجلال والهيبة لربه .

وكيف يسأم وهو مستقل لعمله ، مقصر عند نفسه في حزنه ، وفي حرق فؤاده ، لعظيم ما ألزم قلبه من تعظيم الله وخشيته ، والشوق والحنين إليه ، وهو مجتهد مذعور ، ومع فرقه وذعره مشتاق ، ذو حنين ، واله معلق قلبه بمولاه ، لا ينفذ من قلبه ذكره ، وشدة هيبته .

وكيف تنفد هيبة من قد أقبل عليه بالتوفيق ، وعطف عليه بالرحمة والتنبيه ، وقد قرب من قلبه ذكر سرعة لقاء ربه ، فهو في كل وقت يتوقع نزول الموت به ، فلم يتهن في نهاره بقرار ، ولا اطمأن فؤاده من خشية المباغتة بالموت في كل حال وأوان .

قد أيقن أنه قائم بين يدي مولاه بلا حجاب يحجبه عنه ، ولا ستر يواري بصره ، فكأنه يعانيه ، قد ثنى عنقه ، وحنى صلبه ، مع وجيف[1] كأنه من شدة شغل قلبه ليس في الدنيا ولا من أهلها .

قد ضمر نفسه للسباق غداً ، وتخفف من الدنيا لسرعة الممر على جسر جهنم ، ذابل ناحل ، دائب راج ، نعيمه في الدوام على أحواله ، طالب من الله تعالى أن يزيده حزناً ، ووجيفاً وحنيناً وشوقاً ، ودؤوباً واجتهاداً .

مبادر مشمر متنعم بالطمع وحسن الظن والأمل ، ومحزون بخوف الفوت والحرمان ، وهو مع ذلك راض بقضائه ، مسلم لأمره ، واثق لما ضمن له ووعده ، لا يرى عزاً إلا التعزز به ، ولا شرفاً إلا في الإقبال عليه .

العلم بطريق التوبة :

بصير بداء نفسه ، ونزعات عدوه ، لا يركن إلى خطره ، ولا تتموه عليه

---

(١) الوجيف : الخوف .

زينة فتنة ، قد ارتقى إلى القرب ، فـإذا بصيرة من دلائـل الكتاب والسنـة ، فإن ساءلته وجدته بصيراً بالطريق إلى الله سبحانه ، وإن أجاب أجابك بـالوصف عن طـريق قد سلكـه ، وعن آفات قـد رفضها ، وعن مكـابدة قـد جاهـدهـا ، وعن درجات في القرب من الله سبحانه وتعالى قد ارتقى إليها[1] .

فـدل المريـدين على ابتـدائه ، ومـا عرض لـه من القـواطـع ، وبـأي شيء قـطعها ، وأنـه لم يصل إلى السـرور والراحـة إلا بعد المكـابدة والمجـاهدة ، لكي يتحملوا مثل ما لقي ، حتى يفضوا إلى الغنى والراحة والسرور .

وأخبر عن طريق المؤدب لنفسه . ولم يذكر ذلك عن نفسه لئلا يظهر ما كان من طاعته لربه .

فأخبر : أن المريد لله عـز وجل كـان أول ابتدائـه ما من الله عليـه من تنبيه لمطالبة نفسه بما طالبها بـه حتى أجابتـه ، ثم كان الغـالـب عليه بعـدما انقـادت له نفسه : شدة الوجل والخوف .

قد أشرف على الإياس ، فـلا يمنعه من اعتقـاده إلا أنه عليـه محرم لمعـرفته بجود ربه وكرمه ، ولكن الغالب على قلبه ، خوف ألا يقبل مثله ، لعظيم جنـايته وجرمه ، من غير إياس أن يتفضل عليه بجوده وكرمه .

وإذا تلا آية رحمة وثواب قال : هذا للطاهرين غيري .

علم الرجاء والشكر والخوف :

فلما نظر الله سبحانه إليه كذلك رحم ضعفه وقلقه ، ووجله وقلة هـدوئه ، فأهاج الرجاء من قلبه ، وذكره أياديه وتفضله ، والسوء الذي نقله منه ، وما بدله بعد إساءته ، وما عوضه من الإحسان والإقبال .

---

(١) لقـد نبه المحـاسبي إلى عقبة اتبـاع السنة فيقـول : « والسنة ليست بكثـرة الصلاة تـدرك ولا بكثرة الصيام والدقة ، ولا بالعقل والفهم ، وغرائب الحكمـة ، ولا بالبـلاغ والموعـظة ، ولكن بالاتبـاع والاستسلام لكتاب الله وسنة رسوله والأئمة الراشدين وليس شيء أشد تهمه ولا أكـثر خروجـاً عن السنة من العقل والفهم دون اتباع واستسلام (آداب النفوس . باب العدل والفضل) .

فأحسن ظنه ، ورجا أن يكون لم يمن عليه بذلك إلا لسابقة سبقت له منه بالرحمة قبل أن يخلقه ، فغلب الأمل على قلبه أن الله تعالى سيعفو عنه إذ من عليه بما من ، فأنس بالرجاء ، وعظم الشكر في قلبه ، وخاف أن يعذبه على تضييع الشكر له .

فدأب في الشكر رجاء المزيد ، فزاده لله به أنسا ، وسرورا بحسن الظن به ، فبعث أصول الخوف والرجاء إلى قلبه ، فكانا قائديه إلى الله تعالى ، وصارا علمين في قلبه .

إن عارضته غرة[1] أهاج الإشفاق على الخوف ، فخاف عواقب الآخرة ، وإن عارضته فترة أهاج الرجاء ، فنفى فترته ، وإن عارضه إياس أهاج حسن الظن بالله والرجاء فقمعه .

* * *

---

(١) لبيان الفرق بين الرجاء الصادق والرجاء الكاذب الذي هو الغرة نسوق قول المحاسبي حيث يقول :

« الراجون ثلاثة : رجل عمل حسنة وهو صادق مخلص يريد بها الله فهو يرجو قبولها وثوابها ، ورجل عمل سيئة ثم تاب الى الله منها ، فهو يرجو قبول توبته وثوابها فهذان رجاؤهما صادق .

وأما الثالث : فرجل يتمادى في الذنوب وفيها لا يحب أن يلقى الله به ، ويرجو المغفرة من غير توبة . وهذا يقال له مغتر صاحب غرة ، متعلق بالرجاء الكاذب » (آداب النفوس . العدل والفضل . وأعمال القلوب والجوارح ١١٣) .

عزة مقام التائبين

فهذا كان طريقه ، وهو الذي نصبه الله تعالى للمريد ليؤدب نفسه فلا يزهد الجاهل في مقام المريد المقبل على ربه عز وجل .

تراه من الدنيا متقللاً ، ذليلاً خاشعاً ، حزيناً باكياً ، منقبضاً عن أبناء الدنيا[١] مظلوماً لا ينتصر[٢] ، ومسلوباً لا يكافأ ، شعثاً أغبر ، متقشفاً ، منفرداً غريباً .

لو اطلع الجاهل على قلبه ، وما استودعه الله تعالى من إحسانه ، وما أعقبه مما ترك من زينة الحياة الدنيا ونعيمها ، لرغب في مقامه ، وعلم أنه الغني الجميل ، المتلذذ الفرح المسرور ، لأنه قد أدرك بغيته ، وظفر بطلبته من ربه ، لأنه فارق المنغص من الدنيا ، المكدر الذي لا ينال إلا بهموم الحرص ، ونصب الطلب . وشغل القلوب به أن تناله ، وخوفها أن يزول فتفتقر بفقده[٣] ، مع أسقام وأمراض ، وآفات ومصائب ، وفجائع ومكاره لا ينفك منها من ركن إلى

---

(١) المراد بأبناء الدنيا : عشاقها ، الحريصون عليها ، المشتغلون بها عن الله ، أما العاملون في عمرانها على مقتضى أمر الله تعالى ، المراقبون لله في كل أعمالهم فليسوا مرادين هنا ، ولم يؤمر المؤمنون بمجانبتهم . انظر : (الكاسب ١٧٦) .

(٢) وذلك عملا بقوله تعالى : (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) .

(٣) ليست هذه دعوة للسلبية ، وإنما هي الايجابية في العمل لعمران الحياة كما أمر الله ، والسلبية بالنسبة للحرص الذي يشغل الانسان عن دينه وربه .

ذلـك مع حجب قلبـه عن طيب ذكر ربـه ، والأنس به ، والقـرب منه ، وتـركـه طلب نجاته في آخرته ، وتعـرضه لعـذاب الأبد عن قليـل بعد مـوته لأن الـراكن المؤثر لذلك على طاعة ربه يتوقع الموت كما يتوقعـه المقبل عـلى ربه ، فـإما الـرضى وحسن المآب ، وإما السخط وسوء المآب .

فلا يجد الراكن إلى الدنيا حلاوتها ، والرافض للدنيـا يتنعم بها ، لأنـه قد ترك الدنيا لمن لا يخيب من طلبه ، ولا يترك مكافأة من عمل له ، ولا العوض لـه في الآخرة بما صبر عنه في الدنيا .

قد عقل لمن عمل ، وأيقن بسرعة لقائه عاجلاً ، فهو لأهل الدنيا راحم إذا اشتغلو بما به يتعذبون ، وعن قليـل إياه يسلبـون ، ثم لا محيص لهم من الحساب عليه ، مع ما حرموا مما ادخره المتقون عند ربهم ، وقدموا لأنفسهم .

يا أخي . . . كيف يكون هذا المريـد المتقشف المتقلل مسكيناً وهـو للخلفاء والملوك مزاحم . . ينظر إليهم وما ينوبهم في الـدنيا من همومهم ونصيبهم ، وما يعلم مما يلاقون من شدة الحساب بعد موتهم ؟

أم كيف يكون ذليلاً من هو بالله عزيز ، وبذله وخشوعه يبتـاع عز الأبـد ، في جوار الرب الأكرم ؟

بل هو في الدنيا عزيز به ، فارق عز الدنيـا ليعوضـه مولاه الـرفعة عنـده في جنته .

أم كيف يكون غريباً من كان له أنيساً ؟

أم كيف يغم التفرد وقطع محادثة العبـاد من كان قلبـه من الحكمة مؤيـداً ، ولسانه بمناجاة الله دائباً ؟

أم كيف يكـون ضعيفاً من رفض سعـة الدنيـا ، ولم يرتض بهـا عيشـاً ، إذ أيقن أنه لها مفـارق ، وأنه يـطلب برفضهـا التبجح في سعـة جوار ربـه مع خلود الأبد .

لو بذلت مثل الذي عملت في الذي عملت[1] لم تؤد شكر نعمة في الدنيا .

فالذي عملت للإحسان لا يقوم بالعلم في الإحسان .

إحسان الله إليك في إحسانك ، لا يقوم به إحسانك .

لا تكن حزيناً على ما فاتك من سهم غنيمتك أكثر من حزنك على ما فاتك من الغزو .

قد يعاقب العاصي بدون ما يستوجب ، مع العفو ، ومن لم يعاقب يوم أحد بالعزيمة ؟ ثم قال : ﴿ ... **ولقد عَفَا عَنكُمْ** ... ﴾[2] .

قال الحسن : قتل حمزة عم رسول الله ﷺ ، وكسرت رباعيته ، ودمى وجهه . وقتل كثير من أصحابه ، ثم قال تعالى : ﴿ ... **وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ** ... ﴾ يعني . ولم يستأصلكم .

ولو سلم أحد لفضله وكرمه عند الله لسلم آدم عليه السلام ، فكفاه بالخروج من الجنة عقوبة ، ونوح عليه السلام بعده ، وداود ، وموسى ويونس ، ومحمد ﷺ في سورة عبس ، وقال له أيضاً : ﴿ ... **وتخفي في نفسك ما الله مبديه** ... ﴾ .

وقد عفا الله عنهم عما يستحقون ، فما ظن محمد أنه يجزئه إقراره بذنبه وتوحيده وصلاحه وخشيته ، دون أن تاب ، وكذلك جميع من عوقب من النبيين .

فكن للعقوبات منتظراً ، إذا كنت من الذنوب غير متطهر ، ولا تستنكرها عند نزولها ، فإنك مستحق لأعظم منها ، فالعفو أمسك عنك عظيمها .

* * *

---

(١) يعني : في مقابل الذي علمت من إحسان الله إليك بالعلم .

(٢) سورة آل عمران آية : ١٥٢ .

دلائل صدق الشاكرين

والشكر على نعمة التوبة واجب .

وعلامة الشاكر همه بالقيام بالشكر ، وسؤال الله الشكر .

فإذا كان كذلك رضي بالقليل من الدنيا ، وخاف ألا يقوم بشكر الكثير ، ومن يكن همه الشكر وسؤال الله إياه لم يقنع ، فهو أبداً لهفان ، وأبداً عطشان .

واعلم أن الشكر لا يكون على الحرام إلا حراماً ، لأنك اعتقدت أن الحرام حلال ، فعظمته إذ أنزلته نعمة ، فأنت لله عاص باستحلالك الحرام ، وتعظيمك ما صغر ، وطلبك الازدياد مما كره الله عز وجل .

فأما الشاكر في الحلال فقد يترك أن يطلب كثيراً من الحلال خوف ألا يقوم بشكر الكثير ، فيصبر عن الكثير لعظيم الشكر ، وصبر على القليل ولم يجاوزه ، همه بالشكر ، حذراً ألا يقوم بشكر الكثير ، فكتبه الله تعالى من الصابرين الشاكرين ، لأن همه الشكر وترك الكثير وأسبابه ممكنة ، لإعظام الشكر[1] .

---

(١) من أجمع ما كتبه المحاسبي عن الشكر قوله :

« وأما الشكر فمعرفة البلوى . فإذا عرف أن كل نعمة فهي من الله تعالى ، وهي بلوى يختبر بها العبد ليشكر أو يكفر ، فهذا من الشكر . فإذا عرف العبد هذا أنه من الله ، وعده من نعمه عليه ، ولم يدخل فيه أحداً لا نفسه ولا غيرها فقد شكره .

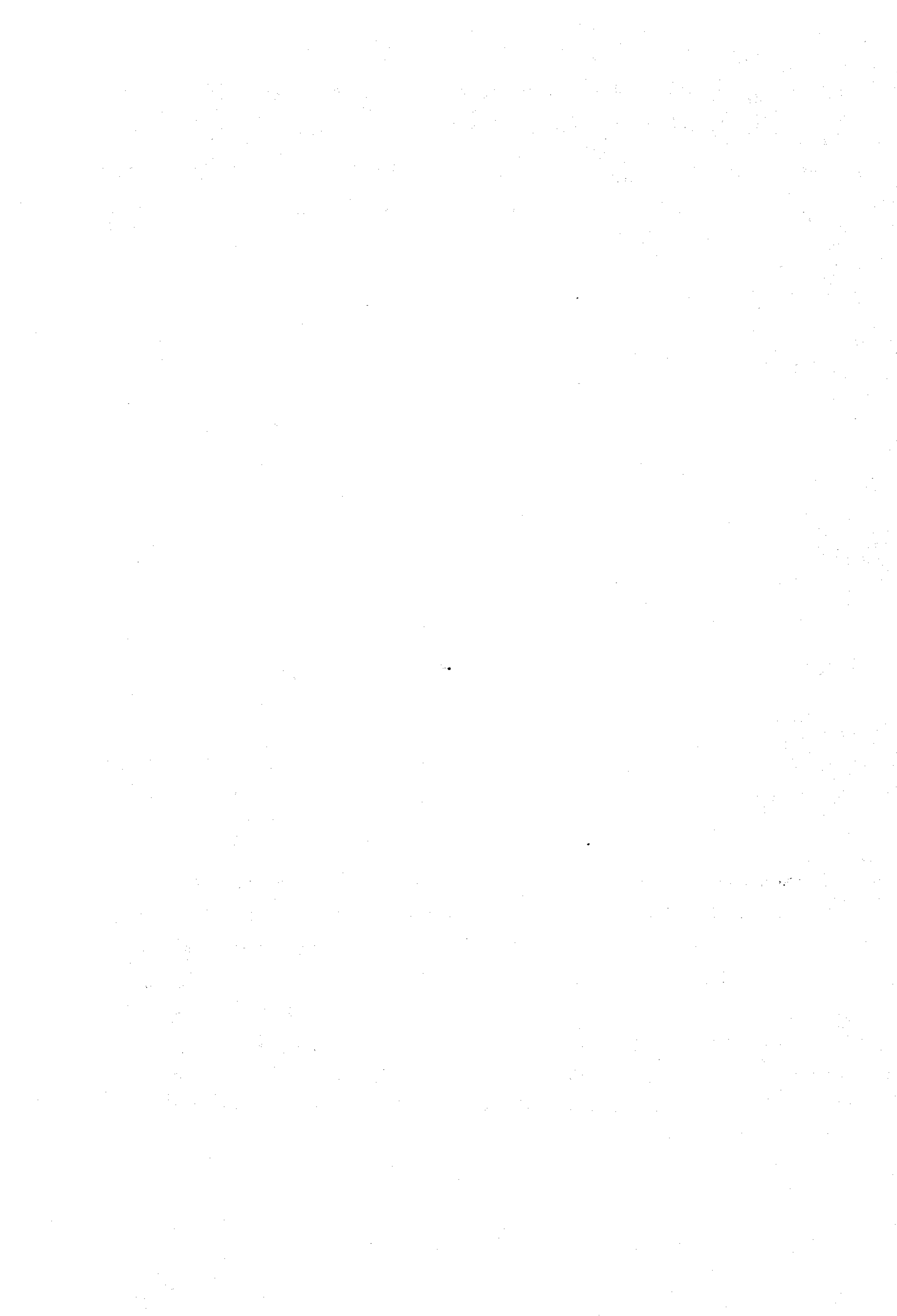
فالشكر متفاوت ، والناس فيه متفاوتون ، وهذا أدناه ، وأما أعلاه فلا يبلغه أحد ، وليس له حد . =

فصبر عن الكثير من الدنيا ، وصبر على القليل منها ، فهو صابر شاكر ، والصبر لا يكون لعجزه[1] ، ولا يكون صابراً إلا عن المقدرة ، والعاجز لا صابر ولا جزع ، والقادر يصبر عن السعة وهو عليها قادر ويصبر عن البلاء في الجزع ، فيمسك جوارحه ، فهو صابر لأنه حبس نفسه على قدرة على الجزع .

= ومنه أيضاً وهو يشبه ما وصفنا إلا أنه أصل الشكر : أن يعرف العبد أن ما به من نعمة فمن الله معرفة قلب بعلم يقين لا تخالطه الشكوك ، فإذا عرف ذلك بقلبه ذكره بلسانه ، فحمد الله عليه ، ثم لم يستعن بشيء من نعم الله على شيء مما يكره الله .

وأعلى من ذلك : أن تعد كل بلاء ينزل بك نعمة ، لأن لله من البلايا ما قد أنزله بغيرك مما هو أشد وأعظم من ذلك الذي أنزله بك . (آداب النفوس . العدل والفضل) .

(١) يعني أن العاجز عن الحصول على الكثير من الدنيا لا يعتبر صابراً عنه ، والصابر على القليل لعلة صحية مثلا لا يعتبر صابراً . ومن هنا كان الصبر قوام الشكر وحقيقة الصبر كما يقول المحاسبي : أن يكون عند رضا وسرور وعلم بعوائد الصبر . أما الصبر مع منازعة النفس صاحبها الى الشيء فيسميه المحاسبي : تصبراً . أي محاولة للصبر ، ومجاهدة في سبيل الحصول عليه (القصد الى الله) .



فَهْمُ الصَّلَاة

بسم الله الرحمن الرحيم

روي عن النبي ﷺ [أنه] قال :

« الطهور شطر الإيمان »[1] .

وقال بعض العلماء : « إنما سميت الصلاة لأنها صلة بين العبد وبين الله تعالى » .

والدخول فيها : الدخول إلى الله سبحانه ، والوقوف بين يديه لمناجاته . فإن كل ما فعل من قراءة ودعاء وذكر فهو مناج لربه جل وعز ، كما جاء في الحديث :

« إن المصلي يناجي ربه »[2] .

وليكن عمله فيها إخلاص القلب والجوارح .

---

(1) أخرجه : الدارمي في مسنده ، الباب ٢ من كتاب الوضوء . وأحمد في مسنده ٥/٣٤٢ : ٣٤٤ . وأخرجه بلفظ : « الوضوء شطر الإيمان » الترمذي في سننه ، الباب ٨٥ من كتاب الدعوات . والنسائي في سننه ، الباب الأول من كتاب الايمان . وابن ماجه في سننه ، الباب ٥ من كتاب الطهارة .

(2) أخرجه : مالك في الموطأ ، الحديث ٢٩ من كتاب النداء . وأحمد بن حنبل في مسنده ٢/٦٧ . وأخرجه البخاري في صحيحه ، الباب ٨ من كتاب المواقيت ، بلفظ : « إن أحدكم إذا صلى يناجي ربه » .



الوضــوء

وتبدأ بالوضوء بماء طاهر غير مشوب بشيء خالطه ، تعتقد نية الوضوء فتسمي الله تعالى ، ثم تغسل كفيك ثلاثاً ، ثم تأخذ الماء بيدك اليمنى فتفرغ على اليسرى حتى تستنجي ، ويبقى ما هنالك ثم بحائط أو بالأرض تغسلها . فقلت : وفي ذلك أثر(1) .

ثم تتمضمض وتستنشق ثلاثاً ، فإن شئت جمعت في غرفة بين المضمضة والاستنثار ، وإن شئت فرقت(2) .

ثم تغترف الماء بيدك اليمنى فتفرغ بعضها في اليسرى ، ثم تغسل بهما وجهك ، تبدأ بأعلاه ، وتقصد الماقتين ببعض أصابعك حتى يصل إليها الماء ، فإنهما موضع الرمص ، ومجتمع الكحل فييبس .

---

(1) أخرجه : النسائي عن جرير ، قال : كنت مع رسول الله ﷺ ، فأتى الخلاء فقضي حاجته ، ثم قال : يا جرير هات طهوراً ، فأتيته بالماء فإستنجى ، وقال : بيده فذلك بها الأرض .

(2) في المضمضة والاستنثار ثلاثاً ثلاثاً بكف واحدة : ما أخرجه أصحاب السنن ، عن عبد خير ، عن علي رضي الله عنه في صفة وضوئه ﷺ، وفيه : « ثم تمضمض واستنثر ثلاثاً ، فمضمض ونثر من الكف الذي يأخذ فيه » . الحديث .

ولأبي داود عن إبن عباس : أنه ﷺ « أخذ غرفة بيده اليمنى فتمضمض واستنثر» . وليس فيه عدد .

ولأبي داود عن الربيع بنت معوذ بن عفران ، قالت : ومضمض واستنشق مرة .

وروي عن النبي ﷺ أنه فعل ذلك . فتغسل وجهك ثلاثاً . ثم تغسل يديك اليمنى ثلاثاً ، ثم اليسرى ثلاثاً ، وتحرك خاتمك لأنه ربما كان ضيقاً ، وهو في الجنابة أشد ، وإن لم تكن تحركه رجوت أن يجزيك لأن الماء لطيف لا يكاد يمنعه الخاتم ، وتحركه أحسن ، وقد فعله جماعة من الصدر الأول .

ثم تفرغ الماء من كفك اليمنى على اليسرى ، ثم تمسح رأسك من طرف شعرك من مقدم رأسك ، وقد فرقت أطراف أصابع يديك حتى تبلغ القفا ، ثم توليهما إلى حيث بدأت[1] ، ثم تسبل كفيك إلى صدغيك إلى عظمي أعالي لحيتك ، ثم تدليهما إلى فوديك[1] لأن العلماء أنزلوا الرأس إلى العظمين ، وهما حد حلق المحرم رأسه ، ثم تمسح أذنيك ظاهراً وباطناً وتدخل سبابتيك في عضويهما ، وتمسح بإبهاميك ظاهرهما .

وأحب إليَّ أن تنزل كفيك على عارضيك ، ثم تسبلهما إلى باطن لحيتك ، وإن أخذت لقفاك ماء جديداً فمسحته به كان أفضل ، وليس ذلك عليك ، وحسن ائتناف الماء لأذنيك ، وليس بواجب .

وقد روي أن النبي ﷺ مسح أذنيه مع رأسه ، ولم يذكر عنه أنه ائتنف الماء لهما[1] . وكان ابن عمر رضي الله عنه يأتنف الماء لهما[1] .

ثم تغسل رجلك اليمنى ثلاثاً ظاهراً وباطناً ، ثم تغسل رجلك اليسرى

---

(١) أخرج الستَّة عن عبد الله بن زيد بن عاصم الأنصاري ، وقيل له : توضأ لنا وضوء رسول الله ﷺ، وفيه : « فمسح برأسه ، فأقبل بيده وأدبر بمقدم رأسه ، ثم ذهب بهما إلى قفاه ، ثم ردهما حتى رجع الى المكان الذي بدأ منه » .

(٢) الحديث : أخرجه مسلم عن إبن أبي مليكة قال : سئل عثمان رضي الله عنه عن الوضوء ، فدعا بماء فأتي بميضأة ، فأصفى علي يده اليمنى ، ثم أدخلها في الإناء فمضمض ثلاثاً ، واستنثر ثلاثاً ، ثم غسل وجهه ثلاثاً ، ويديه إلى المرفقين ثلاثاً ، ثم أدخل يده فأخذ ماء فمسح رأسه وأذنيه ، فغسل بطونهما وظهورهما مرة واحدة . الحديث .

وأخرج أبو داود عن ابن عباس أيضاً صفة وضوئه ﷺ وفيها . « ثم قبض قبضته من الماء ثم نفض يده ، ثم مسح رأسه وأذنيه » . الحديث .

(٣) أخرج مالك في الموطأ عن نافع أن إبن عمر كان يأخذ الماء بأصبعيه لأذنيه .

كذلك ، وتخلل [بين] أصابعهما[1] .

وأنت في أخذك الماء معظم لله عز وجل بقلبك في طهارتك له ، وإن استطعت تجديد نية التوبة من الذنوب لتجمع بين ظهر التوبة وطهر الوضوء فعلت ، لأن الله سبحانه جمعهما فقال :

﴿ إن الله يحب التوابين والمتطهرين ﴾ [2] .

وتؤمل في كل عضو تغسله أو تمسحه تكفير ما أصبت من الذنوب بجوارحك ، لما جاء في ذلك[3] .

فإذا فرغت من وضوئك أحبت لك أن تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ثلاثاً ، فقد روي للنبي ﷺ أن : « من قالها بأثر وضوئه فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء »[4] .

وتقول : « اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين » . فقد روي ذلك عن علي رضي الله عنه[5] .

وإن جاوزت مرفقيك وكعبيك فهو أفضل لقول النبي ﷺ : « من استطاع أن يطيل غرته فليفعل »[6] . وروي أن « الحلية تبلغ مواضع الوضوء »[7] . وكان

---

(١) تخليل الأصابع : تمكين الماء أن يتخلل بين الأصابع وذلك بالدلك ونحوه .

(٢) سورة : البقرة ، آية ٢٢٢ .

(٣) في ذلك أحاديث منها لمسلم ، ومالك ، والترمذي عن أبي هريرة . ومسلم عن عمرو بن عنبسة السلمي ومالك والنسائي عن عبد الله الصنابحي . ومسلم والنسائي عن أبي إمامة .

(٤) أخرج مسلم والترمذي وابن ماجه وأبو داود عن عقبة بن عامر ، واللفظ لمسلم وفيه : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ ـ أو فيسبغ الوضوء ـ ثم يقول : أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » .

(٥) الذي عثرت عليه عند الترمذي من حديث عقبة بن عامر السابق بعد الشهادتين : « اللهم إجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين » . الحديث المروي قبله .

(٦) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة ، وفي أوله : « إن أمتي يدعون يوم القيامة غدا محجلين من آثار الوضوء » ـ الحديث .

(٧) هي رواية أخرى لمسلم في الحديث السابق عن أبي هريرة والغرة والتحجيل : بياض في وجه الفرس =

أبو هريرة رضي الله عنه يغسل العضدين مع يديه ، والساقين مع رجليه .

واحذر السرف في الماء ، فإن الله عز وجل لا يحب فيه السرف ، وقد سماه النبي ﷺ إعتداء وظلماً ، وقال : « سيكون قوم من هذه الأمة يعتدون في الدعاء والطهور »[1] . وتوضأ ﷺ ثلاثاً ، فقال : « هكذا الوضوء ، فمن زاد فقد ظلم وأساء » أو « أساء وظلم »[2] .

ويقال : « من وهن علم الرجل ولوعه بالماء والطهر » .

وقال إبراهيم بن أدهم :[3] كان يقال : أول ما يبدأ الوسواس من قبل الطهور .

وقال الحسن[4] : إن شيطانا يضحك بالناس في الوضوء يقال له : الولهان[5] .

وقال القاسم بن محمد[6] : لو غرفت غرفة فكفتني لم أبال ألا أزيد .

وقوائمه يستحسن فيه ، استعير للانسان وجعل أثر الوضوء في الوجه واليدين كالبياض الذي هو للفرس .

(١) أخرجه الامام أحمد بن حنبل في مسنده ، وابن ماجه في سننه .

(٢) أخرجه : أبو داود والنسائي ، وفي أوله عند النسائي : « جاء أعرابي الى رسول الله ﷺ يسأله عن الوضوء فأراه ثلاثاً ثلاثاً . الحديث . وعند النسائي : « فقد أساء وتعدى وظلم » .
ورواية المؤلف عن أبي داود . وفيها تفاصيل الوضوء . وفيها : « فمن زاد على هذا أو نقص » .

(٣) هو : فتى خراسان . يقال انه كان في رحلة صيد فنودي : يا إبراهيم ما لهذا خلقت ، فخلع لباس الامارة ولبس لباس راع ، وعمل حصاداً وناطوراً للبساتين ، وتزهد في ورع كامل . توفي سنة ١٦٦ هـ . أنظر : (صفة الصفوة ٤/١٥٢ ، البداية والنهاية ١٠/١٣٥ ، حلية الأولياء ٧/٣٦٧) .

(٤) هو البصري ، العالم الفقيه الزاهد العابد . مرجع العلماء في عصره . أنظر : (ميزان الاعتدال ١/٢٥ ، حلية الأولياء ٢/١٣١)

(٥) قول الحسن وقول إبراهيم بن أدهم مقتبس من حديث أخرجه الترمذي عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ : « إن للوضوء شيطاناً يقال له الولهان ، فاتقوا وسواس الماء » .

(٦) كان أفضل أهل زمانه وأحد الفقهاء في المدينة ، عمي آخر أيامه ، توفي سنة ١٠٧ هـ . أنظر : (الوفيات ١/٤١٨ ، حلية الأولياء ٢/١٨٣ ، صفة الصفوة ٢/٤٩) .

وأما الغسل ، فإنك إذا إستنجيت وأنقيت الأذى . فقد روي أن النبي ﷺ [كان] يتوضأ إلا رجليه ، ثم يغترف لرأسه ثلاث غرفات فيغسله .

وروي أنه كان يصب على رأسه حتى يبل الشعر ، وينقي البشرة ، ثم يغترف ثلاث غرفات ، وهذا أحب إلي .

ثم ابدأ بميامنك ، تغسل شقك الأيمن ، ثم الأيسر ، وتصب على ظهرك وبطنك حتى تأتي على سائر جسدك . ثم تتجافى عن موضعك فتغسل قدميك ، إلا أن يكون الموضع منحدراً فاغسل فيه قدميك إن شئت أم في غيره .

وكان إبن عمر رضي الله عنه ينضح في عينيه ، وليس ذلك على الناس عند أحد من العلماء . ولم يكن ذلك من إبن عمر رضي الله عنه غلواء ، ولكن إحتياطاً ، وكان يدخل أصبعه في سرته . وأجمعت العلماء على أنه ليس عليه أن يغسل إلا ما ظهر من جسده .

* * *

المشي إلى الصلاة

ثم تمشي إلى صلاتك بالخشوع والإجلال لمن تريد أن تقف بين يديه وتناجيه وتسأله ، وتتعرض لرضوانه وغفرانه .

وعليك أن تتقدم للصلاة بأربع : بالطهر بالماء متوضئاً لها ، وطهارة الجسد والثوب والبقعة التي تصلي فيها ، والنية والعزم على الصلاة رجاء ثواب الله تعالى وخوف عقابه ، وتأدية فرضه .

ثم أربع عليك أن تدخل لها فيها : توجه القبلة وتحريها ، والعزم على ترك ما لا يجوز في الصلاة من أعمال الدنيا وطلب منافعها ، ورفع اليدين ، والتكبير عند الدخول .

ترفعهما وأنت متوجه بباطن الكفين إلى القبلة ، مع رفع اليدين وهو الإحرام ، ويحرم عليك كل شيء حل لك من أمر الدنيا قبل أن تدخل . فتبقي تتحرم بالصلاة عما نهيت أن تفعله فيها .

وتقوم إذا أردت الدخول فيها وأنت عازم فيها لله تعالى ، معظِّم له ، ذاكر لعظيم قدره [و] المقام بين يديه ، مُجِل لمن تناجي ، ترجو أن يفيدك في مناجاتك ما تحيا به في دينك ، ويخبت له قلبك ، وأنت مقبل بوجهك وقلبك على الله سبحانه .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا قام العبد إلى صلاته فكان هواه وقلبه ووجهه إلى الله عز وجل إنصرف كما ولدته أمه »[1] .

---

(١) أخرج مسلم معناه في صحيحه ، الحديث ٢٩٤ من كتاب المسافرين .

وقال ﷺ : « إذا صلى أحدكم فليصل إلى سترة ، وليدن منها ، حتى لا يقطع الشيطان عليه صلاته »[1] .

واذكر عند دخولك فيها عظيم قدر من تناجيه ، عازماً على ترك ، ما ينقضها ، وأنك دخلتها لتطيع الله عز وجل ، وتجيب إلى أمره ، وتفهم ما تتلو من أمر ونهي ، ووعد ووعيد ، وتفهم أنه دعاك لتخافه فتبادر طاعته ، ووعدك عظيم الجزاء لتمتثل أمره .

وتكلف إحضار عقلك فيما تتلو دون ما سواه ، وكذلك فيما تعمل من ذكر وتسبيح وتشهد وركوع وسجود بنية الإبانة فيما تعمل ، خاشعاً متذللاً ، يتلو لسانك ، ويفسر قلبك ما تعلم تفسيره ، وتفهم الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، والوعظ والأدب ، وعظيم النعمة ، ولطيف الدعوة من الله تعالى ، وعظيم النعمة عليك فهم يقين تقصد بتفهمه المزيد والغنيمة .

وكذلك كل ما تتلو من أخبار الأمم الماضية وما يكون بعد ذلك ، ينظر قلبك حينئذ كأنك مشاهده حين تلاوتك ، واللسان ناطق ، والقلب متوهم متفهم ، فإن سها عن الفهم رددته بالحياء ممن أنت بين يديه أن يراك معرضاً معرضاً [2] بقلبك عن الفهم عنه ، وعن فرائضه عليك .

وتفهم تفهم من يرى بقلبه سقماً يطلب شفاءه من الله عز وجل ، يفهم ما يتلو لاجئاً بسره إليه في نيل قوة الخشية ، ومزيد الفهم ، وعلو المعرفة .

وتصلي صلاة مودع ، تتوهم وتخاف أنك لا تصلي لله عز وجل غيرها ، فأكملها بجهدك . وروي أن النبي ﷺ قال : « إذا قمت إلى الصلاة فصل صلاة مودع »[3] .

---

(١) أخرجه : أبو داود في سننه ، الباب ١٠١ من كتاب الصلاة . وابن ماجه في سننه ، الباب ٣٦ من كتاب الاقامة ، وأحمد بن حنبل في مسنده ١٦٢/١ .

(٢) في الأصل : متعرضاً .

(٣) أخرجه أحمد بن حنبل في المسند عن أبي أيوب الأنصاري . وتمام الحديث : « ولا تتكلم بكلام تعتذر منه ، واجمع الإياس مما في أيدي الناس » .

الدخول في الصلاة

وترفع يديك إذا كبّرت حذو منكبيك ، وأجزم التكبير لا تمد بـه صوتـك ، واذكر حينئذ بقلبك أنه تعالى أكبر من كل شيء في القدر والجـلال ، وأنت خاشـع شاكر .

و [قد] كان الصـديق رضي الله عنه في الصـلاة كأنـه وتد ، وإبن الـزبير كأنه عود ، وكذلك من الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم .

وروي أن الله عـز وجل أوحى إلى مـوسى عليـه السـلام : « يـا مـوسى إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تنتفض أعضاؤك ، وكن عند ذكري خـاشعاً مـطمئناً ، وإذا ذكـرتني فاجعـل لسانـك من وراء قلبك ، وإذا قمت بـين يدي فقم مقـام العبـد الذليل ، وناج بقلب وجل ولسان صادق وواسع » .

وضع اليمنى على اليسرى ، وكل مـا فعلت فاعتقـد معه التخشـع والتذلـل والإستكـانـة . وإن شئت قلت قبـل الإحـرام : « سبحـانـك اللهم وبحمـدك ، وتبـارك إسمـك ، وتعـالى جـدك ، ولا إلـه غيـرك . أعــوذ بـالله من الشيــطان الـرجيم »[1] وتفهَّم أنـه تنـزيـه لله عـز وجـل وتبـارك وتعـالى ، وتعـظيم وإقـرار

---

(١) وذلـك كما أخـرجه عبـد الرزاق في مصنفـه ، عن أبي سعيد الخـدري أن النبي ﷺ كان يقـول قبل القراءة : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم » .

وأخرج عن أبي قتادة قال : قام أبـو ذر يصلي ، فقـال له النبي ﷺ: يـا أبا ذر تعـوذ من شياطـين

بتوحيده .

وإذا قلت : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ . فهمت أنه الشكر له ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ : رحيم الدنيا والآخرة . ﴿ مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ : يوم الحساب . ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ بقصدنا لعبادته . ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ على طاعتك وعلى كل أمر . ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ . تنوي : أرشدنا . ﴿ ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ : لاعوج فيه عن إيقاع مرضاتك . ﴿ صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ بالإسلام والقيام به . ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ ﴾ اليهود والنصارى . ثم تقول) ﴿ آمِينْ ﴾ . أي : إفعل يا رب ما سألتك .

فنصف السورة أنت فيها معظم لله شاكر ، ونصفها داع سائل ، ترجو الإجابة ، وتخاف أن ترد ، لعظيم جرمك ، كما روي في الحديث ، يقول الله عز وجل : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، فنصفها لي ، ونصفها لعبدي : يقول العبد : الحمد لله رب العالمين . يقول الله : حمدني عبدي . إلى آخر الحديث ، على ما رواه مالك في موطئه من تمامه »[1] .

فلو لم يأمل بقراءتها إلا أن الله عز وجل يقول من فوق عرشه عند قولك :

الجن والإنس » .

وبهذا أخذ عبد الله بن مسعود ، وإبراهيم النخعي ، وابن أبي ليلى ، والثوري ، والأوزاعي ، والشافعي ، وأبو حنيفة . وأوجبه داود الظاهري . أنظر : « العلوم والمعاني المستودعة في السبع المثاني » . خط . دار الكتب المصرية . ورقة ٨ وما بعدها .

(١) أخرجه مالك ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج ـ ثلاثاً . أي غير تمام ـ فقيل لأبي هريرة : إنا نكون وراء الإمام . قال : إقرأها في نفسك ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل . فإذا قال : الحمد لله رب العالمين . قال الله : حمدني عبدي . وإذا قال : الرحمن الرحيم . قال الله : أثنى عليَّ عبدي . وإذا قال : مالك يوم الدين . قال الله : مجدني عبدي . وإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين . قال الله : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل . وإذا قال العبد : إهدنا الصراط المستقيم . إلى آخرها . قال الله : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل » .

الحمد لله رب العالمين : حمدني عبدي وأثنى عليّ لكنت حرّيا ، فكيف بما تأمل من فضل الله عز وجل .

وكذلك تتفهم فيما تقرأ بعد أم القرآن ، وتأمل أنه دعاك فيما تفهم عنه : فتخافه عند ذكر تخويفه فيما تقرأ ، وتسارع فيما ندب إليه من ثوابه ، وإلى ما دعاك من توبة من ذنب ، أو يقظة من غفلة فيما تتلو .

وتستعين على الفهم بترك العجلة بتثبت وتفهم وترسل . قال الله عز وجل : ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ .[1]

وكانت قراءة رسول الله ﷺ حرفاً حرفاً ، يمد بالحرف صوته ، ويقطع قراءته ، وذلك أشد تمكناً في الفهم[2] ، والترتيل في القراءة ، أعظم عند الله قدراً ، وأقرب للفهم .

وجاء أنه يقال لصاحب القرآن : « إقرأ وارق ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلك عند آخر الآية »[3] .

وليكن الأصل الذي تطالب من نفسك من الفهم : إعظام الله سبحانه في قلبك وإجلاله ، فإذا قرأت آية فيها تعظيم له أو تنزيه ، أو خبر عمن كذب عليه ، فإن استطعت أن تمت فمُتْ .

وروي أن إبراهيم النخعي[4] كان إذا مر بمثل قوله تعالى : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ . . . ﴾[5] . يخفض بها صوته تنزهاً وخضوعاً للباري تعالى من كل شيء ، لأن قلب المصلى منير بالصلاة يزداد بها بصائر .

---

(١) سورة : ص ، آية : ٢٩ .

(٢) أخرجه أبو داود عن أم سلمة ، والبخاري عن أنس، وحسنه الترمذي .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن العاص . وقال الترمذي : « حديث حسن صحيح » .

(٤) كان عالماً جليلاً أدرك جماعة من الصحابة منهم أبو سعيد الخدري وعائشة . توفي سنة ٩٦ هـ . أنظر : (صفة الصفوة ٣٧/٣ ، وحلية الأولياء ٢١٩/٤) .

(٥) سورة : المؤمنون ، آية ٩١ .

والذي يصلي يفهم[1] ما يتلو ليعرف خطأه وصوابه وعيوبه ونعم الله عليه ، وكيف شكره ، وكيف خوفه وحزنه على دينه ، لأنه يتلو الدلائل على ذلك كله والداعي إليه .

وينبغي أن يخاف أن يكون محقوقاً ، إذ يجد نفسه مخالفة لأشياء من الطاعات ، وعاملة لأشياء من المعاصي ، أو ناسياً قد اشتبهت عليه .

وترجو الرحمة ، إذ لا بد أن يكون عمل طاعة قد من الله عز وجل بها ، فتشكره عليها . فكفى للنفس زاجراً تفهم ما تتلو إذا تفكر العبد وتثبت .

قال الحسن : « من أحب أن ينظر ما هو فليعرض نفسه على القرآن » .

والمرتل في صلاته مع ما يناله من الرقة وصلاح قلبه لن يخلو من فائدة تلاوته : إما معنى يتنبه له عقله ، أو علم يفيده ، أو بصيرة في دينه . ولن يخلو ما يتلو من حجة له أو عليه .

قال الحسن : « ما قرأت آية فجاوزتها حتى تدبرت فيم أُنزلت ، وما عني بها » .

وجاء : أن الملائكة تكتب صلوات الناس بالزيادة والنقصان بقدر الخشوع فيها .

وفي قوله تعالى : ﴿ . . . وَقُومُواْ لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾[2] . قال مجاهد :[3] الخشوع : الركود ، وغض البصر ، وخفض الجناح من رهبة الله عز وجل » ؟[4] .

وكانت العلماء إذا قام أحدهم إلى الصلاة هاب الرحمن عز وجل أن يسدد

---

(١) في الأصل : ويفهم .

(٢) سورة : البقرة ، آية : ٢٣٨ .

(٣) هو : مجاهد بن جبير . مفسر من أهل مكة ، وشيخ القراء والمفسرين . توفي عام ١٠٤ هـ . إنظر : غاية النهاية ٢ /٤١ ، صفة الصفوة ٢ /١١٧ ، ميزان الاعتدال ٣ /٩)

(٤) رواه سعيد بن منصور .

بصره إلى شيء ، أو يحدث نفسه من الدنيا إلا ناسياً ما دام يصلي . وقيل : لا يجاوز ببصره موضع سجوده .

فأوجب الله الفلاح لمن خضع في صلاته ، وهو : الظفر بالبقاء في الجنة . قالَ الحكم بن عينيه : أكمل الناس صلاة الذي ينصرف من صلاته ولا يعرف من على يمينه ولا عن يساره » .

وإن الرجل من أبناء الدنيا ليقف بين يدي الملوك فيخشع لهم ويخضع هيبة ورهبة ، وما يطلع على خشوعه في قلبه ، ولكن يتمالك لهيبة الملوك ، فكيف بالملك الأكبر المطلع على الضمائر .

وما يكون المؤمن العالم بالله عز وجل في حال أخشع وأخوف وأنعم وأصلح قلباً منه حين يتلو كلام الجليل عز وجل يناجيه به ، وإنه إذا فهم ما يتلو ، وعقل ما يناجي ليتوقف عن الباطل واللَّغط ، حتى تأتي صلاة أخرى فتحدث له من الفهم مثل ذلك ، لأن الله سبحانه قال : ناهية عن الفحشاء والمنكر لمن عقلها كما قال : ﴿ . . . إِنَّ ٱلصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ . . . ﴾[1] .

وقال علي رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾[2] . قال : « الخشوع في القلب ، وأن يلين كنفك للمرء المسلم ، فلا تلتفت في صلاتك »[3] .

وروي عن النبي ﷺ : « إن الله عز وجل مقبل على العبد إذا كان في صلاته ما لم يلتفت »[4] .

وحقيق لمن علم أن الله تعالى مقبل عليه ، وأنه قبل وجهه أن يخشع ولا يلهو ، ، ولا يلتفت ، فيستحي أن ينظر إليه وهو لاهٍ عنه ، وقد تكون آخر صلاة

---

(١) سورة : العنكبوت ، آية : ٤٥ .

(٢) سورة : المؤمنون ، آية : ٢

(٣) أخرجه : ابن المبارك في الزهد .

(٤) أخرجه أحمد في المسند .

يصليها ، فتأتي صلاة أخرى وهو ميت أو مريض أو مغلوب عنها .

وكان إبن مسعود [1] إذا قام في الصلاة كأنه ثوب ملقي . وكان زاذان [2] في الصلاة كأنه خشبة . وكان عيسى بن عقبة إذا ركع وقع العصافير على ظهره ما تحسبه إلا جذم حائط . وكان الصديق رضي الله عنه في الصلاة كأنه عود . وكان الزبير رضي الله عنه . . . . . [3] فلو لم يخشع إلا أنه بعين الله بين يديه ، ينظر إليه كيف يؤدي ما أمره الحق لحق له يستحي ويخشع . قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّاجِدِينَ ﴾[4] . قال قتادة : ركوعه وسجوده وجلوسه .

وإنما يخرجك عن الخشوع حديث النفس بالدنيا ، وتركك إحضار العقل للفهم ، ولقد بلغ بقوم تعلق قلوبهم بالله عز وجل في الصلاة أن ذهلوا عن الدنيا ، حتى ما يكادون أن يعقلوا كثيراً من حوادث الدنيا المفزعة للنيام فضلاً عن أهل اليقظة شغلاً بمن له المال والجلال والعزة وحده .

وذكر عن مسلم بن يسار[5] أنه كان يصلي في المسجد ، فسقطت اسطوانة ، ففزع الناس وقاموا ، فلم يلتفت حتى قضي صلاته .

ووقع الحريق في بيته ففزع الناس وهو قائم يصلي حتى أطفأوها ، فلما انصرفت قالت أم ولده : وقع الحريق في بيتي ففزع الناس حتى أطفأوه وأنت قائم تصلي لا تلتفت . قال : ما علمت بها .

---

(١) هو عبد الله بن مسعود .

(٢) زاذان : يغلب أنه أبو عمر الكندي الكوفي وليس هو يحيى القتات ، فالأول عرفت توبته على يد إبن مسعود . أما الثاني فله مناكير وليس بثقة عند أهل الحديث . (ومنهم المحاسبي . أنظر : (ميزان الإعتدال ٢/٦٣ ، ٤/٥٨٦) .

(٣) مكان النقط : مطموس في الأصل .

(٤) سورة : الشعراء ، آية : ٢١٨ ، ٢١٩ .

(٥) فقيه من رجال الحديث ، وكان مفتي البصرة ، توفي سنة ١٠٨ هـ . أنظر : (تهذيب ١٠/١٤٠ ، حلية الأولياء ٢/٢٩٠) .

وكان إذا صلى في بيته قال لأهله : تحدثوا فلست أسمع حديثكم .

وكان يحيى بن زياد[1] في الصلاة كأنه يخاطب رجلاً .

ولقد خرجت أرواح بعض العلماء فهماً لما يتلون من كلام ربهم عز وجل . روي أن زرارة بن أوفى[2] صلى بهم الفجر ، فقرأ : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ فلما قرأ : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ * فَذَلِكَ يومئذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ [3] خرَّ ميتاً .

وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه رئي يصلي ويرجح ويتأوه حتى لو رآه من يجهله لقال : أصيب الرجل ، وذلك عند قراءته : ﴿ فَإِذَا أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانَاً ضَيِقَاً مُقَرَّنِينَ ﴾[4] .

وقال عبدالله بن واقد : « رأيت ابن عمر رضي الله عنه يصلي معلولاً » .

وعن إبراهيم أنه كان إذا سمع القاريء يقرأ : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ ٱنشَقَّتْ ﴾[5] إضطرب حتى تضطرب أوصاله . وحق له أن يلتزق قلبه لما يتلو من وعد سيده ووعيده ، لأنه عبد ذليل مذنب ، بين يدي رب جليل محسن .

ولقد رأينا الملوك لا يأذنون للدخول عليهم ، ولا يمكن من مخاطبتهم كل أهل مملكتهم ، ولا يجتريء أن يطلب ذلك منهم إلا من له عندهم القدر العظيم . ولكن الملك الأعلى بمنه أذن لكل عبد : رفيعهم ووضيعهم ، عاصيهم ومطيعهم أن يناجوه ، بل أمرهم بذلك ، وأخبر أنه يغضب على من لا يفعل ذلك .

فإذا كان العبد العاصي مثله يائس من مناجاة الملوك المربوبين فينبغي له أن

---

(١) هو : يحيى بن زياد بن عبد الرحمن أبو سفيان الثقفي ، يروي عن سعيد بن أبي بردة . كان مع صلاحه لا يحتج به إذا إنفرد في الرواية . (ميزان الاعتدال ٣٧٧/٤) .

(٢) أنظر : (صفة الصفوة ١٥٢/٣) .

(٣) سورة : المدثر ، آية : ٨ ، ٩ .

(٤) سورة : الفرقان ، آية : ١٣ .

(٥) سورة : الانشقاق ، آية : ١ .

يعظم قدر النعمة عليه إذ أذن له ربه في مناجاته ، بل لم يرض بالإذن حتى جعله فرضاً لازماً ، وحتى حرك إلى ذلك قلبه ، وحببه إليه ، ولو شاء لم يأذن لعاصٍ في مناجاته إلا بعد التوبة ، ولا لمطيع إلا بعد أن يقدم بين يدي نجواه صدقة ، شكراً فيما أنعم عليه به من ذلك . ولكنه كريم رحيم بخلقه . ولقد أمر تعالى في مناجاة رسوله ﷺ بالصدقة بين يدي ذلك إعظاماً له ، ثم نسخ ذلك تخفيفاً .

وإن بعض ملوك الدنيا لم يأذن لمن له القدر عنده في مناجاته فما يناجيه إلا بالتواضع ، فكيف إذاً أذن لمن تقدم له ذنب وجناية وإساءة ؟ كيف يكون من المسكنة والوجل من العقوبة ؟ فلا تنظر إلى زلته ومسكنته لما تقدم من عصيانه .

فكيف بالملك العظيم ، وكلنا مناج لهعلى تضييع لحقوقه ، ومخالفة أمره ، فنحن أحق بالخوف والوجل من الملك الجبار ، المتكبر الشديد العقاب .

فليعقل العبد قدر ما حركه الله عز وجل إليه من مناجاته ، وليخف من ذنوبه ، وليحذر فليتذلل ، ويقبل عليه بقلبه ، وخضوع جوارحه ، لعله أن يعفو عن طول إعراضه عنه ، وعن نشاطه في معاصيه فيما خلا من عمره ، وقديم غفلته عنه وعن حقوقه .

وكان كثير من العلماء سها في صلاته بشيء من أمور الدنيا أشغله ، عاقب نفسه بصدقة متقرباً بذلك إلى الله عز وجل ، رجاء أن يكون عوضاً لما نقص من صلاته .

من ذلك خبر أبي طلحة الأنصاري في حائصه الذي صلى فيه ، وأعجبه دبْسي طار من الشجرة يلتمس مخرجاً ، فأتبعه بصره ساعة ثم رجع إلى صلاته ، فلم يدر كم صلى ، فذكر ما أصابه في حائطه من الغلبة ، فقال : يا رسول الله هو صدقة ، فضعه حيث شئت . رواه مالك بن أنس .

وروي في الرجل الذي صلى في حائط له والنحل مصفوفة[1] بثمرها ، فنظر إلى ذلك فأعجبه ، فلم يدرِ كم صلى ، فذكر ذلك لأمير المؤمنين عثمان رضي الله

---

(١) في الأصل : مصوفة .

عنه وقال : صدقة ، واجعله في سبيل الله ، فباعه عثمان بخمسين ألفاً » .

ومما يعين المريد على شغله بصلاته ، والفهم فيها : ألا يدع تلقاء بصره ولا بين يديه ما يشغل بصره فيغفل قلبه ، وكذلك كانت العلماء يقطعون كل شغل من الدنيا متعلق به القلب ، فلا يدع المصلي بين يديه شيئاً يشغله .

وقد قال النبي ﷺ لعثمان بن شيبة : « إني نسيت أن أقول لك تخمر القرن الذي في البيت ، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل الناس عن صلاتهم »[١] .

وقال عليه السلام بعد أن صلى في الخميصة التي فيها علم[٢] : « إذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهم ، فإنها ألهتني آنفاً عن صلاتي ، وائتوني بأنبجانية أبي جهم »[٣] .

وكان ابن عمر رضي الله عنه لا يدع في المسجد مصحفاً ولا نقشاً إلا نزعه ، ولا كتاباً إلا محاه .

ويعينه على الفهم والإقبال على صلاته أن تيقظ لذلك ويتأهب له قبل حضورها ، وقبل دخوله فيها ولو بطرفة يمين يعتقد فيها أن يذكر الله تعالى وأمر الآخرة بقلبه ، فإن القلب يشتغل في الصلاة بما كان مشغولاً [به] قبلها ، وبذلك أمرت العلماء .

قال الأوزاعي[٤] : « كانوا يستحبون ذكر المعاد وشبهه عند حضور الصلاة ، فإنه قلما قام رجل وقلبه مشغول بشيء إلا غلب عليه في صلاته » .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده .

(٢) الخميصة : ثوب فيه أعلام منقوشة من صنع فارس .

(٣) أخرج البخاري ، ومسلم ، والنسائي ، وإبن ماجه ، ومالك ، والدارمي عن عائشة أن النبي بعد أن صلى ﷺ في خميصة لها أعلام فنظر إلى أعلامها نظرة فلما انصرف ، قال . . . الحديث .

(٤) هو : إمام الشام في القرن الثاني الهجري ، كان علماء الشام يأخذون بفتيا الأوزاعي في مسائل الفقه توفي في بيروت سنة ١٥٧ هـ . أنظر : (وفيات الأعيان ١/٢٧٥ ، حلية الأولياء ١٣٥/٦) .

ثم إذا قـرأت السورة بعـد أم القرآن تكبـر للركـوع ،وتـرفـع يـديـك أو لا ترفع ، فذلك مباح ، ثم تضع راحتي كفيك على ركبتيك كالقابض على ركبتيه ، تثبت راحتيك على ركبتيك ، وأصابعك حول الـركبة متفـرقة ، وتفـرج عضديـك عن جنبيك ، وليس بالإنفراج الشديد .

وتعتقد في ركوعك وتكبيرك ورفع يديك تعظيماً وإستجارة من سخطه برفـع يديك ، وسائلاً بإتباع بالسنة .

وتذكر بقلبك عند التكبير أن الله أكبر من كـل شيء ، وأن ما سـواه محدث ضعيف .

وتـذكر في حـال الركـوع : التذلـل والخضوع لله سبحـانه وتعـالى تؤمل أن يرحمك .

وتمد ظهرك ورأسك ، لا ترفـع فتقلع به ، ولا تنكسـه ، وتحري الاستـواء أن يستوي رأسك مع عجزك .

وتقول : سبحـان ربي العـظيم . ثـلاثـاً . وإن زدت فحسن . وتقـول في نفسك : ربي أعظم من كل شيء .

ثم تـرفع يـديك ، وتقـول حين تـرفع : سمـع الله لمن حمـده . وتقـول في نفسـك . أجاب الله لمن شكـره . وتقول : اللهم ربنـا ولك الحمـد . وتقـول في نفسك : ربي لك الشكـر . فتعتدل قـائماً حتى تـطمئن أعضاؤك ، وأولى أن تقف بقدر ركوعك . فقد روي ذلك[1] .

ثم تنحط ساجداً ، تكبر في حين ذلك ، وتذكـر بقلبك ؛ أنـك بعينه جـل وعزلمان من به عليك من تنكيسك رأسك بـالسجود لـه وحده ، تضعـه في التراب ذُلًا لعـزته ، وتضـع ركبتيك ، ثم يـديك ، ثم وجهـك . تمكن الجبهة والأنف ،

---

(١) من حديث أخرجه البخاري عن أبي حميـد ، وفيه : أن رسـول الله ﷺ إذا رفع رأسـه إستوى حتى يعود كل فقار مكانه » .

وانصب قدميك ، واثن باطن أصابعهما تجعل باطنهما إلى ظاهرهما ، فإن النبي ﷺ فعله[1] . وتضم أصابع يديك لا تفرقهما ، وتضعها حذاء أذنيك ، متوجهاً بها إلى القبلة .

واعتقد في سجودك تذللاً وخضوعاً لربك . وتقول : سبحان ربي الأعلى . ثلاثاً . وإن زدت فحسن . وتقول بقلبك: ربي أعلا من كل شيء . ولا تجاف يديك جداً ، ولكن بقدر ما تبدي باطن إبطيك ، ولا تصفهما ، ولكن بين ذلك .

ثم ترفع وأنت تكبر ، وتنوي أنه تعالى أكبر من كل شيء . وتنصب رجلك اليمنى وباطن أصابعها إلى الأرض ، وتثني اليسرى وتجلس عليها . فقد روي ذلك . قيل : تفضي بإليتك إلى الأرض . وكذلك تفعل في جلوس التشهد، حتى تطمئن جالساً ، وإن عجلت فحتى يستوي ظهرك . ثم تسجد الثانية ، ثم تقوم . فإن شئت إعتمدت على الأرض بيديك ، وإن شئت لم تفعل . وانهض ، ولا ترفع عجزك قبل رأسك ، فقد كره ذلك ، ولا تقدم إحدى رجليك حتى تنهض ثم تؤخرها إذا أردت أن تستمر [في] القيام . قال ابن عباس رضي الله عنه : « تلك خطوة الشيطان »[2] .

ثم تستوي قائماً ، وإن شئت أخذت شمالك بيمينك في قيام صلاتك كلها : تقبض على ظهر الكف وبعض الساعد ، وتضمها إلى سرتك أو إلى أسفل منها ، ثم تفعل في بقية صلاتك كذلك . وترمي طرفك موضع سجودك .

فإذا جلست وضعت يدك اليسرى على ركبتك وبعض فخذك ، وتجعل حد مرفقك الايمن على فخذك الأيمن ، وأغلق الخنصر والتي تليها إلى كفك ، وتضم الوسطى فتجعلها حلقة بالابهام ، تجعل طرف الوسطى على باطن الإبهام ، وتشير بالسبابة ، وتذكر بقلبك أنه إله واحد ترغب إليه مخلصاً أن يرحمك وتتشهد .

وتفهم أن قولك : « التحيات لله » : الملك . وكذلك هو في اللغة . ثم

---

(١) وذلك فيما أخرجه أبو داود والترمذي والبخاري عن أبي حميد.

(٢) في الأصل : ذلك خطوة الشيطان .

تقول : « والصلوات والطيبات لك » . فتعتقد[1] أنك له وحده تعالى . والطيبات كلها ، الأخلاق الطاهرة ، تتقرب بها إلى الله . ثم تقول : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » . وتأمل أن سلامك يبلغه ﷺ[2] .

ثم تقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وتذكر بقلبك بالسلام على نفسك وعلى صالحي عباد الله من أهل السماء والأرض ، وتأمل أن يرد الله تعالى عليك سلاماً بعددهم .

ثم تقول : « أشهد أن لا إله إلا الله » . تعتقد الإخلاص بالوحدانية . وتشير إذا جلست في الرابعة بأصبعك السبابة اليمنى ، وإحنها شيئاً ، فإن نميرا الخزاعي قال : « رأيت رسول الله ﷺ حناها شيئاً .

وقال ابن عباس : الإشارة بها : ذلك الإخلاص . وقال مجاهد : مقمعة للشيطان . [ثم تقول : وأشهد أن محمداً عبده ورسوله] .

فإذا فرغت من التشهد فأشهد بأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وأثن على الله عز وجل ، وصلى على نبيه ﷺ .

وإختلفت الرواية في رواية كعب بن عجرة . فقد روى : « كما صليت على آل إبراهيم » . وكذلك في البركة . وروي عن كعب [أيضاً] : وعلى إبراهيم . وذلك واسع[3] .

ثم تدعو بما أحببت ، وتجعل في دعائك للمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات إلا إن كنت إماماً فقل : « اللهم إنا نسألك » ؛ لئلا تخص بالدعاء دون من خلفك . ويقول الفذّ[4] : « اللهم إني أسألك » .

---

(١) في الأصل : فمعتقد .

(٢) أخرج أبو داود والنسائي ، عن أوس بن أوس ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إن أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا من الصلاة عليَّ فيه ، فإن صلاتكم معروضة عليَّ . قالوا : وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت ـ أي بليت ـ ؟ قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » .

(٣) متفق عليه .

(٤) أي : الفرد .

فإذا سلمت فاجزم السلام ، ولا تمد به صوتك . وينوي أنه يسلم على من على يمينه من الملائكة والمؤمنين من الجن والإنس . ثم يستغفر الله ثلاثاً . وكان النبي ﷺ يفعله[1] . وتعتقد استغفاراً من تقصيرك في صلاتك ، وسائر ذنوبك .

وتقول : « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام . اللهم لا مانعٍ لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجَدّ ، اللهم أعني على شكرك وذكرك وحسن عبادتك » . وتقرأ آية الكرسي . وليس ذلك كله بواجب .

* * *

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه عن ثوبان رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته إستغفر الله ثلاثاً ، وقال : « اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام » .

الفراغ من الصلاة

وأشعر بقلبك بعد الفراغ من الصلاة : الإشفاق والوجل والهم خوفاً ألا تقبل منك لما سلف من ذنوبك ، وقلة إحكامك لصلاتك ، لا تدري هل أديتها كما إفترضها عليك أم ضيعت . وأنت أيضاً راج من الله عز وجل أن يقبلها بكرمه وإحسانه وفضله كما من بها عليك إذ صليتها ، ولم يعاقبك بسالف ذنبك فيخذلك حتى تتركها . وخف ألا تدرك صلاة أخرى بعدها .

وروي أن يحيى بن وثاب كان إذا قضي الصلاة مكث ما شاء الله تعرف عليه كآبة الصلاة[1] .

وكان ابراهيم بعد الصلاة يمكث ما شاء الله كأنه مريض .

---

(١) هكذا في الأصل . ويبدو ـ والله أعلم ـ أنه يقصد بالكآبة : الكآبة من خوفه من الله تعالى ألا يقبل صلاته .

وصايا

ولا تضع يدك على خاصرتك وأنت تصلي ، فإن النبي ﷺ نهى عن الإختصار في الصلاة[1] .

ولا تصل عاقصاً شعرك ، ولا تشبك ، بين أصابعك ، ولا تفرقع أصابعك ، ولا تتلثم ، وكره ذلك في القتال أيضاً ، وفي الجنازة . وكان الحسن لا يرى بأساً أن يغطي فمه دون أنفه .

ولا تنفخ ، ولا تمسح الحصباء لتسوية موضع سجودك أو قدميك ، فإن كنت ولا بد [فاعلاً] فمسحة واحدة ، وتركها أفضل .

وإذا آذتك قملة فقد أرخص بعض العلماء في أخذها . روي عن معاذ أنه كان يأخذ القملة والبراغيث في الصلاة . وأن ابن عمر كان يقتل القملة في الصلاة حتى يظهر الدم على يديه . وقال إبراهيم النخعي : « يأخذها ويرميها ، ولا شيء عليه إن فعلها ، وقال مجاهد : أحب إلى أن يدعها إلا أن تؤذيه فتشغله عن صلاته فيوهنها قدر ما لا تؤذي ثم يلقيها .

ولا بأس في الصلاة في النعلين . وقال بعض العلماء : الصلاة فيها أفضل؛ لأن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه روى أن النبي ﷺ قال : « لم خلعتم

(١) وذلك فيما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن الخصر في الصلاة » .

نعالكم » ؟ قالوا : رأيناك خلعت فخلعنا . فقال : « إن جبريل أتاني فأخبرني أن فيها خبثاً ، فإذا أتى أحدكم المسجد فليقلب نعليه ، فلينظر فيهما ، فإن رأى خبثاً فليمسحه بالأرض وليصل فيهما »[1] .

وقال إبراهيم في الذين يخلعون نعالهم : « لوددت أن محتاجاً جاء فأخذها » .

وإن خلعت فإن عبد الله بن السائب روى أن النبي ﷺ خلع نعليه . فإن خلعت فبين يديك . وإن أبا هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا صلى أحدكم فليجعل نعليه بين رجليه »[2] . وقال أبو هريرة المغيري : إجعلهما بين رجليك ولا تؤذ بهما مسلماً .

وروى السائب أن رسول الله ﷺ لما خلع نعليه جعلهما عن يساره . وكان النبي ﷺ إماماً . فإن كنت إماماً أو وحدك فافعل ذلك إن أحببت ، وإن كنت مأموماً في الصف فلا تؤذ بهما من على يسارك وتجعل بهما في الصلاة خللاً . ولا تضعهما بين قدميك فيشغلاك . ولكن قدام قدميك . وروي عن جبير بن مطعم أنه قال : « وضع الرجل نعليه بين قدميه بدعة » .

ولا تصل وقد حفزك بول أو غائط . وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك . وقال ابن عباس رضي الله عنه : « والله ما أبالي صليت وهما يدفعاني ، أو صليت وهما مصروران في ثوبي .

وأجمعت العلماء على النهي عن ذلك ، وعلى أنه إن فعل فقد أساء ، فإن لم يشغلاه شغلا يؤديه من الصلاة إلى ما لا يجزيه تركه فصلاته تجزيه ، ولا أحب لأحد أن يفعله إلا أن يضيق عليه الوقت ، أو يكون بموضع لا يمكن أن يقضي حاجته ، أو تمكنه حاجته ولا يمكنه الوضوء فلا بأس أن يصلي ما لم يشغله شغلاً لا يعقل كيف يصلي فلا يجزئه .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند والحاكم في المستدرك وصححه إبن خزيمة .

(٢) أخرجه أبو داود ، والحاكم في المستدرك وصححه وقال : « صحيح على شرط مسلم » . وأقره الذهبي .

ولا ترفع إحدى قدميك على فخذك ، ولا تستند بجدار ، فإن إبراهيم كره ذلك إلا لِعِلَّة ، وفعله بعضهم ، ولا أحب ذلك إلا من علة شديدة ، والتصبر عنه أحب إليّ .

ولا تغطِّ وجهك فيها من برد ولا شمس ولا غبار ، فإنه روي أن النبي ﷺ نهى أن يخمر الرجل وجهه في الصلاة .

ولا تبصق تجاه القبلة ولا عن يمينك ، فإن أبا سعيد الخدري روى أن النبي ﷺ نهى عن ذلك ، وقال : « ليبصق تحت رجله اليسرى أو عن يساره ، وإن أعجله أو بادره فليقل هكذا . يعني في ثوبه » . وكذلك رواه غيره من الصحابة رضي الله عنهم[1] .

والمرأة تصلي كصلاة الرجل إلا في ثلاث خلال على إختلاف من العلماء في ذلك ، وهي : رفع يديها للتكبير ، وإذا سجدت ، وإذا جلست بين السجدتين والتشهد . وكانت أم الدرداء ترفع كالرجل .

وقال حماد[2] وعطاء[3] : « ترفع حذو ثدييها » . وقال إبن عباس وعلي رضي الله عنهما : « تحتفز وتضم فخذيها » . وقال مثل ذلك إبراهيم والحسن ومجاهد . وكذلك يرى أن تسجد .

وروي أن أم الدرداء كانت تصلي كما يصلي الرجل . وقول العلماء أحب إلينا لأنه تستر لها ، وليست كالرجل إذا جافى عضديه ، وإذا ركعت لم تفتح عضديها ، ولا ترفع عجيزتها ، ولتضم ذراعيها عن فخذيها ، وتجمع بين قدميها وتخريجهما من تحتها فهو أستر لها .

---

(١) حديث أبي سعيد في النهي عن البصاق في القبلة أخرجه الشيخان مختصراً .

(٢) هو حماد بن يزيد ، من حفاظ الحديث ، وشيخ أهل العراق في عصره . أنظر : (تذكرة الحفاظ ٢١٢/١ ، وتهذيب التهذيب ٩/٣ ، حلية الأولياء ٢٥٧/٦) .

(٣) هو عطاء بن أبي رباح ، التابعي . وكان عبداً أسود .
أنظر : (تذكرة الحفاظ ٩٢/١ ، صفة الصفوة ، ١١٩/٢ ، ميزان الإعتدال ١٩٧/٢ ، حلية الأولياء ٣١٠/٣) .

وأمـا الجلوس فكانت أم الـدرداء تجلس جلسة الـرجل ، وقـال ابـراهيم ، ومكحول : تجلس جلسة الرجل . وقال خالد بن الجلاخ : « تتربع ». وكانت صفية امرأة ابن عمر تجلس متربعة . وقال حماد : « تجلس كما شاءت » . وقـال عطاء : « كما يتيسر عليها » . وكره جماعـة من العلماء أن تصلي المـرأة منتقبة . روي ذلـك عن جابر بن يزيد ، وطاووس[1] والحسن . ولا بأس أن تصلي عاقصـة شعرهـا . وإنما نهى النبي ﷺ عن ذلك الرجال[2] .

تم كتاب مختصر فهم الصلاة للمحاسبي

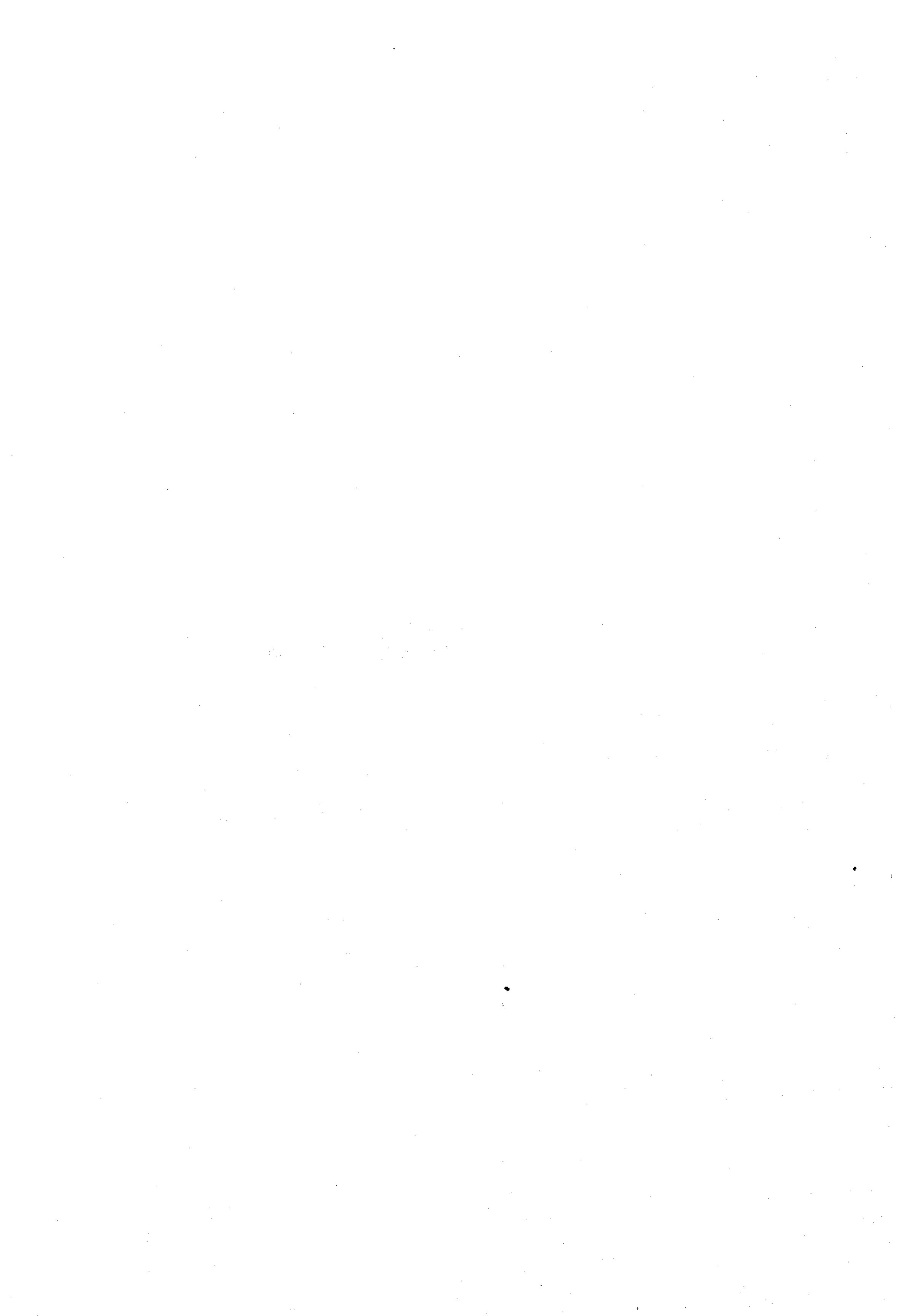
والحمد لله وحده

(١) هـو : طاووس بن كيسـان ، من أكابـر التابعـين تفقهاً في الـدين . توفي سنـة ١٠٦ هـ . أنـظر : (تهذيب التهذيب ٨/٥ ، صفة الصفوة ١٠٦/٢) .

(٢) وذلك فيما أخرجه أحمد عن أبي رافع قال : « نهى النبي ﷺ أن يصلي الرجل ورأسه معقوص » .



التوهّم



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الواحد القهار ، العظيم الجبار ، الكبير المتعال ؛ الذي جعلنا للبلوى[1] والإختبار ، وأعد لنا الجنة والنار ، فعظم لذلك الخطر ، وطال لذلك الحزن لمن عقل وادَّكَر ، حتى يعلم أين المصير وأين المستقر ؛ لأنه قد عصى الرب وخالف المولى ، وأصبح وأمسى بين الغضب والرضا ، ولا يدري أيهما قد جل ووقع له ؛ فعظم لذلك غمه ، وطال لذلك حزنه ، واشتد كربه حتى يعلم كيف عند الله حاله .

فإلى الله فأرغب في التوفيق ، وإياه فسل العفو عن الذنوب ، وبه فاستعن في كل الأمور .

فعجبت كيف تقر عينك ؟ أو كيف يزايل الوجل والاشفاق قلبك ؟ وقد عصيت ربك ، واستوجبت بعصيانك غضبه وعقابه ، والموت لا محالة نازل بك ، بكربه وغصصه ، ونزعه وسكراته . فكأنك قد نزل بك وشيكاً سريعاً .

---

(١) في الأصل : للبلوا .



آلام الموت

فتوهم نفسك وقد صرعت للموت صرعة لا تقوم منها إلا إلى الحشر إلى ربك .

فتوهم نفسك في نزع الموت وكربه ، وغصصه وسكراته ، وغمه وقلقه ، وقد بدأ الملك يجذب روحك من قدمك فوجدت ألم جذبه من أسفل قدميك ، ثم تدارك الجذب ، واستحث النزع ، وجذبت الروح من جميع بدنك ، فنشطت من أسفلك متصاعدة إلى أعلاك ، حتى إذا بلغ منك الكرب منتهاه ، وعمت آلام الموت جميع جسمك ، وقلبك وجل ، محزون مرتقب ، منتظر للبشرى[1] من الله عز وجل بالغضب أو الرضا ، وقد علمت أنه لا محيص له دون أن تسمع إحدى البشريين من الملك الموكل بقبض روحك .

لقاء ملك الموت :

فبينما أنت في كربك وغمومك، وألم الموت بسكراته ، وشدة حزنك لإرتقابك إحدى البشريين من ربك ، إذ نظرت إلى صفحة وجه ملك الموت بأحسن الصورة أو بأقبحها ، ونظرت إليه ماداً يده إلى فيك ليخرج روحك من

(١) في الأصل : للبشرا

بدنك ، فذلت نفسك لما عانيت ذلك ، وعاينت وجه ملك الموت ، وتعلق قلبك بماذا يفجؤك من البشرى منه .

إذا سمعت صوته بنغمته : أبشر يا ولي الله برضا الله وثوابه .

أو أبشر يا عدو الله بغضبه وعقابه

فتستيقن حينئذ بنجاحك وفوزك ، ويستقر الأمر في قلبك ، فتطمئن إلى الله نفسك ، أو تستيقن بعطبك وهلاكك ، ويحل الإياس قلبك ، وينقطع من الله عز وجل رجاؤك وأملك ؛ فيلزم حينئذ غاية الهم والحزن ، أو الفرح والسرور قلبك ، حين إنقضت من الدنيا مدتك ، وإنقطع منها أثرك ، وحملت إلى دار من سلف من الأمم قبلك .

سؤال الملكين :

فتوهم نفسك حين إستطار قلبك فرحاً وسروراً ، أو ملىء حزناً وعبرة ، وبفترة القبر وهول مطلعه، وروعة الملكين وسؤالهما فيه عن إيمانك بربك ، فمثبت من الله جل ثناؤه بالقول الثابت ، أو متحير شاك مخذول .

فتوهم أصواتهما حين يناديانك لتجلس لسؤلهما إياك ليوقفاك على مساءلتهما .

فتوهم جلستك في ضيق لحدك ، وقد سقطت أكفانك على حقويك ، والقطنة من عينيك عند قدميك .

فتوهم ذلك . . . ثم شخوصك ببصرك إلى صورتهما وعظم أجسامهما . فإن رأيتهما بحسن الصورة أيقن قلبك بالفوز والنجاة ، وإن رأيتهما بقبح الصورة أيقن قلبك بالهلاك والعطب .

فتوهم أصواتهما وكلامهما بنغماتهما وسؤالهما ، ثم هو تثبيت الله إياك إن ثبتك أو تحييره[1] إن خذلك .

---

(١) في الأصل : تحيره .

فتوهم جوابك باليقين أو بالتحيّر ، أو بالتردد والشك .

رؤية الجنة والنار :

وتوهم إقبالهما عليك إن ثبتك الله عز وجل بالسرور ، وضربهما بأرجلهما جوانب قبرك بانفراج القبر عن النار بضعفك .

ثم توهم وهي تتأجج بحريقها ، وإقبالها عليك بالقول ، وأنت تنظر إلى ما صرف الله عنك ، فيزداد لذلك قلبك سروراً وفرحاً ، وتوقن بسلامتك من النار بضعفك .

ثم توهم ضربهما بأرجلهما جوانب قبرك[1] ، وإنفراجه عن الجنة بزينتها ونعيمها ، وقولها لك : « يا عبد الله أنظر إلى ما أعد الله لك ، فهذا منزلك وهذا مصيرك » .

فتوهم سرور قلبك وفرحك بما عاينت من نعيم الجنان ، وبهجة ملكها ، وعلمك أنك صائر إلى ما عاينت من نعيمها وحسن بهجتها ـ وإن تكن الأخرى .

فتوهم خلاف ذلك كله من الإنتهار لك ، ومن معاينتك الجنة ، وقولهما لك : « أنظر ما حرمك الله عز وجل » . ومعاينتك النار، وقولها لك : « أنظر إلى ما أعد الله لك ، فهذا منزلك ومصيرك » .

فأعظم بهذا خطراً ، وأعظم به عليك في الدنيا غماً وحزناً حتى تعلم أي الحالتين في القبر حالك ، ثم الفناء والبلاء بعد ذلك ، حتى تنقطع الأوصال ؛ فتفنى عظامك ، ويبلى[2] بدنك ، ولا يبلى الحزن أو الفرح من روحك ، متوقعاً روحك ، متطلعاً للقيام عند النشور إلى غضب الله عز وجل وعقابه ، أو إلى رضا الله عز وجل وثوابه ، وأنت مع توقع ذلك معروضة روحك على منزلك من الجنة أو مأواك من النار .

---

(١) في الأصل : القبر . وما أوردناه من على الهامش .

(٢) في الأصل : ويبلا

فيـا حسرات روحـك وغمومهـا . . ويا غبـطتهـا وسـرورهـا . . . حتى إذا تكاملت عدة الموتى ، وخلت من سكانها الأرض والسماء ، فصاروا خـامدين بعـد حركاتهم ، فلا حس يسمع ، ولا شخص يرى ، وقد بقي الجبار الأعلى[1] كـما لم يزل أزلياً واحداً منفرداً بعظمته وجلاله ، ثم لم يفجأ روحك إلا بنداء المنادي لكل الخلائق معك للعرض على الله عز وجل بالذل والصغار منك ومنهم .

* * *

(١) في الأصل : الأعلا .

النداء للعرض

فتوهم كيف وقوع الصوت في مسامعك وعقلك ؟ !

وتفهم بعقلك بأنك تدعى[١] إلى العرض على الملك الأعلى[٢] ، فطار فؤادك ، وشاب رأسك للنداء ؛ لأنها صيحة واحدة للعرض على ذي الجلال والإكرام ، والعظمة والكبرياء[٣] .

فبينا أنت فزع للصوت ، إذ سمعت بإنفراج الأرض عن رأسك ، فوثبت مغبراً من قرنك إلى قدمك بغبار قبرك ، قائماً على قدميك ، شاخصاً ببصرك نحو النداء[٤] . وقد ثار الخلائق كلهم معك ثورة واحدة وهم مغبرون[٥] من غبار الأرض التي طال فيها بلاؤهم[٦] .

---

(١) في الأصل : تدعا .

(٢) في الأصل : الملك الأعلا .

(٣) يقول الله تعالى من سورة يس ٥٣ : ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ .

(٤) يقول الله تعالى في سورة الأنبياء ٩٧ : ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ .

(٥) في الأصل : مغبرين .

(٦) في الأصل : بلاهم .

زحام مريع :

فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع منك ومنهم .

فتوهم نفسك بعريك ومذلتك ، وإنفرادك بخوفك وأحزانك وغمومك وهمومك في زحمة الخلائق . . . عراة حفاة . . صموت أجمعون بالذلة والمسكنة ، والمخافة والرهبة .

فلا تسمع إلا همس أقدامهم والصوت لمدة المنادي ، والخلائق مقبلون نحوه ، وأنت فيهم مقبل نحو الصوت ، ساع[1] بالخشوع والذلة ، حتى إذا وافيت الموقف إزدحمت الأمم كلها من الجن والإنس عراة حفاة . . قد نزع المُلك من ملوك الأرض . . ولزمتهم الذلة والصغار . . فهم أذل أهل الجمع وأصغرهم خلقة وقدراً ، بعد عتوهم وتجبرهم على عباد الله عز وجل في أرضه .

الحشر الأكبر :

ثم أقبلت الوحوش من البراري وذري الجبال . . منكسة رؤوسها[2] لذل يوم القيامة ، بعد توحشها وإنفرادها من الخلائق ذليلة ليوم النشور لغير بلية نابتها ، ولا خطيئة أصابتها .

فتوهم إقبالها بذلها في اليوم العظيم ليوم العرض والنشور . وأقبلت السباع بعد ضراوتها وشهامتها منكسة رؤوسها ذليلة ليوم القيامة ، حتى. وقفت من وراء الخلائق بالذل والمسكنة ، والانكسار للملك الجبار .

وأقبلت الشياطين بعد عتوها وتمردها ، خاشعة لذل العرض على الله سبحانه .

فسبحانه الذي جمعهم بعد طول البلاء ، وإختلاف خلقهم وطبائعهم ، وتوحش بعضهم من بعض ، قد أذلهم البعث ، وجمع بينهم النشور .

* * *

---

(١) في الأصل : ساعي .

(٢) في الأصل : روسها .

أهوال القيامة

حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها ، واستووا جميعاً في موقف العرض والحساب ، تناثرت نجوم السماء من فوقهم ، وطمست الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض بخمود سراجها وإطفاء نورها .

فبينا أنت والخلائق على ذلك إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم ، فدارت بعظمها من فوق رؤوسهم[1] ، وذلك بعينك تنظر إلى هول ذلك .

ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام ، فيا هول صوت إنشقاقها في سمعك ، ثم تمزقت وإنفطرت بعظيم هول يوم القيامة ، والملائكة قيام على أرجائها ، وهي حافات ما يتشقق ويتفطر .

فما ظنك بهول تنشق فيه السماء بعظمها ، فأذابها ربها حتى صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة ، كما قال الجليل الكبير :

﴿ فَكَانَتْ[2] وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾[3] و﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كالْمُهل . وَتَكُونُ الجِبَالُ كالْعِهْنِ ﴾[4] .

---

(١) في الأصل : روسهم .

(٢) في الأصل : فصارت . خطأ .

(٣) سورة : الرحمن ، آية : ٣٧ .

(٤) سورة : المعارج ، آية : ٨ ، ٩ .

فبينا ملائكة السماء الدنيا على حافتها إذ إنحدروا محشورين إلى الأرض للعرض والحساب ، وإنحدروا من حافتيها بعظم أجسامهم وأخطارهم وعلو أصواتهم بتقديس الملك الأعلى الذي أنزلهم محشورين إلى الأرض بالذلة والمسكنة للعرض عليه ، والسؤال بين يديه .

فتوهم تحدرهم[1] من السحاب بعظيم أخطارهم ، وكبير أجسامهم ، وهول أصواتهم ، وشدة فرقهم ، منكسين لذل العرض على الله عز وجل .

كما حدثني يحيى بن غيلان الأسلمي قال : حدثنا رشدين بن سعيد ، عن أبي السمع ، عن أبي قبيل ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن النبي ﷺ أنه قال : « لله مَلَكٌ ما بين مواقي عينيه إلى آخر شفرة مسيرة مائة عام »[2] .

حدثني يحيى بن غيلان قال : حدثنا رشدين بن سعيد ، عن بن عباس ابن ميمون اللخمي ، عن أبي قبيل ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن النبي ﷺ أنه قال : « لله عز وجل ملك ما بين شفري عينيه مائة عام »[3] .

فيا فزعك وقد فزع الخلائق مخافة أن يكونوا أمروا بهم ، ومسألتهم إياهم : أفيكم ربنا ؟ ففزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لمليكهم أن يكون فيهم . فنادوا بأصواتهم تنزيهاً لما توهمه أهل الأرض : سبحان ربنا ليس هو بيننا ولكنه آت ، حتى أخذوا مصافهم محدقين بالخلائق منكسين رؤوسهم لذل يومهم .

فتوهمهم وقد تسربلوا بأجنحتهم ، وتكسوا رؤوسهم[4] في عظم خلقهم بالذل والمسكنة والخشوع لربهم ، ثم كل شيء على ذلك ، وكذلك إلى السماء السابعة ، كل أهل سماء مضعفين بالعدد ، وعظم الأجسام ، وكل أهل سماء محدقين بالخلائق صفاً واحداً .

---

(١) في الأصل : يحذرهم . تصحيف .

(٢) حديث : « لله ملك ما بين مواقي عينيه » : أورده العجلوني في كشف الخفا ٧٧٣ ، وقال القاري : « لم يوجد له أصل » وقال العراقي في إحياء علوم الدين ذلك أيضاً .

(٣) حديث « لله عز وجل ملك » : سبق تخريجه .

(٤) في الأصل : روس .

حتى إذا وافى[1] الموقف أهل السموات السبع ، والأرضين السبع ، كسيت الشمس حر عشر سنين ، وأدنيت من رؤوس الخلائق قاب قوس أو قوسين ، ولا ظل لأحد إلا ظل عرش رب العالمين ، فمن بين مستظل بظل العرش ، وبين مضحو بحر الشمس ، قد صهرته بحرها ، واشتد كربه وقلقه من وهجها .

ثم ازدحمت الأمم وتدافعت ، فدفع بعضها بعضاً ، وتضايقت فاختلفت الأقدام ، وانقطعت الأعناق من العطش ، واجتمع حر الشمس ووهج أنفاس الخلائق ، وتزاحم أجسامهم ، ففاض العرق منهم سائلاً حتى استنقع على وجه الأرض ، ثم على الأبدان على قدر مراتبهم ومنازلهم عند الله عز وجل بالسعادة والشقاء ، حتى إذا بلغ من بعضهم العرق كعبيه ، وبعضهم حقويه ، وبعضهم إلى شحمة أذنيه ، ومنهم من كاد أن يغيب في عرقه ، ومن قد توسط العرق من دون ذلك منه .

عن عمير بن سعيد[2] قال : جلست إلى ابن عمرو وأبي سعيد الخدري ، وذلك يوم الجمعة ، فقال أحدهما لصاحبه : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أين يبلغ العرق من إبن آدم يوم القيامة ؟ فقال أحدهم : شحمة أذنيه ، وقال الآخر : يلجمه ، فقال ابن عمر : هكذا ، وخط من فيه الى شحمة أذنيه ، فقال : ما أرى ذلك إلا سواء » .

عن خثيمة ، عن عبد الله قال : « الأرض كلها نار يوم القيامة ، والجنة من ورائها يرون كواعبها وأكوابها ، والذي نفسه عبد الله بيده أن الرجل ليفيض عرقاً حتى يسيح في الأرض قامته ، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه ، وما مسه الحساب ، قال : فقالوا : مما ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : فقال : مما يرى الناس يلقون » .

---

(١) في الأصل : وافا

(٢) ويكنى بأبي يحيى . وفاته : ١٠٧ هـ .

(٣) حديث : « أين يبلغ العرق » : أخرجه البخاري ومسلم ، وأورده الغزالي في إحياء علوم الدين . أنظر : (فتح الباري ٣٩٢/١١) .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : إن الرجل ـ وقال على مرة إن الكافر ـ ليقوم يوم القيامة في بحر رشحه إلى أنصاف أذنيه من طول القيام »[1] .

عن عبد الله رفعه إلى النبي ﷺ : « إن الكافر يلجم بعرقه يوم القيامة من طول ذلك اليوم ـ وقال عليّ : من طول القيام ـ قالا جميعاً : حتى يقول رب ارحمني ولو إلى النار »[2] .

وأنت لا محالة أحدهم .

فتوهم نفسك لكربك ، وقد علاك العرق ، وأطبق عليك الغم ، وضاقت نفسك في صدرك من شدة العرق والفزع والرعب . والناس معك منتظرون[3] لفصل القضاء إلى دار السعادة أو إلى دار الشقاء ، حتى إذا بلغ المجهود منك ومن الخلائق منتهاه ، وطال وقوفهم لا يكلمون ولا ينظرون[4] في أمورهم . فما ظنك بوقوفهم ثلاثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ، ولا يلفح وجوههم روح ولا طيب نسيم ، ولا يستريحون من تعب قيامهم ونصب وقوفهم ، حتى بلغ الجهد منهم ما لا طاقة لهم به .

عن قتادة أو كعب ، قال : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾[5] . قال : « يقومون مقدار ثلاثمائة عام » .

وقال سمعت الحسن يقول : « ما ظنك بأقوام قاموا لله عز وجل على أقوامهم مقدار خمسين ألف سنة لم يأكلوا فيها أكلة ، ولم يشربوا فيها شربة ، حتى

---

(١) حديث « إن الرجل ليقوم يوم القيامة » : أخرجه الامام مسلم بهذا اللفظ ، وأخرجه البخاري عن مالك عن نافع وفيه : إختلاف في اللفظ . أنظر : (فتح الباري ١١/٣٩٢ ، تفسير إبن كثير ٤/٤٨٣ ، فيض القدير ، ٢/٣٣٨) .

(٢) حديث : إن الكافر يلجم بعرقه » : أخرجه الطبراني وأبو يعلى والبيهقي في شعب الإيمان عن أبن عمر ، وقال الهيثمي رجال الكبير رجال الصحيح » .

(٣) في الأصل : منتظر باليد الأولى .

(٤) في الأصل : ينظروا .

(٥) سورة : المطففين ، آية : ٦ .

إذا إنقطعت أعناقهم من العطش ، وإحترقت أجوافهم من الجوع ، انصرف بهم إلى النار ، فسقوا من عين آنية قد آن حرها واشتد نفحها ، فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضاً في طلب من يكرم على مولاه أن يشفع لهم في الراحة من مقامهم وموقفهم لينصرفوا إلى الجنة أو إلى النار من وقوفهم ، ففزعوا إلى آدم ونوح ومن بعده إبراهيم ، وموسى وعيسى من بعد إبراهيم ، كلهم يقول لهم : « إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، فكلهم يذكر شدة غضب ربه عز وجل وينادي بالشغل بنفسه فيقول : نفسي نفسي ، فيشتغل بنفسه عن الشفاعة لهم إلى ربهم لإهتمامه بنفسه وخلاصها » .

وكذلك يقول الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾[1] .

فتوهم أصوات الخلائق وهم ينادون بأجمعهم ، منفرد كل واحد بنفسه ينادي : نفسي نفسي ، فلا تسمع إلا قول : نفسي نفسي .

* * *

---

(١) سورة : النحل ، آية : ١١١ .

الشفاعة

فيا هول ذلك . . وأنت تنادي معهم بالشغل بنفسك ، والإهتمام بخلاصها من عذاب ربك وعقابه . فما ظنك بيوم ينادي فيه المصطفى آدم ، والخليل إبراهيم ، والكليم موسى ، والروح والكلمة عيسى ، مع كرامتهم على الله عز وجل ، وعظم قدر منازلهم عند الله عز وجل ، كل ينادي : نفسي نفسي ، شفقاً من شدة غضب ربه ، فأين أنت منهم في إشفاقك في ذلك اليوم واشتغالك بحزنك وبخوفك ؟

شفاعة النبي ﷺ :

حتى إذا أيس الخلائق من شفاعتهم لما رأوا من إشتغالهم لأنفسهم ، أتوا النبي مُحمداً ، فسألوه الشفاعة إلى ربهم فأجابهم إليها .

ثم قام إلى ربه عز وجل ، واستأذن عليه . فأذن له ، ثم خر لربه عز وجل ساجداً ، ثم فتح عليه من محامده والثناء عليه لما هو أهله ، وذلك كله بسمعك وأسماع الخلائق ، حتى أجابه ربه عز وجل إلى تعجيل عرضهم ، والنظر في أمورهم .

فبينما أنت مع الخلائق في هول القيامة وشدة كربها ، منتظراً متوقعاً لفصل القضاء والحلول في دار النعيم أو الحزن . إذ سطع نور العرش ، وأشرقت الأرض بنور ربها ، وأيقن قلبك بالجبار ، وقد أتى لعرضك عليه حتى كأنه لا يعرض عليه أحد سواك ، ولا ينظر إلا في أمرك .

الفرار من جهنم :

عن حميد بن هلال ، قال : ذكر لنا أن الرجل يدعي يوم القيامة إلى الحساب ، فيقال : يا فلان بن فلان ، هلم إلى الحساب ، حتى يقول ما يراد أحد غيري مما يحضر به من الحساب ، ثم نادى : يا جبريل ائتني بالنار ـ فتوهمها وقد أتى جبريل ـ فقال لها : يا جهنم أجيبي .

فتوهم اضطرابها وارتعادها بفرقها أن يكون الله عز وجل خلق خلقاً يعذبها به .

فتوهمها حين اضطربت وفارت وثارت ، ونظرت إلى الخلائق من بعد مكانها ، فشهقت إليهم ، وزفرت نحوهم ، وجذبت خزانها متوثبة على الخلائق غضباً لغضب ربها على من خالف أمره وعصاه .

فتوهم صوت زفيرها وشهيقها ، وترادف قصبتها وقد امتلأ منه سمعك ، وارتفع له فؤادك وطار فزعاً ورعباً ، ففر الخلائق هرباً من زفيرها على وجوههم ، وذلك يوم التنادي ، لما سمعوا زفيرها ولوا مدبرين ، وتساقطوا على ركبهم جثاه حول جهنم ، فأرسلوا الدموع من أعينهم

فتوهم إجتماع أصوات بكاء الخلائق عند زفيرها وشهيقها ، وينادي الظالمون بالويل والثبور ، وينادي كل مصطفى وصديق ومنتخب وشهيد ومختار وجميع العوام : نفسي نفسي .

فتوهم أصوات الخلائق من الأنبياء فمن دونهم كل عبد منهم ينادي : نفسي نفسي ، وأنت قائلها .

فبينا أنت مع الخلائق في شدة الأهوال ووجل القلوب إذ زفرت الثانية ، فيزداد رعبك ورعبهم ، وخوفك وخوفهم .

ثم زفرت الثالثة . فتساقط الخلائق لوجوههم ، وتشخص بأبصارهم

ينظرون من طرف خاشع خفي ، خوفاً أن تلفهم فتأخذهم بحريقها ، وانتصفت عند ذلك قلوب الظالمين ، فبلغت لدى الحناجر كاظمين ، فكظموا عليها وقد غصت في حلوقهم ، وطارت الألباب وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين ، فلا يبقى رسول ولا عبد صالح مختار إلا ذهل لذلك عقله .

سؤال الرسل :

فأقبل الله عز وجل عند ذلك على رسله ، وهم أكرم الخلائق عليه وأقربهم إليه ، لأنهم الدعاة إلى الله عز وجل في الموقف ، وأكرمهم عليه ، فيسألهم عما أرسلهم به إلى عباده ، وماذا ردوا عليهم من الجواب ، فقال لهم : (ماذا أجبتم ؟) .

فردوا عليه الجواب عن عقول ذاهلة غير ذاكرة ، فقالوا : ﴿ . . . لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ ﴾(١) .

فأعظم به من هول تبالغ من رسل الله عز وجل في قربهم منه وكرامتهم ، حتى أكهل عقولهم ، فلم يعلموا بماذا أجبتهم أممهم .

عن أبي الحسن الدمشقي ، قال : قلت لأبي قرة الأزدي : كيف صبر قلوبهم على أهوال القيامة ؟ قال : إنهم إذا بعثوا خلقوا خلقة يقوون عليها .

قال أبو الحسن : قلت لإسحاق بن خلف قول الله عز وجل للرسل : (ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا) ، أليس قد علموا ما ورد عليهم في الدنيا ؟ قال من عظم هول السؤال حين يسألون ، طاشت عقولهم فلم يدروا أي شيء أجيبوا في الدنيا ، فهم صادقون حتى تجلى عنهم بعد ، فعرفوا ما أجيبوا . قال : فحدثت به أبا سليمان ، فقال : صدق إسحاق ، هم في ساعتهم تلك صادقون ، حتى تجلى عنهم فعرفوا ما أجيبوا . فقال أبو سليمان : « إذا سمعت

---

(١) سورة : المائدة ، آية : ١٠٩ .

الرجل يقول لصاحبه بيني وبينك الصراط ، فاعلم أنه لا يعرف الصراط ، ولو عرفه ما اشتهى أن يتعلق بأحد ، فلا يتعلق أحد » .

عن مجاهد في قوله : (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم) قال : فيفزعون فيقولون : (لا علم لنا) .

عن مجاهد في قول الله عز وجل : (وترى كل أمة جاثية) أي : مستوفزين على الركب . قال : سمعت عبد الله يقول : قال رسول الله ﷺ: « كأني أراكم جاثمين بالكوم دون جهنم »[1] ، قال سمعت عبد الله بن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ: « من أحب أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ : (إذا الشمس كورت)[2] .

وعن عمر بن ذر قال : « من غدا يلتمس الخير وجد الخير، أعليَّ تحملون جمود أعينكم وقسوة قلوبكم ؟ احملوا العيَّ عليَّ إن لم أسمعكم اليوم واعظاً من كتاب الله عز وجل ، ثم قرأ : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾[3] ـ حتى إذا بلغ ـ ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾[4] ـ أو قال : حتى ختمها ـ قال : ثم قال : « إسمعوا إليَّ يا عَرَض الدنيا » .

فأين أنت منهم في ذلك الموقف ؟ هل تطمع أن يبلغ بك الهول ما بلغ منهم ، بل أعظم مما بلغ منهم ما لا يطيقه قلبك ، فلا يقوم به بدنك ، فهذه عقولهم ذاهلة في ذلك الموقف ، فكيف بعقلك وما حل بك وأنت الخاطىء العاصي المتمادي فيما يكره ربك عز وجل ؟

فتوهم نفسك لذلك الخوف والفزع والرعب ، والغربة والتحير إذا تبرأ منك

---

(١) حديث « كأني أراكم جاثمين » : أنظر : فتح الباري ٨/٥٧٤ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٤/١٥٢ ، وتفسير القرطبي ١٦/١٧٤) .

(٢) حديث « من أحب أن ينظر إلى يوم القيامة » : أخرجه الامام أحمد بن حنبل والطبراني ، والحاكم في المستدرك وصححه . أنظر : (فتح الباري ٨/٦٩٥) .

(٣) سورة : التكوير ، آية : ١ : ٣ .

(٤) سورة : التكوير ، آية : ١٤ .

الولد والوالد ، والأخ والصاحب والعشائر ، وفررت أنت منهم أجمعين ، فكيف خذلتهم وخذلوك ؟ ولولا عظم هول ذلك اليوم ما كان من الكرم والحفاظ أن تفر من أمك وأبيك وصاحبتك وبنيك وأخيك ، ولكن عظم الخطر ، وإشتد الهول ، فلا تلام على فرارك منهم ولا يلامون ، ولم تخصهم بالفرار دون الأقرباء لبغضك إياهم ، وكيف تبغضهم أو يبغضونك ؟ ! وكيف خصصتهم بالفرار منهم ؟ ! أتبغضهم وإنهم لَهُم الذين كانوا في الدنيا مؤانسيك وقرة عينك وراحة قلبك ؟ !! ولكن خشيت أن يكون لأحد عندك منهم تبعة فيتعلق بك حتى يخاصمك عند ربك عز وجل، ثم لعله أن يحكم له عليك فيأخذ منك ما ترجو أن تنجو به من حسناتك فيفرقك منها فتصير بذلك إلى النار .

فبينما أنت في ذلك إذ ارتفعت عنق من النار فنطقت بلسان فصيح بمن وكلت بأخذهم من الخلائق بغير حساب ، ثم أقبل ذلك العنق فيلتعظمهم لقط الطير الحب ، ثم إنطوت عليهم فألقتهم في النار فابتلعتهم ، ثم خنست بهم في جهنم فيفعل ذلك بهم .

تطاير الكتب ونصب الموازين :

ثم ينادي مناد : سيعلم أهل الجمع من من أولى بالكرم ، ليقم الحمادون لله على كل حال ، فيقومون فيسرحون إلى الجنة ، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ، ثم بمن لم يشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر مولاه حتى إذا دخلت هذه الفرق من أهل الجنة والنار ، ثم تطايرت الكتب في الايمان والشمائل ونصبت الموازين .

فتوهم الميزان بعظمه منصوباً .

وتوهم الكتب المتطايرة وقلبك واجف متوقع أين يقع كتابك في يمينك أو في شمالك .

عن الحسن : « إن رسول الله ﷺ كان رأسه في حجر عائشة فنعس ، فتذكرت الآخرة ، فبكت فسالت دموعها على خد النبي ﷺ، فاستيقظ بدموعها

فرفع رأسه ، فقال : ما يبكيك يا عائشة ؟ فقالت : يا رسول الله ذكرت الآخرة ، هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ قال : والذي نفسي بيده في ثلاث مواطن فإن أحداً لا يذكر إلا نفسه : إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر إبن آدم أيخف ميزانه أم يثقل ؟ وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ أم بشماله ، وعند الصراط »[1] .

وعن أنس بن مالك قال : يؤتي بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ، ويوكل به ملك ، فإثقل ميزانه نادى الملك بصوته يسمع الخلائق : سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقي بعدها أبداً ، وإن خف ميزانه نادى الملك بصوته يسمع الخلائق : شقي فلان بن فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً » .

* * *

(١) حديث « أن رسول الله ﷺ كان رأسه في حجر عائشة » : أخرجه أبو داود في سننه ، وإسناده جيد ، إلا أنه فيه إختلاف يسير في اللفظ . (إحياء علوم الدين ٤/٥٠٤) .

يوم العرض

فبينا أنت واقف مع الخلائق ، إذ نظرت إلى الملك ، وقد أمر أن يحضر بالزبانية ، فأقبلوا بأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من النار ، فلما رأيتهم فهبتهم طار قلبك فزعاً ورعباً .

فبينا أنت كذلك إذ نودي باسمك ، فنوديت على رؤوس الخلائق الأولين والآخرين : أين فلان بن فلان ؟ هلم إلى العرض على الله عز وجل ، وقد وكل الملائكة بأخذك حتى يقربوك إلى ربك ، فلم يمنعها اشتباه الأسماء باسمك أن تعرفك ؛ لما ترى بك أنك المراد بالدعاء المطلوب .

قال : حدثنا طلحة بن عمرو ، قال : قال عطاء بن أبي رباح : « يا طلحة ما أكثر الأسماء على اسمك ، وما أكثر الأسماء على اسمي ! فإذا كان يوم القيامة قيل يا فلان ، فقام الذي يعني لا يقوم غيره لما لزم قلبك من العلم .

فوثبت على قدميك ترتعد فرائصك ، وتضطرب جوارحك ، متغيراً لونك ، فزعاً مرعوباً ، مرتكضاً قلبك في صدرك بالخفقان ؛ فلما عاينتَك الملائكة الموكلون بأخذك ، قد جل بك الإضطراب والإرتعاد والمخافة ، علمت أنك أنت المراد من العباد ، فأهوت إليك بأيديها ، فقبضت عليك بعنفها ، ثم جذبتك إلى ربك عز وجل ، كما تجذب الدواب المنقادة ، تتخطى بك الصفوف محثوثاً إلى العرض على الله عز وجل ، والوقوف بين يديه ، وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم ، وأنت مجبوذ إلى ربك عز وجل فيما بينهم .

فتوهم حين وقفت بالإضطراب والإرتعاد .

وتوهم مباشرة أيديهم على عضديك ، وغلظ أكفهم حين يأخذوك .

فتوهم نفسك محثوثة في أيديهم ، وتوهم تخطيك الصفوف ، طائراً فؤادك ، متخلصاً قلبك .

الوقوف أمام الله :

فتوهم نفسك في أيديهم كذلك حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن ، فقذفوا بك من أيديهم ، وناداك الله عز وجل بعظيم كلامه : ادن مني يا بن آدم ، فغيبك في نوره ، فوقفت بين يدي رب عظيم جليل كبير كريم بقلب خافق محزون ، وجل مرعوب وطرق خائف خاشع ذليل ، ولون متغير ، وجوارح مرتعدة مضطربة ، كالجمل الصغير حين تلده أمه ، ترتعد بيدك صحيفة محبرة لا تغادر بلية كسبتها ولا مخبأة أسررتها ، فقرأت ما فيها بلسان كليل ، وحجة داحضة ، وقلب منكسر ، فكم لك من حصن وخجل وجبن من المولى الذي لم يزل إليك محسناً ، وعليك سائراً فبأى لسان تجيبه حين يسألك عن قبيح فعلك ، وعظيم جرمك ، وبأي قدم تقف غداً بين يديه ، وبأي نظر تنظر إليه ، وبأي قلب تحتمل كلامه العظيم الجليل ومساءلته وتوبيخه ؟

فتوهم نفسك بصغر جسمك ، وإرتعاد جوارحك ، وخفقان قلبك ، وقد سمعت كلامه بتذكير ذنوبك وإظهار مساوئك ، وتوفيقك بمخبآتك .

فتوهم نفسك بهذه الهيئة ، والأهوال بك محدقة من خلفك ، فكم من بلية قد نسيتها ، قد ذكرتها ؛ وكم من سريرة قد كنت كتمتها قد أظهرها وأبداها ، وكم من عمل ، قد ظننت أنه قد خلص لك وسلم بالغفلة منك إلى ميل الهوى عما يفسده ، قد رده في ذلك الموقف عليك وأحبطه ، بعدما كان أملك فيه عظيماً .

فيا حسرات قلبك ، وتأسفك على ما فرطت في طاعة ربك ، حتى إذا كرر عليك السؤال بذكر كل بلية ، ونشر كل مخبأة ، فأجهدك الكرب ، وبلغ منك

الحياء منتهاه ؛ لأنه الملك الأعلى ، فلا حياء يكون من أحد أعظم من الحياء منه ، لأنه القديم الأول الباقي الذي ليس لـه مثل ، المحسن المتعطف المتحنن الكريم الجواد المنعم المتطول .

فما ظنك بسؤال من هو هكذا ، وقد أبان عن مخالفتك إياه ، وقلة هيبتك له ، وحيائك منه ، ومبارزتك له ، فما ظنك بتذكيره إياك مخالفته ، وقلة اكتراثك في الدنيا بالطاعة له ، ونظرك إليه ، إذ يقول : يا عبدي أما أجللتني ، أما إستحييت مني ، استخففت بنظري إليك ، ألم أحسن إليك ، ألم أنعم عليك ، ما غرك مني ، شبابك فيم أبليته ، وعمرك فيما أفنيته ، ومالك من أين اكتسبته وفيم أنفقته ، وعملك ماذا عملت فيه ؟

قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا سيسأله رب العالمين ، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان » (١) .

وقال : سمعت عدي بن حاتم قال : شهدت رسول الله ﷺ في حديث له : « ليقفن أحدكم بين يدي الله تبارك وتعالى ، ليس بينه وبينه حجاب يحجبه ، ولا بينه وبينه ترجمان يترجم عنه ، فيقول : ألم أنعم عليك ؟ ألم آتك مالاً ؟ فيقول : بلى ، فيقول : ألم أرسل إليك رسولاً ؟ فيقول : بلى ، ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ، ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار ، فليتق أحدكم النار ولو بشق تمرة ، فإن لم يجد فبكلمة طيبة » (٢) .

وعن ابن مسعود أنه بدأ باليمين ، فقال : والله ما منكم من أحد إلا سيخلو به الله عز وجل كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة بدر ، ثم يقول : يا ابن آدم ما غرك بي ؟ يا ابن آدم ما عملت لي ؟ يا ابن آدم ما استحييت مني ! يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ يا ابن آدم ألم أكن رقيباً على عينيك وأنت تنظر بهما إلى ما لا

---

(١) حديث « ما منكم من أحد إلا سيسأله رب العالمين » : أخرجه البخاري ومسلم ، وأورده العجلوني في كشف الخفا . وأخرجه أبو داود وفيه : إختلاف في اللفظ .

(٢) حديث « ليقفن أحدكم » : هو رواية من روايات الحديث السابق وقد أخرجه بهذا اللفظ البخاري في صحيحه .

يحل لك ؟ ألم أكن رقيباً على أذنيك وأنت تستمع بهما إلى ما لا يحل لك ؟ ألم أكن رقيباً على لسانك وأنت تنطق بما لا يحل لك ؟ ألم أكن رقيباً على يديك وأنت تبطش بهما إلى ما لا يحل لك ؟ ألم أكن رقيباً على رجليك وأنت تمشي بهما إلى ما لا يحل لك ؟ ألم أكن رقيباً على قلبك وأنت تهم بما لا يحل لك ؟ أم أنكرت قربي منك وقدرتي عليك ، وأنت يا ابن آدم بين خطرين عظيمين : إما أن يتلا قال برحمته ويتطول عليك بجوده ، وإما أن يناقشك الحساب ، فيأمر بك إلى الهاوية وبئس المصير .

عن مجاهد قال : « لا يزول قدم عبد يوم القيامة من بين يدي الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال : عن عمره فيما أفناه ؟ وعن علمه ما عمل فيه ؟ . وعن جسده فيم أبلاه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه » ؟

فما ظنك بنفسك وضعف قلبك ، والله عز وجل يكرر عليك ذكر إحسانه إليك ، ومخالفتك له ، وقلة حيائك منه .

فأعظم به موقفاً !! وأعظم به من سائل لا تخفى عليه خافية !! وأعظم بما يداخلك من الحزن والغم . والتأسف على ما فرطت في طاعته وركوبك معصيته !!

الغفران :

فإذا تبالغ فيك الجهد من الغم والحزن والحياء بدا لك منه أحد الأمرين : الغضب ، أو الرضا عنك والحب لك . فإما أن يقول : يا عبدي أنا سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، فقد غفرت لك كبير جرمك ، وكثير سيئاتك ، وتقبلت منك يسير إحسانك . فيستطير بالسرور والفرح قلبك ، فيشرق لذلك وجهك .

فتوهم نفسك حين قالها لك ، فابتدأ إشراق السرور ونوره في وجهك بعد كآبته وتكسفه من الحياء من السؤال والحصر من ذكر مساوىء فعلك ، فاستبدلت بالكآبة والحزن سروراً في قلبك ، فأسفر وجهك ، وابيض لونك .

فتوهم رضاه عنك حين سمعته منه ، فثار في قلبك فامتلأ سروراً ، وكدت أن تموت فرحاً ، وتطير سروراً ، ويحق لك ، فأي سرور أعظم من السرور والفرح برضا الله عز وجل ؟!

فوالله تعالى لو أنك مت فرحاً في الدنيا حين توهم رضاه في الآخرة لكنت بذلك حريا ، وإن كنت لم تستيقن برضاه في الآخرة ، ولكن آملاً لذلك ، فكيف بك مستيقناً له في الآخرة ؟ ولو توهمت نفسك وقد بدا لك منه الرحمة والمغفرة ، كنت حقيقاً أن تطير روحك من بدنك فرحاً ، فكيف أن لو قد سمعت من الله عز وجل الرضا عنك والمغفرة لك ، فأمن خوفك ، وسكن حذرك ، وتحقق أملك ورجاؤك بخلود الأبد ، وأيقنت بفوزك ونعيمك أبداً لا يغني ولا يبيد بغير تنقيص ولا تكذيب .

فتوهم نفسك بين يدي الله عز وجل ، وقد بدا لك منه الرضا ، وطار قلبك فرحاً ، وابيض وجهك ، وأشرق وأنار وأحال عن خلقته ، فصار كأنه القمر ليلة البدر .

ثم خرجت على الخلائق مسروراً بوجه مجبور ، قد حل به أكمل الجمال والحسن ، يسطع نوراً مشرقاً بتلألائه ، تتخطاهم بالجمال والحسن والنور والضياء ، كتابك بيمنك ، أخذ بضبعيك ملك ينادي على رؤوس الخلائق : هذا فلان بن فلان سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً .

لقد شهرك ربك عز وجل بالرضا عنك عند خلقه ، ولقد حقق حسن ظن الظانين ، وأبطل تهم المتهمين لك ، وإن في هذه المنزلة غداً على رؤوس الخلائق لعوضاً من المنزلة عند العباد بطاعته والتصنع لهم زهداً في المنزلة عندهم ، والتعظيم عندهم بطاعة ربه عز وجل بصدق معاملته وحده لا شريك له ، عوضك المنزلة الكبرى على رؤوس الخلائق ، فشهرك برضاه عنك وموالاته إياك .

فتوهم نفسك وأنت تتخطى الخلائق ، وكتابك في يمينك بجمال وجهك ونوره ، وفرح قلبك وسروره ، وقد شخصت أبصارهم إليك غيظة لك وتأسفاً على أن ينالوا من الله عز وجل ما نلت ، فليعظم من الله عز وجل في طلب ذلك

أملك ورجاؤك ، فإنه عز وجل إن تفضل عليك نلت ذلك ، فهذا أحد الأمرين الذي أنت بينهما على خطر .

عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذاً بيد عبد الله بن عمر ، فأتاه رجل ، فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله عز وجل يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه فيقول : يا عبدي أتعرف ذنب كذا وكذا ؟ فيقول : نعم يا رب ، ثم يقول : يا عبدي أتعرف ذنب كذا وكذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك ، قال : إني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأني أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته » [1] .

وأما الكافر والمنافق فـ :﴿ يقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ [2] . قال : بينا عبدالله بن عمر يطوف بالبيت إذ عارضه رجل ، فقال : يا عبد الرحمن كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى ؟ فذكر مثله .

وقال سعيد : قال قتادة : فلم يخزن يومئذ أحد فخفي خزنه على أحد من الخلائق .

وعن إبن مسعود انه قال : ينشر الله عز وجل كنفه يوم القيامة على عبده المؤمن ويبسط كفه لظهرها ، فيقول : يا بن آدم هذه حسنة قد عملتها في يوم كذا وكذا قد قبلتها ، وهذه خطيئة قد عملتها في يوم كذا وكذا قد غفرتها لك ، فيسجد . فيقول الناس : طوبي لهذا العبد الصالح الذي لم يجد في صحيفته إلا حسنة ـ أو قال : في كتابه .

وعن عبدالله بن حنظلة قال : إن الله عز وجل يقف عبده يوم القيامة فيبدي حسناته في ظهر صحيفته ، فيقول له : أنت عملت هذا ، فيقول : نعم ،

---

(١) حديث « إن الله عز وجل يدني المؤمن » : أخرجه أحمد في مسنده ومسلم والبخاري في صحيحهما .
أنظر : (فتح الباري ٥/٩٦ ، فيض القدير ٢/٣٠١) .

(٢) سورة : هود ، الآية : ١٨ .

أي رب ، فيقول : إني لن أفضحك به اليوم ، وإني قد غفرت لك اليوم . فيقول عندها : ﴿ هاؤم اقرءوا كتابيه . إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾ [1] حين نجا من فضيحة يوم القيامة .

شقاء الكافر :

وأما الأمر الآخر : فإما أن يقول لك : عبدي أنا غضبان عليك فعليك لعنتي ، فلن أغفر لك عظيم ما آتيت ، ولن أتقبل منك ما عملت ، فيقول لك ذلك عند بعض ذنوبك العظيمة : أتعرفها ؟ فتقول : نعم وعزتك ، فيغضب عليك فيقول : وعزتي لا تذهب بها مني ، فنادى الزبانية فيقول : خذوه ، فما ظنك بالله عز وجل يقولها بعظيم كلامه وهيبته وجلاله .

فتوهم إن لم يعف عنك ، وقد سمعتها من الله عز وجل بالغضب ، وأسند إليك الزبانية بغضاضتها ، وغلظ أكفها ، مستدفرة بأزمة من النيران ، غضاباً لغضب الله عز وجل بالعنف عليك ، والغلظ والتشديد . فلم تشعر حين قالها إلا وجسة غلظ أكفهم في قفاك وعنقك .

فتوهم غلظ أكفهم حين قبضوا على عنقك بالعنف ، يتقربون إلى الله عز وجل بعذابك وهوانك .

فتوهم نفسك مستجذباً ذليلاً ، موقناً بالهلاك وأنت في أيديهم وهم ذاهبون بك إلى النار ، مسوداً وجهك ، تتخطى الخلائق بسواد وجهك ، وكتابك في شمالك تنادي بالويل وبالثبور ، والملك آخذ بضبعيك ينادي : هذا فلان بن فلان شقي شقاء لا يسعد بعده أبداً .

لقد شهرك بالغضب والسخط عليك ، ولقد تمت فضيحتك عند خلقه ، فأخلف حسن ظن الظانين بك ، وحقق تهم المتهمين لك، ولعله إن فعل ذلك بك فعله بتصنعك لطاعته عند عباده بطلب المنزلة عندهم بسقوط المنزلة والجاه

---

(١) سورة : الحاقة ، آية : ١٩ : ٢٠ .

عنده ، ففضحك عند من آثرته عليه في المعاملة ، ورضيت بحمده على طاعة ربك عز وجل عوضاً من حمده إياك تبارك وتعالى .

فتوهم ذلك ، ثم توهمه ، واذكر هذا الخطر وكن مفكر أحذراً ، أي الأمرين يرتفع بك وأي الأمرين قد اعدلك .

عن كعب قال : إن الرجل ليؤمر به إلى النار فيبتدره مائة ألف ملك .

قال أبو عبد الله : وقد بلغني أنه إذا وقف العبد بين يدي الله عز وجل فطال وقوفه ، تقول الملائكة : مالك من عبد عليك لعنة الله ، أبكل هذا بارزت الله عز وجل ، وقد كنت تظهر الحسن في الدنيا ؟ .

قال : من تحبب إلى الناس بما لا يحب الله عز وجل ، وبارز الله عز وجل بما يكره لقي الله عز وجل وهو عليه ساخط وله ماقت .

ثم قال أبو عبد الله وهو يحدث : والله عز وجل ما أمسيت آسفاً عليَّ وعليكم - ومع ذلك الجسر بدقته وزلله وهوله وعظيم خطره قدامك .

فتوهم ما حل من الوجل بفؤادك حين رفعت طرفك ، فنظرت إليه مضروباً على جهنم بدقته ودحوضه ، وجهنم تخفق بأمواجها من تحته .

فيا له من منظر ما أفظعه وأهوله !! وقد علمت أنك راكب فوقه ، وأنت تنظر إلى سواد جهنم من تحته ، وتسمع قصيف أمواجها وجلبة ثورانها من أسفلها ، والملائكة تنادي : ربنا من تريد أن تجيزه على هذا ؟ وتنادي : ربنا ربنا سلم سلم .

فبينا أنت تنظر إليه بفظاعة منظره إذ نودي مروا الساهرة ، فلم تشعر إلا وقد رفعت الأرض من تحتك وتحت الخلائق لأن تبدل ، ثم بدلت بأرض من فضة ، فإذا الخلائق منثورين على أرض من فضة بيضاء ، ثم قيل لك وأنت تنظر إلى الجسر بفظاظته ، وقيل للخلق معك : اركبوا الجسر .

فتوهم خفقان فؤادك وفزعه ، وقد قيل لك اركب الجسر ، فطار عقلك رعباً وفزعاً . ثم رفعت أحد قدميك لتركبه ، فوجدت بباطن قدميك حدته

ودقته ، فطار قلبك فزعاً . ثم ثنيت الأخرى فاستويت عليه راكباً ، وقد أثقلتك أوزارك ، وأنت حاملها على ظهرك ، ثم صعدت عليه بطيران قلبك حتى بلغت ذروته ، والخلائق من بين يديك ومن ورائك عرفاً واحداً فصعدت عليه بطيران قلبك حتى بلغت ذروته ، ثم إنحدرت باضطرابه بك ، والخلائق عليه عرف واحد يضطرب بهم خفقان جهنم تحته ، فتهافت الناس من بين يديك ومن ورائك .

فتوهم صعودك بضعفك عليه ، وقد نظرت إلى الزالين والزالات من بين يديك ومن خلفك ، وقد تنكست هاماتهم ، وارتفعت على الصراط أرجلهم ، وأخذت الملائكة بلحي الرجال وذوائب النساء من الموحدين ، إذ الأغلال في أعناقهم ، وتارت إليهم النار بطلبتها ، وفارت وشهقت على هاماتهم ، وبادرت شرر النار إلى هاماتهم فتناولتها ، ثم جذبت هاماتهم إلى جوفها وهم ينادون ويصرخون ، وقد أيسوا من أنفسهم ، وهم لاجتذاب النار لهاماتهم فيها ينحدرون ، وهم بالويل ينادون ، وأنت تنظر إليهم مرعوباً خائفاً أن تتبعهم فتزل قدمك ، فتهوي من الجسر ، وتنكسر قامتك ، وترتفع على الصراط رجلاك .

فتوهمك ذلك في الدنيا بعقل فارغ وشفقة على ضعف بدنك ، مخفف للمرور عليه ، فإن أهوال يوم القيامة إنما تخفق على أولياء الله عز وجل الذين توهموها في الدنيا بعقولهم ، فعظم خطر النجاة عندهم ، فتحملوا من ثقل همومها في الدنيا على قلوبهم ، وحرقة خوفها على ضرورتهم ، فخففها في القيامة بذلك عليهم مولاهم ، فألزم قلبك توهمها ، والخوف منها والغم بها لأنه يخففها عليك بذلك ويهونها ، لأنه آلى على نفسه ألا يجمع على أوليائه الخوف في الدنيا والآخرة .

عذاب الكافرين

فتوهم ممرك على الجسر بشدة الخوف ، وضعف البدن ، وإن يكن مغضوباً عليك غير معفى عنك ، ولم تشعر إلا وقد زلت قدمك عن الصراط .

فتوهم نفسك إن لم يعف عنك ان زلت رجلك عن الصراط ، فقلت في نفسك مع ذلك : ذهبت أبداً هذا الذي كنت أحاذر وأخاف ، وطار عقلك ، ثم زلت الأخرى فتنكست هامتك ، وارتفعت عن الصراط رجلاك ، فلم تشعر إلا والكلوب قد دخل في جلدك ولحمك ، فجذبت به .

وبادرت إليك النار ثائرة غضبانه لغضب مولاها ، فهي تجذبك وأنت تهوي من الجسر ، وتنادي حين وجدت مس نفحها : ويلي ويلي ، وقد غلب على قلبك الندم والتأسف إلا كنت أرضيت الله عز وجل فرضي عنك ، وأقلعت عما يكره قبل أن تموت فغفر لك ، حتى إذا صرت في خوفها التحمت عليك بحريقها ، وقلبك قد بلغ غاية حرقته ومضيضه ، فتورمت في أول ما ألقيت فيها . ونادى الله عز وجل النار ، وأنت مكبوب على وجهك تنادي بالويل والثبور .

فناداها : (هل امتلأت) ؟ فسمعت نداءه وسمعت إجابتها لها : ﴿ ... هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾[1] يقول هل من سعة وأنت في قعرها ، وهي تتلهب في بدنك ،

(١) سورة : ق ، آية : ٣٠ .

لهـا قصيف في جسدك ، ثم لم تلبث أن تقطر بدنـك ، وتتساقط لحمـك ، وبقيت عظامك ، ثم أن أطلقت النار على ما في جوفك فأكلت ما فيه .

فتوهم كبدك والنار تداخل فيها ، وأنت تنادي ، فلا ترحم وتبكي وتعطي الندم إن رددت ألا تعود ، فلا تقبل توبتك ، ولا يجاب نداؤك .

فتـوهم نفسـك وقـد طـال فيهـا مكثـك ، وألـح العـذاب ، فبلغت غـايـة الكـرب ، واشتـد بـك العـطش ، فـذكـرت الشـراب في الـدنيـا ، ففـرغت إلى الجحيم ، فتناولت الإناء من يد الخازن الموكل بعذابك ، فلما أخـذته نشت كفـك من تحته ! وتفسخت لحرارته ، وهيج حريقه ، ثم قربته إلى فيك فشوى وجهك ، ثم تجرعته فسلخ حلقك ، ثم وصل إلى جوفك فقـطع أمعاءك ، فنـاديت بالـويل والثبور ، وذكرت شـراب الدنيـا وبرده ولـذته ، ثم أقلعت الحريق ، فبادرت إلى حياض الحميم لتبرد ـ كما تعودت في الدنيا الإغتسال والإنغماس في المـاء إذا إشتد عليك الحر ـ فلما اغتمست في الحميم تسلخ من قـرنك إلى قـدمك ، فبـادرت إلى النار رجاء أن تكون هي أهون عليك ، ثم اشتد عليـك حريق النـار فرجعت إلى الحميم ، وأنت تطوف بينها وبين الحميم آن ، وهو الذي قد إنتهى حره ، وتطلب الروح فلا روح بين الحميم والنار . . تطلب الروح فلا روح أبداً .

فلما اشتـد بك الكـرب والعطش ، وبلغ منـك المجهود . ذكـرت الجنان ، فهاجت غصة من فؤادك إلى حلقك أسفاً على جوار الله عز وجل وحزناً عـلى نعيم الجنة ، ثم ذكرت شرابها وبرد مائها وطيب عيشها ، فتقطع قلبك حسـرة لحرمـان ذلك .

ثم ذكـرت أن فيها بعض القـرابة من أب أو من أم أو من أخ وغيـرهم من القرابة ، فناديتهم بصوت محزون من قلب محترق قلق : يا أماه ، أو يـا أبتاه ، أو يا أخاه ، أو يا خالاه ، أو يـا عماه ، أو يـا أختاه ، شـربة من مـاء . . فأجـابوك بـالخيبة ، فتقـطع قلبك حسـرات بما خيبـوا من أملك وبما رأيت من أملك ، وبمـا رأيت من غضبهم عليك لغضب ربك عز وجل .

ففزعت إلى الله بالنداء بالمرجع والعتبي أن يردك إلى الدنيـا ، فمكث عنك

دهـراً طويـلاً لا يجيبك هـواناً بـك ، وأن صوتـك عنده ممقـوت ، وجاهـك عنده ساقط .

ثم نـاداك بالخيبـة منه أن ﴿ . . . إِخْسَئُواْ فِيهَـا وَلَا تُكَلِّمُـونِ ﴾[1] . فلما سمعت نداءه بجلال كلامه بالتخسية لك ابتداء . . فمثلك لا يجاب ، ومناخـرك وفـوك ملجومـة بلجام ، فبقي نفسـك متردداً في جـوفك لا مخـرج لـه ، فضـاقت نفسك في صدرك ، وبقيت قلقاً تزفر لا تطيق الكلام ، ولا يخرج منك نفس .

عذاب جهنم كرب لا يهدأ :

ثم أراد أن يزيدك إياساً وحسرة ، فأطبقك أبواب النار عليك وعلى أعدائـه فيها . فما ظنك إن لم يعف عنك وقد سمعت رجوف بابها قد أغلق ؟

فيا إياسـك وإياس سكـان جهنم حين سمعـوا وقع أبـوابها تـطبق عليهم ، فعلمـوا عند ذلـك أن الله عز وجـل إنما أطبقهـا لئلا يخـرج أحد أبـداً . فتقطعت قلوبهم إياساً ، وانقطع الرجاء منهم ألا فرج أبداً ولا مخرج منهـا ، ولا محيص لهم من عذاب الله عز وجل أبداً .

خلوداً فلا موت . . وعذاباً لا زوال له عن أبدانهم . . ودوام حـرق قلوبهم ومضيضها . . فلا روح ولا راحة تعلق بهم أبداً . . أحزان لا تنقضي . . وغموم لا تنفذ . . وسقم لا يبرأ . . وقيود لا تحل . . وأغلال لا تفك أبداً . . وعطش لا يـروون بعده أبـداً . . وكرب لا يهـدأ أبداً . . وجـوع لا يشبعون بعـده أبـداً إلا بالزقوم ينشب في حلوقهم . . فيستغيثون بالشراب ليسوغوا به غصصهم ، فيقطع أمعاءهم ، وحسرة فـوت رضوان الله عـز وجل في قلوبهم ، وكمـد حرمـان جوار الله عـز وجل عليهم فـلا يرضى عنهم أبـداً ؛ إذ أبغضهم ومقتهم ، وسقـطوا من عينه ، وهانوا عليه فأعرض عنهم .

---

(١) سورة : المؤمنون ، آية : ١٠٨ .

فلو رأيتهم وقد عطشوا وجاعوا ؛ فنادوا من أهل الجنة الأقرباء ، فقالوا جميعاً : يا أهل الجنة . . يا معشر الآباء والأمهات والإخوة والأخوات . . خرجنا من قبورنا عطاشاً ، وأوقعنا بين يدي الله عز وجل عطاشا ، وأمر بنا إلى النار عطاشاً ، أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، فأجابوهم بالتخسية ، فتراجع في قلوبهم الحسرة والندامة ، فهم فيها يتقلقون لا ينفح وجوههم روح أبداً ، ولا يذوقون منها بارداً أبداً ، ولا يطبقون جفونهم على غمض توم أبداً ، فهم في عذاب دائم وهوان لا ينقطع .

فمثل نفسك بهذا الوصف إن لم يعف عنك ، فلو رأيت المعذبين في خلقهم ، وقد أكلت النار لحومهم ، ومحت محاسن وجوههم ، واندرس تخطيطهم ، فبقيت العظام مواصلة محترقة مسودة وقد قلقوا وإضطربوا في قيودهم وأغلالهم ، وهم ينادون بالويل والثبور ، ويصرخون بالبكاء والعويل ، إذاً لذاب قلبك فزعاً من سوء خلقهم ، وتضعفت من رائحة نتنهم ، ولما بقي روحك في بدنك من شدة وهج أبدانهم وحرارة أنفاسهم ، فكيف بك إن نظرت إلى نفسك فيها وأنت أحدهم ؟ وقد زال من قلبك الأمل والرجاء ، ولزمه القنوط والإياس ، وعطفت على بدنك فتقحمت في الحدقتين ؛ فسمعت تفضيصهما انتقاماً وبدلاً من نظرك إلى ما لا يحب ولا يرضى ، ودخلت النار في مسامعك ، فتسمع لها فيه تقصيفاً وجلبة ، والتحفت عليك فنفضت منك العظام ، ودوبت اللحام ، اطلعت إلى الجوف ، فأكلت الكبد والأحشاء ، فغلبت على قلبك الحسرات والندامة والتأسف .

فتوهم ذلك بعقل فارغ ، وقد هاجت منه ، رحمة لضعفك ، وارجع عما يكره مولاك وترضى عسى أن يرضى عنك . وأعذ به بعقلك ، وإستقله يقلك عثراتك . وابك من خشيته عسى أن يرحمك ويقيل عثراتك ، فإن الخطر عظيم ، وإن البدن ضعيف ، والموت منك قريب ، والله جل جلاله مع ذلك مطلع يراك ، وناظر لا يخفى عليك منك سر ولا علانية ، فاحذر نظره بالمقت والبغضة والغضب والقلاء ، وأنت لا تشعر فرحاً أو قرير العين .

فاحذر الله عز وجل وخفه واستح منه وأجله ، ولا تستخف بنظره ولا تهاون باطلاعه . وأجل مقامه عليك ، وعلمه بك ، وأفرقه واخشه قبل أن يأخذك بغته ، وليرٰ أثر مصيبة مخالفتك له ، ليعلم ما قد بلغ منك خلافه ، فيعظم حزنك ويشتد غمك بمخالفته ، وليعلم أنه قد بلغ إليك خلافه ، فإن ذلك علم ذلك منك صفح وعفى عنك .

فلا تتعرض لله عز وجل فإنه لا طاقة لك بغضبه ولا قوة لعذابه ولا صبر لك على عقابه ولا صبر عندك عن جواره ، فتدارك نفسك قبل لقائه ، فكأنك بالموت قد نزل بك بغته . . .[1]

فتوهم ما وصفت لك ، فإنما وصفت لك بعض الجمل .

فتوهم ذلك بعقل فارغ موقن عارف بما قد جنيت على نفسك ، وما إستوجبت بجنايتك ، وفكر في مصيبتك في دينه ، وليرٰ الله عز وجل عليك أثر المصيبة لعله أن يرحمك فيتجاوز عنك لمغفرته وعصمته .

تجاوز الصراط :

فإن كنت من أهل العفو والتجاوز ، فتوهم إن تفضل الله عز وجل عليك بالعفو والتجاوز ممرك الصراط ، ونورك معك يسعى بين يديك ، وعن يمينك وكتابك بيمينك ، مبيض وجهك ، وقد فصلت من بين يدي الله عز وجل ، وأيقنت برضاه عنك ، وأنت على الصراط مع زمر العابدين ووفود المتقين ، والملائكة تنادي : سلم سلم ، والوجل مع ذلك لا يفارق قلبك ولا قلوب المؤمنين ، تنادي وينادون : ﴿ . . . رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] . فتدبر حين رأوا المنافقين طفيء نورهم ، وهاج الوجل في قلوبهم ، فدعوا بتمام النور والمغفرة .

---

(١) مكان النقط : بياض في الأصل

(٢) سورة : التحريم ، آية : ٨ .

فتوهم نفسك وأنت تمر خفيفاً مع الوجل .

فتوهم ممرك على قدر خفة أوزارك وثقلها ، وقد انتهيت إلى آخره ، فغلب على قلبك النجاة ، وعلا عليك الشفق ، وقد عانيت نعيم الجفان وأنت على الصراط ، فحق قلبك على جوار الله عز وجل ، واشتاق إلى رضا الله ، حتى إذا صرت إلى آخره خطوات بأحد رجليك إلى الحرصة التي بين آخر الجسر وبين باب الجنة ، فوضعتها على العرصة التي بعد الصراط ، وبقيت القدم الأخرى على الصراط ، والخوف والرجاء قد اعتليا في قلبك وغلبا عليك ، ثم ثنيت بالأخرى فجزت الصراط كله واستقرت قدماك على تلك العرصة ، وزلت عن الجسر ببدنك وخلفته وراء ظهرك ، وجهنم تضطرب من تحت من يمر عليها ، وتثب على من زل عنه مغتاظة تزف عليه وتشهق إليه .

ثم التفت إلى الجسر فنظرت إليه باضطرابه ، ونظرت إلى الخلائق من فوقه ، وإلى جهنم من تحته تثب وتزفر على الذين زلزلوا عن الصراط لها في رؤوسهم وأنحائهم قصيف ، فطار قلبك فرحاً إذ رأيت عظيم ما نجاك الله منه ، فحمدت الله وازددت له شكراً ، إذ نجوت بضعفك من النار ، وخلفت النار وجسرها من وراء ظهرك ، متوجهاً إلى جوار ربك .

* * *

نعيم الجنة

ثم خطوت آمناً إلى باب الجنة قد امتلأ قلبك سروراً وفرحاً ، فلا تزال في ممرك بالفرح والسرور حتى توافى أبوابها ، فإذا وافيت بابها استقبلك بحسنه ، فنظرت إلى حسنه ونوره وحسن صورة الجنة وجدرانها ، قلبك مستطير فرح مسرور متعلق بدخول الجنة حين وافيت بابها أنت وأولياء الرحمن .

موكب الصالحين إلى الجنة :

فتوهم نفسك في ذلك الموكب ، وهم أهل كرامة الله رضوانه ، مبيضة وجوههم ، مشرقة برضا الله ، مسرورون فرحون مستبشرون . وقد وافيت باب الجنة بغبار قبرك ، وحر المقام ووهج ما مر بك ، فنظرت إلى العين التي أعدها الله لأوليائه وإلى حسن مائها ، فانغمست فيها مسروراً ؛ لما وجدت من برد مائها وطيبه ، فوجدت له برداً وطيباً ، فذهب عنك بحزن المقام وطهرك من كل دنس وغبار ، وأنت مسرور لما وجدت من طيب مائها لمّا باشرته ، وقد أفلت من وهج الصراط وحره ؛ لأنه قد يوافي بابها من أحرقت النار بعض جسده بلفحها وقد بلغت منه ، فما ظنك وقد انفلت من حر المقام ووهج أنفاس الخلائق ، ومن شدة توهج حر الصراط فوافيت باب الجنة بذلك ، فلما نظرت إلى العين قذفت بنفسك فيها .

فتوهم فرحة فؤادك لما باشرت برد مائها بدنك بعد حر الصراط ، ووهج

القيامة ، وأنت فرح لمعرفتك أنك إنما تغتسل لتتطهر لدخول الجنة والخلود فيها ، وأنت تغتسل منها دائباً ، ولونك متغير حسناً ، وجسدك يزداد نضرة وبهجة ونعيماً ، ثم تخرج منها في أحسن الصور وأتم النور .

فتوهم فرح قلبك حين خرجت منها فنظرت إلى كمال جمالك ، ونضارة وجهك وحسنه ، وأنت عالم موقن بأنك تتنظف للدخول إلى جوار ربك ، ثم تقصد إلى العين الأخرى فتتناول من بعض آنيتها .

فتوهم نظرك إلى حسن الإناء وإلى حسن الشراب ، وأنت مسرور بمعرفتك أنك إنما تشرب هذا الشراب لتطهر جوفك من كل غل ، وجسدك ناعم أبداً ؛ حتى إذا وضعت الإناء على فيك ثم شربته وجدت طعم شراب لم تذق مثله ، ولم تعود شربه ، فيسلس من فيك إلى جوفك ، فطار قلبك مسروراً لما وجدت من لذته ، ثم نقي جوفك من كل آفة ؛ فوجدت لذة طهارة صدرك من كل طبع كان فيه ينازعه إلى الغموم والهموم ، والحرص والشدة ، والغضب والغل .

فيا برد طهارة صدرك ، ويا روح ذلك على فؤادك !!

فتح باب الجنة :

حتى إذا استكملت طهارة القلب والبدن ، واستكمل أحباء الله ذلك معك ، والله مطلع يراك ويراهم ، أمر مولاك الجواد المتحنن خزان الجنة من الملائكة الذين لم يزالوا مطيعين خائفين منه ، مشفقين وجلين من عقابه إعظاماً له وإجلالاً وهيبة له وحذراً من نقمه . وأمرهم أن يفتحوا باب جنته لأوليائه ، فإنحدروا من دارها وبادروا من ساحاتها ، وأوتوا باب الجنة فمدوا أيديهم ليفتحوا أبوابها . وأيقنت بذلك فطار قلبك سروراً وامتلأت فرحاً ، وسمعت حسن صرير أبوابها ، فعلاك السرور وغلب على فؤادك .

فيا سرور قلوب المفتوح لهم باب الجنة رب العالمين !!

فلما فتح لهم بابها هاج نسيم طيب الجنان ، وطيب مجرى مائها ، فنفح في

وجهك وجميع بدنك ، وثارت أراييح الجنة العبقة الطيبة ، وهاج ريح مسكها الأذفر ، وزعفرانها المونع ، وكفورها الأصفر ، وعنبرها الأشهب ، وأرياح طيب ثمارها وأشجارها وما فيها من نسيمها ، فتداخلت تلك الأراييح في مشامك حتى وصلت الى دماغك ، وصار طيبها في قلبك ، وفاض من جميع جوارحك ، ونظرت بعينك إلى حسن قصورها ، وتأسيس بنيانها من طرائق الجندل الأخضر من الزمرد ، والياقوت الأحمر ، والدر الأبيض قد سطع منه نوره وبهاؤه وصفاؤه ، فقد أكمله الله في الصفاء والنور ، ومازجه نور ما في الجنان . ونظرت إلى حجب الله ، وفرح فؤادك لمعرفتك أنك إذا دخلتها فإن لك فيها الزيادات والنظر الى وجه ربك ، فاجتمع طيب أراييح الجنة وحسن بهجة منظرها وطيب نسيمها وبرد جوها ، وذلك أول روح وطيب لا تنفيض فيه نفح وجهك .

فتوهم نفسك مسروراً بالدخول ؛ لعلمك أنها يفتح بابها لك والذين معك أولياء الله ، وفرح بما تنظر إليه من حسن بهجتها ، وما وصل إلى فؤادك من طيب رائحتها وما باشر وجهك وبدنك من طيب جوها وبرد نسيمها .

فتوهم نفسك مسروراً بالدخول ـ لعلمك أنها يفتح بابها لك والذين معك أولياء الله ـ وفرحك بما تنظر إليه من حسن بهجتها وما وصل إلى فؤادك من طيب رائحتها وما باشر وجهك وبدنك من طيب جوها وبرد نسيمها .

فتوهم نفسك إن تفضل الله عليك بهذه الهيئة ، فلو مت فرحاً لكان يحق لك ، حتى إذا فتحوا بابها أقبلوا عليك ضاحكين في وجهك ووجوه أولياء الله معك ، ثم رفعوا أصواتهم يحلفون بعزه ما ضحكنا قط منذ خلقنا إلا إليكم ، ونادوكم : (سلام عليكم) .

فتوهم حسن نغماتهم وطيب كلامهم وحسن تسليمهم ، في كمال صورهم وشدة نورهم ، ثم اتبعوا السلام بقولهم : ﴿ ... **طِبْتُم فَادْخُلُوهَا خَالِدِين** ﴾[1] ، فأثنوا عليهم بالطيب والتهذيب من كل دنس ودرن وغل

---

(١) سورة الزمر : آية : ٣ .

وغسن ، وكل آفة في دين أو دنيا .

ثم أذنوا لهم على الله بـالدخـول في جواره ، ثم أخبـروهم أنهم باقـون فيها أبـداً ، فقالـوا : ﴿ طبتم فادخلوهـا خالـدين ﴾ ، فلما سمعت الأذن وأوليـاء الله معك ، بادرتم الباب بالدخول ، فكظمت الأبواب من الزحام ، كما قال عتبـة بن غـزوان ، وكـما قـال النبي ﷺ : « لإنقضـاضهم عـلى بـاب الجنـة أهم إليّ من شفاعتي » . فكظ من الزحـام ، فما ظنـك بباب مسيـرة أربعين عـاماً كـظيظة من زحام أولياء الرحمن ؟ فأكرم بهم من مزدحمين مبادرين إلى مـا قد عـانيوا من حسن القصور من الياقوت والدر .

فتـوهم نفسك أن عفـا الله عنـك في تلك الـزحمـة مبـادراً مـع المبـادرين ، مسروراً مع المسـرورين ، بأبـدان قد طهـرت ، ووجوه قـد أشرقت وأنـارت فهي كالبدر قد سطع من أعراضهم كشعاع الشمس .

فلما جاوزت بابها وضعت قدميـك على تـربتها ، وهي مسـك أذفر ، ونبت الزعفران المونع ، والمسك مصبوب على أرض فضة ، والـزعفران نـابت حولهـا ، فـذلك أول خـطوة خطوتهـا في أرض البقاء بـالأمن من العذاب والمـوت . فـأنت تتخطى في تراب المسك ورياض الزعفران ، وعيناك ترمقان حسن بهجة الـدر من حسن أشجارها وزينة تصويرها .

إستقبال أزواجك في قصورك :

فبينا أنت تتخطى في عرصات الجنان في رياض الزعفران وكثبان المسك ، إذ نودي في أزواجك وولدانك وخدامك وغلمانك وقهارمتك : أن فـلاناً قـد أقبل . فأجابوا واستبشروا لقدومك . كما يبشر أهل الغائب في الدنيـا بقدومـه ، كما قـال علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

فبينـما أنت تنـظر إلى قصـورك إذ سمعت جلبتهم وتبشيشهم ، فـاستـطرت

---

(١) حديث « لإنقضاضهم على باب الجنة » : أحمد أحمد في مسنده وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد.

لذلك فرحاً ، فبينما أنت فرح مسرور بغبطتهم لقدومك لما سمعت أجلابهم فـرحاً بك ، إذ ابتدرت القهارة إليك ، وقامت الولدان صفوفاً لقدومك .

فبينما أنت القهارمـة مقبلة إليك إذ إستخف أزواجـك للعجلة ، فبعثت كل واحدة منهن بعض خدمها لينظر إليـك مقبلاً ، ويسـرع بالـرجوع إليهـا بقدومـك لتـطمئن فرحـاً ، وتسكن إلى ذلك سـروراً ، فنـظر إليـك الخـدم قبـل أن تلقـاك قهارمتك ، ثم بادر رسول كل واحد منهن إليها ، فلما أخبرها بقدومك قالت كـل واحدة لرسولها : أنت رأيته ـ من شدة فرحها بذلك ـ ثم أرسلت كل واحدة منهن رسـولاً آخر ، فلما جـاءت البشارات بقـدومك إليهن لم يتمـالكن فرحـاً ، فـأردن الخـروج إليـك مبـادرات إلى لقـائـك لـولا أن الله كتب القصر لهن في الخيـام إلى قدومك ـ كما قال مليكك : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴾[1] .

فوضعن أيديهن على عضائد أبوابهن ، وأذرعهن برؤوسهن ينظرن متى تبـدو لهن صفحـة وجهك ، فيسكن طـول حنينهن وشدة شـوقهن إليك ، وينـظرن إلى قرير أعينهن ومعدن راحتهن وأنسهن إلى ولي ربهن وحبيب مولاهن .

فبينما أنت ترفل في كثبان المسك ورياض الزعفران ، وقد رميت ببصرك إلى حسن بهجـة قصورك إذ إستقبلك قهـارمتـك بنـورهم وبهـائهم ، فـإستقبلك أول قهرمان لك فأعظمت شأنه ، وظننت أنه من مـلائكة ربـك ، فقال لـك : يا ولي الله ، إنما أنا قهرمانـك وكلت بأمـرك ، ولك سبعـون ألف قهرمـان سواي ، ثم تابعه القهارمة ببهائهم ونورهـم ، كل يعظمك ويسلم عليك بالتعظيم لك .

فتوهم قلبك في الجنان وقد قامت بين يديك قهـارمتك معـظمين لـك ، ثم الوصفاء والخدام ، فاستقبلوك كأنهم اللؤلؤ المكنون فسلموا عليك ، ثم أقبلوا بين يديك .

فتـوهم تبخترك في مـوكب من قهـارمتـك وخـدامـك . يـزفـونـك زفـاً إلى قصورك ، وما أعد لك مـولاك ومليك ، فلما أتيت بـاب قصرك فتحت الحجـاب

---

(١) سورة : الرحمن ، آية : ٧٢ .

أبوابك ورفعت لك الستور ، وهم قيام على أقدامهم لك معظمين .

فتوهم ما عـانيت حين فتحت أبـواب قصورك ورفعت ستـوره ، من حسن بهجة مقاصيره ، وزينة أشجاره وحسن رياضه وتلألؤ صحته ونور ساحاته .

فبينا تنظر إلى ذلك ، إذ بادرتـك البشرى من خـدامك ينـادون أزواجك : هذا فلان بن فلان قد دخل من باب قصـره ، فلما سمعن نداء البشـراء بقدومـك ودخولك توثبن من الفرس على اسرة في الحجال ، وعينك نـاظرة إليهن في جـوف الخيام والقباب ، فنظرت إلى وثوبهن مستعجلات ، قد استخفهن الفـرح والشوق إلى رؤيتك .

فتوهم تلك الأبدان الرخيمة الرعبوبة الخريـدة الناعمـة ، يتوثبن بـالتهادي والتبختر .

فتـوهم كل واحـدة منهن حين وثبت في حسن حللهـا وحليتهـا ، بصبـاحـة وجهها وتثني بدنها بنعمته .

فتوهم انحدارها مسرعة بكمال بدنها ، نازلة عن سريـرها إلى صحن قبتهـا وقـرار خيمتها ، فـوثبن حتى أتين أبـواب خيامهن وقبـابهن ، ثم أخذن بـأيـديهن عضائد أبواب خيامهن للقصر الذي ضرب عليهن إلى قـدومك ، فقمن آخـذات بعضائد أبوابهن ، ثم خرجن برؤوسهن ووجوههن ينحدرون من أبواب قبـابهن ، متطلعات ينظرن إليك ، مقبلات قد ملئن منك فرحاً سروراً .

فتوهم نفسك بسرور قلبك وفرحه ، وقدر مقتهن ببصرك ، ووقـع ناظـرك على حسن وجوههن وغنج أعينهن ، فلما قابلت وجوههن حار طرفك وهـاج قلبك بالسرور ، فبقيت كالمبهوت الذاهل من عظيم ما هاج في قلبك من سرور ما رأت عيناك وسكنت إليه نفسك .

فبينما أنت ترفل إليهن إذ دنوت من أبـواب الخيام ، فـأسرعن مبـادرات قد استخفهن العشق ، مسـرعـات يتثنـين من نعيم الأبـدان ، ويتهـادين من كمـال الأجسام .

ثم نادتك كل واحدة منهن : يا حبيبي ما أبطأك علينا ؟ فأجبتها بأن قلت : يا حبيبة ما زال الله عز وجل يوقفني على ذنب كذا وكذا حتى خشيت أن لا أصل إليكن . فمشين نحوك في السندس والحرير ، يثرن المسك ويحركن نبت الزعفران بأذيال حللهن وخلاخيلهن ، إستعجالاً إليك وشوقاً وعشقاً لك ، فأول من تقدمت منهن إليك مدت إليك بنانها ومعصمها وخاتمها ، كما قال النبي ﷺ .

فتوهم حسن بنان أنشيء من الزعفران والكافور ، ونعم في الجنان الألف من الدهور .

فتوهمه حين مدته إليك يتلألأ نوراً ويضيء إشراقاً .

فلما وضعت بنانها في بنانك وجدت محبسة لينة بنعيمه ، وكاد أن ينسل من يديك للينه ، وكاد عقلك أن يزول فرحاً بما وصل إلى قلبك من طيب مسيس بنانها .

ثم مدت يدك إلى جسمها الرخيم الناعم ، فضمتك إلى نحرها ، فأثنيت عليها بكفك وساعدك حتى وضعته على قلائدها من حلقها ، ثم ضممتها إليك وضمتك إليها .

فتوهم نعيم بدنها لما ضمتك إليها كاد أن يداخل بدنك بدنها من لينه ونعيمه .

فتوهم ما باشر صدرك من حسن نهودها ولذة معانقتها ، ثم شممت طيب عوارضها ، فذهب قلبك من كل شيء سواها حتى غرق في السرور ، وإمتلأ فرحاً لما وصل إلى روحك من طيب مسيسها ، ولذة روائح عوارضها .

فبينا أنت كذلك ، إذ تمايعن عليك ، فانكببن عليك يلثمنك ويعانقنك ، فملأن وجهك بأفواههن ملتثمات ، وملأن صدرك بنهودهن ، فأحدقن بك بحسن وجوههن ، وغطين بدنك وجللنه بذوائبهن ، واستجمعت في مشامك أراييح طيب عوارضهن .

فتوهم نفسك وهن عليك منكبات بفيك ملتثمات متشممات عليك

متثنيات بنعيم أبدانهن ، لهن استراحة عند ضمك إليهن لشدة العشق وطول الشوق إليك ، متشبثات بجسمك ومتنعمات بنسيم أراييح عوارضك .

فلما استمكنت خفة السرور من قلبك ، وعمت لذة الفرح جميع بدنك ، وموعد الله عز وجل في سرورك ، فناديت بالحمد لله الذي صدقك الوعد وأنجز لك الموعد ، ثم ذكرت طلبك إلى ربك إياهن بالدؤوب والتشمير .

فأين أنت في عاقبة ذلك العمل الذي استقبلته ؟ وأنت تلتثمهن وتشم عوارضهن : ﴿ لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَامِلُونَ ﴾[1] . ثم أثنين عليك وأثنيت عليهن ، ثم رفعن أصواتهن ليؤمنك بذلك من المعرفة لهن بحوادث الزمان وتنغيص عيشك بأخلاقهن ، فنادين جميعاً بأصواتهن : نحن الراضيات فلا نسخط أبداً ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً ، ونحن الخالدات فلا نبيد أبداً ، ونحن الناعمات فلا نبؤس أبداً ، طوباك أنت لنا ونحن لك .

ثم مضيت معهن ، فيا حسن منظرك وأنت في موكبك من حورك وولدانك وخدامك !! حتى إنتهيت إلى بعض خيامك ، فنظرت إلى خيمة من درة مجوفة مقصصة بالياقوت والزمرد ، فنظرت إلى حسن أبوابها وبهجة ستورها .

ثم رميت ببصرك إلى داخلها فنظرت إلى فرشها ونجدها وزرابيها ، وحسن تأسيس بنيانها ، قد بنيت طرائق على جنادل الدر والياقوت .

ثم نظرت إلى سريرك في إرتفاعه وعليه فرشه ، من الحرير والاستبرق بطائنهن ، قد علا ظواهرهن من النور المتكثف ، وعلى أطرافهن من فوق الحرير والديباج ، وحسن الرفرف الأخضر ، وهي فصول المجالس . .

فلما تأملت تلك الفرش بحسنها ، وفوقها المرافق قد ثنتها ؛ حار طرفك . ثم نظرت إلى حجلتها من فوق سريرها قد أحدقت بالعرش من فوقها .

فتوهم حسن الأبواب ، وحسن الستور ، وحسن عرضة القبة بحسن

---

(١) سورة : الصافات ، آية : ٦١ .

فرشها ، وحسن السرير وحسن قوائمه وإرتفاعه ، وحسن الفرش فوقه والمرافق فوق فرشه ، والحجلة المضروبة من فوق ذلك كله . فتأملت ذلك كله ببصرك ، فلما دنوت من فرشك تطأمنت مع سريرك ، فإرتفعت الحوراء وارتقت معها .

فتوهم صعودها عليه بعظيم بدنها ونعيمه ، حتى إستوت عليه جالسة ، ثم إرتقيت على السرير فاستويت معها ، فقابلتك وأنت مقابلها .

فيا حسن منظرك إليها جالسة في حالها وحليها ، بصباحة وجهها ونعيم جسمها . . الأساور في معاصمها ، والخواتم في أكفها ، والخلاخيل في أسواقها ، والحقاب في حقوها ، والوشاح قد تنظر نهديها وجال بخصرها ، والقلائد في عنقها ، والشحب على نحرها ، والأكاليل من الدر والياقوت على قصتها وجبينها ، والتاج من فوق ذلك على رأسها ، والذوائب من تحت التاج قد حل من منكابها وبلغ أردافها وأنعالها ، ترى وجهك في نحرها وهي تنظر إلى وجهها في نحرك .

وقد أحدق الولدان بقبتك ، وقد قام الوهط بين يديك ويديها ، وقد تدلت الأشجار بثمارها من جوانب حجلتك ، واطردت الأنهار حول قصدك ، واستعلي الجداول على خيمتك بالخمر والعسل واللبن والسلسبيل ، قد كمل حسنك وحسنها ، وأنت لابس الحرير والسندس ، وأساور الذهب واللؤلؤ على كل مفصل من مفاصلك ، وتاج الدر والياقوت منتصف فوق رأسك ، وأكاليل الدر مقصصة بالنور على جبينك .

وقد أضاءت الجنة وجميع قصورك من إشراق بدنك ونور وجهك ، وأنت تعاين من صفاء قصورك جميع أزواجك وخدمك ، وجميع أبنية مقاصيرك ، وقد تدلت عليك ثمار أشجارك ، وإطردت أنهارك من الخمر واللبن من تحتك ، والماء والعسل من فوقك ، وأنت جالس مع زوجتك على أريكتك ، وقد فتحت مصاريع أبوابك ، وأرخيت عليك حجال خيمتك ، وصفت الخدام والولدان بقبتك ، وسمعت زجلهم بالتقديس لربك ، وقد اطلعوا على ضمير قلبك ،

فسارعوا إلى كل ما حدثت به نفسك من أنواع كرامتك وسرورك وأمانيك فأتوك بكل أمنيتك .

وأنت وزوجك بأكمل الهيئة وأتم النعمة ، وقد حار فيها طرفك تنظر اليها متعجباً من جمالها وكمالها ، طرب قلبك بملاحتها ، وأنس قلبك بها من حسنها ، فهي منادمة لك ، على أريكتك ، تنازعك وتعاطيك الخمر والسلسبيل والتنسيم في كأسات الدر وأكاويب قوارير الفضة .

فتوهم الكأس من الياقوت والدر في بنانها ، وقد قربت إليك ضاحكة بحسن ثغرها ، فسطع نور بنانها في الشراب مع نور وجهها ونحرها ونور الجنان ونور وجهك وأنت مقابلها ، وإجتمع في الكأس الذي في جنانها نور الكأس ونور الشراب ونور وجهها ونور نحرها ونور ثغرها .

فما ظنك بذوائب شاب أمرد كامل الخلق ، أنور الوجه ، أبيض الجسم ، أنضر الثياب ، أصفر الحلي من ذهب الجنان ، يشوبه حمرة الياقوت وبياض الدر وحسن العقيش .

فيا لك عروس ، ويا تلك عروس طفلة أنيسة عربوبة كامل خلقها !!

ويا جمال وجهها !!

ويا بياض نهودها وتثني جسمها !!

يكسوها التأنيث ويلينها النعيم ، تنظر إليك بغنج الحور ، وتكلمك بملاحة المنطق ، وتداعبك بالدلائل ، وتلاعبك بالعشق والطرب ، بيدها كأس در لا ظل له ، أو ياقوت لا شبه له من صفائه ورقة جسمه ، قد جملته بحسن كفها وزميرتها ونور خواتيمها فيه .

فتوهم حسن الكأس مع بياض الشراب مع بياض كفيها وحسنه .

فتوهم كأس الدر والياقوت أو الفضة في صفاء ذلك في بنانها الكامل ، وقد اقتربت إليك ضاحكة بحسن ثغرها وسطع نور بنانها في الشراب مع نور وجهها ونحرها ، وأنت مقابلها فضحكت أيضاً إليها ، فاجتمع في الكأس الذي في بنانها

نورك مع نورها ، مع نور الكأس ونور الشراب ، ونور وجهها ونور نحـرها ونـور ثغرها ، ونور الجنان .

فتوهمه بهذه الأنوار في ضيائه ، يلمع بصفائه في كفها ، وقد مرت بـه إليك يدها بخـواتمها ، وأسـاورها في معـاصمها ، فنـاولتك الكـأس بكفها . فيـاحسن مناولتها !! ويا حسنها من يد !!

ثم تعاطتك كأسات الخمر في دار الأمن واللذات والسرور ، فتناولته منها ، ثم وضعته على فيك ، ثم سلسلته في فيك فسار سـروره في قلبك ، وعمت لـذته جوارحك ، فـوجدت منـه طعماً أطيب طعـماً **وألذه** ، فشـربته والـولدان قيـام بين يديك .

فتوهم ذلك وقد شربت الكأس من يدها ، ثم ناولتهـا من يديـك فتناولتـه بحسن كفهـا وهي ضاحكـة ، فيـاحسن مضحكها !! فشـربتـه من يـدك حتى إذا تعـاطيتها الكـأس ، ودار فيما بينكـما ، وشاع نـور الشراب في وجنتيهـا ، ورفعتـما أصواتكما بالتحميد والتقديس لمولاكما وسيدكما ، ورفعت الولدان والخدام أصواتهم تسبيحاً وتهليلاً مجـاوبـة لكـما - فيـاحسن تلك الأصـوات بتلك النفحات في تلك القصور وتلك الخيمات !!

فبينـما أنتما في لـذاتكما وسـروركما - وقـد مضت الأحقاب من الـدهـور ومـا تشعران من اشتغال قلوبكما بنعيمكما - إذ هجمت الملائكة بالسلام عليك ، وأتتك بالتحف والألطاف من عند ربك ، حتى إذا انتهت رسـل ربك إلى الحجبـة الذين دونـك ، القهارمـة الموكلين بـك ، فطلبـوا الأذن عليـك ، ليـوصلوا مـا أتـوا بـه من عنـد مولاك إليـك ، فقالت عنـد ذلك حجبتـك لملائكـة ربـك : إن ولى الله مشغول مع أزواجه وإنا لنكره الأذن عليه إعظاماً وإجلالاً له ، وكذلك يقول ربك تبارك وتعالى ، وبذلك جاء التفسير ﴿ . . . **فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ** ﴾ [١] .

فأعظم به من شغل !! وأعظم بك من ملك تستـأذن عليك رسـل ربك !!

---

(١) سورة : يس ، آية : ٥٥ .

وكذلك يقول الرافع قد أوليائه في جـواره تبارك وتعـالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيـراً ﴾ [1] فقيل في التفسـير : إن ذلك إستئـذان الملائكـة عليهم . فقيل له : رسل الله بالباب يا ولي الله لا يدخل عليك إلا بإذن يـا ولي الله ، فقد نلت من الله الرضا ، وبلغت غاية الملك والمني .

فتوهم الملائكة وهي قائلة حـين أبت حجابـك أن تستأذن لهم عليـك : إنا رسـل الله بهدايـا وتحف من عند ربـه ، فوثبت عنـد ذلك حجـابـك تستـأذن لهم عليك .

فتوهم أيدي الحجاب وقد مدوا بها إلى حلق اليـاقوت المفصص بـالدر عـلى صفائح الذهب الأحمر ، فقرعوا حلق أبواب قصرك ، فلما اصطك حلق الياقـوت بأبواب قصرك من الدر والياقوت ، طنت الحلق على الأبواب بأحسن طنين تلذ به الأسماع ، وتسربه قلوب المستمعين . فلما سمعت الأشجار طنينها تمايلت ثمارهـا على بعضها بعضاً ، فهبت بذلـك أراييح طيبهـا ونسيمها ، ثم أشـرقت من قبتها بجمال وجهك وإشراق نورك ، فبادرت الحجبة إليك بالقـول مسرعـة ، وهي مع ذلك غاضة أبصارها تعظيماً لك .

ولما رمق أبصارهم من إشـراق نور وجهـك : يا ولي الله ، رسـل الله إليك بالباب ومعهم التحف من عند ربك ، فرجعت إليهم بالجواب : أن ائذنوا لرسل مـولاي ، ففتحت الحجبة عنـد إذنك لهم أبـواب قصرك وأنت متكيء ، فـدخلوا على أريكتك ، والولدان قد صفوا بين يديك ، فأقبلت الملائكة بحسن صورهم ، والهدايا تلمع وتسطع نوراً في أيديهم ، فدخلوا عليك من أبواب متفرقـة لينجز الله ربـك مما وعـدك من كل بـاب سـلام عليـك ، فبـادروا بـالسـلام عليكم بحسن نغماتهم من كل أبوابك ، ثم أتبعوا تسليمهم : يا ولي الله إن ربـك يقول عليـك السلام ، وقد أرسل إليك بهذه الهدايا والتحف .

فتوهم سرور قلبك بتحف ربك ولـطفه إيـاك ، حتى إذا خرجـوا من عندك

---

(١) سورة : الانسان ، آية : ٢٠ .

أقبلت على نعمتك مع زوجتك ، قد حار فيها طرفك ، واشتد بها سرورك .

فبينما أنت معها في غاية السرور والحبور إذ أتى النداء بأحسن نغمة وأحلى كلام من بعض ما أعد الله من أزواجك : يا ولي الله أما لنا منك دولة ؟ أما أن لك أن تنظر إلينا ؟ فلما امتلأت مسامعك من حسن كلامها طار قلبك عشقاً لحسن نغمتها فأجبتها : ومن أنت بارك الله فيك ؟ فردت الجواب إليك : أنا من اللواتي قال الله عز وجل : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ . . . ﴾ [1] .

فتوهم وثوبك من سريرك إلى صحن قبتك ، ثم مشيت مع والدانك وخدمك ، وقرن ولدانها وخدامك يستقبلونك ، واستقبلوك ومشوا بين يديك ، حتى أتيت قبة من ياقوتة حمراء في قصر من در وياقوت ، فلما دنوت من باب قصرها قامت قهارمتك وخدامك رافعي ستور قصرك ، فدخلته ممتلئاً سروراً .

فتوهم باب القصر وحسن الستر وحسن الحجاب والقهارمة والخدام ، ثم دخلت من باب قصرك الذي نادتك منه زوجتك ، فلما دخلت من بابه وقع بصرك على حسن جدرانه من الزمرد الأخضر ، وحسن رياضه وبهجة بنائه وإشراق عرصاته ، ونظرت إلى قبتك التي فيها زوجتك ، يتلألأ نور القبة نوراً وضوءاً وإشراقاً بنور وجهك ونور وجه زوجتك . فلما نظرت إليك نظرت من فرش الحرير والإستبرق والأرجوان ، فنزلت عن سريرها مبادرة ، قد إستخفها شدة الشوق إليك ، وأزعجها العشق ، فاستقبلتك بالترحيب والتبجيل ، ثم عطفت عليك لمعانقتك ـ وكذلك روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أن الحوراء تستقبل ولي الله فتصافحه [2] .

فتوهم مجسة لين كفها بحسنها وخواتمها من كفك ، وقد شخصت كالمبهوت تعجباً من حسن وجهها ، ونعيم جسمها وتلالؤ النور من عوارضها ، ثم وضعت

---

(١) سورة السجدة ، آية : ١٧ .

(٢) حديث « أن الحوراء تستقبل » : أورده الهيثمي في مجمع الزوائد وعزاه للطبراني ، وقال : « فيه سعيد بن زربي ، وهو ضعيف .

كفها في كفك ، حتى أتيتما سريرك مضروبة عليه أريكتك ، فارتقيتما جميعاً على أريكتك ، وأسدلت عليك جلال حجلتك ، وعانقت على فرشها زوجتك ، فمضت بك الأزمنة الطويلة ، ثم أقبلت الولدان بالكاسات والأكواب ، فاصطفت فبالتكما ، ثم أدرتما الكأس فيما بينكما .

فبينما أنتما قد ملئتما فرحاً وسروراً ، إذ نادتك أخرى من قصر من قصورك : يا ولي الله ، أما لنا منك دولة ؟ أما آن لك أن تشتاق إلينا ؟ فأجبتها : ومن أنت بارك الله فيك ؟ فرجعت إليك القول : أنا من اللواتي قال الله عز وجل : ﴿ . . . وَلَدَيْنَا مَزِيْد ﴾ [1] ، فتحولت إليها .

وأنت تنتقل فيما بين أزواجك في قصورك وخدامك وولدانك في غاية النعيم وكمال السرور ، وقد زحزحت عنك كل آفة وأزيل عنك كل نقص وطهرت من كل دنس وأمنت فيها الفراق ؛ لأن الله تعالى قد قصد قلبك فقال للهموم زولي عنه فلا تخطري له أبداً ، وقال للسرور تمكن فيه فلا تزول منه أبداً ، وقال للأسقام زولي عن جسمه فلا تعرضي له أبداً ، وقال للصحة أقيمي في بدنه فلا تبرحي أبداً ، وذبح الموت وأنت تنظر إليه ، فأمنت الموت فلا تخافه أبداً ، ولا زوال ترتقبه ، ولا سقم يعتريك أبداً ، ولا موت يعرض لك أبداً ، قد منحت جوار ربك ترفل في أذيالك ، لا تخاف سخطه أبداً بعد رضاه عنك ، فلا تخاف نقمه فيما تتقلب فيه من نعيمه .

وأنت عالم بأن الله عز وجل محب لك ، مسرور بك وبما تتقلب فيه من سرورك . فأعظم بدار الله داراً !! وأعظم بجوار الله جواراً !! فالعرش قد أظلك بظله ، والملائكة تختلف إليك بالألطاف من عند ربك في حياة لا يزيلها موت ، ونعيم لا تخاف له فوتاً ، آمناً من عذاب ربك قد أيقنت برضاه عنك ، ووجدت برد عفوه في قلبك ، مقيماً دائماً في الخلود مع الأمان لنوائب الدهر وحوادث الأزمان لك ولجميع أوليائه ، متحدثاً بجمعهم تحت ظل طوبي .

---

(١) سورة : ق ، آية : ٣٥ .

لقاء الرحمن :

فبينا أولياؤه ـ وأنت فيهم ـ تحت ظل طوبي يتحدثون ، إذ أمر الله منادياً من ملائكته فنادى أولياءه لينجز لأوليائه ما وعدهم من غاية كرامته ، وعظيم مسرته بأن يقربهم منه ، ويناجيهم بترحيبه ، ويريهم وجهه الكريم ليبلغوا بذلك أشرف المنازل وغاية السرور ومنتهى الرغبة ، فلم تشعر إلا ونداء الملك : أن يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله لموعداً لم تروه ، فيرجعون إليه القول استعظاماً لما أعطوا ، فإنه لاعطية فوق ما أعطوا بعد ذلك ، أدخلوا في جواره وأمنوا من عذابه ، وأنت قائلها معهم : ألم ينضد وجوهنا ؟! ألم يدخلنا الجنة ؟! ألم يزحزحنا عن النار ؟! فناداهم أن الله يستزيركم فزروه .

فبينما هم كذلك ـ وقد كادت قلوبهم أن تطير بأرواحهم أبدانهم فرحاً وسروراً ـ إذ أقبلت الملائكة يقودون بخائب بُخْت خلقت من الياقوت ، ثم نفخ فيها الروح مزمومة بسلاسل من ذهب كأن وجوههم المصابيح نضارة وحسناً ، لا تروث ولا تبول ، ذوات أجنحة ، قد علاها خز من خز الجنة أحمر ، ومرعز من مرعزها أبيض مشرق في بياضه ، على ظهرها خطان حمرة في بياض على هيئة وتر النجائب في الدنيا ، لم ينظر الخلائق إلى مثله وحسن لونه .

فتوهم حسن تلك النجائب وحسن صورها ، نجائب من ياقوت الجنة في حمرته وصفائه وإشراق نوره وتلالؤه حين يمشي في تحركه .

فتوهمها بحسنها وحسن وجوه الملائكة وحسن أزمتها بسلاسل من ذهب الجنان ، وهي تقودها وتقبل بها إلى أولياء الله ـ وأنت فيهم ـ معتدلة في خببها بحسن سيرها ؛ لأنها نجب خلقت على حسن السير من غير تعليم من العباد ، فهي نجب من غير رياضة ، ذلل بسلاسلها منقادة من غير مهنة .

فتوهم إقبال الملائكة بها إليهم حتى إذا دنوا من أوليائه أناخوها .

فتوهم بروكها في حسنها وهيئة خلقها ، وقلبك عارف أنك ستركب بعضها إلى ربك منطلقاً في الزائرين له ، فلما أناخوها فبركت على كثبان المسك من رياض

الزعفران تحت طوبي ومستراح العابدين ، أقبلت الملائكة على أولياء الله ، فقالوا بحسن نغماتهم : يا أولياء الرحمن ، إن الله ربكم يقرئكم السلام ويستزيركم فزوروه لينظر إليكم وتنظروا إليه ، ويكلمكم وتكلموه ، ويحييكم وتحيوه ، ويزيدكم من فضله ورحمته ؛ إنه ذو رحمة واسعة وفضل عظيم .

فلما سمعها أولياء الله - وسمعتها معهم - وثبوا مسارعين إلى ركوبها حباً وشوقاً إلى ربهم .

فتوهم سرعة توثبهم - وأنت معهم - بحسن وجوههم ونورها وإشراقها سروراً بقرب ربهم ورؤية حبيبهم .

فتوهم هيبتهم حين رفعوا أيمان أرجلهم إلى ركب الياقوت والزمرد والدر .

فتوهم حسن أقدامهم ونعيمها . إنها أقدام غيرت عن خلقها فأكسبت في الحسن بخلاف ما كانت عليه في دار الدنيا ، ثم أكنها الله في جنته من كل آفة فغير خلقتها متخضبة لها أحقاب الدهور في كثبان المسك ورياض الزعفران .

فتوهمها بحسنها في أحسن ركب بخائب الجنان ، ثم ثنوا من غير عنف ولا مشقة حتى استووا على رحائل من الدر والياقوت مفضضة بالعبقري والأرجوان .

فياحسن بياض الدر في حمرة الأرجوان !!

فلما إستووا عليها واستويت على نجيبك معهم ، أثاروا نجائبهم فثارت ، فثار عجاج المسك لوثوبها ، علا ذلك ثيابهم وجمامهم ، ثم إستوت النجائب صفاً واحداً معتدلاً فصاروا موكباً معتدلاً لاعوج فيه ، ولا يتقدم بعضها بعضاً .

فأعظم به من موكب !! وأعظم به من ركبان !!

فتوهم إمتداد صفهم في إعتداله ، واصطفاف وجوههم معتدلة في اصطفافها ، وعلى جباههم الأكاليل ، من فوق رؤوسهم تيجان من الدر والياقوت .

فما ظنك باجتماع وجوه أهل الجنان كلها ، عليهم الأكاليل والتيجان مصطفة متحاذية ؟ فما ظنك بأكثر من ألف ألف ألف ألف . . وما تقدر القلوب

على إحصاء عـدده من تيجان الـدر والياقـوت ، مطنـطنة عـلى وجوههم ، نضـرة ضاحكة ، فرحة مستبشرة !!

فلو توهمت هذا الموكب بنجائبه ، واعتدال ركبانه ، واصطفاف تيجانه عـلى وجوه أولياء الله المشرقة الناعمة من تحته ، ثم رهقت نفسك إشتياقاً لكنت لـذلك حقيقـاً ولكنت به حـرياً . فلما اعتـدل الصف واصطفت التيجـان تبادروا بينهم : سيروا إلى ربنا .

فتوهم النجائب حـين أخذت في السـير بأخفـاف من الياقـوت سيراً واحـداً بخط واحد ، لا يتقدم بعضها بعضاً ، تهتز أجسام أولياء الله عليها من نعيمهـا ، وأكتـافهم متحاذيـة في سيرهم ، وأخفـاف رواحلهم وركبها متحـاذية في خببها . فانطلقوا كذلك تثير رواحلهم المسك بأخفافها ، وتهتز رياض الزعفران بـأرجلها . فلما دنوا من أشجار الجنة رمت الأشجار إليهم من ثمارها ، فصارت الثمار ـ وهم يسيرون ـ في أيديهم .

فياحسن تلك الثمار في أكفهم !!

وتزحزحت وتنحت الأشجـار عن طريقهم ، لمـا ألهمها مـولاها أن لا يتثلم صفهم فيتعرج بعد إستوائه ، ويختلف بعد إعتدالـه ، ويفرق بـين ولي الله ورفيقه لأنهم رفقـاء في الجنان لتحـابهم في الدنيـا في ربهم ، فالـرفقـاء مشهـورون ، كـل رفيقين قد شهرا بالمرافقة وجعل زينتهما ولباسهما لوناً واحداً ، ولون روا حلهما لونـاً واحداً .

فتوهم نفسك ـ إذ منّ عليك ربك ـ وأنت لاصق برفيقك منكبـك بمنكبه ، وقـد دنوتمـا من أشجار الجنـة فنفضت ثمرهـا ، فوقعت الثمـار في أيديكـما وأيدي أوليـاء الرحمن ، ثم تنحت بـأصولهـا عن طـريقهم ، فهم يسيـرون فـرحـين وقـد شخصت قلوبهم بـالتعلق إلى نـظر حبيبهم ، فهم يسيـرون بـالسـرور ، ويلتفت بعضهم إلى بعض يتحـادثـون ، ويضحـك بعضهم إلى بعض ، يتـداعبـون في سيرهم ، يحمدون ربهم على ما صدقهم وعلى ما أباح لهم من جواره .

فبنياهم في سيرهم إذ دنوا من عرش ربهم ، وعاينوا أحسن حجبـه ونوره ،

واستحثوا السير شوقاً وحباً وفرحاً به .

فتوهم نجائبهم تطير في سيرها باعتدال موكبهم وإشراق وجوههم ، والملائكة قد أحدقت بالنجائب تزفهم زفاً إلى ربهم ، حتى إنتهوا إلى فحصة عرش مولاهم .

فتوهم سعة تلك الفحصة وحسن نورها ببهجتها وزهرتها ، وقد وضعت الزرابي والنحارق على كثبان المسك ، وعرف كل فتي منهم ما أعد له ، والكراسي لأهل صفوته من عباده وأحبائه من خلقه ، لما دنوا إلى ما أعدلهم من المنابر والكراسي والزرابي والنمارق ، فثني رجله الحسنة من الركاب إلى منبر أو كرسي أو زربة .

فتوهم ثنيهم أرجلهم إلى كراسيهم حتى إستووا عليها .

فتوهم نعيم تلك الأفخاذ والأوراك المرتفعة على الكراسي بالدر والياقوت .

فأعظم به من مقصد !! وأعظم بولي الله متربعاً !!

فلما أخذ القوم مجالسهم واطمأنوا في مقعدهم ، والحجب تسطع نورها .

فيا لذة أعينهم !! وقد أصغوا بمسامعهم منتظرين لإستماع الكلام من حبيبهم .

فتوهمهم في مقعدهم الصدق الذي وعدهم مولاهم ومليكهم في القرب منه على قدر منازلهم ، فهم في القرب منه على قد مراتبهم ، فالمحيون له أقربهم إليه قرباً ، إذ كانوا له في الدنيا أشد حباً ، وأقرب إلى عرشه منهم القائمون بحجته عند خلقه ، ثم الأنبياء عليهم السلام ثم الصديقون على قدر ذلك في القرب من العزيز الرحيم .

فأعظم به من مزور !! وجل وتكبر من مزور !! .

فتوهم مجلسهم بحسن كرامتهم وجمال وجوههم وإشراقها ، لما رهقها نور عرشه عز وجل وإشراق حجبه ، فلو صح لك عقلك ، ثم توهمت مجلسهم وإستراق كراسيهم ومنابرهم ، وما ينتظرون من رؤية ربهم ، ثم طار روحك شوقاً إليه ، لكنت بذلك حقيقاً .

فما أعظم ذلك عند عاقل عن الله مشتاق إلى ربه ورؤيته .

فتوهم ذلك بعقل فارغ لعل نفسك أن تستحي بقطع كل قاطع يقطعك عنه ، وترك كل سبب يشغلك عن التقرب فيه إلى ربك .

إكرام ضيوف الرحمن :

فلما استوى بهم المجلس وإطمأن بهم المقعد وضعت لهم الموائد ، ليكرم الله عز وجل زواره بالإطعام والتفكيه لهم ، ووضعت الموائد لزوار الله عز وجل وأحبائه من خلقه ، قامت الملائكة على رؤوسهم معظمين لزوار الرحمن ، فوضعت الصحاف من الذهب ، فيها الأطعمة وطرائف الفاكهة مما لم يحسنوا أن يتمنوا ، فقدموا أيديهم مسرورين بإكرام ربهم لهم ، لأنه حقاً على كل مزور أن يكرم زائره(1) ، فكيف بالمزور الكريم الواحد الجواد الماجد العظيم ؟

فتوهم وهم يأكلون فرحين مستبشرين بإكرام مولاهم لهم ، حتى إذا فرغوا من أكلهم ، قال الجليل لملائكته : اسقوهم . فأتتهم الملائكة ـ لا الخدام والولدان ـ بأكواب الدر وكؤوس الياقوت ، فيها الخمر والعسل والماء والألبان .

فتوهم تلك الكاسات وتلك الأكواب بأيدي ملائكة الرحمن ، فتناولوها أولياء الله فشربوها ، فتنازع حسن الشراب في وجوه الزوار ، فلما سقتهم الملائكة ما أمرهم الله به من الأشربة ، قال الجليل : إكسوا أوليائي .

فتوهم الملائكة وقد جاءت بالحلل التي لم يلبسوا في الجنة مثلها ، ثم قاموا على رؤوسهم فألبسوها أهل كرامة الله ورضوانه .

فتوهم وقد صيروها من فوق رؤوسهم حتى صارت على أقدامهم فأشرقت بحسنها وجوههم .

ثم أمر الجليل تبارك وتعالى أن طيبوهم ، فإرتفعت السحاب بحسنها وشدة ضيائها ونورها لحمل ألوان الطيب من المسك وجمع طيب الجنان ما لم يجدوا مثل رائحته .

فتوهمها تمطر عليهم والطيب يتساقط عليهم مطراً حتى علا جباههم وثيابهم .

رفع الحجاب :

فلما أكلوا وشربوا ، وخلعت الملائكة الخلع ، وطيب مطر السحاب ، شخصت أبصارهم وتعلقت قلوبهم . ثم رفع الحجب .

فبينا هم في ذلك إذ رفعت الحجب فبدا لهم ربهم بكماله ، فلما نظروا إليه وإلى ما لم يحسنوا أن يتوهموه ـ ولا يحسنون ذلك أبداً ، لأنه القديم الذي لا يشبهه شيء من خلقه . فلما نظروا إليه ناداهم حبيبهم بالترحيب منهم ، وقال لهم : « مرحباً بعبادي »[1] .

فلما سمعوا كلام الله بجلاله وحسنه غلب على قلوبهم من الفرح والسرور ما لم يجدوا مثله في الدنيا ولا في الجنة ، لأنهم يسمعون كلام من لا يشبه شيئاً من الأشياء .

فتوهمهم وقد أطرقوا وأصغوا بمسامعهم لإستماع كلامه ، وقد علا وجوههم نور السرور لكلام حبيبهم وقرير أعينهم .

فلو توهمت نفسك وقد سمعت قول الله لأوليائه مرحباً بهم ، ثم طار روحك فرحاً به وحباً له لكان ذلك منه حقيراً وصغيراً عندما توهمته من نفسك عند إستماع كلامه . فحياهم بالسلام ، فردوا عليه : أنت السلام ومنك السلام ، ولك حق الجلال والإكرام .

فمرحباً بعبادي وزواري وخيرتي من خلقي الذي رعوا عهدي ، وحفظوا وصيتي ، وخافوني في الغيب ،[2] وقاموا مني على كل حال مشفقين ، وقد رأيت الجهد منهم في أبدانهم أثره لرضاي عنهم ، قد رأيت ما صنع بكم أهل زمانكم ، فلم يمنعكم جفاء الناس عن حقي ، تمنوا عليّ ما شئتم .

---

(١) هذه إشارة إلى حديث .

(٢) هذه إشارة الى حديث سيأتي تخريجه .

فلو رأيتم وقد سمعوا ذلك من حبيبهم يذكرهم ما كانوا عليه في دنياهم من رعـاية عهـده وحفظه ، ودوام خـوفهم منه ، وقـد إستطاروا فـرحـاً لمـا شكـر لهم رعايتهم حقه ، وحفظ منهم خوفهم ، ورحب بهم محبة لهم ، إذ كانوا بذلك إيـاه في الدنيا يعبدونه ، استطارت قلوبهم فرحـاً وسروراً ، إذ لم يفـرطوا في طـاعته ولم يقصروا في مخالفته ، فاغتبطوا لما كـانوا بـه لله في الدنيـا يدينـون من شدة خـوفهم ورعـاية حقـه وحفظه ، فـردوا إليه الجـواب مـع سـرور قلوبهم بـالقسم لعـظمتـه وجلاله ، أنهم قد قصروا عما كان يحق له عليهم إعظاماً له وإستكثـاراً ؛ إذ أتابهم جنته ، وأكرمهم بزيارته وقربه ، وإستماع كلامه .

فقالوا عند ذلك وعزتك وجلالك ، وعظمتك وإرتفاع مكانـك ما قـدرناك حق قدرك ، ولا أدينا إليك كل حقك . فإذن لنا بالسجود . فقال لهم : « إني قد وضعت عنكم مؤنة العبادة وأرحت لكم أبدانكم ، فطالما أتعبتم الأبدان ، وأكنتم لي الـوجوه ، فـالآن أفضتم إلى كرامتي ورحمتي فتمنـوا عـلي مـا شئتم - وفي بعض الحـديث أنهم إذ نـظروا إليـه فـروا ، فينـاديهم بكـلامـه تبـارك وتعـالى : إرفعـوا رؤوسكم ليس هذا حين عمل ، هذا حين سرور ونظر .

فتوهم بعقلك نور وجوههم وما يـداخلهم من السرور والفـرح حين عـاينوا مليكهم وسمعوا كلام حبيبهم ، وأنيس قلوبهم ، وقرة أعينهم ، ورضا أفئـدتهم ، وسكن أنفسهم ، فرفعوا رؤوسهم من سجودهم ، فنظروا إلى من لا يشبهـه شيء بأبصارهم ، فبلغوا بذلك عناية الكرامة ومنتهى الرضا والرفعة .

فما ظنك بنظرهم إلى العزيز الجليل الـذي لا يقع عليـه الأوهام ، ولا يحيط به الأذهان ، ولا تكيفه الفكر ، ولا تحـده الفطن ، الـذي لا تأويـه الأرحام ، ولم تنقله الأصلاب ، ولا يبدو فيكون مطبوعاً متنقلاً . الأزلي القديم ، الـذي حارت العقول عن إدراكه ، فكلت الألسنة عن تمثيله بصفاته . فهو المتفرد بذاته عن شبه الذوات ، المتعالي بجلاله على مساواة المخلوقين . فسبحانـه لا شيء يعادلـه ، ولا شـريك يشـاركه ، ولا شيء يـريده فيستصعب عليـه أو يعجزه إنشـاؤه ، إستسلم لعظمته الجبارون ، وذل لقضائـه الأولون والآخـرون ، نفذ في الأشيـاء علمه بمـا

كان وبما لا يكون ، وبما لو كان كيف كان يكون ، فأحاط بالأشياء علماً ، وسمع أصواتها سمعاً ، وأدرك أشخاصها [إدراكاً][1] ونفذ فيها إرادته ، وأمضي فيها مشيئته ، فهي مديرة . . . . .[2] وقربها اختراعاً ، فكانت عن إرادته ، لم يتقدم منها شيء ، قبل وقته الذي أراد فيه كونه ، ولم يتأخر فيه عن نهيه . وكيف يستصعب عليه من لم يكن شيئاً مذكوراً حتى كونه سبحانه الواحد القهار ؟! .

فلما سر أولياء الله برؤيته وأكرمهم بقربه ، ونعم قلوبهم بمناجاته واستماع كلامه ، أذن لهم بالإنصراف إلى ما أعد لهم من كرامته ونعيمهم ولذاتهم . فإنصرفوا على خيل الدر والياقوت ، على الأسرة فوقها الحجال ترف وتطير في رياض الجنة .

فما ظنك بوجوه نظرت إلى الله عز وجل وسمعت كلامه ؟ كيف ضاعف حسنها وجمالها وزاد ذلك في إستراقها ونورها ؟! فلم تزل في مسيرتها حتى أشرفت على قصورها .

فلما بدت لخدامها وقهارمتها وولدانها بادر كل واحد منهم خدامه وقهارمته وولدانه مستقبلة من أبواب قصورها ، حتى أحدقوا به يزفونه إلى قصوره وخيامه .

فلما دنا من باب قصره وخيامه قامت الحجاب رافعي ستور أبواب قصره معظمين مجلين له ، وبادرت إليه أزواجه .

فلما نظرت زوجته إلى جمال وجهه قد ضوعف في حسنه وإشراقه ونوره إزدادت له حباً وعشقاً ، وأشرقت قصوره وقبابه وخيامه وأزواجه من نور وجهه وجماله ، وازدادت أزواجه حسناً وجمالاً ووجاهة وحشمة ، ثم نزلوا عن خيولهم إلى صحون قصورهم ، ثم اطمأنوا على فرشهم وعادوا إلى نعيمهم ، وإشتاقوا إلى منادمة أنها الجنة ففرشت لهم نمارق الجنان وزرابيها على كثبان المسك والكافور ، وتقابل الإخوان على السرر والشراب ، فقامت الولدان بالكاسات والأباريق والأكواب يغترفون من أنهار الجنة ، أنهارهم الخمر والسلسبيل والتسنيم .

فلما أخذت الولدان وإغترفوا ليسقوا أولياء الرحمن لم يشعروا إلا بنداء الله عز وجل : « يا أوليائي طالما رأيتكم في الدنيا وقد ذبلت شفاهكم ، ويبست حلوقكم من العطش فتعاطوا اليوم الكأس فيما بينكم ، وعودوا في نعيمكم : ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾[1] .

فلا يقدر الخلائق أن يصفوا سرور قلوبهم حين سمعوا كلام مولاهم يذكر أعمالهم شكراً منه لهم ، وغبطة منه لهم ، لما ناداهم إلى معاطاة الكأس للمنادمة بينهم بعد معرفتهم في الدنيا . . .[2] منادمة أهل الدنيا على خمورهم .

فلو رأيت وجوههم وقد أشرقت بسرور كلام مولاهم واغتباطه لما ذكرهم أعمالهم الصالحة من صيامهم وتركهم منادمة أهل الدنيا لمرضاته ، وما عوضهم من المنادمة في جواره ، وما أيقنوا به من سرورهم بمنادمتهم على الخمر والعسل والألبان . فأعظم به من مجلس وأعظم من جمع !! وأعظم بهم من منادمين في جوار الرحمن الرحيم .

* * *

---

(١) سورة : الحاقة ، آية : ٢٤ .

(٢) مكان النقط : بياض في الأصل .

وصية أخيرة

فكن إلى ربك مشتاقاً ، وإليه متحبباً ، ولما حال بينك وبينه قاطعاً ، وعنه معرضاً . وابتهل في الطلب إلى الله بفضله وإحسانه ، وأن لا يقطع بك عنهم .

وبالله التوفيق وإليه المصير ، والجنة مثوى المؤمنين وثواب المتقين وسرور المحزونين . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

* * *

تم كتاب التوهم بحمد الله وصلى

الله على محمد النبي وعلى آله أجمعين

اللهم وفق لمن كتبه . . . .

الفهارس